الشهيد سيد قطب (رحمه اللّه)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قام بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعــة

الجزء الأول (1)

دار القبس للنشر الإلكتروني

ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)

الهاتف: 78 - 73 - 20 - 0662

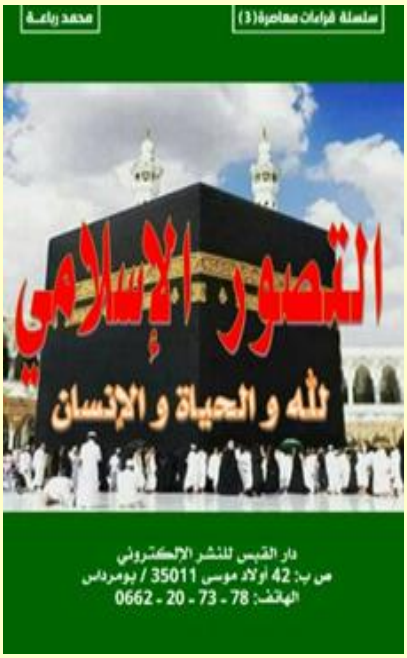

عقيدة المسلم المعاصر ، بشكل جديد و أسلوب بسيط ، تحليل عميق ، و تقديم جميل و أنيق لأهم عناصر و أبعاد العقيدة الإسلامية

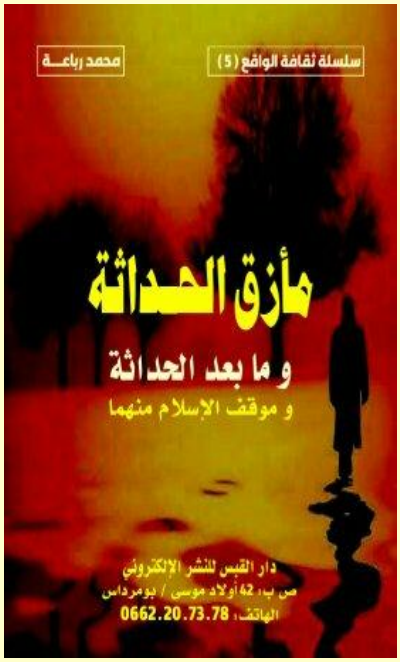

لأول مرة في الجزائر ، كتاب غير أكاديمي موجه للطلبة و الشباب المثقف ، يحلل ظاهرتي الحداثة و ما بعد الحداثة و يقدم موقف الإسلام منهما

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة {286}

الجزء الأول (١) الطبعةالإلكترونية الثانية (٢) ماى ٢٠٢٢

الإهداء : الى أستاذ الجيل ، الشهيد سيد قطب الذى علمنا و نحن صغار و كبار كيف نفهم القرآن الكريم ... اللهم أرحمه و أغفر له و أسكنه دارا خير من داره فى جنة الرضوان ... آمين يا رب العالمين .

مقدمة الناشر (الطبعة الإلكترونية الثانية)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله العليم الخبير ، و الصلاة و السلام على البشير النذير محمد خاتم الأنبياء و المرسلين ، و رضى الله عن أمهات المسلمين و على الصحابة الكرام الميامين ، أما بعد ، قرأت كتاب فى ظلال القرآن و هو يتكون من ٤٠٠٠ صفحة من الحجم الكبير ، ثلاث (٣) مرات متفرقة ، المرة الأولى فى بداية ثمانينيات القرن الماضى من خلال المكتبة التى تطوع بها أحد المحسنين بقرية القراح (القرزى) بلدية اولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، و التى تكفل بإيوائها و الإشراف عليها ، صديقنا قدور أو عبد القادر ميحى ... تمكنت من الإطلاع على الأجزاء الثلاثة (٣) الأولى ، ثم شغلتنا الدنيا فتوقفت عن قراءة بقية الأجزاء من كتاب فى ظلال القرآن ، الى غاية سنوات ما بعد الألفية ، و بعد إنتقالى للإقامة فى ولاية بومرداس سنة ٢٠٠٤ ، حيث تعرفت على مواطن لديه نسخة من فى ظلال القرآن فأستعرت منه الأجزاء الثلاثة المتبقية و قرأتها بتركيز شديد ، و المرة الثانية كانت سنة ٢٠١٢ حيث إختلفنا أنا و الإبن علاء الدين حول تفسير آية (فأتموا الصيام الى الليل) وقال لى أن سيد قطب يقول فى تفسيره بضرورة إتمام الصيام الى الليل أى الى ما بعد غروب الشمس و حلول الظلام ، و لم نجد نسخة مكتوبة من كتاب فى ظلال القرآن نتحاكم إليها ، سوى ما توفر على الإنترنت ، مع إعتقادى بأن النسخ الموجودة على النت غير مأمونة من الناحية العلمية ، فقررت إقتناء نسخة ورقية من تفسير سيد قطب و لو كانت قديمة و مستعملة ، فبحثت عنها فى شرق البلاد و غربها ووسطها و جنوبها ، وقال صديق انه وجد نسخة قديمة فى ولاية غرداية ، و قال آخر توجد بمدينة الأغواط مكتبة عريقة قد نجد فيها نسخة ورقية من كتاب فى ظلال القرآن ، و تمكن شاب أغواطى أستاذ الرياضة فى التعليم المتوسط ، الذى كانت عائلته تقيم بالعاصمة بعد بحث و إستقصاء من العثور على نسخة من الكتاب بالمكتبة العريقة لمدينة الأغواط ، محتفظ بها فى المخزن ، و هكذا إقتنيت نسختى الخاصة بفضل الله ، و جهود صديقنا الأغواطى الذى تنقل من الأغواط الى العاصمة فى العطلة المدرسية الربيعية خصيصا ليسلمنى الكتاب و يستلم النقود ، و مع وجود نسخة ورقية من الكتاب تم حسم الخلاف حول الصيام و تأكدنا أن سيد قطب لم يخرج عن إجماع الأمة فى الصيام أو غير الصيام ، حيث أن السنة النبوية العملية للرسول الكريم ، قد أوضحت وقت الصيام و هو من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، فكانت هذه هى المرة الثانية التى قرأت فيها كتاب فى ظلال القرآن و هى بطبيعة الحال تختلف عن القراءة الأولى بحكم السن و النضج العقلى و الفكرى ، و خلال هذه القراءة و قبل الإنتهاء من الأجزاء الستة ، لاحظت ان سيد قطب رحمه الله و نظرا لظروف صعبة كان يعيشها أثناء كتابته لتفسير القرآن الكريم ، حيث تمت صياغته بين جدران سجن الطاغية جمال عبد الناصر ، زيادة على حالته الصحية الصعبة ، و كان يدفع بكل ما يكتبه الى المطبعة لتطبعه و تنشره و توزعه على المكتبات ، أن الكتاب بحاجة الى تدقيق الصياغة للتخلص من تكرار العديد من الأفكار و الآراء و المواقف ، و قد كتب الأستاذ سيد قطب فى البداية نسخة من مؤلفه العظيم فى ظلال القرآن ، بنفس الأسلوب و لكن بتصورات عادية ، و لكنه تراجع عن النسخة الأولى و أعاد كتابة التفسير من الصفر و ركز فيها هذه المرة على الجانب السياسى من الإسلام و هو الحكم و الحاكمية ... كما لاحظت سبقا للأحداث حيث يعالج سيد قطب قضايا عالجتها سور أخرى و هو بصدد تفسير سورة معينة ، و كنت أعتقد أن حجم الكتاب سيتقلص كثيرا لو تمت مراجعته من طرف كاتبه أو من طرف لجنة متخصصة ، و لو أتيحت للكاتب فرصة مراجعته قبل طباعته أعتقد أنه سيلغى بنفسه الكثير من الصفحات ، و لذلك تمنيت من الله العلى القدير ان يمد فى عمرى و يمنحنى الصحة و العافية و بعض الوقت لأنجز طبعة منقحة و مختصرة من كتاب فى ظلال القرآن ، أعتمد فى إنجازها على التقنيات و التكنولوجيات الحديثة ، و منذ سنة ٢٠١٢ و أنا أنتظر هذه الفرصة بكل شوق ، وبعد ما إنتهيت من تصفيف و تصميم آخر كتاب فى سلسلة قراءات معاصرة و عنوانه (الحراك الإسلامى فى الجزائر ، من ١٩٦٢ الى ٢٠١٢) جاء المدد من الله و شرعت فى إنجاز المجلد الأول فى طبعة الكترونية منقحة و مختصرة من كتاب فى ظلال القرآن ، و التى تقلصت من ١٨٠٠ صفحة الى ٥٤٠ صفحة ، و الأمل معقود بعون الله و مدده أن نقلص صفحات الكتاب الى ١٥٠٠ صفحة على الأكثر فى كل جزء ٥٠٠ صفحة ، و الحق يقال أنه من الصعوبة بمكان إلغاء أو حذف فقرة أو فقرات أو جملة أو عبارة مما كتبه الشهيد سيد قطب ، فقد كان الرجل يكتب بكل جوارحه ... كان يكتب بعقله و قلبه و يده ، و كل ما كتبه فى الظلال أو غيرها من الكتب يستحق ان يقرأ ، لكن للضرورة احكام ، و فكرة إختصار المؤلفات ظاهرة علمية صحية منتشرة فى فضاء العالم الإسلامى منذ عدة قرون ، و غايتها الأساسية هى خدمة الكاتب و القارىء و الكتاب فى نفس الوقت ، فمن يستطيع فى هذا العصر الذى يسمى بعصر السرعة أن يقرأ كتابا يتألف من ٤٠٠٠ صفحة إذا لم يكن من المتخصصين أو الطلاب الذين يحضرون أطروحات التخرج فى كل المستويات ... عندما تقرأ تفسير فى ظلال القرآن تشعر و كأنك تعيش لحظات نزوله كما عاشها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، و تقرأ صفحات من الجزء الأول لمختصر تفسير فى ظلال القرآن ، فتشعر و كأنك تعيش مع صاحب الظلال ، فتتعرف بسرعة و عن قرب على هذه الشخصية التى دفعت نفسها قربانا لحرية الرأى و إستقلالية الكلمة، و وقفت شامخة أمام الطاغوت ... طاغوت الرئيس (السرجان) عبد الناصر ، و هو يطلب منها الإعتذار كثمن للحرية ، فتأبى هذه النفس الأبية كل مساومة على الحق فيقول لأخته التى دفعها الطاغوت للتوسط لهم أترضين يا أختاه بعد هذا العمر الطويل و بعد تلك السنوات التى قضيتها أعمل للشهادة فى سبيل الله أن أعتذر عن العمل فى سبيل الله ، تقرأ الصفحات الأولى من تفسير فى ظلال القرآن فتنكشف لك شخصية الكاتب كما هى واضحة كوضوح الشمس ، شخصية الكاتب و المفكر الإسلامى الشهيد سيد قطب ، فإذا عقيدته سليمة ، نظيمة ، راقية ، لا تتجاوز عقيدة السلف الصالح كما رسم القرآن الكريم و السنة النبوية خطوطها و معالمها ... حيث يتجاوز فى كثير من الأحيان الآيات المتشابهات و لا يتوقف عندها كثيرا و يمررها كما هى دون تعليق ، و فى أحيان أخرى يستفيد من البلاغة العربية لتأويل بعض الآيات التى تتطلب التأويل دون أن تضر أو تؤثر على قدسية النص ، و هو بذلك يجمع بين المدرسة السلفية و المدرسة الأشعرية فى قراءة حديثة للآيات المتشابهة ... فى ظلال القرآن تكتشف بسهولة و يسر آراء الكاتب و مواقفه ، فإذا هى دقيقة واضحة مباشرة لا تساوم و لا تلين و لا تتلون و لا تقف فى الوسط فى المنطقة الرمادية ، لا هى بيضاء و لا هى سوداء ، فى الصفحات الأولى من كتاب فى ظلال القرآن الكريم يحاكم سيد قطب أقطاب الفلسفة الإغريقية دون أن يسميهم ، و ينتقد بعض فصائل الصوفية الذين تجاوزوا الخطوط الحمراء ، و يرفض بكل شدة ما يسمى بالفلسفة الإسلامية و يعتبرها مجرد ظلال و ترجمة تكاد تكون حرفية للفلسفة الإغريقية ، و يمضى بعيدا فينتقد أستاذه العقاد دون أن يذكره بالإسم فيما يتعلق بقضية الأصل فى الأشياء هو التوحيد أم تعدد الآلهة ، و رأى العقاد الذى أثبته فى كتابه (الله) و هو متأثر بآراء المستشرقين يقول بأن العقائد بدأت متعددة و تدرجت حتى وصلت الى التوحيد، كما ينتقد الفلسفة الغربية الحديثة بشقيها الغربى الليبرالى و الشرقى الشيوعى و يحمل على المذاهب و النظريات الفلسفية التى تتوالد من بعضها البعض و تلعن

بعضها البعض ، و يرى في الوجودية و الشيوعية و ترهات فرايد و داروين وغيرهما مجرد شطحات فارغة فى الهواء ... فى هذا التفسير القيم الذى نحاول إختصاره قدر الإمكان ينقل سيد قطب من كل المدارس الإسلامية القديمة و الحديثة دون حرج و من دون عقدة ، ينقل كثيرا عن تفسير إبن كثير و هو سلفى و من تلامذة الشيخ إبن تيمية و ربما كان هو مرجعه الأساسى ، كما ينقل عن إبن القيم الجوزية و هو كذلك من المدرسة السلفية ، و ينقل عن محمد عبده رائد المدرسة العقلية الحديثة فيرفض بعض آرائه و يثبت أخرى و مع ذلك يسميه فى قلب النص ب الأستاذ الإمام ، كما ينقل عن فلاسفة الغرب المنصفين دون حرج أو عقدة ... سيد قطب يقف عند حدود النص القرآنى و لا يتجاوزه إذا لم يجد فى السنة النبوية الشريفة ما يزيد النص بعض الإشراقات و التوضيحات ، و يرفض بشدة الإعتماد على الإسرائيليات و آراء المستشرقين المتطرفة و المتحيزة ، فهو يقول مثلا عن أفعال الله عز وجل (إن البحث التفصيلي فى كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة . . ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الترف العقلى على النفوس والعقول . . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ، لهى أنفع وأجدى) و عن بعض تصرفات مدعى التصوف و المشعوذين يقول سيد قطب (وإن هذا ليخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين الممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم فى كثير من البلاد التى يسمونها "بلاد المسلمين" ! إنها الجاهلية تبرز فى صورة من صورها الكثيرة . بعدما برزت فى صورتها الواضحة الكبيرة صورة ألوهية العبيد فى الأرض ، وحاكميتهم فى حياة الناس . . وإذا وقعت هذه فكل صور الجاهلية الأخرى إنما هى تبع لها ، وفرع منها !) وينتقد بكل أدب و تواضع موقف المدرسة العقلية الحديثة بقيادة الشيخ محمد عبده ثم تلميذه رشيد رضا قائلا (فإلى هنا ينتهي اجتهادنا . ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده فى التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلا معينا ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم . وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) أى واذكر أيها الرسول للمؤمنين ، إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته , وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم لا غالب لكم اليوم من الناس ، لا أتباع محمد الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب ، فأنتم أعز نفرا وأكثر نفيرا وأعظم بأسا ، وإنى مع هذا – أو والحال أنى – جار لكم . قال البيضاوى فى تفسيره وأوهمهم أن اتباعهم إياه ,فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم ، حتى قالوا اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين") و للذين يتهمون سيد قطب بالدعوة الى قلب أنظمة الحكم و الإطاحة الفورية بالحكام العرب و المسلمين ، و إعلان الثورة و الجهاد فى العالم لفرض الإسلام على كل الناس، و يدعون أن كل الحركات الجهادية التى ظهرت فى العالم الإسلامى فى القرن العشرين متأثرة بأفكار سيد قطب ، نؤكد لهم أن الأستاذ الشهيد برىء من تلك التهمة الباطلة ، و ها هو فى سنوات الخمسينيات و عند كتابته مقدمة تفسير سورة براءة يقول بالحرف الواحد (فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ؛ فهم – اللحظة وموقتا - غير مكلفين بتحقيقها – ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها – ولهم فى الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون فى الحال التى يستطيعون معها تنفيذها) (إنه حين تكون المذاهب التى يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد ؛ وحين تكون الأنظمة والشرائع التى تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا . فإنه فى هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق فى أن يعيش داخل حدوده آمنا ، ما دام أنه لا يعتدى على حدود الآخرين ، ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر ! فأما حين يكون هناك منهج إلهى وشريعة ربانية ، ووضع العبودية فيه لله وحده ؛ وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد . . فإن الأمر يختلف من أساسه . ويصبح من حق المنهج الإلهى أن يجتاز الحواجز البشرية ؛ ويحرر البشر من العبودية للعباد ؛ ويتركهم أحرارا فى اختيار العقيدة التى يختارونها فى ظل الدينونة لله وحده) (إن إقامة النظام الإسلامى تستدعى جهوداً طويلة فى التربية والإعداد وأنها لا تجئ عن طريق إحداث انقلاب) و يقول عن التوراة و الإنجيل فى صورتهما الحالية (إن التوراة والإنجيل اللذين فى أيدى اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام ! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون فى أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها ; وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ؛ ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة . . وهو قليل . . أضيف إليه الكثير !) إن تفسير فى ظلال القرآن هو اجمل و احسن تفسير لكتاب الله فى العصر الحديث ، أنجزه صاحبه الشهيد سيد قطب فى أواخر حياته بعد عمر طويل و تجربة ثرية فى عالم الكتابة و الأدب و النقد ، ووضع فيه كاتبه كل عصارة تفكيره وزبده أفكاره و آرائه و مواقفه ، و هو كما يرى العلماء و الخبراء و المشايخ ، ليس مجرد محاولة لتفسير كتاب الله ، بل هو موسوعة فكرية ضخمة شاملة و رائعة من روائع الكتابة و التصنيف فى العصر الحديث ، و أعجوبة الزمان ، فتح به الأستاذ قطب الباب على مصرعية على نوع جديد من التفسير هو ما يسمى ب التفسير التحليلى ، حيث يخضع النص القرآنى الى مختلف مقاييس التحليل الأدبى و مدارسه التى ظهرت مع بداية الثورة الثقافية و العلمية أواخر العصر الأموى و بداية العصر العباسى ، و يستفيد كاتبه من دون شك من مختلف مدارس النقد التى ظهرت بالغرب فى العصر الحديث لكن دون مبالغة أو إسراف ، كما صنع من يسمون ب: رواد الحداثة من العرب و المسلمين ، فأخرج للعالم تحفة ثقافية و فكرية لن تتكرر مع مرور السنين و العصور ... سيد قطب عاش للكتابة و التأليف حيث لم يسعفه الحظ لتحقيق أبسط الحقوق الإنسانية و هو الزواج و تكوين أسرة ، و كانت كل محاولاته فاشلة ... فى هذه الطبعة الإلكترونية الثانية للكتاب قسمناه الى سبعة (٧) أجزاء بدل ثلاثة (٣) و بالتالى قلصنا عدد الصفحات فى كل جزء حتى تتمكن مواقع الأنترنت من تحميله بسهولة و وضعه فى متناول جميع القراء فى كل مكان من العالم ... و نتمنى أن يتقبل الله عز وجل عملنا المتواضع صدقة جارية و يجعله فى ميزان حساناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، و فى الأخير نسمح و نرخص لكل المواقع الإلكترونية بنشره ، و نطلب من القراء الدعاء لمؤلفه الأصلى الشهيد سيد قطب بالرحمة و المغفرة ، و للذى أعاد كتابته و الذى قام بإختصاره بالصحة و العافية و حسن الخاتمة .

محمد رباعــــــة　　　　　　　　　　بومرداس فى : ٠٩ ـ ماى ـ ٢٠٢٢

ملاحظة: الجمل و الكلمات و الحروف المكتوبة باللون الأحمر ، هى من إضاقات الناشر الذى انجز هذا المختصر

سيد قطب سيرة و مسار

سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (٩ أكتوبر ١٩٠٦م – ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م) هو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل. وكانت أمه تريد منه أن يكون متعلمًا مثل أخواله . كما كان أبوه عضوًا فى لجنة الحزب الوطنى وعميدًا لعائلته التى كانت معروفة فى القرية. كاتب وشاعر وأديب ومنظر إسلامى مصرى، مؤلف كتاب فى ظلال القرآن. وعضو سابق فى مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين ورئيس سابق لقسم نشر الدعوة فى الجماعة ورئيس تحرير جريدة الإخوان المسلمين. ولد فى قرية موشا وهى إحدى قرى محافظة أسيوط بها تلقى تعليمه الأولى وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمدرسة المعلمين الأولية عبد العزيز بالقاهرة ونال شهادتها والتحق بدار العلوم وتخرج عام ١٣٥٢ هـ – ١٩٣٣ م. عمل بوزارة المعارف بوظائف تربوية وإدارية، وابتعثته الوزارة إلى أمريكا لمدة عامين وعاد عام ١٣٧٠ هـ – ١٩٥٠ م. انضم إلى حزب الوفد المصرى لسنوات وتركه على أثر خلاف، فى عام ١٣٦١ هـ – ١٩٤٢ م. وفى عام ١٣٧٠ هـ – ١٩٥٠ م انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وخاض معهم نشاطهم السياسى الذى بدأ منذ عام ١٩٥٤ م إلى عام ١٩٦٦ م. وحوكم بتهمة التآمر على نظام الحكم وصدر الحكم بإعدامه وأعدم عام ١٣٨٥ هـ –

١٩٦٦. مر سيد قطب بمراحل عديدة فى حياته منذ الطفولة. المرحلة الأدبية البحتة التى كان فيها متأثرا بعباس العقاد. ثم مرحلة فكرية. ثم توجه للأدب الإسلامى. إلى المجال السياسى حتى صار رائد الفكر الحركى الإسلامى أو ما يعرف بالقطبية، وهذه المرحلة هى التى يعرفه الناس بها حتى اليوم .يعد سيد قطب من أكثر الشخصيات تأثيراً فى الحركات الإسلامية التى وجدت فى بداية الخمسينيات من القرن الماضى. له العديد من المؤلفات والكتابات حول الحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامى هو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل. وكانت أمه تريد منه أن يكون متعلمًا مثل أخواله . كما كان أبوه عضوًا فى لجنة الحزب الوطنى وعميدًا لعائلته التى كانت معروفة فى القرية.

الدراسة

تلقى دراسته الابتدائية فى قريته، ثم سافر فى سنة ١٩٢٠م إلى القاهرة والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ونال منها شهادة الكفاءة للتعليم الأولى. بدأ بحفظ القرآن الكريم فى السنة الثانية الابتدائية وعمره حوالى ثماني سنوات. وبعد ثلاث سنوات أتم حفظ القرآن كاملا. ثم التحق بتجهيزية دار العلوم. وفى سنة ١٩٣٢م حصل على شهادة البكالوريوس فى الآداب من كلية دار العلوم. عندما خرج سيد قطب إلى المدرسة حفظ القرآن الكريم كاملاً فى سن العاشرة بعد إشاعة بأن المدرسة لم تعد تهتم بتحفيظ القرآن. وفى أثناء ثورة ١٩١٩ م أثر فى تشبعه بحب الوطن كما تأثر من الثورة بالإحساس بالاستقلال وحرية الإرادة وكانت دارهم ندوة للرأى شارك سيد قطب فيها بقراءة جريدة الحزب الوطنى ثم انتهى به الأمر إلى كتابة الخطب والأشعار وإلقائها على الناس فى المجامع والمساجد. ذهب سيد قطب إلى القاهرة فى سن الرابعة عشرة وأقام عند أسرة واعية وجهته إلى التعليم وهى أسرة خاله الذى يعمل بالتدريس والصحافة وكان لدى الفتى حرص شديد على التعلم. والتحق سيد قطب أولاً بإحدى مدارس المعلمين الأولية – مدرسة عبد العزيز – ولم يكد ينتهى من الدراسة بها حتى بلغت أحوال الأسرة درجة من السوء جعلته يتحمل المسؤولية قبل أوانها وتحولت مهمته إلى إنقاذ الأسرة من الضياع لم يكن سيد قطب طفلاً كغيره فعندما كان فى العاشرة من عمره كان محافظاً على الصلوات تماماً كالرجال ويجلس معهم إلى الساعة العاشرة بالمسجد بينما الأطفال يلهون ويلعبون. سأل سيد قطب فى طفولته الشيخ عن سبب حذف حرف العلة فى قوله تعالى: "ذلك ما كنا نبغ" بلا مبرر ظاهر. واتصف بالشجاعة لما دافع عن الفتيات فى المرحلة الابتدائية ضد الفتيان الذين يعاكسونهن فى المدرسة.

العمل

اضطر سيد أن يعمل مدرسًا ابتدائيًا حتى يستعين بمرتبه في استكمال دراسته العليا من غير مباشرة من أحد من الأهل إلا نفسه وموروثاته القديمة. وكان هذا التغير سببًا في الاحتكاك المباشر بالمجتمع الذي كان لا بد له من أسلوب تعامل يختلف عن أسلوب القرويين وتجربتهم. ثم بلغ سيد قطب نهاية الشوط وتخرج فى دار العلوم عام ١٩٣٣ م وعين موظفًا – كما أمل وأملت أمه معه – غير أن مرتبه كان ستة جنيهات ولم يرجع بذلك للأسرة ما فقدته من مركز ومال فهو مدرس مغمور لا يكاد يكفى مرتبه إلى جانب ما تدره عليه مقالاته الصحفية القيام بأعباء الأسرة بالكامل. وانتقل سيد قطب إلى وزارة المعارف فى مطلع الأربعينيات ثم عمل مفتشاً بالتعليم الابتدائي فى عام ١٩٤٤ م وبعدها عاد إلى الوزارة مرة أخرى. حيث عمل مدرساً حوالى ست سنوات. ثم سنتين في وزارة المعارف بوظيفة مراقب مساعد بمكتب وزير المعارف آنذاك إسماعيل القبانى وبسبب خلافات مع رجال الوزارة قدم استقالته على خلفية عدم تبنيهم لاقتراحاته ذات الميول الإسلامية.

تأثره

بدأ قطب متأثراً بحزب الوفد وخصوصًا بكاتبه عباس محمود العقاد فقد تأثر كثيراً باعتقادات العقاد وكان من أشد المدافعين عنه إلا أن نظرته إلى الجيل السابق أخذت تتغير شيئاً فشيئاً وصار ينحى باللائمة على ذلك الجيل فى تردى أوضاع الأمة وبدأ بإنشاء منهج اختطه بنفسه وفق ما اقتضته الظروف العصيبة للمجتمع والأمة. زاد شغفه بالأدب العربى وقام بتأليف كتاب كتب وشخصيات وكتاب النقد الأدبى – أصوله ومناهجه. ثم تحول إلى الكتابة الإسلامية فكتب كتاب التصوير الفنى فى القرآن الذى لاقى استحسانًا واسعًا بين الأدباء وأهل العلم.

الدراسة في أمريكا

حصل سيد قطب على بعثة للولايات المتحدة فى ٣ نوفمبر ١٩٤٨ م من وزارة المعارف للتخصص فى التربية وأصول المناهج. وكان يكتب المقالات المختلفة عن الحياة في أمريكا وينشرها فى الجرائد المصرية ومنها مقال بعنوان أمريكا التى رأيت يقول فيه «شعب يبلغ فى عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائى لم يفارق مدارج البشرية الأولى بل أقل من بدائى فى بعض نواحى الشعور والسلوك» وذكر سيد قطب أنه تعرف على حركة الإخوان المسلمين

ومؤسسها حسن البنا عندما تم اغتيال حسن البنا ظن بأن الأمريكيون قاموا بالابتهاج والفرح لمقتل البنا مما أثر فى نفسية سيد قطب وأراد أن يتعرف على هذه الحركة عندما يعود إلى بلده، إلا أنه فى حقيقة الأمر لم يحتفل الأمريكيون بسبب وفاة حسن البنا بل كان احتفالاً بيوم الفالنتين ولكن بسبب ضعفه فى اللغة الإنجليزية أستوعب الأمر بشكل خاطئ. وعند عودته أحسن الإخوان استقباله فأحسن الارتباط بهم وأكد صلته حتى أصبح عضوًا فى الجماعة

الحالة الأسرية

كانت تحيط بسيد مفارقات لا تجتمع حيث كان ضعيف البنية قوى القلب ولذلك تعجب الشيخ على الطنطاوى من شكله لما التقاه إذ لم يتصور أن المقالات العنيفة تصدر من شخص ضعيف البنية تبدوا عليه مظاهر المسالمة والموادعة ومن المفارقات أن سيد كان حاد اللسان مرهف الإحساس شبيهاً فى ذلك بابن حزم الظاهري ونحن إذ نذكر إحساس سيد المرهف لا بد لنا من التطرق للمرأة فى حياة سيد فالحس المرهف لسيد جعله يعاني فكان من الذين أحبوا مراراً ولم يصلوا حب سيد هو الحب الراقى حب العفاف والطهر فقد أحب فى البداية فتاة وسافر للدراسة ورجع فإذا هى متزوجة فاغرورقت عيناه ثم اضطر للانسحاب ثم أحب فتاة غيرها وتبين له أنها تحب غيره وظل خاطباً لها سنوات عديدة، يتعذب بها حتى صارت نتاجاً أدبياً رفيعاً من أشهره قصيدة الكأس المسموم ورواية الأشواك ثم اضطر بعد ذلك لفسخ الخطبة. وظل يعاني سنيناً وقد صرفه ذلك عن الحب سنوات عديدة ثم توجه بعد ذلك من العمل الأدبى البحت إلى الأدبيات الإسلامية ثم انضم لجماعة الإخوان واستغرق العمل الحركى كل وقته وقبل أن يعتقل أحب فتاة ملتزمة وأقدم على خطبتها لكنه قبل ذلك اعتقل وألقى فى السجن ليقضي به سنوات من عمره ثم خرج بعفو صحى وكان عمره قارب التاسعة والخمسين وقد فكر بالزواج ووجد بغيته وأوشك على خطبتها لكن حبل المشنقة سبقه إلى ذلك.

الانتماء الفكري وحزب الوفد

اختار سيد قطب حزب الوفد ليستأنس بقيادته في المواجهة وكان يضم وقتذاك عباس محمود العقاد وزملاءه من كتاب الوفد وارتفعت الصلة بينه وبين العقاد إلى درجة عالية من الإعجاب لما فى أسلوب العقاد من قوة التفكير ودقة التغيير والروح الجديدة الناتجة عن الاتصال بالأدب الغربى.

جماعة الإخوان

لما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها زادت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية سوءًا وفسادًا وكانت جماعة الإخوان المسلمين هي أوضح الجماعات حركة وانتشارًا حتى وصلت لمعاقل حزب الوفد كالجامعة والوظائف والريف وأخذت تجذب بدعوتها المثقفين. فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٥٢م عاد سيد من الولايات المتحدة إلى مصر للعمل فى مكتب وزير المعارف. وقامت الوزارة على نقله أكثر من مرة الأمر الذى لم يرق لسيد فقدم استقالته من الوزارة فى تاريخ ١٨ أكتوبر عام ١٩٥٢م. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ازدادت الأحوال المعيشية والسياسية سوءًا ولعبت حركة الإخوان المسلمين دورًا بارزًا فى عجلة الإصلاح والتوعية. واستقطبت حركة الإخوان المسلمين المثقفين وكان لسيد قطب مشروع إسلامى يعتقد فيه بأنه:

«لا بد وأن توجد طليعة إسلامية تقود البشرية إلى الخلاص.»

ولذلك كانت بداية العلاقة بين سيد قطب والإخوان المسلمين هو كتاب العدالة الاجتماعية فى الإسلام وفى الطبعة الأولى كتب فى الإهداء:«الفتية الذين ألمحهم فى خيالى قادمين يردون هذا الدين جديدًا كما بدأ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون.» وفهم الإخوان المسلمون أن هذا الإهداء يعنيهم هم فأصبحوا يهتمون بأمره ويعتبرونه صديقاً لهم إلى أن انضم فيما بعد إلى الحركة وأصبح مسؤولًا للقسم الدعوى فيها.

هيئة التحرير 1953

حاول جمال عبد الناصر أن يحتوى سيد قطب قبل انضمامه للإخوان عندما انشق هو عنهم وأسس هيئة التحرير فأقامت الهيئة لسيد قطب احتفالاً كبيراً وعندما قام سيد متحدثاً قال أنه متهيء للسجن ولما هو أكثر من السجن فقام جمال وعاهده على الدفاع عنه وهو ذاته الرجل الذى أمر بإعدامه فيما بعد كان جمال عبد الناصر يعلم المكسب العظيم من انضمام سيد للهيئة فعرض عليه استلام وزارة المعارف فرفض سيد هذا العرض وأعلن انشقاقه عن هيئة التحرير. وهكذا انضم سيد قطب إلى صفوف الإخوان لكنه انضمام عن قناعة. لم ينضم للإخوان فى مرحلة الرخاء بل فى وقت المحنة ولذلك وبعد فترة وجيزة ألقى بالسجن مرات عديدة وظل قابعاً فى السجن سنوات عديدة من عمره ذاق فيها صنوفاً من التعذيب إضافة إلى أمراضه فى الكلى والمعدة والرئة وقد أصيب من جراء التعذيب بنزيف رئوى شديد وذبحة صدرية.سيد قطب انتمى للإخوان بشكل متأخر فى سنة ١٩٥٣ تقريباً وعينه المرشد العام حسن الهضيبى رئيسا لقسم الدعوة خلفا للبهى الخولى الذى انضم إلى عبد الناصر فى عام ١٩٥٤، ورأس سيد قطب تحرير مجلة الإخوان المسلمين.

الحس الأدبي

امتلك سيد قطب موهبة أدبية قامت على أساس نظرى وإصرار قوى على تنميتها بالبحث الدائم والتحصيل المستمر، حتى مكنته من التعبير عن ذاته وعن عقيدته يقول: «إن السر العجيب – فى قوة التعبير وحيويته – ليس فى بريق الكلمات وموسيقى العبارات وإنما هو كامن فى قوة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلول وإن فى ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حية المعنى المفهوم إلى واقع ملموس.» وطوال مسيرته ضرب سيد قطب مثل الأديب الذى غرس فيه الطموح والاعتداد بالنفس وتسلح بقوة الإرادة والصبر والعمل الدائب كي يحقق ذاته وأمله. ولم تفتنه الحضارة الغربية من إدراك ما فيها من خير وشر بل منحته فرصة ليقارن بينها وبين حضارة الفكر الإسلامى وجمع بينه وبين حزب الوفد حب مصر

والمشاعر الوطنية وجمع بينه وبين الإخوان المسلمين حب الشريعة وتحقيق العدالة الاجتماعية وبناء مجتمع إسلامي متكامل. واستطاع بكلمته الصادقة أن يؤثر في كثير من الرجال والشباب التفوا حوله رغم كل العقبات والأخطار التي أحاطت بهم وأصبح من الأدباء القلائل الذين قدموا حياتهم في سبيل الدعوة التي آمنوا بها. وجد سيد قطب ضالته في الدراسات الاجتماعية والقرآنية التي اتجه إليها بعد فترة الضياع الفكري والصراع النفسي بين التيارات الثقافية الغربية. ويصف قطب هذه الحالة بأنها اعترت معظم أبناء الوطن نتيجة للغزو الأوروبي المطلق. ولكن المرور بها مكنه من رفض النظريات الاجتماعية الغربية بل إنه رفض أن يستمد التصور الإسلامي المتكامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان من ابن سينا وابن رشد والفارابي وغيرهم لأن فلسفتهم في رأيه ظلال للفلسفة الإغريقية.

المحاكمة والمعتقل

توطدت علاقة سيد بالإخوان المسلمين وساهم في تشكيل الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان. وكان سيد قطب المدني الوحيد الذي كان يحضر اجتماعات مجلس الثورة التي قام بها الضباط الأحرار بقيادة محمد نجيب ولكنه سرعان ما اختلف معهم على منهجية تسيير الأمور مما اضطره إلى الانفصال عنهم. بدأت محنته باعتقاله – بعد حادثة المنشية في عام ١٩٥٤ م حيث اتهم الإخوان بمحاولة اغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر – ضمن ألف شخص من الإخوان وحكم عليه بالسجن ١٥ سنة ذاق خلالها ألوانًا من التعذيب والتنكيل الشديدين ومع ذلك أخرج كتيب هذا الدين والمستقبل لهذا الدين كما أكمل تفسيره في ظلال القرآن. تم الإفراج عنه بعفو صحي في مايو عام ١٩٦٤ م وكان من كلماته وقتذاك: «أن إقامة النظام الإسلامي تستدعي جهودًا طويلة في التربية والإعداد وأنها لا تجئ عن طريق إحداث انقلاب.» وأوشكت المحنة على الانتهاء عندما قبض على أخيه محمد قطب يوم ٣٠ يوليو ١٩٦٥ فبعث سيد قطب برسالة احتجاج إلى المباحث العامة فقبض عليه هو الآخر في ٩ أغسطس عام ١٩٦٥ م وقدم مع كثير من الإخوان للمحاكمة وحكم عليه وعلى ٧ آخرين بالإعدام ولم يضعف أمام الإغراءات التي كانت تنهال عليه من أجل العفو عنه في مقابل أن يمدح الثورة وقوادها فكان رده بكل ثبات وعزيمة «إن السبابة التي ترتفع لهامات السماء موحدة بالله عز وجل لتأبى أن تكتب برقية تأييد لطاغية ولنظام مخالف لمنهج الله الذي شرعه لعباده. تدخل الرئيس العراقي الأسبق المشير عبد السلام عارف لدى الرئيس عبدً الناصر للإفراج عنه في مايو عام ١٩٦٤م. إلا أنه ما لبث أن اعتقل ثانية بعد حوالي ثمانية أشهر بتهمة التحريض على حرق معامل حلوان لإسقاط الحكومة كما حدث في حريق القاهرة. عمل سيد خلال فترة بقائه في السجن على إكمال أهم كتبه: التفسير الشهير في ظلال القرآن وكتابه معالم في الطريق والمستقبل لهذا الدين. وقد جعل سيد السجن نتاجاً إسلامياً لمؤلفاته. لم يكن سجيناً ذليلاً فعندما كان يقدم أهله له الدجاج في السجن كان لا يذوقه ويقدمه لإخوانه المساجين. وقد كان ثباته ومعاندته للباطل ممتدة إلى أن فارقت روحه هذه الدنيا فقد حوكم من قبل القاضي فؤاد الدجوى بمحاكمة عسكرية إلى أن حكم عليه بالإعدام. ورغم تلك الروايات إلا أن الأستاذ فريد عبد الخالق مرافق الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وعضو الهيئة التأسيسية ومكتب الإرشاد الأسبق في الجماعة، في شهادته على تلك الأحداث أقر بأن سبب القبض على سيد قطب كان تنظيمه السرى المنفصل عن الجماعة الذى عرف بتنظيم(٦٥) والذى كان يهدف فيه إلى قتل عبد الناصر وتصفيته وقلب النظام،

الحكم القضائي

في يوم ٣٠ يوليو ١٩٦٥م ألقت الشرطة المصرية القبض على شقيق سيد محمد قطب وقام سيد بإرسال رسالة احتجاج للمباحث العامة في تاريخ ٩ أغسطس ١٩٦٥م. أدت تلك الرسالة إلى إلقاء القبض على سيد والكثير من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين وحُكم عليه بالإعدام مع ٦ آخرين وتم تنفيذ الحكم في فجر الإثنين ١٣ جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ الموافق ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م.«سأله أحد إخوانه: لماذا كنت صريحا في المحكمة التي تمتلك رقبتك ؟ قال: ”لأن التورية لا تجوز في العقيدة، وليس للقائد أن يأخذ بالرخص“ولما سمع الحكم عليه بالإعدام قال:”الحمد لله. لقد عملت خمسة عشر عاما لنيل الشهادة“[بحاجة لمصدر]»

أثناء محاكمة سيد قطب طلب القاضي – الذي عينته الثورة – من سيد أن يذكر الحقيقة فكشف سيد قطب عن ظهره وصدره اللذان تظهر عليهما آثار السياط وعصيان الحراس وقال للقاضي: «أتريد الحقيقة؟.. هذه هي الحقيقة..» وبعدها أصبحت جلسات المحاكمة مثار السخرية بين الجمهور. في القضية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ (تنظيم ٦٥)، كان الاتهام قد وجه للعديد من جماعة الإخوان المسلمين بمحاولة إحياء التنظيم الخاص، وتم تحويل القضية إلى محكمة أمن الدولة العليا بتوقيع صلاح نصر رئيس نيابة أمن الدولة العليا، وقد تم تقسيم المعتقلين إلى ٤ مجموعات، أكبرها وأشهرها المجموعة الأولى وكان على رأسها سيد قطب.

نص الاتهام

«المتهمون في الفترة من سنة ١٩٥٩ حتى آخر سبتمبر ١٩٦٥ بالجمهورية العربية المتحدة وبالخارج حاولوا تغيير دستور الدولة وشكل الحكومة فيها بالقوة، بأن ألفوا من بينهم وآخرين تجمعًا حركيًا وتنظيمًا سريًا مسلحًا لحزب الإخوان المسلمين المنحل يهدف إلى تغيير نظام الحكم القائم بالقوة باغتيال السيد رئيس الجمهورية والقائمين على الحكم في البلاد وتخريب المنشآت العامة وإثارة الفتنة في البلاد، وتزودوا في سبيل ذلك بالمال اللازم، وأحرزوا مفرقعات وأسلحة وذخائر، وقاموا بتدريب أعضاء التنظيم على استعمال هذه الأسلحة والمفرقعات، وحددوا الأشخاص المسؤولين الذين سيجرى اغتيالهم، وعاينوا محطات توليد الكهرباء والمنشآت العامة التي سيخربونها، ورسموا طريقة تنفيذ ذلك، وتهيئوا للتنفيذ الفعلي، وعينوا الأفراد الذين سيقومون به، وحال ضبطهم دون تمام مؤامراتهم. وكان المتهمون السبعة الأول هم المتولين زعامة التنظيم.» وبعد محاكمة علنية استمرت حوالي السنة، صدر الحكم بالإعدام على بعض المتهمين ومنهم سيد قطب، وتخفيف الحكم على آخرين وكان من ضمن المتهمين محمد بديع المرشد الحالي لجماعة الإخوان المسلمين.

الإعدام

عرض على سيد قطب فى يوم تنفيذ الإعدام وبعد أن وضع على كرسى المشنقة أن يعتذر عن دعوته لتطبيق الشريعة ويتم إصدار عفو عنه فقال:«لن أعتذر عن العمل مع الله. » فقالوا له إن لم تعتذر فاطلب الرحمة من الرئيس. فقال:«لماذا أسترحم؟ إن كنت محكوماً بحق فأنا أرتضى حكم الحق وإن كنت محكوماً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل وروى أيضا أن الذى قام بعملية تلقينه الشهادتين قبل الإعدام قال له: تشهد فقال له سيد:«حتى أنت جئت تكمل المسرحية نحن يا أخى نعدم لأجل لا إله إلا الله وأنت تأكل الخبز بلا إله إلا اللهكان سيد قطب يبتسم عندما سيق إلى المشنقة ابتسامة عريضة نقلتها كاميرات وكالات الأنباء الأجنبية حتى أن الضابط المكلف بتنفيذ الحكم سأله. من هو الشهيد؟! فرد عليه سيد قطب بثبات وعزيمة «هو من شهد أن شرع الله أغلى من حياته» وقبل أن ينفذ الحكم جاءوه برجل من الأزاهرة فقال له «قل لا إله إلا اللهَ» فرد عليه سيد قطب :«وهل جئتُ هنا إلا من أجلها» وتم تنفيذ حكم الإعدام ونفذ فيه فى فجر الإثنين ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ الموافق ٢٩ أغسطس عام ١٩٦٦ م. غير أن هذه الروايات محل شك كبير لعدم وجود مصدر موثق لها، فلم يحضر أحد من المنتمين لجماعة الإخوان مع سيد قطب ولم يكن يعلم أحد بوقت تنفيذه، فالرواية القائلة أنهم جاءوه برجل من الأزاهرة فقال له قل لا إله إلا الله فرد عليه سيد قطب: وهل جئتُ هنا إلا من أجلها،.. هي مقولة ينسبها البعض في الأساس إلى المجاهد عمر المختار وقت تنفيذ حكم الإعدام عليه علانية من حواره مع أحد القادة الإيطاليين وفى اللحظات الأخيرة لسيد قطب قبيل إعدامه لم يكن هناك ضمن شهود الحدث ليرووا ما جرى إلا محمد يوسف هواش وعبد الفتاح إسماعيل وقد أعدم كليهما عقب إعدام سيد قطب.ولم يكن هناك سوى الضابط الذي صاحب سيد قطب وهو فى طريقه للمشنقة وهو اللواء "فؤاد علام" الذي كان ضابطا وقتها وكان شاهد عيان، والشهادة نقلاً عن مذكراته " الإخوان وأنا " إلتى يحكى فيها تفاصيل هذا اليوم : " يقول اللواء "فؤاد علام" أن يوم إعدام سيد قطب لم يكن اليوم معلوماً لأحد وكنت أجلس في السيارة الأولى وبجوارى سيد قطب، وفى الثانية كان يجلس محمد يوسف هواش نائب سيد قطب في قيادة التنظيم، وفى الثالثة كان يجلس عبد الفتاح إسماعيل المسؤول عن الاتصالات الخارجية لجماعة الإخوان المسلمين، والثلاثة محكوم عليهم بالإعدام، وركب السيارات يتحركبهم من السجن الحربى لسجن الاستئناف لتنفيذ الحكم فيهم .وكان سيد قطب يرتدى بدلة داكنة اللون تحتها قميص أبيض ويبدو بصحة جيدة فربما لم يتم ضربه أو تعذيبه كما أنه لم يكن مجهداً أو مرهقاً، و قال سيد قطب خلال الطريق بنبرة تشف وحسرة:"للأسف الشديد لم ينجحوا في تنفيذ عملية نسف القناطر الخيرية التى لو تمت لانتهى النظام". وأضاف قطب "إن مشكلتى فى عقلى أنا مفكر وكاتب إسلامى كبير والحكومة تريد القضاء على الإسلام عبر قتلى!!".تدمير القناطر ومحطات الكهرباء والمياه كان سيكون بداية الثورة الإسلامية وإنذار شديد للناس لينتبهوا من غفلتهم وسكرتهم بنظام حكم عبد الناصر".ثم بدأت مراسم تنفيذ الحكم فلبس سيد قطب بدلة الإعدام الحمراء وسئل إن كان يريد شيئاً فطلب كوب ماء تجرعه ثم طلب أن يصلى الفجر ثم دخل غرفة الإعدام وتم تنفيذ الحكم ."إلى هنا انتهت شهادة اللواء فؤاد علام على تنفيذ حكم إعدام سيد قطب وكما رأينا كان يوم التنفيذ سرياً فلم يعلم به حتى سيد قطب نفسه وبالتالى فإن ما قيل من روايات وقت إعدامه محل شك كبير، فلم يكن أحد يعلم وقت تنفيذ الحكم حتى سيد قطب نفسه، ولم يكن أحد معه سوى الضابط المسؤول عن النقل والتنفيذ.

الإرث الثقافي والفكري و الادبي

مضت حياة سيد قطب فى مرحلتين مرحلة النشاط الأدبى ومرحلة العمل الإسلامى. وقد بدأت الأولى منذ كان طالبًا بدار العلوم فنشر العديد من المقالات النقدية فى المجلات والصحف عن العقاد والرافعى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وجمع بعضها فى كتابه كتب وشخصيات وكانت له معاركه النقدية الحادة فقد كان أحد كتّاب مجلة الرسالة لصاحبها الأديب أحمد حسن الزيات التى نشر فيها كثيراً من مقالاته. كما أصدر ديوان شعر بعنوان الشاطئ المجهول عام ١٩٣٥ م وكتاب طفل من القرية عام ١٩٤٦ م وهو سيرة ذاتية من وحي كتاب الأيام لطه حسين وفى هذه المرحلة أيضا أصدر كتاب النقد الأدبى أصوله ومناهجه عام ١٩٤٨ م. تميز سيد قطب بالجمع بين الأصالة والمعاصرة وفيه برزت بدايات نظريته فى كتابه فى ظلال القرآن. وفى المرحلة الأدبية ظهرت بواكير اهتماماته الإسلامية فنشر مقالة التصوير الفنى فى القرآن فى مجلة المقتطف عام ١٩٣٩ م ثم ما لبث أن عاد إلى الفكرة ذاتها فاتسع بها وأصدر التصوير الفنى فى القرآن عام ١٩٤٥ م ومشاهد القيامة فى القرآن عام ١٩٤٧ م وهما دراسة جمالية بلاغية جديدة فى الإعجاز البيانى للقرآن وأما المرحلة الإسلامية فقد جمعت بين العمل الإسلامى والكتابة الإسلامية وفيها نشر كتاب فى ظلال القرآن بين عامى ١٩٥١ م إلى ١٩٦٤ م فى ثلاثين جزءًا جمع فيه خلاصة ثقافاته الفكرية والأدبية وتأملاته القرآنية العميقة وآرائه فى واقع العالم الإسلامى خاصة والأوضاع الإنسانية فى العالم المعاصر. وكانت فكرة الظلال والقيم التعبيرية ركيزة هامة فى هذا الكتاب. كذلك أصدر طائفة من الكتب الإسلامية ذات طابع خاص منها: العدالة الاجتماعية فى الإسلام عام ١٩٤٩ م السلام العالمى والإسلام عام ١٩٥١ م معالم فى الطريق. وقد بلغت مؤلفاته حوالى ستة وعشرين كتابًا.

كتب عنه

سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي، محمد على قطب. العالم الربانى الشهيد سيد قطب، العشماوى أحمد سليمان.سيد قطب الشهيد الحى، صلاح عبد الفتاح الخالدى، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدى. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدى.سيد قطب من القرية إلى المشنقة، عادل حمودة. سيد قطب: الخطاب والأيديولوجيا، محمد حافظ دياب، سيد قطب حياته وأدبه، عبد الباقى محمد حسن.سيد قطب وتراثه الأدبى والفكرى، إبراهيم عبد الرحمن البليهى. سيد قطب الأديب الناقد، عبد الله عوض الخباص. ديوان سيد قطب، جمع وتحقيق عبد الباقى محمد حسن. سيد قطب: صفحات مجهولة، محمد سيد بركة. من أعلام الحركة الإسلامية، المستشار عبد الله العقيل. مع سيد قطب فى فكرة السياسى والدينى، مهدى فضل الله. سيد قطب ومنهجه فى الدعوة، بدير محمد بدير، سيد قطب: خلاصة حياته ومنهجه فى الحركة والنقد الموجة إليه، محمد توفيق يركات، مقاصد الشريعة الإسلامية فى فكر الامام سيد قطب نصير زرواق دار السلام.

الإنتاج الأدبي

كتاب فى ظلال القرآن ويُعد أشهر مؤلفات سيد قطب.

في فترة الأربعينيات كانت خطوات سيد قطب فى النقد الأدبى قد اتسعت وتميزت وظهر له كتابان هما: "كتب وشخصيات"، "والنقد الأدبى – أصوله ومناهجه". وبعد ميدان النقد سلك سيد قطب مسلكًا آخر بعيدًا: بكتابه "التصوير الفنى فى القرآن" الذى لاقى مقابلة طيبة من الأوساط الأدبية والعلمية فكتب: "مشاهد القيامة فى القرآن" ووعد بإخراج: "القصة بين التوراة والقرآن" و"النماذج الإنسانية فى القرآن"، و"المنطق الوجدانى فى القرآن"، و"أساليب العرض الفنى فى القرآن"، ولكن لم يظهر منها شيء. وأوقعته دراسة النص القرآنى على غذاء روحى لنفسه التى لم تزل متطلعة إلى الروح. وهذا المجال الروحى شده إلى كتابة الدراسات القرآنية فكتب مقالاً بعنوان "العدالة الاجتماعية بمنظور إسلامى" فى عام ١٩٤٩ م.

قال المستشار عبد الله العقيل فى مجلة "المجتمع" الصادرة سنة ١٩٧٢ م فى العدد ١١٢ صفحة ٢٢ : "إن سيد قد بعث لإخوانه فى مصر والعالم العربى أنه لا يعتمد سوى ستة مؤلفات له وهي: هذا الدين، المستقبل لهذا الدين، الإسلام ومشكلات الحضارة، خصائص التصور الإسلامى، فى ظلال القرآن، ومعالم فى الطريق".[٢٦] وتشير بعض المصادر إلى أن لسيد قطب أكثر من ٤٠٠ مقالة موزعة على عدد السنين التى كان يكتب فيها، بالإضافة إلى الكثير من القصائد والأشعار التى كانت تمثل رؤيته للحياة. بالإضافة إلى ذلك فأن بعض الأجزاء من كتب سيد قد ضاعت نظراً لأنه كان يكتب على كل ما يتوفر لديه من ورق، ومن ضمن ذلك أوراق الإدعاء فى المحكمة، بالإضافة إلى أن معظم كتبه أصبحت ممنوعة فى مصر فى عهد عبد الناصر.

المؤلفات الأدبية

طفل من القرية (سيرة ذاتية). أشواك (رواية). المدينة المسحورة (قصة أسطورية). النقد الأدبى: أصوله ومناهجه. التصوير الفنى فى القرآن. مشاهد القيامة فى القرآن ، كتب وشخصيات ، مهمة الشاعر فى الحياة. أفراح الروح (رسالة بعث بها سيد قطب إلى أخته أمينة قطب) المؤلفات الإسلامية معالم فى الطريق. هذا الدين. المستقبل لهذا الدين. فى ظلال القرآن (ست مجلدات تفسير للقرآن الكريم). العدالة الاجتماعية فى الإسلام . الإسلام والسلام العالمى. فى التاريخ فكرة ومنهاج. لماذا أعدمونى؟ (مجموعة مقالات نشرتها جريدة المسلمون التى تصدر فى لندن باعتبارها الشهادة التى كتبها الإمام بخط يده قبل إعدامه) .دراسات إسلامية (مجموعة مقالات).السلام العالمى والإسلام. خصائص التصور الإسلامى ومقوماته. أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب (مقالات كتبها سيد قطب أيام ابتعاثه فى الولايات المتحدة جمع وإعداد صلاح الخالدى) معركة الإسلام والرأسمالية. قصص الأنبياء (بالاشتراك مع عبد الحميد جودة السحار)الإسلام ومشكلات الحضارة. مؤلفات مقتطعة من كتبه المشهورة ومقالاته فى الصحف والمجلات سيناء بين أطماع الاستعماريين والصهيونيين، بالاشتراك مع حسن البنا وكامل الشريف. الجهاد فى سبيل الله، بالاشتراك مع حسن البنا وأبى الأعلى المودودى. معركتنا مع اليهود.فى التاريخ فكرة ومنهاج. تصورات إسلامية (مجموعة مقالات فى كتاب) مفترق الطرق. قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة. كتب مقتطعة من الظلال تفسير آيات الربا. تفسير سورة الشورى. طريق الدعوة. فقه الدعوة. قصة الدعوة.رسالة الصلاة. إسلام أو لا إسلام. إلى المتثاقلين فى الجهاد. مقالات كيف وقعت مراكش تحت الحماية الفرنسية؟ قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة. الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية. هل نحن متحضرون؟ وظيفة الفن والصحافة .شيلوك فلسطين أو قضية فلسطين. أين أنت يا مصطفى كامل؟ فلنعتمد على أنفسنا. قصائد : الصبح يتنفس ، حدثينى ، هم الحياة ، هتاف الروح ، تسبيح، أخى أنت حر بتلك القيود.

من أقواله

"فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير، وذلتها، وطاعتها، وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك فى الحقيقة قوة، ولا سلطانا، وإنما همى الجماهير الغافلة الذلول، تمطى له ظهرها فيركب! وتمد لها أعناقها فيجر، وتحنى له رؤوسها فيستعلى! وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم، فالطاغية – وهو فرد – لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها، وكرامتها، وعزتها، وحريتها".

ويوم تنفيذ الإعدام، وبعد أن وضع على كرسي المشنقة عرضوا عليه أن يعتذر عن دعوته لتطبيق الشريعة ويتم إصدار عفو عنه، فقال: "لن أعتذر عن العمل مع الله". ثم قال: "إن إصبع السبابة الذى يشهد لله بالوحدانية فى الصلاة ليرفض أن يكتب حرفا واحدا يقر به حكم طاغية". فقالوا له إن لم تعتذر فاطلب الرحمة من الرئيس. فقال: "لماذا أسترحم؟ إن كنت محكوما بحق فأنا أرتضى حكم الحق، وإن كنت محكوما بباطل، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل"

مقدمة المؤلف

الحياة في ظلال القرآن نعمة . نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها . نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه. والحمد لله . . لقد منَّ على بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعمته ما لمأذق قط في حياتي . ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه عشت أتملى – في ظلال القرآن – ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود . . لغاية الوجود كله ، ولغاية الوجود الإنساني . . وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية ، في شرق وغرب ، وفي شمال وجنوب . . وأسأل . . كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن ، وفي الدرك الهابط ، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي ، وذلك المرتقى العالي ، وذلك النور الوضيء ؟ وعشت – في ظلال القرآن – أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله . . ثم أنظر . . فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية ، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملي عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها . وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم ؟ يا حسرة على العباد !!! وعشت – في ظلال القرآن – أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد . . إنه إنسان بنفخة من روح الله: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . . وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض: وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة . . ومسخر له كل ما في الأرض: وسخر لكم ما في الأرض جميعا . . ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة . جعلها آصرة العقيدة في الله . . فعقيدة المؤمن هي وطنه ، وهي قومه ، وهي أهله . . ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج ! . وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة: إنا كل شيء خلقناه بقدر . . وخلق كل شيء فقدره تقديرا . . وكل أمر لحكمة . ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . . والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها ، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها . ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء: لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . . وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها . والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها . . والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين ، والنجوة من الهواجس والوساوس: الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم ، أي طمأنينة ينشئها هذا التصور ؟ وأي سكينة يفيضها على القلب ؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح ؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير ؟ من فترة الحياة – في ظلال القرآن – إلى يقين جازم حاسم . . إنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة . . إلا بالرجوع إلى الله ، والرجوع إلى الله – كما يتجلى في ظلال القرآن – له صورة واحدة وطريق واحد . . واحد لا سواه . . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم . . إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها . والتحاكم إليه وحده في شؤونها . وإلا فهو الفساد في الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس في الحمأة ، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله: فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . .

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار ، إنما هو الإيمان . . أو . . فلا إيمان . . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين . . والأمر إذن جد . . إنه أمر العقيدة من أساسها . . ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها . . إن هذه البشرية – وهي من صنع الله – لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ؛ ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده – سبحانه – وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء: وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . . إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم . . ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه ، ولا تسلك في أمر نفسها ، وفي أمر إنسانيتها ، وفي أمر سعادتها أو شقوتها . . ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة . البشرية المسكينة الحائرة ، البشرية التي لن تجد الرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجد السعادة ، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير ! ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا في تاريخها ، ونكبة قاصمة في حياتها ، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا في كل ما ألم بها من نكبات ، لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة ، وتعفنت القيادات ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة ؛ و ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . . تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور . . فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته . لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم ؛ كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا ، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور ، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء ثم وقعت تلك النكبة القاصمة . ونحي الإسلام عن القيادة . نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى ، في صورة من صورها الكثيرة . صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم ، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان ! إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية . يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى ؛ ثم يقولون لها:اختاري !!! اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة ، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله !!! وهذا خداع لئيم خبيث . فوضع المسألة ليس هكذا أبدا . . إن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني . إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة . . ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض . هذا المقام الذي منحه الله له ، وأقدره عليه ، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه ؛ وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ؛ ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع . . على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام ، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة ؛ وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضى الله . فأما أولئك الذين يضعون

المنهج الإلهى فى كفة ، والإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكفة الأخرى . . فهم سيئو النية ، شريرون ، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال ، وهمت أن تسمع لصوت الحادى الناصح ، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة وأن تطمئن إلى كنف الله . . . وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية ؛ ولكن ينقصهم الوعى الشامل ، والإدراك العميق . . هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية ، وتروعهم إنتصارات الإنسان فى عالم المادة . فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة فى شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية ، وعملها وأثرها الواقعى فى الكون وفى واقع الحياة ؛ ويجعلون للقوانين الطبيعية مجالا ، وللقيم الإيمانية مجالا آخر ؛ ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير فى طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية ، وتعطى نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا . اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه . حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس ! هذا وهم . . إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما فى حقيقتهما غير منفصلين . فهذه القيم الإيمانية هى بعض سنن الله فى الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء . ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ؛ ولا مبرر للفصل بينهما فى حس المؤمن وفى تصوره . . وهذا هو التصور الصحيح الذى ينشئه القرآن فى النفس حين تعيش فى ظلال القرآن . ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف فى نهاية المطاف: ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه: فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . . وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسى للناس والواقع الخارجى الذى يفعله الله بهم إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . إن الإيمان بالله ، وعبادته على استقامة ، وإقرار شريعته فى الأرض . . . كلها إنفاذ لسنن الله . وهى سنن ذات فاعلية إيجابية ، نابعة من ذات المنبع الذى تنبثق منه سائر السنن الكونية التى نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار . ولقد تأخذنا فى بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية ، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدى إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية . . هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه فى أول الطريق ؛ ولكنها تظهر حتما فى نهايته . . وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامى نفسه . لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية فى حياته مع القيم الإيمانية . وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما . وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا

وفى الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم . تقف كالطائر الذى يرف بجناح واحد جبار ، بينما جناحه الآخر مهيض ، فيرتقى فى الإبداع المادى بقدر ما يرتكس فى المعنى الإنسانى . ويعانى من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك . . لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله وهو وحده العلاج والدواء .

إن شريعة الله للناس هى طرف من قانونه الكلى فى الكون . فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابى فى التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون . . والشريعة إن هى إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير . فهى موضوعة لتنفذ فى مجتمع مسلم ، كما أنها موضوعة لتساهم فى بناء المجتمع المسلم . وهى متكاملة مع التصور الإسلامى كله للوجود الكبير وللوجود الإنسانى ، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى فى الضمير ، ونظافة فى الشعور ، وضخامة فى الاهتمامات ، ورفعة فى الخلق ، واستقامة فى السلوك . . . وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية . . فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود ، هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة فى ظلال القرآن . لعل الله ينفع بها ويهدى . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

سورة الفاتحة
مكية و آياتها (7)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ {١} الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {٢} الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ {٣} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ {٤} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {٥} اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ {٧}

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع ، سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ؛ وإلى غير حد إذا هو رغب فى أن يقف بين يدى ربه متنفلا ، غير الفرائض والسنن . ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ من حديث عبادة بن الصامت:" لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " . إن فى هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات التصور الإسلامى ، وكليات المشاعر والتوجيهات ، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة ، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها ..

بسم الله الرحمن الرحيم ١

تبدأ السورة:(بسم الله الرحمن الرحيم).. ومع الخلاف حول البسملة أهى آية من كل سورة أم هى آية من القرآن تفتتح بها عند القراءة كل سورة ، فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة ، وبها تحتسب آياتها سبعا . وهناك قول بأن المقصود بقوله تعالى:(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم).. هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات (من المثانى) لأنها يثنى بها وتكرر فى الصلاة . والبدء باسم الله هو الأدب الذى أوحى الله لنبيه ﷺ فى أول ما نزل من القرآن باتفاق , وهو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك ...).. وهو الذى يتفق مع قاعدة التصور الإسلامى الكبرى من أن الله (هو الأول والآخر والظاهر والباطن).. فهو – سبحانه – الموجود الحق الذى يستمد منه كل موجود وجوده ، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه . فباسمه إذن يكون كل ابتداء . وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه . ووصفه - سبحانه – فى البدء بالرحمن الرحيم ، يستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها .. وهو المختص

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

وحده باجتماع هاتين الصفتين ، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن . فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ؛ ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن . ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان . . وإذا كان البدء باسم الله وما ينطوى عليه من توحيد الله وأدب معه يمثل الكلية الأولى فى التصور الإسلامى . . فإن استغراق معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها فى صفتى الرحمن الرحيم يمثل الكلية الثانية فى هذا التصور ، ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد . والحمد لله هو الشعور الذى يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله . . فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التى تستجيش الحمد والثناء . وفى كل لمحة وفى كل لحظة وفى كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع ، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان . . ومن ثم كان الحمد لله ابتداء ، وكان الحمد لله ختاما قاعدة من قواعد التصور الإسلامى المباشر: (وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة)... أما شطر الآية الأخير: (رب العالمين) فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامى ، فالربوبية المطلقة الشاملة هى إحدى كليات العقيدة الإسلامية . . والرب هو المالك المتصرف , ويطلق فى اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية . . والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين – أى جميع الخلائق ، فإطلاق الربوبية فى هذه السورة ، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعا ، هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى العقيدة . لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد ، تقر له بالسيادة المطلقة ، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، لقد جاء الإسلام وفى العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار . . يختلط فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالزائف ، والدين بالخرافة , والفلسفة بالأسطورة . . والضمير الإنسانى تحت هذا الركام الهائل يتخبط فى ظلمات وظنون ، ولا يستقر منها على يقين . ولم يكن مستطاعا أن يستقر الضمير البشرى على قرار فى أمر هذا الكون ، وفى أمر نفسه وفى منهج حياته ، قبل أن يستقر على قرار فى أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته ، وقبل أن ينتهى إلى يقين واضح مستقيم فى وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل . ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهه إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد التصور الذى يستقر عليه الضمير فى أمر الله وصفاته ، وعلاقته بالخلائق ، وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين . ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل ، الذى لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد . . هو قاعدة التصور التى جاء بها الإسلام ،

الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

(الرحمن الرحيم). . هذه الصفة التى تستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا فى صلب السورة ، فى آية مستقلة ، لتؤكد السمة البارزة فى تلك الربوبية الشاملة ; ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه . وبين الخالق ومخلوقاته . . إنها صلة الرحمة والرعاية التى تستجيش الحمد والثناء . إنها الصلة التى تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة ، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية . (مالك يوم الدين). . وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير فى الحياة البشرية كلها كلية الاعتقاد بالآخرة . . والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة . ويوم الدين هو يوم الجزاء فى الآخرة . . وكثيرا ما اعتقد الناس بألوهية الله ، وخلقه للكون أول مرة ; ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء . والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة فى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ؛ فلا تستبد بهم ضرورات الأرض . وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات . ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم فى عمرهم القصير

المحدود ، وفى مجال الأرض المحصور . وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله ، فى الأرض أو فى الدار الآخرة سواء ، فى طمأنينة لله , وفى ثقة بالخير ، وفى إصرار على الحق ، وفى سعة وسماحة ويقين . . .

أَيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

(إياك نعبد وإياك نستعين). . وهذه هى الكلية الاعتقادية التى تنشأ عن الكليات السابقة فى السورة . فلا عبادة إلا لله ، ولا استعانة إلا بالله . وهنا كذلك مفرق طريق . . مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية ، وبين العبودية المطلقة للعبيد ! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشرى الكامل الشامل . التحرر من عبودية الأوهام . والتحرر من عبودية النظم ، والتحرر من عبودية الأوضاع . وإذا كان الله وحده هو الذى يعبد ، والله وحده هو الذى يستعان ، فقد تخلص الضمير البشرى من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات . .

(اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)

(اهدنا الصراط المستقيم). . وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ؛ ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته . . فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته . والتوجه إلى الله فى هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية إلى الطريق المستقيم هى ضمان السعادة فى الدنيا والآخرة عن يقين . . وهى فى حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذى ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله فى الاتجاه إلى الله رب العالمين . ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم:(صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين). . فهو طريق الذين قسم لهم نعمته . لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه . أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلا إليه . . إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين . . وبعد فهذه هى السورة المختارة للتكرار فى كل صلاة ، والتى لا تصح بدونها صلاة . وفيها على قصرها تضم تلك الكليات الأساسية فى التصور الإسلامى ؛ وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور .

سورة البقـــرة
مدنية و آياتها 286

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة . وهى أطول سور القرآن على الإطلاق . والمرجح أن آياتها لم تنزل متوالية كلها حتى اكتملت قبل نزول آيات من سور أخرى ; فمراجعة أسباب نزول بعض آياتها وبعض الآيات من السور المدنية الأخرى – وإن تكن هذه الأسباب ليست قطعية الثبوت – تفيد أن السور المدنية الطوال لم تنزل آياتها كلها متوالية ؛ إنما كان يحدث أن تنزل آيات من سورة لاحقة قبل استكمال سورة سابقة نزلت مقدماتها ؛ وأن المعول عليه فى ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها - لا جميعها – وفى هذه السورة آيات فى أواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا ، فى حين أن الراجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن فى المدينة . فأما تجميع آيات كل سورة فى السورة ، وترتيت هذه الآيات ، فهو توقيفى موحى به . . ومن ثم يلحظ من يعيش فى ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة ! شخصية لها روح ، يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حى مميز الملامح والسمات والأنفاس ! ولها موضوع رئيسى أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص . ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ؛ ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة ، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو . ولها إيقاع موسيقى خاص - إذا تغير فى ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة . . وهذا طابع عام فى سور القرآن جميعا . ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة

. ملابسات نزول سورة البقرة وبدايات الهجرة

هذه السورة تضم عدة موضوعات . ولكن المحور الذى يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا . . فهى من ناحية تدور حول موقف بنى إسرائيل من الدعوة الإسلامية فى المدينة ، واستقبالهم لها ، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها . . . وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى . . وهى من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة فى أول نشأتها ؛ وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة فى الأرض ، بعد أن تعلن السورة نكول بنى إسرائيل عن حملها ، ونقضهم لعهد الله بخصوصها ، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقى لإبراهيم - عليه السلام – صاحب الحنيفية الأولى ، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التى سببت تجريد بنى إسرائيل من هذا الشرف العظيم . . وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين ، كما سيجىء فى استعراضها التفصيلى . ولكى يتضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهة ، وبين خط سير الدعوة أول العهد بالمدينة ، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى . . يحسن أن نلقى ضوءا على مجمل هذه الملابسات التى نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء . لقد تمت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم . تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة ؛ وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة فى الخط المرسوم الذى قدره الله لها بتدبيره . . كان موقف قريش العنيد من الدعوة فى مكة – وبخاصة بعد وفاة خديجة – رضى الله عنها – وموت أبى طالب كافل النبى وحاميه . . كان هذا الموقف قد انتهى إلى تجميد الدعوة تقريبا فى مكة وما حولها . ومع استمرار دخول أفراد فى الإسلام على الرغم من جميع الاضطهادات والتدبيرات فإن الدعوة كانت تعتبر قد تجمدت فعلا فى مكة وما حولها ، بموقف قريش منها ، وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل , مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار ، فى ارتقاب نتيجة المعركة بين الرسول وعشيرته الأقربين ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة ، قاعدة تحمى هذه العقيدة وتكفل لها الحرية ، وتظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة . ولقد سبقها الاتجاه إلى الحبشة ، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل . هاجر رجال ذوو عصبيات ، لهم من عصبيتهم – فى بيئة قبلية. وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبدا . . وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة فى أوساط البيوت الكبيرة فى قريش ؛ وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم ، فرارا من الجاهلية , تاركين وراءهم كل وشائج القربى ، فى بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزا عنيفا ؛ وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة ، بنت أبى سفيان ، زعيم الجاهلية , وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها . .. كذلك يبدو اتجاه الرسول ﷺ إلى الطائف محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة . . وهى محاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله ﷺ أسوأ استقبال ، وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه الشريفتين ، ولم يتركوه حتى أوى إلى حائط [أى حديقة] لعتبة وشيبة إبنى ربيعة . بعد ذلك فتح الله على الرسول ﷺ وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب ، فكانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية . وهما ذواتا صلة قوية بالموضوع الذى نعالجه فى مقدمة هذه السورة ، وبالملابسات التى وجدت حول الدعوة فى المدينة . وهكذا أخذوا الأمر بقوة . . ومن ثم فشا الإسلام فى المدينة ، حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الإسلام . وأخذ المسلمون فى مكة يهاجرون إلى المدينة تباعا ، تاركين وراءهم كل شىء ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، من الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيرا قط . ثم هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق . هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التى بحث عنها من قبل طويلا . . وقامت الدولة الإسلامية فى هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول ﷺ .

الخط الأول في السورة :كشف عداوة اليهود للدعوة الإسلامية

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوه القرآن بها فى مواضع كثيرة . وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقومات الإيمان ، وهى تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا . ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذى كان قائما بالمدينة حينذاك: الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى

من ربهم وأولئک هم المفلحون . . ثم نجد بعدها مباشرة فى السياق وصفا للكفار ؛ وهو يمثل مقومات الكفر على الإطلاق . ولكنه أولا وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاک ، سواء فى مكة أو فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار:(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم). . . ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن فيهم الرسالة والكتاب . فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائما . فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته ، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب ! فلما وجدوه يدعوهم - أول من يدعو - إلى كتاب الله ، بحكم أنهم أعرف به من المشركين , وأجدر بالاستجابة له من المشركين . . أخذتهم العزة بالإثم ، وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة ! ثم إنهم حسدوا النبى ﷺ حسدا شديدا . حسدوه مرتين:مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب - وهم لم يكونوا يشكون فى صحته - وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل فى محيط المدينة . على أنه كان هناک سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى:ذلک هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدنى الذى كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف ! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة . ويذوبوا فى المجتمع الإسلامى . وهما أمران - فى تقديرهم - أحلاهما مر ! لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذى تصفه سورة البقرة ، [وسور غيرها كثيرة] فى تفصيل دقيق وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التى دمغهم بها هى الصفة الملازمة لهم فى كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا . مما جعل القرآن يخاطبهم - فى عهد النبى ﷺ كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى - عليه السلام - وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة . سماتهم هى هى ، ودورهم هو هو ، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان ! ومن ثم يكثر الالتفات فى السياق من خطاب قوم موسى ، إلى خطاب اليهود فى المدينة ، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين .

الخط الثاني في السورة: أسس بناء الجماعة المسلمة وإعدادها للخلافة

وهذه السورة التى تضمنت هذا الوصف ، وهذا التنبيه ، وهذا التحذير ، تضمنت كذلک بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة فى الأرض بعد نكول بنى إسرائيل عن حملها قديما ، ووقوفهم فى وجهها هذه الوقفة أخيرا . . فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى: المتقين . والكافرين . والمنافقين . وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين . . نجد دعوة للناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده . وتحدى المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله . وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة . . ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله):كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون ! هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات , وهو بكل شىء عليم). . وعند هذا المقطع الذى يشير إلى خلق ما فى الأرض جميعا للناس تجىء قصة استخلاف آدم فى الأرض: (وإذ قال ربک للملائكة:إنى جاعل فى الأرض خليفة). . وتمضى القصة تصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان حتى تنتهى بعهد الاستخلاف - وهو عهد الإيمان):- قلنا: اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئک أصحاب النار هم فيها خالدون). . بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بنى إسرائيل - أشرنا إلى فقرات منها فيما سبق - تتخللها دعوتهم للدخول فى دين الله وما أنزله الله مصدقا لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى - عليه السلام - وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الأول من السورة . ومن خلال هذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بنى إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه . . لقد كانوا أول كافر به . وكانوا يلبسون الحق بالباطل . وكانوا يأمرون الناس بالبر - وهو الإيمان - وينسون أنفسهم . وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه . وكانوا يخادعون الذين آمنوا باظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من إطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبى ﷺ وصحة رسالته !. وتنتهى هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع فى إيمانهم لهم ، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد ، المؤوفة الطبع . كما تنتهى بفصل الخطاب فى دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة إبراهيم .. وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وهما يرفعان القواعد من البيت):ربنا واجعلنا مسلمين لک ومن ذريتنا أمة مسلمة لک ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا , إنک أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتک ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنک أنت العزيز الحكيم). وعند هذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبى ﷺ وإلى الجماعة المسلمة من حوله ; حيث يأخذ فى وضع الأسس التى تقوم عليها حياة هذا الجماعة المستخلفة على دعوة الله فى الأرض ، وفى تمييز هذه الجماعة بطابع خاص ، وبمنهج فى التصور وفى الحياة خاص . ويبدأ فى هذا بتعيين القبلة التى تتجه إليها هذه الجماعة . وهى البيت المحرم الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه ويطهراه ليعبد فيه الله وحده ، هذه القبلة التى كان النبى ﷺ يرغب ولا يصرح فى الاتجاه إليها: (قد نرى تقلب وجهک فى السماء , فلنولينک قبلة ترضاها فول وجهک شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره). . ثم تمضى السورة فى بيان المنهج الربانى لهذه الجماعة المسلمة . منهج التصور والعبادة , ومنهج السلوک والمعاملة ، تبين لها أن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء . وأن الإصابة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ليس شرا يراد بها ، إنما هو ابتلاء ، ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه . وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء والله يعدهم مغفرة منه وفضلا . وأن الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . . وتبين لهم بعض الحلال والحرام فى المطاعم والمشارب . وتبين لهم حقيقة البر لا مظاهره وأشكاله . وتبين لهم أحكام القصاص فى القتلى . وأحكام الوصية . وأحكام الصوم . وأحكام الجهاد . وأحكام الحج . وأحكام الزواج والطلاق مع التوسع فى دستور الأسرة بصفة خاصة . وأحكام الصدقة وأحكام الربا . وأحكام الدين والتجارة . . . وفى النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها ، فيبين طبيعة التصور الإيمانى , وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم ، وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه ، مع السمع والطاعة: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا:سمعنا وأطعنا ، غفرانک ربنا وإليک المصير. . . ومن ثم يتناسق البدء والختام ، وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان . فى هذا المقطع ، الذى يكون افتتاح السورة الكبيرة ، نجد الملامح الأساسية للطوائف التى واجهتها الدعوة فى المدينة باستثناء طائفة اليهود التى ترد إشارة صغيرة لها ، ولكنها

كافية ، فإن تسميتهم بشياطين المنافقين تشير إلى الكثير من صفاتهم , ومن حقيقة دورهم ، حتى يرد التفصيل الكامل بعد قليل . في تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة , دقيقة السمات ، مميزة الصفات . حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب المفصل شيئا وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع . فإذا انتهى السياق من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس . . الناس جميعا . . إلى الصورة الأولى ؛ وناداهم .

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (٢)

تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة المقطعة:"ألف . لام . ميم" . يليها الحديث عن كتاب الله:(ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين). . ومثل هذه الأحرف يجيء في مقدمة بعض السور القرآنية . وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة . نختار منها وجها . إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف , وهي في متناول المخاطبين به من العرب . ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز , الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا (ذلك الكتاب لا ريب فيه). . ومن أين يكون ريب أو شك ؛ ودلالة الصدق واليقين كامنة في هذا المطلع ، ظاهرة في عجزهم عن صياغة مثله ، من مثل هذه الأحرف المتداولة بينهم ، المعروفة لهم من لغتهم ? (ذلك الكتاب لا ريب فيه . . هدى للمتقين). . الهدى حقيقته ، والهدى طبيعته ، والهدى كيانه ، والهدى ماهيته . . ولكن لمن ؟ لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونورا ودليلا ناصحا مبينا ؟ . . للمتقين . . فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب .

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) ٣

لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم . بقلب خالص . ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة ، أو أن تستهويه ضلالة . . وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقيا , خائفا ، حساسا ، مهيأ للتلقي . التقوى . . حساسية في الضمير ، وشفافية في الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم , وتوق لأشواك الطريق . . طريق الحياة . . الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات , وأشواك المطامع والمطامح ، وأشواك المخاوف والهواجس ، ثم يأخذ السياق في بيان صفة المتقين ؛ وهي صفة السابقين من المؤمنين في المدينة كما أنها صفة الخلص من مؤمني هذه الأمة في كل حين:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) {٤}

إن السمة الأولى للمتقين هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة . الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب ، والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة ، واليقين بعد ذلك بالآخرة . . هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية ، وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة ، (الذين يؤمنون بالغيب). الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض ؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته (ويقيمون الصلاة). . فيتجهون بالعبادة لله وحده ، ويرتفعون بهذا عن عبادة العباد , وعبادة الأشياء . يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود ويحنون جباههم لله لا للعبيد ; والقلب الذي يسجد لله حقا ، ويتصل به على مدار الليل والنهار ، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود ، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية ، وجعلها ربانية التصور ، ربانية الشعور ، ربانية السلوك . (ومما رزقناهم ينفقون). . فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم ، لا من صنع أنفسهم ؛ ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق , والتضامن بين عيال الخالق ، والشعور بالأصرة الإنسانية ، وبالأخوة البشرية . . وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح ، وتزكيتها بالبر . والإنفاق يشمل الزكاة والصدقة ، وسائر ما ينفق في وجوه البر . وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه .

(أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٥)

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك). . وهي الصفة اللائقة بالأمة المسلمة , وارثة العقائد السماوية ، ووارثة النبوات منذ فجر البشرية ، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة ، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان . وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينها ، ووحدة رسلها ، ووحدة معبودها (وبالآخرة هم يوقنون). . وهذه خاتمة السمات . الخاتمة التي تربط الدنيا بالآخرة , والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ؛ والتي تشعر الإنسان أنه ليس مهملا ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ؛ وأن العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفيء إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف . واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود , ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود . وكل صفة من هذه الصفات – كما رأينا – ذات قيمة في الحياة الإنسانية ، ومن ثم كانت هي صفات المتقين . وهناك تساوق وتناسق بين هذه

الصفات جميعا ، هو الذى يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة . فالتقوى شعور في الضمير ، وحالة فى الوجدان ، تنبثق منها اتجاهات وأعمال ؛ وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ؛ وتصل الإنسان بالله فى سره وجهره . وتشف معها الروح فتقل الحجب بينها وبين الكلى الذى يشمل عالمى الغيب والشهادة. (أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون). . وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا . والطريق للهدى والفلاح هو هذا الطريق المرسوم .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) ٨

فأما الصورة الثانية فهي صورة الكافرين . وهي تمثل مقومات الكفر فى كل أرض وفى كل حين: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم). . وهنا نجد التقابل تاما بين صورة المتقين وصورة الكافرين . . فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين ، فإن الإنذار وعدم الإنذار سواء بالقياس إلى الكافرين . إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين ، والوشائج التى تربطهم بالوجود وبخالق الوجود ، وبالظاهر والباطن والغيب والحاضر . . إن هذه النوافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا . وإن الوشائج الموصولة كلها هناك ، مقطوعة كلها هنا: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) ختم عليها فلا تصل إليها حقيقة من الهدى ولا صدى . (وعلى أبصارهم غشاوة). . فلا نور ولا هدى . ! وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم جزاء وفاقا على استهتارهم بالإنذار ، حتى تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار . إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار . . (ولهم عذاب عظيم). . وهى النهاية الطبيعية للكفر العنيد ، الذى لا يستجيب للنذير ; والذى يستوى عنده الإنذار وعدم الإنذار ؛ كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد . ثم ننتقل – مع السياق – إلى الصورة الثالثة . أو إلى النموذج الثالث إنها ليست فى شفافية الصورة الأولى وسماحتها . وليست في عتامة الصورة الثانية وصفاقتها . ولكنها تتلوى فى الحس . وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين . . إنها صورة المنافقين :

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ{٩} فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ{١٠} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{١١} أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ{١٢} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ{١٣} وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَواْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوَاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ{١٤} اللّهُ يَسْتَهْزِئ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١٥} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ{١٦}

لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة ؛ ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجا مكرورا فى أجيال البشرية جميعا . نجد هذا النوع من المنافقين من علية الناس الذين لا يجدون فى أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح ، أو يجدون فى نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحق بالإنكار الصريح . وهم فى الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس ، وعلى تصورهم للأمور ! ومن ثم نميل إلى مواجهة هذه النصوص كما لو كانت مطلقة من مناسبتها التاريخية ، موجهة إلى هذا الفريق من المنافقين فى كل جيل . وإلى صميم النفس الإنسانية الثابت فى كل جيل إنهم يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر . وهم فى الحقيقة ليسوا بمؤمنين . إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم فى مواجهة المؤمنين. يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وهم يظنون فى أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على خداع هؤلاء البسطاء ؛ ولكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم ، فهم لا يخادعون المؤمنين ، إنما يخادعون الله كذلك أو يحاولون: (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون). . إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم فى غير شعور ! إن الله بخداعهم عليم ؛ والمؤمنون فى كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم . أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها . يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق ، ولكن لماذا يحاول المنافقون هذه المحاولة ؟ ولماذا يخادعون هذا الخداع (فى قلوبهم مرض). . فى طبيعتهم آفة . فى قلوبهم علة . وهذا ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم . ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما هم فيه (فزادهم الله مرضا). . فالمرض ينشىء المرض ، والانحراف يبدأ يسيرا ، ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة وتزداد (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)ذلك جزاؤهم العادل يوم الحساب

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) ١١ (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ) ١٢ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوَاْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ) ١٣

وصفة أخرى من صفاتهم – وبخاصة الكبراء منهم الذين كان لهم فى أول العهد بالهجرة مقام فى قومهم – صفة العناد وتبرير ما يأتون من الفساد ، والتبجح حين يأمنون أن يؤخذوا بما يفعلون: (وإذا قيل لهم:لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا:إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون , ولكن لا يشعرون). . إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون اليهما السفه والادعاء: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض). . لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير: (قالوا:إنما نحن مصلحون). . ومن ثم يجىء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق: (ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون). . ومن صفتهم كذلك التطاول والتعالى على عامة الناس ، ليكسبوا لأنفسهم مقاما زائفا فى أعين الناس: (وإذا قيل لهم:آمنوا كما آمن الناس ، قالوا:أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء , ولكن لا يعلمون). . وواضح أن الدعوة التى كانت موجهة إليهم فى المدينة هى أن يؤمنوا الإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء. . وواضح أنهم كانوا ينفون من هذا الاستسلام للرسول ﷺ ويرونه خاصا بفقراء الناس غير لائق بالعلية ذوى المقام ! ومن ثم قالوا قولتهم هذه: (أنؤمن كما آمن السفهاء . .(?) ومن ثم جاءهم الرد الحاسم ، والتقرير الجازم: (ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون). . ثم تجىء السمة الأخيرة التى تكشف عن مدى الارتباط بين المنافقين فى المدينة واليهود الحانقين . . إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، والسفه والادعاء ،

إنما يضيفون إليها الضعف واللؤم والتآمر فى الظلام: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا:آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا:إنا معكم ، إنما نحن مستهزؤون). . وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيىء براعة . وهو فى حقيقته ضعف وخسة . فالقوى ليس لئيما ولا خبيثا ، ولا خادعا ولا متآمرا ولا غمازا فى الخفاء لمازا . وهؤلاء المنافقون الذين كانوا يجبنون عن المواجهة .

(وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ) (١٦)

ويتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ، ليتقوا الأذى ، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى . . هؤلاء كانوا إذا خلوا إلى شياطينهم – وهم غالبا – اليهود الذين كانوا يجدون فى هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامى وتفتيته ، كما أن هؤلاء كانوا يجدون فى اليهود سندا وملاذا . . هؤلاء المنافقون كانوا (إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا:إنا معكم إنما نحن مستهزئون)– أى بالمؤمنين – بما نظهره من الإيمان والتصديق ! (الله يستهزئ بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون). . وما أبأس من يستهزىء به جبار السماوات والأرض وما أشقاه !! وإن الخيال ليمتد إلى مشهد مفزع رعيب . وإلى مصير تقشعر من هوله القلوب . والكلمة الأخيرة التى تصور حقيقة حالهم ، ومدى خسرانهم: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين). . فلقد كانوا يملكون الهدى لو أرادوا . كان الهدى مبذولا لهم . وكان فى أيديهم . وكلنهم)اشتروا الضلالة بالهدى)، كأغفل ما يكون المتجرون: (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين). .

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون). . إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك ، كما صنع الذين كفروا . ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه . . لقد استوقدوا النار ، فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا بها وهم طالبوها . عندئذ (ذهب الله بنورهم)الذى طلبوه ثم تركوه: (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون)جزاء إعراضهم عن النور ! وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون ، لتلقى الأصداء والأضواء ، والانتفاع بالهدى والنور , فهم قد عطلوا آذانهم فهم(صم)وعطلوا ألسنتهم فهم(بكم)وعطلوا عيونهم فهم)عمى). . فلا رجعة لهم إلى الحق ، ولا أوبة لهم إلى الهدى . ولا هداية لهم إلى النور ! ومثل آخر يصور حالهم ويرسم ما فى نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة: (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه , وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شىء قدير). . إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب . . صيب من السماء هاطل غزير (فيه ظلمات ورعد وبرق) . .(كلما أضاء لهم مشوا فيه). . (وإذا أظلم عليهم قاموا). . أى وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون . وهم مفزعون: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . .(إن الحركة التى تغمر المشهد كله لترسم – عن طريق التأثر الإيحائى – حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون . . بين لقائهم للمؤمنين , وعودتهم للشياطين . بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة . بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام . . فهو مشهد حسى يرمز لحالة نفسية ؛ ويجسم صورة شعورية . وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة فى تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس .

(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم , فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) ٢٢

إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . ربهم الذى تفرد بالخلق ، فوجب أن يتفرد بالعبادة . . وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققوه: (لعلكم تتقون). . لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية . صورة العابدين لله . المتقين لله . الذين أدوا حق الربوبية الخالقة ، فعبدوا الخالق وحده ; رب الحاضرين والغابرين ، وخالق الناس أجمعين ، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ند ولا شريك: (الذى جعل لكم الأرض فراشا). . وهو تعبير يشى باليسر فى حياة البشر على هذه الأرض ، وفى إعدادها لهم لتكون لهم سكنا مريحا وملجأ واقيا كالفراش. (والسماء بناء). . فيها متانة البناء وتنسيق البناء . والسماء ذات علاقة وثيقة بحياة الناس فى الأرض , وبسهولة هذه الحياة . وهى بحرارتها وضوئها وجاذبية اجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وبينها ، تمهد لقيام الحياة على الأرض وتعين عليها. (وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء فى الأرض جميعا . فمنه تنشأ الحياة بكل أشكالها ودرجاتها. سواء أنبت الزرع مباشرة حين يختلط بالأرض , أو كون الأنهار والبحيرات العذبة ، أو انساح فى طبقات الأرض فتألفت منه المياه الجوفية ، التى تتفجر عيونا أو تحفر آبارا ، أو تجذب بالآلات إلى السطح مرة أخرى . وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى: وحدة الخالق لكل الخلائق: (الذى خلقكم والذين من قبلكم). . ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان) : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون). والأنداد التى يشدد القرآن فى النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة , قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون . فقد تكون الأنداد فى صور أخرى خفية . قد تكون فى تعليق الرجاء بغير الله فى أى صورة ، وفى الخوف من غير

الله فى أى صورة . وفى الاعتقاد بنفع أو ضر فى غير الله فى أى صورة وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشئت . قال:" أجعلتنى لله ندا ؟ "!

(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ٢٣

ولقد كان اليهود يشككون فى صحة رسالة النبى ﷺ وكان المنافقون يرتابون فيها – كما ارتاب المشركون – فهنا يتحدى القرآن الجميع . إذ كان الخطاب إلى "الناس" جميعا . يتحداهم بتجربة واقعية تفصل فى الأمر بلا مماحكة. ويبدأ هذا التحدى بلفتة لها قيمتها فى هذا المجال . . يصف الرسول ﷺ بالعبودية لله: (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا). . ولهذا الوصف فى هذا الموضع دلالات منوعة متكاملة:فهو أولا تشريف للنبى وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ; أما التحدى فمنظور فيه إلى مطلع السورة . . فهذا الكتاب المنزل مصوغ من تلك الحروف التى فى أيديهم ، فإن كانوا يرتابون فى تنزيله ، فدونهم فليأتوا بسورة من مثله ; وليدعوا من يشهد لهم بهذا – من دون الله – فالله قد شهد لعبده بالصدق فى دعواه . وهذا التحدى ظل قائما فى حياة الرسول ﷺ وبعدها ، وما يزال قائما إلى يومنا هذا. وسيظل كذلك تصديقا لقول الله تعالى فى الآية التالية: (فإن لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) . .والتحدى هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان فى الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة . وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

ومن ثم كان هذا التهديد المخيف لمن يعجزون عن هذا التحدى ثم لا يؤمنون بالحق الواضح :فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين). . ففيم هذا الجمع بين الناس والحجارة ، فى هذه الصورة المفزعة الرعيبة ؟ لقد أعدت هذه النار للكافرين . الكافرين الذين سبق فى أول السورة وصفهم بأنهم (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة). . والذين يتحداهم القرآن هنا فيعجزون ، ثم لا يستجيبون . . فهم إذن حجارة من الحجارة ! وإن تبدوا فى صورة آدمية من الوجهة الشكلية ! فهذا الجمع بين الحجارة من الحجر والحجارة من الناس هو الأمر المنتظر ! على أن ذكر الحجارة هنا يوحى إلى النفس بسمة أخرى فى المشهد المفزع:مشهد النار التى تأكل الأحجار . ومشهد الناس الذين تزحمهم هذه الأحجار . . فى النار . . وفى مقابل ذلك المشهد المفزع يعرض المشهد المقابل . مشهد النعيم الذى ينتظر المؤمنين (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا:هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون) وهى ألوان من النعيم يستوقف النظر منها – إلى جانب الأزواج المطهرة – تلك الثمار المتشابهة , التى يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل – أما ثمار الدنيا التى تشبهها بالاسم أو الشكل ، وأما ثمار الجنة التى رزقوها من قبل – فربما كان فى هذا التشابه الظاهرى والتنوع الداخلى مزية المفاجأة فى كل مرة . . وهى ترسم جوا من الدعابة الحلوة , والرضى السابغ ، والتفكه الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفى كل مرة ينكشف التشابه الظاهرى عن شىء جديد ! وهكذا يبدو التنوع فى صنعة البارىء هائلا يدير الرؤوس:التنوع فى الأنواع والأجناس , والتنوع فى الأشكال والسمات ، والتنوع فى المزايا والصفات . . وكله . . كله مرده إلى الخلية الواحدة المتشابهة التكوين والتركيب .

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ{٢٦} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٢٧}

فمن ذا الذى لا يعبد الله وحده ، وهذه آثار صنعته ، وآيات قدرته ؟ ومن ذا الذى يجعل لله اندادا ، ويد الإعجاز واضحة الآثار ، فيما تراه الأبصار ، وفيما لا تدركه الأبصار ؟ فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدرس ، وبيانا لحكمة الله فى ضرب الأمثال ، وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها ، وتطمينا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانا . (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها). . فالله رب الصغير والكبير ، وخالق البعوضة والفيل ، والمعجزة فى البعوضة هى ذاتها المعجزة فى الفيل . إنها معجزة الحياة . معجزة السر المغلق الذى لا يعلمه إلا الله . . على أن العبرة فى المثل ليست فى الحجم والشكل ، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير . وليس فى ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره . والله – جلت حكمته – يريد بها اختبار القلوب ، وامتحان النفوس: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم). . ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله ؛ وبما يعرفون من حكمته . وقد وهبهم الإيمان نورا فى قلوبهم ، وحساسية فى أرواحهم ، وتفتحا فى مداركهم ، واتصالا بالحكمة الإلهية فى كل أمر وفى كل قول يجيئهم من عند الله . (وأما الذين كفروا فيقولون:ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟). . وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته ، المقطوع الصلة بسنة الله .. وقصور فى صيغة الاعتراض والاستنكار ، أو فى صورة التشكيك فى صدور مثل وتدبيره . هذا القول عن الله ! هنا يجيئهم الجواب فى صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتدبير: (يضل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين). . والله - سبحانه – يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضى فى طريقها ، ويتلقاها عباده , كل وفق طبيعته واستعداده ، وكل حسب طريقه ومنهجه الذى اتخذه لنفسه . والابتلاء واحد . . ولكن آثاره فى النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق . ويفصل السياق صفة الفاسقين هؤلاء ، كما فصل فى أول السورة صفة المتقين ؛ فالمجال ما يزال – فى السورة – هو مجال الحديث عن تلك الطوائف ، التى تتمثل فيها البشرية فى شتى العصور: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض . أولئك هم الخاسرون). . فأى عهد من عهود الله هو الذى ينقضون ؟ وأى أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذى يقطعون ؟ وأى لون من الفساد فى الأرض هو الذى يفسدون ؟ وننظر فى الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر الذى كانت الدعوة تواجهه فى المدينة فى صورة اليهود والمنافقين والمشركين ؛ والذى ظلت تواجهه وما تزال تواجهه

اليوم فى الأرض مع اختلاف سطحى فى الأسماء والعنوانات ! (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه). . وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل فى عهود كثيرة ، إنه عهد الفطرة المركوز فى طبيعة كل حى . . أن يعرف خالقه ، وأن يتجه إليه بالعبادة . وما تزال فى الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله ، ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أندادا وشركاء . . وهو عهد الاستخلاف فى الأرض الذى أخذه الله على آدم (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل). . والله أمر بصلات كثيرة . . أمر بصلة الرحم والقربى . وأمر بصلة الإنسانية الكبرى . وأمر قبل هذا كله بصلة العقيدة والأخوة الإيمانية ، التى لا تقوم صلة ولا وشيجة إلا معها . . وإذا قطع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت العرى ، وانحلت الروابط ، ووقع الفساد فى الأرض ، وعمت الفوضى (ويفسدون فى الأرض). . والفساد فى الأرض ألوان شتى ، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله ، ونقض عهد الله , وقطع ما أمر الله به أن يوصل . ورأس الفساد فى الأرض هو الحيدة عن منهجه الذى اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها . هذا مفرق الطريق الذى ينتهى إلى الفساد حتما ، فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض ، ومنهج الله بعيد عن تصريفها ، وشريعة الله مقصاة عن حياتها . وإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال ، وللحياة والمعاش ؛ وللأرض كلها وما عليها من ناس وأشياء . وعند هذا البيان الكاشف لآثار الكفر والفسوق فى الأرض كلها يتوجه إلى الناس باستنكار كفرهم بالله المحيى المميت الخالق الرازق المدبر العليم: (كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون ? هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ؛ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم). . والكفر بالله فى مواجهة هذه الدلائل والآلاء كفر قبيح بشع ، مجرد من كل حجة أو سند . . والقرآن يواجه البشر بما لا بد لهم من مواجهته ، والاعتراف به ، والتسليم بمقتضياته . يواجههم بموكب حياتهم وأطوار وجودهم . لقد كانوا أمواتا فأحياهم . كانوا فى حالة موت فنقلهم منها إلى حالة حياة إن طبيعة الحياة شىء آخر غير طبيعة الموت المحيط بها فى الجمادات . فمن أين جاءت ؟ إنه لا جدوى من الهروب من مواجهة هذا السؤال الذى يلح على العقل والنفس ؛ ولا سبيل كذلك لتعليل مجيئها بغير قدرة خالقة ذات طبيعة أخرى غير طبيعة المخلوقات . من أين جاءت هذه الحياة التى تسلك فى الأرض سلوكا آخر متميزا عن كل ما عداها من الموات . . ? لقد جاءت من عند الله . . هذا هو أقرب جواب .

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ?). . كنتم أمواتا من هذا الموات الشائع من حولكم فى الأرض فأنشا فيكم الحياة فأحياكم . . فكيف يكفر بالله من تلقى منه الحياة ؟ (ثم يميتكم). . ولعل هذه لا تلقى مراء ولا جدلا ، فهى الحقيقة التى تواجه الأحياء فى كل لحظة ، وتفرض نفسها عليهم فرضا ، ولا تقبل المراء فيها ولا الجدال . (ثم يحييكم). . وهذه الحقيقة اليقينية كانوا يمارون فيها ويجادلون ؛ . وهى حين يتدبرون النشأة الأولى , لا تدعو إلى العجب ، ولا تدعو إلى التكذيب . (ثم إليه ترجعون). . كما بدأكم تعودون ، ترجعون إليه ليمضى فيكم حكمه ويقضى فيكم قضاءه . . ثم يعقب السياق بومضة أخرى مكملة للومضة الأولى: (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ؛ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ؛ وهو بكل شىء عليم). . ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء ، يتحدثون عن القبلية والبعدية . ويتحدثون عن الاستواء والتسوية . . وينسون أن "قبل وبعد" اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى ؛ وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان إلى التصور البشرى المحدود صورة غير المحدود . . ولا يزيدان . . وما كان الجدل الكلامى الذى ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات القرآنية ، إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى ، عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية ، وللعقلية الإسلامية الناصعة . . وما كان لنا نحن اليوم أن نقع فى هذه الآفة ، فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام !! فلنخلص إذن إلى ما وراء هذه التعبيرات من حقائق موحية عن خلق ما فى الأرض جميعا للإنسان , ودلالة هذه الحقيقة على غاية الوجود الإنسانى ، وعلى دوره العظيم فى الأرض , وعلى قيمته فى ميزان الله ، وما وراء هذا كله من تقرير قيمة الإنسان فى التصور الإسلامى ؛ وفى نظام المجتمع الإسلامى . . (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا). . إن كلمة(لكم) هنا ذات مدلول عميق وذات إيحاء عميق . إنها قاطعة فى أن الله خلق هذا الإنسان ، و هو خالق كل شىء .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

لأمر عظيم . خلقه ليكون مستخلفا فى الأرض ، .ودوره فى الأرض إذن وفى أحداثها وتطوراتها هو الدور الأول ؛ إنه سيد الأرض وسيد الآلة ! إنه ليس عبدا للآلة كما هو فى العالم المادى اليوم . وليس تابعا للتطورات التى تحدثها الآلة فى علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعى أنصار. فكرامة الإنسان أولا، ثم تجيء القيم المادية تابعة مسخرة . فلنعش لحظات مع قصة البشرية الأولى وما وراءها من إيحاءات أصيلة: (وإذ قال ربك للملائكة:إنى جاعل فى الأرض خليفة). . وإذن فهى المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد فى الوجود ، زمام هذه الأرض , وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ؛ وكشف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله – بإذن الله – فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه . وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات المذخورة كفاء ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ؛ ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية . وإذن فهى منزلة عظيمة ، منزلة هذا الإنسان ، فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة . وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم . (قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ?). . ويوحى قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة فى الأرض , أو من إلهام البصيرة ، ما

يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد فى الأرض ، وأنه سيسفك الدماء . . ثم هم – بفطرة الملائكة البريئة التى لا تتصور إلا الخير المطلق ، وإلا السلام الشامل – يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية المطلقة للوجود , وهو وحده العلة الأولى للخلق . . وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ،ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته ! لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، فى بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفى تنمية الحياة وتنويعها ، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيتها وتعديلها , على يد خليفة الله فى أرضه . هذا الذى قد يفسد أحيانا ، وقد يسفك الدماء أحيانا , ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل . خير النمو الدائم ، والرقى الدائم . خير الحركة الهادمة البانية . خير المحاولة التى لا تكف ، والتطلع الذى لا يقف ، والتغيير والتطوير فى هذا الملك الكبير . عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء ، والخبير بمصائر الأمور: (قال:إنى أعلم ما لا تعلمون). . فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية ، لأنها لا ضرورة لها فى وظيفتهم . ومن ثم لم توهب لهم . فلما علم الله آدم هذا السر ، وعرض عليهم ما عرض لم يعرفوا الأسماء . لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص . . وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم ، والاعتراف بعجزهم ، والإقرار بحدود علمهم ، وهو ما علمهم . . وعرف آدم . . ثم كان هذا التعقيب الذى يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم: (قال:ألم أقل لكم:إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟) (وإذ قلنا للملائكة:اسجدوا لآدم . فسجدوا). . إنه التكريم فى أعلى صوره ، لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء .. لقد وهب سر المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق . . إن ازدواج طبيعته ، وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة . . إن هذا كله بعض أسرار تكريمه . ولقد سجد الملائكة امتثالا للأمر العلوى الجليل .

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ) ٣٥ (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (٣٧)

(إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين). . وهنا تتبدى طبيعة الشيطان مجسمة ، عصيان الجليل سبحانه ! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله . والعزة بالإثم . والاستغلاق عن الفهم . ويوحى السياق أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ، إنما كان معهم . فلو كان منهم ما عصى . وصفتهم الأولى أنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون). . والاستثناء هنا لا يدل على أنه من جنسهم ، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة . المعركة بين خليقة الشر فى إبليس ، وخليفة الله فى الأرض . (وقلنا:يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة , فتكونا من الظالمين). . لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة . . إلا شجرة . . شجرة واحدة ، ربما كانت ترمز للمحظور الذى لا بد منه فى حياة الأرض . فبغير محظور لا تنبت الإرادة ، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق ، و (فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه). . ويا للتعبير المصور (أزلهما). . إنه لفظ يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها . وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى ! عندئذ تمت التجربة:نسى آدم عهده ، وضعف أمام الغواية . وعندئذ حقت كلمة الله ، وصرح قضاؤه: (وقلنا اهبطوا . . بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين). . وكان هذا إيذانا بانطلاق المعركة فى مجالها المقدر لها . بين الشيطان والإنسان . إلى آخر الزمان . ونهض آدم من عثرته ، بما ركب فى فطرته ، وأدركته رحمة ربه التى تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها . (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم). . وتمت كلمة الله الأخيرة ، وعهده الدائم مع آدم وذريته . عهد الاستخلاف فى هذه الأرض , وشرط الفلاح فيها أو البوار . (قلنا:اهبطوا منها جميعا . فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). . وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل ، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر . وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار ، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار .

دروس من قصة آدم

لقد قال الله تعالى للملائكة: (إنى جاعل فى الأرض خليفة). . وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد السكرة ، والندم وطلب المغفرة . . إنها هى تجربة البشرية المتجددة المكرورة ! لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته ، مزودا بهذه التجربة التى سيتعرض لمثلها طويلا ، استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا . . . فأين كان هذا الذى كان ؟ وما الجنة التى عاش فيها آدم وزوجه حينا من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ . . كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟ . . . هذا وأمثاله فى القرآن الكريم غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ؛ وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر فى معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به ، بالأداة التى وهبهم إياها لخلافة الأرض ، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب .ومن ثم لم يعد للعقل البشرى أن يخوض فيه ، لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره . وكل جهد يبذل فى هذه المحاولة هو جهد ضائع ، ذاهب سدى ، بلا ثمرة ولا جدوى . فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه ، وحسبنا ما يقص لنا عنه. ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة فى عالم التصور وفى عالم الواقع على السواء . وأول هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شيء فيها فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادى ، ومن كل قيمة مادية فى هذه الأرض جميعا . ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادى .

والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول . فهو الذى يغير ويبدل فى أشكالها وفى ارتباطاتها ؛ وهو الذى يقود اتجاهاتها ورحلاتها . وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج ، هى التى تقود الإنسان وراءها ذليلا سلبيا كما تصوره المذاهب المادية التى تحقر من دور الإنسان وتصغر ، بقدر ما تعظم فى دور الآلة وتكبر !

(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ٣٩

إن أبرز إيحاءات قصة آدم – كما وردت فى هذا الموضع – هو القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان ولدوره فى الأرض ، ولمكانه فى نظام الوجود ، وللقيم التى يوزن بها . ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله ، وحقيقة هذا العهد الذى قامت خلافته على أساسه . . وتتبدى تلك القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان فى الإعلان العلوى الجليل فى الملأ الأعلى الكريم ، أنه مخلوق ليكون خليفة فى الأرض ؛ كما تتبدى فى أمر الملائكة بالسجود له . وفى طرد إبليس الذى استكبر وأبى ، وفى رعاية الله له أولا وأخيرا . (

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (٤٢)

ابتداء من هذا المقطع فى السورة يواجه السياق بنى إسرائيل ، وأولئك الذين واجهوا الدعوة فى المدينة مواجهة نكرة ؛ وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة ؛ وكادوا لها كيدا موصولا , لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة ؛ وتبين لهم أنه فى طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها ، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التى كانت لهم ، مذ وحد الأوس والخزرج ، وسد الثغرات التى كانت تنفذ منها يهود ، وشرع لهم منهجا مستقلا , يقوم على أساس الكتاب الجديد . . هذه المعركة التى شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة , بنفس الوسائل ، ونفس الأساليب ، لا يتغير إلا شكلها ؛ أما حقيقتها فباقية , وأما طبيعتها فواحدة ، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة إلى جهة , ومن قرن إلى قرن ، فلا يجدون لهم صدرا حنونا إلا فى العالم الإسلامى المفتوح , الذى ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية ، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذى الإسلام ولا يكيد للمسلمين ! ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود فى المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد ؛ مذ كان القرآن يصدق ما جاء فى التوراة فى عمومه ؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول ، وعندهم أوصافه فى البشارات التى يتضمنها كتابهم ؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين . إن المستعرض لتاريخ بنى إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التى أفاضها الله عليهم ,ومن الجحود المنكر المتكرر الذى قابلوا به هذا الفيض المدرار . . وهنا يذكرهم الله بنعمته التى انعمها عليهم إجمالا ، . يذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معه – سبحانه – كى يتم عليهم النعمة ويمد لهم فى الآلاء: (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم). . فأى عهد هذا الذى يشار إليه فى هذا المقام ؟ أهو العهد الأول ، عهد الله لآدم (فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أم هو العهد الكونى السابق على عهد الله هذا مع آدم . العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه:أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له . وهو العهد الذى لا يحتاج إلى بيان ، ولا يحتاج إلى برهان ، لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها اللدنية ، ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف؟ أم هو العهدالخاص الذى قطعه الله لإبراهيم جد إسرائيل . والذى سيجىء فى سياق السورة: أم هو العهد الخاص الذى قطعه الله على بنى إسرائيل وقد رفع فوقهم الطور ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة والذى سيأتى ذكره فى هذه الجولة ؟ إن هذه العهود جميعا إن هى إلا عهد واحد فى صميمها . إنه العهد بين البارىء وعباده أن يصغوا قلوبهم إليه ، وأن يسلموا أنفسهم كلها له . وهذا هو الدين الواحد . وهذا هو الإسلام الذى جاء به الرسل جميعا ووفاء بهذا العهد يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية (وإياى فارهبون) ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بنى إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله , مصدقا لما معهم ؛ وألا يسارعوا إلى الكفر به ، فيصبحوا أول الكافرين ؛ وكان ينبغى أن يكونوا أول المؤمنين: (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به) وينهى الله بنى إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقا لما معهم ، شراء للدنيا بالآخرة , وإيثارا لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم – وبخاصة أحبارهم الذى يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدره عليهم من منافع وإتاوات – ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه . . (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، وإياى فاتقون) والثمن والمال والكسب الدنيوى المادى . . كله شنشنة يهود من قديم !! وقد يكون المقصود بالنهى هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة , وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء ، ويمضى السياق يحذرهم ما كانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل ، وكتمان الحق وهم يعلمونه , بقصد بلبلة الأفكار فى المجتمع المسلم ، وإشاعة الشك والاضطراب: (ولا تلبسوا الحق بالباطل . وتكتموا الحق وأنتم تعلمون). . ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق فى كل مناسبة عرضت لهم ، كما فصل القرآن فى مواضع منه كثيرة ؛ وكانوا دائما عامل فتنة وبلبلة فى المجتمع الإسلامى , وعامل اضطراب وخلخلة فى الصف المسلم . وسيأتى من أمثلة هذا التلبيس الشىء الكثير ! ثم يدعوهم إلى الاندماج فى موكب الإيمان ، والدخول فى الصف ، وأداء عباداته المفروضة , وترك هذه العزلة والتعصب .

(وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (٤٤)

ثم ينكر عليهم – وبخاصة أحبارهم – أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين ، وهم فى الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله ، المصدق لدينهم القديم: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب

؟ أفلا تعقلون ؟). . ومع أن هذا النص القرآنى كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بنى إسرائيل ، فإنه فى إيحائه للنفس البشرية ، ولرجال الدين بصفة خاصة ، دائم لا يخص قوما دون قوم ولا يعنى جيلا دون جيل .

(وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) ٤٥ (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) ٤٧

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذين كان يواجههم أولا ، ويوجه الناس كلهم ضمنا ، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة . . وفى حالة اليهود كان مطلوبا منهم أن يؤثروا الحق الذى يعلمونه على المركز الخاص الذى يتمتعون به فى المدينة ، وعلى الثمن القليل – سواء كان ثمن الخدمات الدينية أو هو الدنيا كلها – وأن يدخلوا فى موكب الإيمان وهم يدعون الناس إلى الإيمان ! وكان هذا كله يقتضى قوة وشجاعة وتجردا . واستعانة بالصبر والصلاة، والاستعانة بالصبر تتكرر كثيرا ؛ فهو الزاد الذى لا بد منه لمواجهة كل مشقة ، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراما للحق وإيثارا له ,واعترافا بالحقيقة وخضوعا لها . فما الاستعانة بالصلاة ؟ إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب . صلة يستمد منها القلب قوة ، وتحس فيها الروح صلة ؛ وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا . ومن ثم عودة إلى نداء بنى إسرائيل ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالا قبل الأخذ فى التفصيل: (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون) وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد اعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد . وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين ، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده ؛ وإطماع لهم لينتهزوا

(وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{٤٨} وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِى ذَلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{٤٩}

الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية ، فيعودوا إلى موكب الإيمان . وإلى عهد الله ؛ شكرا على تفضيله لآبائهم ، ورغبة فى العودة إلى مقام التكريم الذى يناله المؤمنين . ومع الإطماع فى الفضل والنعمة ، التحذير من اليوم الآخر (يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا) فالتبعة فردية ، والحساب شخصى ، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغنى نفس عن نفس شيئا . . وهذا هو المبدأ الإسلامى العظيم (ولا يقبل منها شفاعة . ولا يؤخذ منها عدل). فلا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيمانا وعملا صالحا ؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته . (ولا هم ينصرون). . فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه . بعدئذ يمضى يعدد آلاء الله عليهم ، وكيف استقبلوا هذه الآلاء ، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق . وفى مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم :إنه يعيد على خيالهم ويستحيى فى مشاعرهم صورة الكرب الذى كانوا فيه – باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد – ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب . يقول لهم:واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم ، [من سام الماشية أى جعلها سائمة ترعى دائما] وكان العذاب كان هو الغذاء الدائم الذى يطعمونهم إياه !! ثم يذكر لونا من هذا العذاب . هو تذبيح الذكور واستيحاء الإناث . كى يضعف ساعد بنى إسرائيل وتثقل تبعاتهم ! وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم . ليلقى فى حسهم – وحس كل من يصادف شدة – أن إصابة العباد بالشدة هى امتحان وبلاء ، واختبار وفتنة . وأن الذى يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة ، ويعتبر بالبلاء ، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ . والألم لا يذهب ضياعا إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها . والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما فى التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال , ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله ، وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته . . ومن ثم هذا التعقيب الموحى: (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة فى السور المكية التى نزلت من قبل . أما هنا فهو مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكى ، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها فى صورة مشهد ، ليستعيدوا تصورها ، ويتأثروا بهذا التصور , وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر ، ونجاة بنى إسرائيل بقيادة موسى - عليه السلام – على مشهد منهم ومرأى ! وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآنى العجيب . ثم يمضى السياق قدما مع رحلة بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ناجين ، وقصة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل ، وعبادته فى غيبة موسى – عليه السلام – عندما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل ، مفصلة فى سورة طه السابقة النزول فى مكة . وهنا فقط يذكرهم بها ، وهى معروفة لديهم . يذكرهم بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم , الذى أنقذهم باسم الله ، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب . ويصف حقيقة موقفهم فى هذه العبادة: (وأنتم ظالمون). . ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلا جسدا ، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول ! ومع هذا فقد عفا الله عنهم ، وآتى نبيهم الكتاب – وهو التوراة – فيه فرقان بين الحق والباطل ، عسى أن يهتدوا إلى الحق البين بعد الضلال . ولم يكن بد من التطهير القاسى ؛ فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقومها إلا كفارة صارمة ، وتأديب عنيف . عنيف فى طريقته وفى حقيقته وإذ قال موسى لقومه:يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم). . اقتلوا أنفسكم . ليقتل الطائع منكم العاصى . ليطهره ويطهر نفسه . . هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة . . وإنه لتكليف مرهق شاق ، أن يقتل الأخ أخاه ،

فكأنما يقتل نفسه برضاه . ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التي لا تتماسك عن شر ، ولا تتناهى عن نكر . ولو تناهوا عن المنكر فى غيبة نبيهم ما عبدوا العجل . وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام ؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التى تنفعهم وتربيهم ! وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم).

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

ولكن إسرائيل هى إسرائيل ! هى هى كثافة حس ، ومادية فكر ، واحتجابا عن مسارب الغيب . . فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة ، والذى طلب هذا هم السبعون المختارون منهم , الذين اختارهم موسى لميقات ربه – الذى فصلت قصته فى السور المكية من قبل – ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عيانا . والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذى صدر من آبائهم ، لينكشف تعنتهم القديم الذى يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم , وطلبهم الخوارق منه ، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبت من صدقه :(وإذ قلتم:يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). . إن الحس المادى الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة . . أم لعله التعنت والمعاجزة . . والآيات الكثيرة ، والنعم الإلهية ، والعفو والمغفرة . . كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية ، التى لا تؤمن إلا بالمحسوس ، والتى تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل ، مما يوحي بأن فترة الإذلال التى قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا . وليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذى ينشئه الطغيان الطويل ، والذى يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوماتها ، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد. ومن ثم يجدفون هذا التجديف . ويتعنتون هذا التعنت: (وإذ قلتم:يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف ، وهم على الجبل فى الميقات المعلوم: (فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون). . ومرة أخرى تدركهم رحمة الله ، وتوهب لهم فرصة الحياة عسى أن يذكروا ويشكروا ، ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة: (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون). . ويذكرهم برعايته لهم فى الصحراء الجرداء حيث يسر لهم طعاما شهيا لا يجهدون فيه ولا يكدون ، ووقاهم هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره اللطيف: (وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). . وتذكر الراويات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة . أن الله سخر لهم(المن)يجدونه على الأشجار حلوا كالعسل ، وسخر لهم(السلوى)وهو طائر السمانى يجدونه بوفرة قريب المنال . وبهذا توافر لهم الطعام الجيد ، والمقام المريح ، وأحلت لهم هذه الطيبات . . ولكن

(ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (٥٩)

أتراهم شكروا واهتدوا . . إن التعقيب الأخير فى الآية يوحى بأنهم ظلموا وجحدوا . وإن كانت عاقبة ذلك عليهم ، فما ظلموا إلا أنفسهم ! (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). . ويمضى السياق فى مواجهتهم بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود(وإذ قلنا:ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا:حطة . نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ، بما كانوا يفسقون) وتذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هى بيت المقدس ، التى أمر الله بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها ، ويخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها , والتى نكص بنو إسرائيل عنها وقالوا: (يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون). . والتى قالوا بشأنها لنبيهم موسى – عليه السلام –: (إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون !). . ومن ثم كتب عليهم ربهم التيه أربعين سنة ، حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع بن نون ، فتح المدينة ودخلها . . ولكنهم بدلا من أن يدخلوها سجدا كما أمرهم الله ، علامة على التواضع والخشوع ، ويقولوا:حطة . . أى حط عنا ذنوبنا واغفر لنا . . دخلوها على غير الهيئة التى أمروا بها ، وقالوا قولا آخر غير الذى أمروا به . . والسياق يواجههم بهذا الحادث فى تاريخهم ؛ وقد كان مما وقع بعد الفترة التى يدور عنها الحديث هنا – وهى عهد موسى – ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة ، قديمه كحديثه ، ووسطه كطرفيه . . كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف ! وأيا كان هذا الحادث ، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه ، ويذكرهم بحادث يعلمونه . . فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة ؛ وأمرهم أن يدخلوها فى هيئة خشوع وخضوع ، وأن يدعوا الله ليغفر لهم ويحط عنهم ؛ ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته . فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود: (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم). . ويخص الذين ظلموا بالذكر . إما لأنهم كانوا فريقا منهم هو الذى بدل وظلم . وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعا ، إذا كان قد وقع منهم جميعا . (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون). . والرجزهو العذاب . والفسوق هوالمخالفة والخروج . . وكانت هذه واحدة من أفاعيل بنى إسرائيل ! وكما يسر الله لبنى إسرائيل الطعام فى الصحراء والظل فى الهاجرة ، كذلك أفاض عليهم الرى بخارقة من الخوارق الكثيرة التى أجراها الله على يدى نبيه موسى – عليه السلام – والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم فى هذا المقام ، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام:

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

لقد طلب موسى لقومه السقيا . طلبها من ربه فاستجاب له . وأمره أن يضرب حجرا معينا بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدة أسباط بنى إسرائيل ، وكانوا يرجعون إلى اثنى عشر سبطا بعدة أحفاد يعقوب – وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه – وأحفاد إسرائيل - أو يعقوب – هم المعروفون باسم الأسباط ، (قد علم كل أناس مشربهم). . أى العين الخاصة بهم من الاثنتى عشرة عينا . وقيل لهم ، على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد: (كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا

تعثوا فى الأرض مفسدين). . لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها . فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى:عسلا وطيرا . . ولكن البنية النفسية المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التى من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا فى الصحراء . . لقد أخرجهم الله – على يدى نبيهم موسى – عليه السلام – من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعة . . وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التى ناطهم الله بها فدية . ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة ، فى طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة . إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التى ألفوها فى مصر . يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء . ولقد تلقى موسى – عليه السلام – طلبهم بالإستنكار: (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟). . أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية ؟ (اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم). . إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد ، لا يستحق الدعاء ؛ فهو موفور فى أى مصر من الأمصار ، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها . . وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التى أخرجتم منها . . عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة . إلى حياتكم الخانعة الذليلة . . حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! ودعوا الأمور الكبار التى ندبتم لها .

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة . فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبيائهم وقد كفروا أشنع الكفر ، واعتدوا أشنع الاعتداء ، وعصوا أبشع المعصية . و كانوا دائما يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون ، وهم وحدهم شعب الله المختار ، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله ؛. وهنا يكذب القرآن هذه الدعاوى العريضة ، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية ، التى تتخلل القصص القرآنى ، أو تسبقه أو تتلوه . يقرر قاعدة وحدة الإيمان . . ووحدة العقيدة ، متى انتهت إلى إسلام النفس لله ، والإيمان به إيمانا ينبثق منه العمل الصالح . وإن فضل الله ليس حجرا محجورا على عصبية خاصة ، إنما هو للمؤمنين أجمعين ، فى كل زمان وفى كل مكان ، كل بحسب دينه الذى كان عليه (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين – من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا – فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين آمنوا يعنى بهم المسلمين . والذين هادوا هم اليهود – إما بمعنى عادوا إلى الله ، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا – والنصارى هم اتباع عيسى – عليه السلام – والصابئون:الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركى العرب قبل البعثة ، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام ، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها ، فاهتدوا إلى التوحيد ، وقالوا:إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ، ملة إبراهيم والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخروعمل صالحا ، فإن لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فالعبرة بحقيقة العقيدة ، لا بعصبية جنس أو قوم . . وذلك طبعا قبل البعثة المحمدية . أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

وتفصيل هذا الميثاق وارد فى سور أخرى ، وبعضه ورد فى هذه السورة فيما بعد . والمهم هنا هو استحضار المشهد ، والتناسق النفسى والتعبيرى بين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد ، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة . وأن يعزموا فيه عزيمة . فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع ، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة . . إنه عهد الله مع المؤمنين . . (خذوا ما آتيناكم بقوة). (واذكروا ما فيه لعلكم تتقون). . ولا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم . . لا بد مع هذا من تذكر ما فيه ، واستشعار حقيقته ، والتكيف بهذه الحقيقة ،. فعهد الله منهج حياة ، منهج يستقر فى القلب تصورا وشعورا ، ويستقر فى الحياة وضعا ونظاما ، ويستقر فى السلوك أدبا وخلقا ، وينتهى إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير . (ثم توليتم من بعد ذلك) ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى وشملها فضله العظيم ؛ فأنقذها من الخسار المبين: (فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين). . ومرة أخرى يواجههم بمظهر من مظاهر النكث والنكسة ، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك به ، والضعف عن احتمال تكاليفه ، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب:

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

. فلقد طلبوا أن يكون لهم يوم راحة مقدس ، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدسا لا يعملون فيه للمعاش . ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تكثر يوم السبت ، وتختفى فى غيره ! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود ! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع ؟ أتتركه وفاء بعهد واستمساكا بميثاق ؟ إن هذا ليس من طبع يهود ! ومن ثم اعتدوا فى السبت . اعتدوا على طريقتهم الملتوية . راحوا يحوطون على الحيتان فى يوم السبت ، ويقطعونها عن البحر بحاجز ، ولا يصيدونها ! حتى إذا انقضى اليوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز ! (فقلنا لهم:كونوا قردة خاسئين). . لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله ،. وليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم ، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر فى السحنة وتلقى ظلها العميق ! ومضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين فى زمانها وفيما يليه ، وموعظة نافعة للمؤمنين فى جميع العصور: (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين). . وفى نهاية هذا الدرس تجىء قصة "البقرة" . . تجىء مفصلة وفى صورة حكاية ، لا مجرد إشارة كالذى سبق ، ذلك أنها لم ترد من قبل فى

السور المكية ، كما أنها لم ترد فى موضع آخر ؛ وهى ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة ، وتمحل المعاذير ، التى تتسم بها إسرائيل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)

إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه ، انقطاع الصلة بين قلوبهم ، وذلك النبع الشفيف الرقراق ، نبع الإيمان بالغيب ، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل . ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان ! لقد قال لهم نبيهم: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة). . وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ . فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين ، برحمة من الله ورعاية وتعليم ؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه ، إنما هو أمر الله ، الذى يسير بهم على هداه . . فماذا كان الجواب ؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم ! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله (قالوا:أتتخذنا هزوا ؟). وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله ؛ وأن يردهم برفق ، وعن طريق التعريض والتلميح ، إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق جل علاه ؛ وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله (قال:أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين). . وكان فى هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم ، ويرجعوا إلى ربهم ، وينفذوا أمر نبيهم . . ولكنها إسرائيل ! نعم . لقد كان فى وسعهم – وهم فى سعة من الأمر – أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها ، فإذا هم مطيعون لأمر الله ، منفذون لإشارة رسوله . ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم ، فإذا هم يسألون: (قالوا:ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟). . والسؤال بهذه الصيغة يشى بأنهم ما يزالون فى شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم ! فهم أولا:يقولون: (ادع لنا ربك). . فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك ! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ! وهم ثانيا:يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: (ما هى ؟)والسؤال عن الماهية فى هذا المقام - وإن كان المقصود الصفة – إنكار واستهزاء . . ما هى ؟ إنها بقرة . وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة . بقرة وكفى ! هنا كذلك يردهم موسى إلى الجادة ، بأن يسلك فى الإجابة طريقا غير طريق السؤال . إنه لا يجبههم بانحرافهم فى صيغة السؤال كى لا يدخل معهم فى جدل شكلى . . إنما يجيبهم كما ينبغى أن يجيب المعلم المربى من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين . يجيبهم عن صفة البقرة: قال:إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك . .) إنها بقرة لا هى عجوز ولا هى شابة ، وسط بين هذا وذاك . ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة: (فافعلوا ما تؤمرون). . ولقد كان فى هذا كفاية لمن يريد الكفاية ؛ وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين ، أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم ، لا عجوز ولا صغيرة ، متوسطة السن ، فيخلصوا بها ذمتهم ، وينفذوا بذبحها أمر ربهم . . ولكن إسرائيل هى إسرائيل ! لقد راحوا يسألون: (قالوا:ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟). . هكذا مرة أخرى: (ادع لنا ربك)! (قال:إنه يقول ، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). . وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار – وكانوا من الأمر فى سعة – فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة . . مجرد بقرة . . بل عن بقرة متوسطة السن ، لا كبيرة ولا صغيرة ، وهى بعد هذا صفراء فاقع لونها ؛

(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)

وهى بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء: (تسر الناظرين). . وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على جمال ونشاط تلك البقرة المطلوبة ولم يكن بد أن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا ، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة ، كانوا فى سعة منها وفى غنى عنها (قال:إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها) وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر . صفراء فاقع لونها فارهة فحسب . بل لم يعد بد أن تكون – مع هذا – بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع ؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة . هنا فقط . . وبعد أن تعقد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار (قالوا:الآن جئت بالحق). . الآن ! كأنما كان كل ما مضى ليس حقا (فذبحوها وما كادوا يفعلون)!! عندئذ - وبعد تنفيذ الأمر كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف :(وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا:اضربوه ببعضها . كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون). . وهنا نصل إلى الجانب الثانى من جوانب القصة . جانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة :لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة . . لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم ; ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه . ولم يكن هناك شاهد ؛ فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه ، وذلك بضربه بجزء منها. . وهكذا كان ، فعادت إليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله ، وليجلو الشكوك التى أحاطت بمقتله ولكن . فيم كانت هذه الوسيلة ، والله قادر على أن يحيى الموتى بلا وسيلة ؟ ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث ؟

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِى اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

إن البقر يذبح قربانا كما كانت عادة بنى إسرائيل . . وبضعة من بقرة مذبوحة ترد بها الحياة إلى جسد قتيل . وما فيها حياة ولا قدرة على الأحياء . . إنما هى مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ، التى لا يعرف (كذلك يحيى الله الموتى). بمثل

هذا الذى ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع ؛ وبمثل هذا اليسر الذى لا مشقة فيه ولا عسر . وتعقيبا على كل ما سلف من المشاهد و الأحداث والعبر والعظات ، تجىء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون). . والحجارة التى يقيس قلوبهم إليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى . . هى حجارة لهم بها سابق عهد . فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا ، ورأوا الجبل ينـدك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا ! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى . . قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة . . ومن ثم هذا التهديد (وما الله بغافل عما تعملون). وبهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع بنى إسرائيل فى تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب , والالتواء

(أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ٧٥

فالأن يأخذ السياق فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل , ويبصرها بأساليبهم ووسائلهم فى الكيد والفتنة ؛ ويحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم ، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة فى الفتنة والتضليل . ويدل طول هذا الحديث ، وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود !

(وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُوٓاْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) ٧٨ (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٠)

(أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم . .(فتكون لهم الحجة عليكم ؟ . . وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه ؛ فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ! . . وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض فى هذا: (أفلا تعقلون ؟). . فيا للسخرية من العقل والتعقل الذى يتحدثون عنه مثل هذا الحديث !! ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هـذا قبل أن يمضى فى استعراض ما يقولون وما يفعلون: (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟). . ثم يستطرد يقص على المسلمين من أحوال بنى إسرائيل:إنهم فريقان . فريق أمى جاهل ، لا يدرى شيئا من كتابهم الذى نزل عليهم ، ولا يعرف منه إلا أوهاما وظنونا ، وإلا أمانى فى النجاة من العذاب ، بما أنهم شعب الله المختار ، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام ! وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزور على كتاب الله ، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة ، ويكتم منه ما يشاء ، ويبدى منه ما يشاء ويكتب كلاما من عند نفسه يذيعه فى الناس باسم أنه من كتاب الله . . كل هذا ليربح ويكسب , ويحتفظ بالرياسة والقيادة: (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون:هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون). ولا تتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء . . أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم . . علام يعتمدون فى هذه الأمنية ? علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون ؟ (وقالوا:لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل:أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟). . وهذا هو التلقين الإلهى للحجة الدامغة: (أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده . .(? فأين هو هذا العهد ؟ (أم تقولون على الله ما لا تعلمون). . وهذا هو الواقع . فالاستفهام هنا للتقرير . ولكنه فى صورة الاستفهام (بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) (بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته . .). . الخطيئة كسب ؟ إن المعنى الذهنى المقصود هو اجتراح الخطيئة . ولكن التعبير يومىء إلى حالة نفسية معروفة . . إن الذى يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ; ويحسبها كسبا له – على معنى من المعانى – ولو أنها كانت كريهة فى حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمسا وفى التعبير: (وأحاطت به خطيئته). . تجسيم لهذا المعنى . عندئذ . . عندما تغلق منافذ التوبة على النفس فى سجن الخطيئة . . عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم: (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). . ثم يتبع هذا الشطر بالشطر المقابل من الحكم . (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون). . فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب فى

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)

. ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بنى إسرائيل ، ذلك الميثاق الذى أخذه عليهم فى ظل الجبل ، والذى أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه . . أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله . هذه القواعد التى جاء بها الإسلام أيضا ,فتنكروا لها وأنكروها . لقد تضمن ميثاق الله معهم:ألا يعبدوا إلا الله . . القاعدة الأولى للتوحيد المطلق . وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين . وتضمن خطاب الناس بالحسنى ، وفى أولها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة . وهذه فى مجموعها هى قواعد الإسلام وتكاليفه . . ومن ثم تتقرر حقيقتان:الأولى هى وحدة دين الله ؛ وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله فى أصوله . والثانية هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين ، (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ?). . ولقد كان هذا الذى

يواجههم به واقعا قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج . كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان أشد ما يكون حيان من العرب عداء . وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحى وذاك من المشركين . . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ؛ فيقتل اليهودى أعداءه .

(ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) ٨٥ (أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)

وقد يقتل اليهودى اليهودى من الفريق الآخر – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم - وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى , وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء – وذلك عملا بحكم التوراة وقد جاء فيها:إنك لا تجد مملوكا من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته . . هذا التناقض هو الذى يواجههم به القرآن ؛ وهو يسألهم فى استنكار: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟). . وهذا هو نقض الميثاق الذى يتهددهم عليه بالخزى فى الحياة الدنيا ، والعذاب الأشد فى الآخرة . (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون). . ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعا ، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم: (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) وكذبوا إذن فى دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياما معدودة . . فهؤلاء هم هناك:) فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون). . ثم يمضى السياق يواجه بنى إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء . . أنبيائهم هم ، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءوهم بالحق ، الذى لا يخضع للأهواء . . (ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ؛ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون ؟). . ولقد كانت حجة بنى إسرائيل فى إعراضهم عن الإسلام ، وإبائهم الدخول فيه ، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم ، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم . . فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم . ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق ، الذى لا يخضع لأهوائهم .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧)

أن رسلهم توالت تترى ، يقفو بعضهم بعضا ؛ وكان آخرهم عيسى بن مريم . وقد آتاه الله المعجزات البينات ، وأيده بروح القدس جبريل – عليه السلام – فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام ؟ (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم:ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون !) ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة . ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة ، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنسانى ذاته ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم ..قالوا:إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة ، ولا تستمع إلى داعية جديد ! قالوها تيئيسا لمحمد ﷺ وللمسلمين ، من دعوتهم إلى هذا الدين ؛ أو تعليلا لعدم استجابتهم لدعوة الرسول .

(وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ) ٨٨ (وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) ٨٩ (بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (٩٠)

ويقول الله ردا على قولتهم: (بل لعنهم الله بكفرهم). . أى إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم . فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى . . (فقليلا ما يؤمنون). . أى قليلا ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذى حق عليهم جزاء كفرهم السابق ، وضلالهم القديم . أو أن هذه حالهم:أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان ، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريرا لحقيقتهم وقد كان كفرهم قبيحا ، لأنهم كفروا بالنبى الذى ارتقبوه ، واستفتحوا به على الكافرين ,أى ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم . وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ، بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فباؤوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين). . وبماذا خرجوا فى النهاية ؟ خرجوا بالكفر ، هو وحده الذى كسبوه وأخذوه ! وكان الذى حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التى انتظروها فيهم ، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وهذه الطبيعة التى تبدو هنا فى يهود هى الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد ؛. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: (بغيا . . أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده). . (وإذا قيل لهم:آمنوا بما أنزل الله قالوا:نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم). . وكان هذا هو الذى يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام . كانوا يقولون(نؤمن بما أنزل علينا).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) ٩١ (وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (٩٣)

وما لهم وللحق ؟ وما لهم أن يكون مصدقا لما معهم ! ما داموا لم يستأثروا هم به ؟ إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم . لا بل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به . . ويلقن الله نبيه ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة ، كشفا لموقفهم وفضحا لدعواهم: (قل:فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟). . لم تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقا تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذى جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟ لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى – نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون). . فهل اتخاذكم العجل من بعدما جاءكم موسى بالبينات ، وفى حياة موسى نفسه ، كان من وحى الإيمان ؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة . بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور:خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا:سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . .) والسياق هنا يلتفت إلى المؤمنين – وإلى الناس جميعا – فيطلعهم على ما كان منهم . . ثم يلقن الرسول ﷺ أن يجبههم بالتردىل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذى يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح (قل:بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين !). .

(قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

. إنه التصوير . . هو السمة البارزة فى التعبير القرآنى الجميل . ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة . . إنهم شعب الله المختار . إنهم وحدهم المهتدون . إنهم وحدهم الفائزون فى الآخرة . إنه ليس لغيرهم من الأمم فى الآخرة عند الله نصيب . وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد ﷺ لا نصيب لهم فى الآخرة . والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبوعود رسولهم ووعود القرآن لهم . . فأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو اليهود إلى مباهلة . أى بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) ويعقب على هذا التحدى بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة ، ولن يطلبوا الموت . لأنهم يعلمون أنهم كاذبون ؛ ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم . وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة . وعندئذ قد خسروا الدنيا بالموت الذى طلبوه ، وخسروا الآخرة بالعمل السيىء الذى قدموه . . ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدى . فهم أحرص الناس على حياة . وهم والمشركون فى هذا سواء: (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون). ليس هذا فحسب . ولكنها خصلة أخرى فى يهود ، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة). . أية حياة ، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق ! حياة فقط ! حياة بهذا التنكير والتحقير ! حياة ديدان أو حشرات ! حياة والسلام ! إنها يهود ، فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء . وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة . فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس ، وعنت الجباه جبنا وحرصا على الحياة . . أى حياة ! (ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون). . يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة . وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ، ولا تطمع فى غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة . . إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . ويمضى السياق بتلقين جديد من الله لرسوله ﷺ يتحداهم به ، ويعلن الحقيقة التى يتضمنها على رؤوس الأشهاد:

(قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)

وفى قصة هذا التحدى نطلع على سمة أخرى من سمات يهود . سمة عجيبة حقا . . لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغا يتجاوز كل حد ، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم فى عقل . . لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحى من عند الله على محمد ﷺ ولما كان عداؤهم لمحمد ﷺ قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة ، فيزعموا أن جبريل عدوهم ، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب ؛ وأن هذا هو الذى يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ من جراء صاحبه جبريل ! ولو كان الذى ينزل إليه بالوحى هو ميكائيل لآمنوا ، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب ! إنها الحماقة المضحكة (قل:من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله). . فما كان له من هوى شخصى ، ولا إرادة ذاتية ، فى أن ينزله على قلبك ، إنما هو منفذ لإرادة الله وإذنه فى تنزيل هذا القرآن على قلبك . . . والقلب يعبر به فى القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال . نزله على قلبك . . (مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين). . وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون ! وكانوا – كعادتهم فى تفريق الدين وتفريق الرسل – قد فرقوا بين ملائكة الله! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسله ، لبيان وحدة الجميع ، ولإعلان أن من عادى أحدا منهم فقد عاداهم جميعا ، وعادى الله سبحانه ، فعاداه الله . فهو من الكافرين . . (من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين). ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ يثبته على ما أنزل عليه من الحق ، وما آتاه من الآيات البينات ، مقررا أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون . ويندد ببنى إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد . سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل ، أو عهودهم مع رسول الله ﷺ

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١)

لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بنى إسرائيل بتلك الآيات البينات التى أنزلها الله . . إنه الفسوق وانحراف الفطرة . فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات . وهى تفرض نفسها فرضا على القلب المستقيم . فإذا كفر بها اليهود – أو غيرهم –فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة ، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون . ثم يلتفت إلى المسلمين – وإلى الناس عامة – منددا بهؤلاء اليهود ، كاشفا عن سمة من سماتهم الوبيئة . . إنهم جماعة مفككة الأهواء – رغم تعصبها الذميم – فهم لا يجتمعون على رأى ، ولا يثبتون على عهد ، ولا يستمسكون بعروة . (أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون). . وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل ، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد ، وأخيرا نبذ فريق منهم عهدهم الذى أبرموه مع النبى ﷺ أول مقدمه إلى المدينة ؛ وهو العهد الذى وادعهم فيه بشروط معينة ، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه ؛ وأول من عاب دينة ، وحاول بث الفرقة والفتنة فى الصف المسلم ، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه . . (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون). . وكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه . فلقد كان ضمن الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه ، وأن ينصروه ويحترموه . فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، خاسوا بذلك العهد ، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم .

(وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٣)

ثم ماذا ؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم ؟ لقد تركوا ما أنزل الله مصدقا لما معهم ؛ وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين عن عهد سليمان ، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون:إنه كان ساحرا , وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه ويستخدمه . والقرآن ينفى عن سليمان – عليه السلام – أنه كان ساحرا ، فيقول: (وما كفر سليمان). كأنه يعد السحر واستخدامه كفرا ينفيه عن سليمان – عليه السلام – ويثبته للشياطين (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر). . ثم ينفى أن السحر منزل من عند الله على الملكين:هاروت وماروت . اللذين كان مقرهما بابل: (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت). . ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما ، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس ، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما ! فنفى القرآن هذه الفرية أيضا . فرية تنزيل السحر على الملكين . ثم يبين الحقيقة ، وهى أن هذين الملكين هما فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة . وأنهما كانا يقولان لكل من يجىء اليهما ، طالبا منهما أن يعلماه السحر: (... إنما نحن فتنة فلا تكفر). . ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفرا ؛ ويذكر هذا على لسان الملكين:هاروت وماروت . (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه). . وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الإسلامى الأساسية ، وهى أنه لا يقع شىء فى هذا الوجود إلا بإذن الله: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله). . ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون ، وما يفرقون به بين المرء وزوجه . . إنه شر عليهم هم أنفسهم لا خير: (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم). . ويكفى أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضرا خالصا لا نفع فيه ! (ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق). . ولقد علموا أن الذى يشتريه لا نصيب له فى الآخرة ، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد له فى الآخرة وكل نصيب . . فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة: (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون). . (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

يمضى هذا الدرس فى كشف دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين ؛ وتحذير الجماعة المسلمة من ألاعيبهم وحيلهم ، وما تكنه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر ، وما يبيتون لهم من الكيد والضر ؛ ونهى الجماعة المسلمة عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب فى قول أو فعل ؛ ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الدفينة التى تكمن وراء أقوال اليهود وأفعالهم ، وكيدهم ودسهم ، وألاعيبهم وفتنهم ، التى يطلقونها فى الصف الإسلامى . ويبدو أن اليهود كانوا يتخذون من نسخ بعض الأوامر والتكاليف ، وتغييرها وفق مقتضيات النشأة الإسلامية الجديدة ، والظروف والملابسات التى تحيط بالجماعة المسلمة . . يبدو أنهم كانوا يتخذون من هذا ذريعة للتشكيك فى مصدر هذه الأوامر والتكاليف ؛ ويقولون للمسلمين:لو كانت من عند الله ما نسخت ولا صدر أمر جديد يلغى أو يعدل أمرا سابقا . . واشتدت هذه الحملة عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرا من الهجرة . وكان النبى ﷺ قد اتجه بالصلاة عقب الهجرة إلى بيت المقدس قبلة اليهود ومصلاهم ، فاتخذ اليهود من هذا التوجه حجة على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هى القبلة ؛ مما جعل الرسول ﷺ يرغب ولا يصرح فى التحول عن بيت المقدس إلى الكعبة ، بيت الله المحرم . وظلت هذه الرغبة تعتمل فى نفسه حتى استجاب له ربه فوجهه إلى القبلة التى يرضاها كما سيجىء فى سياق السورة ونظرا لما يحمله هذا التحول من دحض لحجة بنى إسرائيل فقد عز عليهم أن يفقدوا مثل هذه الحجة ، فشنوها حملة دعاية ماكره فى وسط المسلمين ، بالتشكيك فى مصدر الأوامر التى يكلفهم بها رسول الله ﷺ وفى صحة تلقيه عن الوحى . . أى إنهم وجهوا المعول إلى أساس العقيدة فى نفوس المسلمين ! ثم قالوا لهم:إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلا فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة . وإن كان صحيحا .ففيم التحول عنه ؟ أى أنهم وجهوا المعول إلى أساس الثقة فى نفوس المسلمين برصيدهم من ثواب الله ، وقبل كل شىء فى حكمة القيادة النبوية ! ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة فى بعض نفوس المسلمين . فأخذوا يسألون الرسول ﷺ فى قلق وزعزعة ؛ ويطلبون البراهين والأدلة ، الأمر الذى لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة ، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة . فنزل القرآن يبين لهم أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذى يختار الأحسن لعباده ; ويعلم ما يصلح لهم فى كل موقف . وينبههم فى الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو ردهم كفارا بعد إيمانهم ؛ حسدا من عند أنفسهم على اختيار

الله لهم ، واختصاصهم برحمته وفضله ، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم ، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم . ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غرض دفين ! ويفند دعواهم الكاذبة فى أن الجنة من حقهم وحدهم . ويقص عليهم التهم المتبادلة بين فريقى أهل الكتاب إذ يقول اليهود:ليست النصارى على شيء ، وتقول النصارى ليست اليهود على شيء ؛ وكذلك يقول المشركون عن الجميع ! ثم يفظع نيتهم التى يخفونها من وراء قصة القبلة ؛ وهى منع الاتجاه إلى الكعبة بيت الله ومسجده الأول ، ويعده منعا لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيا فى خرابها . ويمضى السياق فى هذا الدرس على هذا النحو ، حتى ينتهى إلى أن يضع المسلمين وجها لوجه أمام الهدف الحقيقى لأهل الكتاب من اليهود والنصارى . . إنه تحويل المسلمين من دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبى ﷺ حتى يتبع ملتهم ، وإلا فهى الحرب والكيد والدس إلى النهاية ! وهذه هى حقيقة المعركة التى تكمن وراء الأباطيل والأضاليل ، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة

(مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {١٠٥} مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) {١٠٦}

يتجه الخطاب فى مطلع هذا الدرس إلى (الذين آمنوا)يناديهم بالصفة التى تميزهم ، والتى تربطهم بربهم ونبيهم ، وبهذه الصفة ينهاهم أن يقولوا للنبى ﷺ راعنا من الرعاية والنظر وأن يقولوا بدلا منها مرادفها فى اللغة العربية:(أنظرنا). . ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة ، ويحذرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم: وتذكر الروايات أن السبب فى ذلك النهى عن كلمة(راعنا). . أن سفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم فى نطق هذا اللفظ ، وهم يوجهونه للنبى ﷺ حتى يؤدى معنى آخر مشتقا من الرعونة . فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبى ﷺمواجهة ، فيحتالون على سبه ﷺ عن هذا الطريق الملتوى ، الذى لا يسلكه إلا صغار السفهاء ! ومن ثم جاء النهى للمؤمنين عن اللفظ الذى يتخذه اليهود ذريعة ، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه فى المعنى ، الذى لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته . كى يفوتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه !ثم يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء ، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد ، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل . ليحذروا أعداءهم ، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان ، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه :(ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم . والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم). . ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين فى الكفر وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية ؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير . وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين . هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن ، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة فى الأرض ، وهى الأمانة الكبرى فى الوجود . (والله يختص برحمته من يشاء). . فالله أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فإذا اختص بها محمدا ﷺ والمؤمنين به (والله ذو الفضل العظيم). . وفى هذا التلميح ما يستجيش فى قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل ، وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف فى وجه حملة البلبلة والتشكيك التى قادها اليهود لتوهين العقيدة فى نفوس المؤمنين. وكانت الحملة تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف . وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة . الأمر الذى أبطل حجتهم على المسلمين:

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (١٠٨)

فإن القرآن يبين هنا بيانا حاسما فى شأن النسخ والتعديل ؛ وفى القضاء على تلك الشبهات التى أثارتها يهود ، على عادتها وخطتها فى محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب . فالتعديل الجزئى وفق مقتضيات الأحوال – فى فترة الرسالة – هو لصالح البشرية ، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها . والله خالق الناس ، ومرسل الرسل ، ومنزل الآيات ، هو الذى يقدر هذا . فإذا نسخ آية القاها فى عالم النسيان – سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكما من الأحكام ، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التى جاء بها الرسل – فإنه يأتى بخير منها أو مثلها ! ولا يعجزه شيء ، وهو مالك كل شيء ، وصاحب الأمر كله فى السماوات وفى الأرض . . ومن ثم تجيء هذه التعقيبات: (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ؟ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير ، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولى ولا نصير . .ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية ، وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ﷺ لا تتفق مع الثقة واليقين (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل). . فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى فى تعنتهم وطلبهم للبراهين والخوارق وإعناتهم لرسولهم أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف ، وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق ، وهى الضلال ، واستبدال الكفر بالإيمان ، وهى النهاية التى صار إليها بنو إسرائيل . كما أنها هى النهاية التى يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين ! (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذى فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين ، وما زالت تفيض ، وهو الذى انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال . وهو الذى يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه .

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)

وامضوا فى طريقكم التى اختارها الله لكم ، واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله . إن الله بما تعملون بصير). . وهكذا يوقظ السياق القرآنى وعى الجماعة المسلمة ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله. ويدعها طيبة فى انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة . . ثم يمضى فى

تفنيد دعاوى أهل الكتاب عامة:اليهود والنصارى ، وقولهم:إنهم هم المهتدون وحدهم ! وإن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم ! على حين يجبه كل فريق منهم الآخر بأنهم ليسوا على شيء ! (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم . قل:هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى ! من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود:ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى:ليست اليهود على شيء – وهم يتلون الكتاب – كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون). . والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة هم اليهود ؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود . ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء . ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء ! ويحكي رأى المشركين فى الطائفتين جميعا ! (وقالوا:لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى). . فقد كانت اليهود تقول:لن يدخل الجنة إلا من كان هودا - أى من يهود – وكانت النصارى تقول:لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى . . وهذه القولة كتلك ، لا تستند إلى دليل ومن ثم يلقن الله رسوله ﷺ أن يواجههم بالتحدى وأن يطالبهم بالدليل: (قل:هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). . وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد . إنما هو الإسلام والإحسان ، لا الاسم والعنوان ، فسمة الإسلام هى الوحدة بين الشعور والسلوك , بين العقيدة والعمل ، بين الإيمان القلبى والإحسان العملى . . بذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{١١٢} وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{١١٣}

الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم . . والأمن الموفور لا يساوره خوف ، والسرور الفائض لا يمسه حزن . . وتلك هى القاعدة العامة التى يستوى عندها الناس جميعا . فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة ! ولقد كانوا – يهودا ونصارى – يطلقون تلك الدعوى العريضة ، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء ؛ وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها :والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب ؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالإتهام ، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيرا على خرافات العرب وأساطيرهم فى الشرك ونسبة الأبناء – أو البنات – لله سبحانه ; فكانوا يزهدون فى دين اليهود ودين النصارى ويقولون:إنهم ليسوا على شيء ! والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض ؛ عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى فى ملكية الجنة ! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله: (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون). فهو الحكم العدل ، وإليه تصير الأمور . . وهذه الإحالة إلى حكم الله هى وحدها المجدية فى مواجهة قوم لا يستمدون من منطق ، ولا يعتمدون على دليل ، بعد دحض دعواهم العريضة فى أنهم وحدهم أهل الجنة ، وأنهم وحدهم المهديون ! ثم يعود إلى ترذيل محاولتهم تشكيك المسلمين فى صحة الأوامر والتبليغات النبوية – وبخاصة ما يتعلق منها بتحويل القبلة – ويعدها سعيا فى منع ذكر الله فى مساجده ، وعملا على خرابها

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة ؛ وسعى اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة . . أول بيت وضع للناس ،أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين). . أى أنهم يستحقون المطاردة والحرمان من الأمن ، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين. وهناك تفسير آخر لقوله: (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) أى أنه ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا فى خوف من الله وخشوع لجلالته فى بيوته . فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله ، المناسب لمهابته وجلاله العظيم . . وهو وجه من التأويل جائز فى هذا المقام . ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزى فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة (لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) والذى يجعلنا نرجح أن الآيتين نزلتا فى مناسبة تحويل القبلة ، هو الآية الثانية منهما :(ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم). فهى توحى بأنها جاءت ردا على تضليل اليهود فى ادعائهم إن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلة ، وضائعة ولا حساب لها عند الله ! والآية ترد عليهم هذا الزعم , وهى تقرر أن كل اتجاه قبلة ، فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد . وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة ، لا أن وجه الله – سبحانه – فى جهة دون جهة . والله لا يضيق على عباده ، ولا ينقصهم ثوابهم ، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم . وفى الأمر سعة . والنية لله (إن الله واسع عليم). . .بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية ، وانحرافهم عن التوحيد الذى هو قاعدة دين الله ، وأساس التصور الصحيح فى كل رسالة . ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله – سبحانه – وصفاته . ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب ، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك ، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيمانى الصحيح:

(وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ {١١٦} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ {١١٧} وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ {١١٨}

وهذه المقولة الفاسدة: (اتخذ الله ولدا). . ليست مقولة النصارى وحدهم فى المسيح , فهى كذلك مقولة اليهود فى العزير . كما كانت مقولة المشركين فى الملائكة . ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات ، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التى كانت تناهض الإسلام يومئذ فى الجزيرة – ومن عجب أنها لا تزال هى التى تناهضه اليوم تماما ، ممثلة فى الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ، والشيوعية العالمية ، وهى أشد كفرا من المشركين فى ذلك الحين ! – ومن هذا الإدماج تسقط دعوى

اليهود والنصارى فى أنهم وحدهم المهتدون ؛ وها هم أولاء يستوون مع المشركين ! وقبل أن يمضى إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله – سبحانه – يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور ، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعا (سبحانه ! بل له ما فى السماوات والأرض ، كل له قانتون . بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن . فيكون). . هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه ، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه ، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق ، وهى أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعا . . لقد صدر الكون عن خالقه ، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة (كن ، فيكون). . فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن ، على الصورة المقدرة له ، بدون وسيط من قوة أو مادة . . أما كيف تتصل هذه الإرادة التى لا نعرف كنهها ، بذلك الكائن المراد صدوره عنها ، فذلك هو السر الذى لم يكشف للإدراك البشرى عنه ، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه . وهى غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها فى وظيفتها التى خلقت لها وهى خلافة الأرض وعمارتها . . وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التى تفيده فى مهمته ، وسخر له الانتفاع بها ، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التى لا علاقة لها بخلافته الكبرى . . ولقد ضربت الفلسفات فى تيه لا منارة فيه ، وهى تحاول كشف هذه الأسرار ؛ وتفترض فروضا تنبع من الإدراك البشرى الذى لم يهيأ لهذا المجال ، ولم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه والارتياد . فتجىء هذه الفروض مضحكة فى أرفع مستوياتها . مضحكة إلى حد يحير الإنسان:كيف يصدر هذا عن "فيلسوف" ! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشرى عن طبيعة خلقته ، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له ! فلم ينتهوا إلى شىء يطمأن إليه ؛ بل لم يصلوا إلى شىء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامى ويعيش فى ظله والنظرية الإسلامية:أن الخلق غير الخالق . وأن الخالق ليس كمثله شىء . . ومن هنا تنتفى من التصور الإسلامى فكرة:"وحدة الوجود" على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح - أى بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة – أو أن الوجود إشعاع ذاتى للخالق , أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده . . أو على أى نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس . . والوجود وحدة فى نظر المسلم على معنى آخر:وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذى يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه فى عبادة وخشوع: (بل له ما فى السماوات والأرض كل له قانتون). . فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما فى السماوات والأرض ولدا . . فالكل من خلقه بدرجة واحدة ، وبأداة واحدة (بديع السماوات والأرض . وإذا قضى أمرا فإنما يقول له: كن فيكون). . وتوجه الإرادة يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشرى ، لأنها فوق طاقة الإدراك البشرى . فمن العبث إنفاق الطاقة فى اكتناه هذا السر ، والخبط فى التيه بلا دليل !(وقال الذين لا يعلمون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا اية ! كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم). والذين لا يعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين ؛ إذ لم يكن لديهم علم من كتاب . وكثيرا ما تحدوا النبى ﷺ أن يكلمهم الله أو أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية . . وذكر هذه المقولة هنا مقصود لبيان أن الذين من قبلهم – وهم اليهود وغيرهم - طلبوا مثل هذا من أنبيائهم . فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرة ، وطلبوا وتعنتوا فى طلب الخوارق المعجزة . فبين هؤلاء وهؤلاء شبه فى الطبيعة ، وشبه فى التصور ، وشبه فى الضلال: (تشابهت قلوبهم) فلا فضل لليهود على المشركين . وهم متشابهو القلوب فى التصور والعنت والضلال) (قد بينا الآيات لقوم يوقنون). . وإذا انتهت مقولاتهم ، وفندت أباطيلهم ، وكشفت الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم ، يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ يبين له وظيفته ، ويحدد له تبعاته ، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى ، وطبيعة الخلاف الذى لا حل له إلا بثمن لا يملكه ولا يستطيعه ! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه ؛ وحاشاه !

(إِنا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ {١١٩} وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ {١٢٠)

(إنا أرسلناك بالحق). . وهى كلمة فيها من التثبيت ما يقضى على شبهات المضللين ، ومحاولات الكائدين ، وتلبيس الملفقين . وفى جرسها صرامة توحى بالجزم واليقين (بشيرا ونذيرا). . وظيفتك البلاغ والأداء ، تبشر الطائعين وتنذر العصاة ، فينتهى دورك) .(ولا تسأل عن أصحاب الجحيم). . الذى يدخلون الجحيم بمعصيتهم ، وتبعتهم على أنفسهم . وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك ، إلا أن تترك هذا الحق ، وأن تتخلى عن هذا اليقين ، فتلك هى العلة الأصيلة . ليس الذى ينقصهم هو البرهان ؛ وليس الذى ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق ، وأن الذى جاءك من ربك الحق . ولو قدمت إليهم ما قدمت ، ولو توددت إليهم ما توددت ، لن يرضيهم من هذا كله شىء ، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق . إنها العقدة الدائمة التى نرى مصداقها فى كل زمان ومكان . . إنها هى العقيدة . هذه حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة . . إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين ! (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم). فذلك هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه . وما سواه فمرفوض ومردود ! ولكن الأمر الحازم ، والتوجيه الصادم (قل إن هدى الله هو الهدى) على سبيل القصر والحصر . هدى الله هو الهدى . وما عداه ليس بهدى . فلا براح منه , ولا فكاك عنه ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وحذار أن تميل بك الرغبة فى هدايتهم وإيمانهم (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير). . بهذا التهديد المفزع ، وبهذا الوعيد الرعيب . . ولمن ؟ لنبى الله ورسوله وحبيبه الكريم ! إنها الأهواء . . إن أنت ملت عن الهدى . . هدى الله الذى لا هدى سواه . . وهى الأهواء التى تقفهم منك هذا الموقف ؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته ، ومن ثم يؤمنون بالحق الذى معك ؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون ، لا أنت ولا المؤمنون ! وأى خسارة بعد خسارة الإيمان ، أعظم الاء الله على الناس فى هذا الوجود ؟ وبعد هذا

التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بنى إسرائيل . كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير ، بعد هذه المجابهة وهذ الجدل الطويل ، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم ، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبى ﷺ وخطاب المؤمنين . . هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة ، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة . . أمانة العقيدة . . التى نيطت بهم من قديم . . وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التى وجهها إليهم فى أول الجولة . . يا بنى إسرائيل . .

(يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{١٢٢} وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{١٢٣}

حقيقة الإسلام ووراثة الرسل

فى القطاعات التى مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب ، دائرا كله حول سيرة بنى إسرائيل ، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ، ومن مواثيقهم وعهودهم ، ابتداء من عهد موسى – عليه السلام – إلى عهد محمد ﷺ أكثره عن اليهود ، وأقله عن النصارى , مع إشارات إلى المشركين , عند السمات التى يلتقون فيها مع أهل الكتاب ، أو يلتقى معهم فيها أهل الكتاب . فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى . . يرجع إلى إبراهيم . . وقصة إبراهيم – على النحو الذى تساق به فى موضعها هذا – تؤدى دورها فى السياق ، كما أنها تؤدى دورا هاما فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة فى المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف . إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق – عليهما السلام – ويعتزون بنسبتهم إليه ، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده . ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون ! وإن قريشا لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبتها إليه ؛ وتستمد منها القوامة على البيت ، وعمارة المسجد الحرام ؛ وتستمد كذلك سلطانها الدينى على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ١٢٤

يقول للنبى ﷺ اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف , فأتمهن وفاء وقضاء . . وقد شهد الله لإبراهيم فى موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذى يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة:(وإبراهيم الذى وفى . .(وهو مقام عظيم ذلك المقام الذى بلغه إبراهيم . مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل . والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفى ولا يستقيم ! عندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى . أو تلك الثقة (قال إنى جاعلك للناس إماما). . إماما يتخذونه قدوة ، ويقودهم إلى الله ، ويقدمهم إلى الخير، عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر:الرغبة فى الامتداد عن طريق الذرارى والأحفاد . ذلك الشعور الفطرى العميق ، الذى أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضى فى طريقها المرسوم (قال ومن ذريتى ؟). . وجاءه الرد من ربه الذى ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التى أسلفنا ، إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور ، وبالصلاح والإيمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هى وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هى إلا دعوى الجاهلية ، التى تصطدم اصطداما أساسيا بالتصور الإيمانى الصحيح: (قال:لا ينال عهدى الظالمين). . .والظلم أنواع وألوان:ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغى . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معانى الإمامة:امامة الرسالة ، وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة . وهذا الذى قيل لإبراهيم – عليه السلام – وهذا العهد بصيغته التى لا التواء فيها ولا غموض قاطع فى

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا أنبتت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل ، هذا البيت الحرام الذى قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره . . لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعا ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى – ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره فى تفسيره – فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعى ، الذى لا يثير اعتراضا . وهو أولى قبلة يتوجه إليها المسلمون ، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، بما أنه بيت الله ، لا بيت أحد من الناس . وقد عهد الله - صاحب البيت – إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود – أى للحجاج الوافدين عليه ، وأهله العاكفين فيه ، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما ، فيورث بالنسب عنهما ، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما ، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ١٢٧ (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

ومرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت . ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير . . إن إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له فى الأولى . لقد وعى منذ أن قال له ربه: (لا ينال عهدى الظالمين). . فهو هنا فى دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات , يحترس ويستثنى ويحدد من يعنى: (من آمن منهم بالله واليوم الآخر). . إنه إبراهيم الأواه الحليم القانت

المستقيم ، يتأدب بالأدب الذى علمه ربه ، فيراعيه فى طلبه ودعائه . . وعندئذ يجيئه رد ربه مكملا ومبينا عن الشطر الآخر الذى سكت عنه . شطر الذين لا يؤمنون ، ومصيرهم الأليم: (قال:ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير). . ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذى تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود . . يرسمه مشهودا كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما فى آن: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل:ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا , إنك أنت التواب الرحيم وبينما نحن فى انتظار بقية الخبر ، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا إياهما , كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال . إنهما أمامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان: فنغمة الدعاء ، ، وجو الدعاء . . كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة .. إنه طلب القبول . . هذه هى الغاية . . فهو عمل خالص لله ،(ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم). إنه رجاء العون من ربهما فى الهداية إلى الإسلام .

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٣٠)

وهى دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل , وهو همه الأول . وشعور إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بقيمة النعمة التى أسبغها الله عليهما . . نعمة الإيمان . . تدفعهما إلى الحرص عليها فى عقبهما ، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذى لا يكافئه إنعام . وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هى بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون .

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)

إبراهيم الذى اصطفاه ربه فى الدنيا إماما ، وشهد له فى الآخرة بالصلاح . . اصطفاه (إذ قال له ربه أسلم). . فلم يتلكأ ، ولم يرتب ، ولم ينحرف , واستجاب فور تلقى الأمر . هذه هى ملة إبراهيم . . الإسلام الخالص الصريح . . ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها فى عقبه ، وجعلها وصيته فى ذريته ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو إسرائيل الذى ينتسبون إليه ، ثم لا يلبون وصيته ، ووصية جده وجدهم إبراهيم ! فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم , وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون). . وها هى ذى الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذى يدعوهم إلى الإسلام ، وهو ثمرة الدعوة التى دعاها أبوهم إبراهيم . . تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه . . الوصية التى كررها يعقوب فى آخر لحظة من لحظات حياته ؛ والتى كانت شغله الشاغل الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته , فليسمعها بنو إسرائيل:

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) {١٣٣}

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوى الإيحاء ، عميق التأثير . . ميت يحتضر . فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم فى محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ . . إنها العقيدة . . هى التركة . وهى الذخر . وهى القضية الكبرى ، وهى الشغل الشاغل , وهى الأمر الجلل ، الذى لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته: (ما تعبدون من بعدى ؟). . هذا هو الأمر الذى جمعتكم من أجله . وهذه هى القضية التى أردت الاطمئنان عليها . وهذه هى الأمانة والذخر والتراث .(قالوا:نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . إلها واحدا . ونحن له مسلمون)إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه . وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية فى أبناء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم(مسلمون).

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

وفى ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التى خلت ، والجيل الذى كانت تواجهه الدعوة . . حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين فلكل حساب ، ولكل طريق : ولكل عنوان ، ولكل صفة . . أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتدادا لتلك الأسلاف . هؤلاء حزب وأولئك حزب . لهؤلاء راية ولأولئك راية . . والتصور الإيمانى فى هذا غير التصور الجاهلى .. إن الأمة فى التصور الإيمانى هى الجماعة التى تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ؛ وليست هى الجماعة التى تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالإنسان ، الذى يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الأرضية !

(وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) {١٣٥}

فى ظل هذا البيان التاريخى الحاسم ، لقصة العهد مع إبراهيم:وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين ؛ ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ؛ يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين , ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم ، فيبدو هذا كله ضعيفا شاحبا ، كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل:كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنتون: وإنما كان قول اليهود:كونوا يهودا تهتدوا ؛ وكان قول النصارى:كونوا نصارى تهتدوا .فجمع الله قوليهم ليوجه نبيه ﷺ أن يواجههم جميعا بكلمة واحدة: (قل:بل ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين). . قل:بل نرجع جميعا ، نحن وأنتم ، إلى ملة إبراهيم ، أبينا وأبيكم ، وأصل ملة الإسلام , وصاحب العهد مع ربه عليه . . (وما كان من المشركين). بينما أنتم تشركون . . ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين ، من لدن إبراهيم أبى الأنبياء إلى عيسى بن مريم .

(قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِيَ اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)

: تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعا ، وبين الرسل جميعا ، هى قاعدة التصور الإسلامى وهى التى تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله فى الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة فى الدرب على هدى ونور . والتى تجعل من النظام الإسلامى النظام العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله دون تعصب ولا اضطهاد . والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا مفتوحا للناس جميعا فى مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة . حقيقة أن هذه العقيدة هى الهدى . من اتبعها فقد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق). . وهذه الكلمة من الله ، سبحانه ، تسكب فى قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه . فهو وحده المهتدى . ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادى للهدى . ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدى ولا يؤمن . فالله سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه: (فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم). إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، وبالعلامة التى يضعها الله على أوليائه ، فيعرفون بها فى الأرض (صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون). . صبغة الله التى شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر . لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان . ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآنى ذات الدلالة العميقة . . إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريرى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة). . أما باقيها فهو من كلام المؤمنين . يلحقه السياق – بلا فاصل – بكلام البارىء سبحانه فى السياق . وكله قرآن منزل . ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والشطر الثانى حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله فى سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم . وأمثال هذا فى القرآن كثير . وهو ذو مغزى كبير . ولا مجال للجدل فى وحدانية الله وربوبيته . فهو ربنا وربكم ، ونحن محاسبون بأعمالنا , وعليكم وزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئا ، ولا نرجو معه أحدا . . وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ؛ وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج .

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤١)

ومن ثم يضرب السياق عنه ، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل . يظهر أنه هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال:(أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟). وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم - وهو الإسلام كما سبق البيان (قل:أأنتم أعلم أم الله ؟). . ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية . وكانوا على الحنيفية الأولى التى لا تشرك بالله شيئا . ولديكم كذلك شهادة فى كتبكم أن سيبعث نبى فى آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم . ولكنكم تكتمون هذه الشهادة (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟). . والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التى ائتمنتم عليها ، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها: (وما الله بغافل عما تعملون). . وحين يصل السياق إلى هذه القمة فى الافحام ، وإلى هذا الفصل فى القضية ، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة فى كل اتجاه . . عندئذ يعيد الفاصلة التى ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين: (تلك أمة قد خلت . لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون). . وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الأخيرة فى تلك الدعاوى الطويلة العريضة .

الجزء الثاني :إفراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة

فى هذا الجزء من سورة البقرة نجد التركيز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى – أمانة العقيدة ، وأمانة الخلافة فى الأرض باسم هذه العقيدة –. كما نلتقى بالتوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة لمواجهة الحرب المتعددة الأساليب التى يشنها عليها خصومها ؛ وللحذر كذلك من مزالق الطريق التى وقع فيها بنو إسرائيل قبلها . فأما المادة الأساسية لهذا الجزء ، ولبقية السورة ، فهى إعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة ، وشخصيتها المستقلة . المستقلة بقبلتها ؛ وبشرائعها المصدقة لشرائع الديانات السماوية قبلها والمهيمنة عليها ؛ وبمنهجها الجامع الشامل المتميز كذلك . . وقبل كل شىء بتصورها الخاص للوجود والحياة ، ولحقيقة ارتباطها بربها ، ولوظيفتها فى الأرض ؛ وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف فى النفس

والمال ، وفى الشعور والسلوك ، ومن بذل وتضحية ، وتهيؤ للطاعة المطلقة للقيادة الإلهية ، الممثلة فى تعليمات القرآن الكريم ، وتوجيهات النبى ﷺ وتلقى ذلك كله بالاستسلام والرضى , وبالثقة واليقين . ومن ثم نجد حديثا عن تحويل القبلة ، يتبين منه أنه يراد بهذه الأمة أن تكون أمة وسطا , أهلها شهداء على الناس والرسول عليهم شهيدا ونجد دعوة لهذه الأمة إلى الصبر على تكاليف هذه الوظيفة الملقاة على عاتقها ، وهذا الواجب الذى ستضطلع به للبشرية جميعا ؛ واحتمال ما سيكلفها فى الأنفس والأموال ، والرضى بقدر الله ورد الأمور كلها إليه على كل حال . ثم نجد بيانا وجلاء لبعض قواعد التصور الإيمانى ، حيث يقرر أن البر هو التقوى والعمل الصالح لا تقليب الوجوه قبل المشرق والمغرب . . ومعظم الحديث فى هذا القطاع يتعلق بتحويل القبلة ، وما ثار حوله من ملابسات وأقاويل . ثم يأخذ السياق فى تقرير النظم العملية والشعائر التعبدية – وهما العنصران اللذان تقوم عليهما حياة هذه الأمة – وتنظيم مجتمعها ليواجه المهام الملقاة على عاتقها , فنجد شريعة القصاص وأحكام الوصية ، وفريضة الصيام ، وأحكام القتال فى الأشهر الحرام وفى المسجد الحرام ، وفريضة الحج ، وأحكام الخمر والميسر ، ودستور الأسرة . . مشدودة كلها برباط العقيدة والصلة بالله . كذلك نجد فى نهاية هذا الجزء بمناسبة الحديث عن الجهاد بالنفس والمال ، قصة من حياة بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم:ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . . فيها عبر كثيرة وتوجيهات موحية بالنسبة للجماعة المسلمة الوارثة لتراث الرسالات قبلها ، ولتجارب الأمم فى هذا التراث .

(سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (١٤٣)

من السياق القرآنى ومن سياق الأحداث فى المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود . فهم الذين أثاروا الضجة التى أثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا . وهم الذين أثاروا هذا التساؤل: (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ وهى المسجد الأقصى . الحديث فى هذا الدرس يكاد يقتصر على حادث تحويل القبلة ، والملابسات التى أحاطت به , والدسائس التى حاولها اليهود فى الصف المسلم بمناسبته ، والأقاويل التى أطلقوها من حوله ؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل فى نفوس بعض المسلمين ، وفى الصف المسلم على العموم . ولا توجد رواية قطعية فى هذا الحادث ، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل . والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وكان هذا فى المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهرا من الهجرة . من السياق القرآنى ومن سياق الأحداث فى المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود . فهم الذين أثاروا الضجة التى أثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا . وهم الذين أثاروا هذا التساؤل: (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ وهى المسجد الأقصى . إن المشرق لله والمغرب لله . فكل متجه فهو إليه فى أى اتجاه . فالجهات والأماكن لا فضل لها فى ذاتها . إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه . . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فإذا اختار لعباده وجهة ، واختار لهم قبلة ، فهى إذن المختارة . وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم . . ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها – بالإجمال – أن المسلمين فى مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة – وليس فى هذا نص قرآنى - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهى للرسول ﷺ يرجح أنه أمر غير قرآنى . ثم جاء الأمر القرآنى الأخير: (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره). . فنسخه . على أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس – وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى - سببا فى اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول فى الإسلام ، إذ أطلقوا فى المدينة ألسنتهم بالقول ،بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم (أى بيت المقدس) فى الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هى القبلة ؛ وأنهم هم الأصل ، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ! وفى الوقت ذاته كان الأمر شاقا على المسلمين من العرب ، الذين ألفوا فى الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام ؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم . وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر ، واتخاذه حجة عليهم ! إن المشرق لله والمغرب لله . فكل متجه فهو إليه فى أى اتجاه . فالجهات والأماكن لا فضل لها (وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا) إنها الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعا ، فتقيم بينهم العدل والقسط ؛ وتضع لهم الموازين والقيم ؛وتبدى فيهم رأيها فيكون هو الرأى المعتمد (ثم يحدث هذه الأمة عن حقيقتها الكبيرة فى هذا الكون ، وعن وظيفتها الضخمة فى هذه الأرض , وعن مكانها العظيم فى هذه البشرية ، وعن دورها الأساسى فى حياة الناس ؛ مما يقتضى أن تكون لها قبلتها الخاصة ، وشخصيتها الخاصة ؛ وألا تسمع لأحد إلا لربها الذى اصطفاها لهذا الأمر العظيم (أمة وسطا). . فى التصور والاعتقاد .. فى التفكير والشعور . . لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجرتة والمعرفة. فى التنظيم والتنسيق . . لا تدع الحياة كلها للمشاعر ، والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب . فى الارتباطات والعلاقات . . لا تلغى شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشى شخصيته فى شخصية الجماعة أو الدولة ؛ ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته . فى المكان . . فى سرة الأرض ، وفى أوسط بقاعها . وما تزال هذه الأمة التى غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال ، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا . فى الزمان . . تنهى عهد طفولة البشرية من قبلها ؛ وتحرس عهد الرشد العقلى من بعدها . وتقف فى الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ؛ وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذى وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذى اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هى التى اختارها الله لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها ! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها . (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة ، ووجههم إلى بيت المقدس ، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولا ; ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول ﷺ ثانيا ، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة ، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله). . فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر فى أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ؛ وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع ، حيثما وجهها الله تتجه ، وحيثما قادها رسول الله تقاد . ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم . إنهم ليسوا على ضلال ، وإن صلاتهم لم تضع

، فالله سبحانه لا يعنت العباد ، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه ; ولا يشق عليهم فى تكليف يجاوز طاقتهم التى يضاعفها الإيمان ويقويها (وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم). .

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤)

وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه فى السماء متجها إلى ربه ، دون أن ينطق لسانه بشىء , تأدبا مع الله ، وانتظارا لتوجيهه بما يرضاه . . ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل فى صدر الرسول ﷺ (قد نرى تقلب وجهك فى السماء , فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وتقول الروايات إن هذا كان فى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة ، وإن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة ، كان بعضهم فى منتصف صلاة ، فحولوا وجوهم شطر المسجد الحرام فى أثناء صلاتهم ، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة . عندئذ انطلقت أبواق يهود – وقد عز عليهم أن يتحول محمد ﷺ والجماعة المسلمة عن قبلتهم ، وأن يفقدوا حجتهم التى يرتكنون إليها فى تعاظمهم وفى تشكيك المسلمين فى قيمة دينهم – انطلقت تلقى فى صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق فى قيادتهم وفى أساس عقيدتهم . . قالوا لهم:إن كان التوجه – فيما مضى – إلى بيت المقدس باطلا فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة ؛ وإن كانت حقا فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل , وضائعة صلاتكم إليه كلها . . وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر – أو للآيات – لا يصدر من الله ، فهو دليل على أن محمدا لا يتلقى الوحى من الله ! وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة فى نفوس بعض المسلمين وفى الصف الإسلامى من مراجعة ما نزل من القرآن فى هذا الموضوع أما الآن فنقول كلمة فى حكمة تحويل القبلة ، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها . فقد كان هذا حادثا عظيما فى تاريخ الجماعة المسلمة ، وكانت له آثار ضخمة فى حياتها . . لقد كان تحويل القبلة أولا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها الآية (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم ، ويعدونه عنوان مجدهم القومى . . ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله ، وتجريدها من التعلق بغيره ، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامى المرتبط بالله مباشرة ، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم . . فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ، ومن كل ما كانت تتعلق به فى الجاهلية ، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر ، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ ؛ أو تتلبس بها فى خفايا المشاعر وحنايا الضمير أى تلبس من قريب أو من بعيد . . فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى ، الذى يتجه إليه اليهود والنصارى , فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة هى التى أشار إليها السياق ، فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة ، وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم – وهو الإسلام – فيشاركوا فى هذه الوراثة . . الآن يجىء تحويل القبلة فى أوانه . تحويلها إلى بيت الله الأول الذى بناه إبراهيم . لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة . حسيها وشعوريها ، وراثة الدين ، ووراثة القبلة , ووراثة الفضل من الله جميعا إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة: الاختصاص والتميز فى التصور والاعتقاد ; والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة . وهذه كتلك لا بد من التميز فيها والاختصاص . وقد يكون الأمر واضحا فيما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة . . هنا تعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة . ولم يكن بد من تمييز المكان الذى يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كى يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه . . فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ; كما أنه بدوره ينشىء شعورا بالامتياز والتفرد . ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم ، التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء . ولم يكن هذا تعصبا ولا تمسكا بمجرد شكليات . وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات . كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة . وهذه البواعث هى التى تفرق قوما عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وتصورا عن تصور ، وضميرا عن ضمير ، وخلقا عن خلق ، واتجاها فى الحياة كلها عن اتجاه ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه (فلنولينك قبلة ترضاها). . (فول وجهك شطر المسجد الحرام). . (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره).قبلة له ولأمته . من معه منها ومن يأتى من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :من كل اتجاه ، فى أنحاء الأرض جميعا . . قبلة واحدة تجمع هذه الأمة وتوحد بينها على اختلاف مواطنها ، واختلاف مواقعها من هذه القبلة ، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها . . قبلة واحدة ، تتجه إليها الأمة الواحدة فى مشارق الأرض ومغاربها . فتحس أنها جسم واحد ، وكيان واحد ، تتجه إلى هدف واحد ، وتسعى لتحقيق منهج واحد . منهج ينبثق من كونها جميعا تعبد إلها واحدا ، وتؤمن برسول واحد ، وتتجه إلى قبلة واحدة . ثم . . ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة ؟ (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم). . إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو بيت الله الأول الذى رفع قواعده إبراهيم . جد هذه الأمة الوارثة وجد المسلمين أجمعين . وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مرية فيه ، ولكنهم مع هذا سيفعلون غير ما يوحيه هذا العلم الذى يعلمونه (وما الله بغافل عما يعملون) إنهم لن يقتنعوا بدليل ، لأن الذى ينقصهم ليس هو الدليل ؛ إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى ، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك). . فهم فى عناد يقوده الهوى ، وتؤرثه المصلحة ، ويحدوه الغرض . . وإن كثيرا من طيبى القلوب ليظنون أن الذى يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم فى صورة مقنعة . . وهذا وهم . . إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه ! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم ؛ ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لا يفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل . عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجه ، ويحاربونه من وراء ستار . ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار . وفى مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الاعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذى ترمز هذه القبلة .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)

ثم يقرر حقيقة شأن النبي ﷺ وموقفه الطبيعي: (وما أنت بتابع قبلتهم). . ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا ويستطرد فيكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض ؛ فهم ليسوا على وفاق (وما بعضهم بتابع قبلة بعض). . والعداء بين اليهود والنصارى ، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة ، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء . (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين). . إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه ؛ ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه . ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم ، وبهذه المواجهة والتحذير . . (إنك إذا لمن الظالمين) ليقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن ، وما أمر به الرسول . ولكنهم يكتمون الحق الذي يعلمونه ، للهوى الذي يضمرونه ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة ، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه.

(الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي ﷺ بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) ورسول الله ﷺ ما امترى يوما ولا شك ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه ﷺ يحمل إيحاء قويا إلى من وراءه من المسلمين وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ؛ ونحن – في بلاهة منقطعة النظير - نروح نستفتي المستشرقين – من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار – في أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا ، ونأمنهم على القول في تراثنا ، ونسمع لما يدسونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا ، وسيرة أوائلنا ؛ ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام ، ويتخرجون في جامعاتهم ، ثم يعودون الينا مدخولي العقل والضمير . إن هذا القرآن قرآننا . قرآن الأمة المسلمة . وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره . وأهل الكتاب هم أهل الكتاب ، والكفار هم الكفار . والدين هو الدين ! ونعود إلى السياق فنراه يصرف المسلمين عن الاستماع لأهل الكتاب والانشغال بتوجيهاتهم , ويوحي إليهم بالاستقامة على طريقهم الخاص ووجهتهم الخاصة . فلكل فريق وجهته , وليستبق المسلمون إلى الخير لا يشغلهم عنه شاغل ، ومصيرهم جميعا إلى الله القادر على جمعهم وعلى مجازاتهم في نهاية المطاف (ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ، إن الله على كل شيء قدير). .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {١٥٠}

ثم يعود فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة مع تنويع التعقيب: والأمر في هذه المرة يخلو من الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم ، ويتضمن الاتجاه إلى المسجد الحرام حيثما خرج النبي ﷺ وحيثما كان ، مع توكيد أنه الحق من ربه . ومع التحذير الخفي من الميل عن هذا الحق (لئلا يكون للناس عليكم حجة) وتهوين لما بعد ذلك من أقاويل الظالمين الذين لا يقفون عند الحجة والنطق ، إنما ينساقون مع العناد واللجاج . فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم ، فسيظلون إذن في لجاجهم . فلا على المسلمين منهم (فلا تخشوهم . . واخشوني). فلا سلطان لهم عليكم ، ولا يملكون شيئا من أمركم ، ولا ينبغي أن تهتموا بما يقولون فالله هو الذي يستحق الخشية بما يملك من أمركم في الدنيا والآخرة ، ثم يجيء التذكير بنعمة الله , والإطماع في اتمامها على الأمة المسلمة حين تستجيب وتستقيم (ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون)

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (١٥١) اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ {١٥٢}

السياق يذكر المسلمين بنعمة الله عليهم ، بإرسال هذا النبي منهم إليهم ، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ، سادن المسجد الحرام قبلة المسلمين والذي يلفت النظر هنا ، أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة ، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل . دعوته أن يبعث الله في بنيه من جيرة البيت , رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم ، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين ، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم . وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثا إنما هو قديم ؛ وأن قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم ، وأن نعمة الله عليهم سابغة فهي نعمة الله التي وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم ، وأن يختار الرسول الأخير منكم ، وقد كانت يهود تستفتح به عليكم ! (يتلو عليكم آياتنا). . فما يتلو عليكم هو الحق . . والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل في أن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله) (ويزكيكم). . ولولا الله ما زكى منهم من أحد ، ولا تطهر ولا ارتفع . ولكنه أرسل رسوله ﷺ يطهرهم . يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره . ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة (ويعلمكم الكتاب والحكمة). والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب ، وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، ووزن الأمور بموازينها (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون). . وكان ذلك حقا في واقع الجماعة المسلمة ، فقد التقطها الإسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة ، تصلح لحياة القبيلة في الصحراء. فجعل منها أمة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة , خبيرة بصيرة عالمة وما يزال هذا المنهج الذي خرج

ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان ، لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين ، ولو آمنت حقا بهذا القرآن ، ولو جعلته منهجا للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان ! وفى آخر هذا الدرس يتفضل الله على المسلمين تفضلا آخر ، وهو يدعوهم إلى شكره ويحذرهم من كفره . يتفضل عليهم فيضمن لهم أن يذكرهم إذا هم ذكروه (فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون). . يا للتفضل الجليل الودود ! الله . جل جلاله . يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئا لذكرهم له فى عالمهم الصغير . (واشكروا لى ولا تكفرون). . والشكر لله درجات ، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته . وتنتهى بالتجرد لشكره والنهى عن الكفر هنا إلماع إلى الغاية التى ينتهى إليها التقصير فى الذكر والشكر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {١٥٣} وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ {١٥٤} وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعَ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {١٥٥} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعون {١٥٦} أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) {١٥٧}

بعد تقرير القبلة ، وإفراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة ، التي تتفق مع حقيقة تصورها المميزة كذلك . . كان أول توجيه لهذه الأمة ذات الشخصية الخاصة والكيان الخاص , هذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس . . كان أول توجيه لهذه الأمة هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم . والاستعداد لبذل التضحيات التى يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، والخوف والجوع ، ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله فى الأنفس ، وإقراره فى الأرض بين الناس . وربط قلوب هذه الأمة بالله ، وتجردها له ، ورد الأمور كلها إليه كل أولئك فى مقابل رضى الله ورحمته وهدايته الدرس الأول:١٥٣:التوجيه إلى زاد الصبر والصلاة (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . إن الله مع الصابرين). . يتكرر ذكر الصبر فى القرآن كثيرا ؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذى تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ؛ والذى يقتضيه القيام على دعوة الله فى الأرض بين شتى الصراعات والعقبات ، ولا بد من الصبر فى هذا كله . . لا بد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصى ، والصبر على جهاد المشاقين لله ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك , والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد ، قد يضعف الصبر ، أو ينفد ، إذا لم يكن هناك زاد ومدد . ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر ؛ فهى المعين الذى لا ينضب , والزاد الذى لا ينفد . ثم يضيف إلى الصبر ، الرضى والبشاشة ، والطمأنينة ، والثقة , واليقين . إنه لا بد للإنسان الفانى الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى ، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهى عنيفة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة فى عمره المحدود ، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا وقد أوشك المغيب ، ولم ينل شيئا وشمس العمر تميل للغروب . حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا ، ولا شعاع فى الأفق ولا معلم فى الطريق ، هنا تبدو قيمة الصلاة . . إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفانى والقوة الباقية . إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذى لا يغيض إن هذا المنهج الإسلامى منهج عبادة . والعبادة فيه ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق . وأنها مدد الروح . وأنها جلاء القلب . ثم يجىء التعقيب بعد هذا التوجيه: (إن الله مع الصابرين). . معهم , يؤيدهم ، ويثبتهم ، ويقويهم ، ويؤنسهم ، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم ، ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة ، إنما يمدهم حين ينفد زادهم ، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله:أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون)

والآن والجماعة المسلمة فى المدينة مقبلة على جهاد شاق لإقرار منهج الله فى الأرض حتما سيكون من بينهم قتلى شهداء فى معركة الحق . شهداء فى سبيل الله . قتلى أعزاء أحياء . قتلى كراما أزكياءهؤلاء الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتا . إنهم أحياء . فلا يجوز أن يقال عنهم:أموات . لا يجوز أن يعتبروا أمواتا فى الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان . إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه . فهم لا بد أحياء . إنهم قتلوا فى ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين . ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة ثم هم أحياء عند ربهم – إما بهذا الاعتبار ، وإما باعتبار آخر لا ندرى نحن كنهه . وحسبنا إخبار الله تعالى به: (أحياء ولكن لا تشعرون) أحياء . ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون فى ثيابهم التى استشهدوا فيها . فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة . وثيابهم فى الأرض ثيابهم فى القبر لأنهم بعد أحياء . ثم يمضى السياق فى التعبئة لمواجهة الأحداث ، وفى تقويم التصور لحقيقة الأحداث (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا:إنا لله وإنا إليه راجعون). . ولا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد , وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . . لا بد من هذا البلاء ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة ، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف ، ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى . فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ؛ وتفتح فى القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن فى نفسه إلا تحت مطارق الشدائد . والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا فى جو المحنة التى تزيل الغبش عن العيون ، والران عن القلوب . وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا:إنا لله وإنا إليه راجعون). . إنا لله . . كلنا . . كل ما فينا . . كل كياننا وذاتيتنا . . لله . . وإليه المرجع والمآب فى كل أمر وفى كل مصير هؤلاء هم الصابرون . . الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل . .(أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون). .

يستهدف الدرس التالى تصحيح عدد من القواعد التى يقوم عليها التصور الإيمانى الصحيح ; مع الاستمرار فى مواجهة يهود المدينة الذين لا يكفون عن تلبيس الحق بالباطل فى هذه القواعد ؛ وكتمان الحق الذى يعلمونه فى شأنها ؛ وإيقاع البلبلة والاضطراب فيها . . ولكن السياق يتخذ فى هذا الدرس أسلوب التعميم ؛ وعرض القواعد العامة ، التى تشمل اليهود وغيرهم ممن يرصدون للدعوة . وكذلك يحذر المسلمين من المزالق التى تترصدهم فى طريقهم بصفة عامة . ومن ثم نجد بيانا فى

موضوع الطواف بالصفا والمروة ، بسبب ما كان يلابس هذا الموضوع من تقاليد الجاهلية . وهو بيان يتصل كذلك بمسألة الاتجاه إلى المسجد الحرام في الصلاة ، وإقرار شعائر الحج إلى هذا البيت . لذلك يليه في السياق بيان في شأن أهل الكتاب الذى يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ؛ وحملة عنيفة عليهم ؛ مع فتح باب التوبة لمن يريد أن يتوب . فأما الذين يصرون على الكفر فيعدهم اللعنة الجامعة ، والعذاب الشديد الدائم . ثم بيان لوحدانية الله ، وتوجيه إلى الآيات الكونية الشاهدة بهذه الحقيقة . وتنديد بمن يتخذون من دون الله اندادا . وعرض مشهد من مشاهد القيامة للتابعين منهم والمتبوعين . يتبرأ بعضهم من بعض وهم يرون العذاب . وبمناسبة ما كان يجادل فيه اليهود من الحلال والحرام في المطاعم والمشارب ، مما نزل به القرآن وبيانه عندهم فيما يكتمونه من التوراة . . تجيء دعوة إلى الناس كافة للاستمتاع بالطيبات التى أحلها الله ؛ وتحذير من الشيطان الذى يأمرهم بالسوء والفحشاء . تليها دعوة خاصة للذين آمنوا للاستمتاع بما أحل الله لهم والامتناع عما حرم عليهم ، وبيان هذه المحرمات التى يجادل فيها اليهود ويماحلون وهم يعلمون . ومن ثم حملة عنيفة على الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا . وتهديد رعيب بما ينتظرهم فى الآخرة من إهمال وغضب واحتقار . وفي نهاية الدرس يرد بيان عن حقيقة البر يتضمن قواعد الإيمان والعمل الصالح ، يصحح به التصور الإيماني ؛ فليس هو شكليات ظاهرية ، وتقليبا للوجوه قبل المشرق والمغرب ، ولكنه شعور وعمل وارتباط بالله في الشعور والعمل . . وتبدو العلاقة بين هذا البيان والجدل الذى ثار حول القبلة واضحة . وهكذا نجد السياق ما يزال في المعركة . . المعركة فى داخل النفوس لتصحيح التصورات والموازين . والمعركة مع الكيد والدس والبلبلة التى يقوم بها أعداء المسلمين .

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ{١٥٨} إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ{١٥٩} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{١٦٠} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{١٦١} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{١٦٢} وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ{١٦٣} إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{١٦٤} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ{١٦٥} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ{١٦٦} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ{١٦٧} يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{١٦٨} إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{١٦٩} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ{١٧٠} وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ{١٧١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ{١٧٢} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٧٣} إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٧٤} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ{١٧٥} ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ{١٧٦}

(إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما , ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم). . هناك عدة روايات عن سبب نزول هذه الآية ، أقربها إلى المنطق النفسى المستفاد من طبيعة التصور الذى أنشأه الإسلام في نفوس المجموعة السابقة إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار . . الرواية التى تقول:إن بعض المسلمين تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة في الحج والعمرة ، بسبب أنهم كانوا يسعون بين هذين الجبلين فى الجاهلية ، وأنه كان فوقهما صنمان هما أساف ونائلة . فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون في الجاهلية . قال البخارى:حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عاصم بن سليمان:قال سألت أنسا عن الصفا والمروة قال:كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية . فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عز وجل: (إن الصفا والمروة من شعائر الله). . وقال الشعبي:كان أساف على الصفا ، وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية . ولم يرد تحديد لتاريخ نزول هذه الآية . والأرجح أنها نزلت متأخرة عن الآيات الخاصة بتحويل القبلة . ومع أن مكة قد أصبحت دار حرب بالنسبة للمسلمين ، فإنه لا يبعد أن بعض المسلمين كانوا يتمكنون أفرادا من الحج ومن العمرة . وهؤلاء هم الذين تحرجوا من الطواف بين الصفا والمروة . . وكان هذا التحرج ثمرة التعليم الطويل ، ووضوح التصور الإيمانى فى نفوسهم ، هذا الوضوح الذى يجعلهم يتحرزون ويتوجسون من كل أمر كانوا يزاولونه فى الجاهلية . إذ أصبحت نفوسهم من الحساسية فى هذه الناحية بحيث تفزع من كل ما كان فى الجاهلية ، وتتوجس أن يكون منهيا عنه في الإسلام . الأمر الذى ظهر بوضوح في مناسبات كثيرة . . كانت الدعوة الجديدة قد هزت أرواحهم هزا وتغلغلت فيها إلى الأعماق ، فأحدثت فيها انقلابا نفسيا وشعوريا كاملا ، حتى لينظرون بجفوة وتحرز إلى ماضيهم فى الجاهلية ؛ ويحسون أن هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصالا كاملا ، فلم يعد منهم ، ولم يعودوا منه ؛ وعاد دنسا ورجسا يتحرزون من الإلمام به ! وهذا هو الإسلام . . هذا هو:انسلاخا كاملا عن كل ما فى الجاهلية ، وتحرجا بالغا من كل أمر من أمور الجاهلية ، وحذرا دائما من كل شعور وكل حركة كانت النفس تأتيها فى الجاهلية . حتى يخلص القلب للتصور الجديد بكل ما يقتضيه . وهنا نجد مثالا من هذا المنهج التربوى العميق . إذ يبدأ القرآن بتقرير أن الصفا والمروة من شعائر الله (إن الصفا والمروة من شعائر الله) فإذا أطوف بهما مطوف ، فإنما يؤدى شعيرة من شعائر الله ؛ وإنما يقصد بالطواف بينهما إلى الله . ولقد انقطع ما بين هذا الطواف الجديد وطواف الجاهلية الموروث ؛ وتعلق الأمر بالله – سبحانه – لا بأساف ونائلة وغيرهما من أصنام الجاهلية ! ومن ثم فلا حرج ولا تأثم . فالأمر غير الأمر ، والاتجاه غير الاتجاه(فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) وقد أقر الإسلام معظم شعائر الحج التى كان العرب يؤدونها ، ونفى كل ما يمت إلى الأوثان وإلى أوهام الجاهلية ، وربط الشعائر التى أقرها بالتصور الإسلامى الجديد ، بوصفها شعائر إبراهيم التى علمه

ربه إياها]. ثم يختم الآية بتحسين التطوع بالخير إطلاقا: (ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) فيلمح إلى أن هذا الطواف من الخير ، وبذلك ينفي من النفوس كل حرج ، ويطيب القلوب بهذه الشعائر ، ويطمئنها على أن الله يعدها خيرا ، ويجازى عليها بالخير . وهو يعلم ما تنطوى عليه القلوب من نية وشعور . ومن بيان مشروعية الطواف بالصفا والمروة ينتقل السياق إلى الحملة على الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ، وهم اليهود الذين سبق الحديث عنهم طويلا فى سياق السورة . مما يوحى بأن دسائسهم لم تنقطع حول مسألة الاتجاه إلى المسجد الحرام وفرض الحج إليه أيضا (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم , وأنا التواب الرحيم . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون). . ولقد كان أهل الكتاب يعرفون مما بين أيديهم من الكتاب مدى ما فى رسالة محمد ﷺ من حق ، ومدى ما فى الأوامر التى يبلغها من صدق ، ومع هذا يكتمون هذا الذى بينه الله لهم فى الكتاب . فهم وأمثالهم فى أى زمان ، ممن يكتمون الحق الذى أنزله الله ، لسبب من أسباب الكتمان الكثيرة ، (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون). . كأنما تحولوا إلى ملعنة ، ينصب عليها اللعن من كل مصدر واللعن هو:الطرد فى غضب وزجر ، وأولئك الخلق يلعنهم الله فيطردهم من رحمته (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا . فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم). . هؤلاء يفتح القرآن لهم هذه النافذة المضيئة – نافذة التوبة – يفتحها فتنسم نسمة الأمل فى الصدور ، فأما الذين يصرون ولا يتوبون حتى تفلت الفرصة وتنتهى المهلة ، فأولئك ملاقون ما أوعد الله من قبل به ، بزيادة وتفصيل وتوكيد (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون). . ذلك أنهم أغلقوا على أنفسهم ذلك الباب المفتوح ، وتركوا الفرصة تفلت ، والمهلة تنقضى , وأصروا على الكتمان والكفر والضلال ولم يذكر السياق لهم عذابا آخر غير هذه اللعنة المطبقة ؛ بل عدها عذابا لا يخفف عنهم , ولا يؤجل موعده ولا يمهلون فيه . وإنه لعذاب دونه كل بعد هذا يمضى السياق فى إقامة التصور الإيمانى على قاعدته الكبيرة . قاعدة التوحيد . ويعرض من مشاهد الكون ما يشهد بهذه الحقيقة شهادة لا تقبل الجدل . ثم يندد بمن يتخذون من دون الله اندادا ، ويصور موقفهم المتخاذل يوم يرون العذاب ، فيتبرأ بعضهم من بعض ؛ فلا ينفعهم هذا التبرؤ ، ولا تفيدهم حسراتهم ولا تخرجهم من العذاب ، إن وحدة الألوهية هى القاعدة الكبيرة التى يقوم عليها التصور الإيمانى . فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله – تختلف التصورات حول ذاته وحول صفاته وحول علاقاته بالخلق ولكنها لا تنفى وجوده – ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة ، حقيقة وجود إله ، إلا فى هذه الأيام الأخيرة حين نبتت نابتة منقطعة عن أصل الحياة ، منقطعة عن أصل الفطرة ، تنكر وجود الله . وهى نابتة شاذة لا جذور لها فى أصل هذا الوجود ; ومن ثم فمصيرها حتما إلى الفناء والاندثار من هذا الوجود! لذلك اتجه السياق القرآنى دائما إلى الحديث عن وحدة الألوهية ، بوصفها التصحيح الضرورى للتصور (وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور . . ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية ، المنبثقة من هذا التصور . . تصور وحدة الألوهية فى هذا الوجود (وإلهكم إله واحد). . (لا إله إلا هو). . (الرحمن الرحيم). . ومن وحدانية الألوهية التى يؤكدها هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذى يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ؛ وتتوحد الجهة التى يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ؛ ويتوحد المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ; ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق .

وهنا والسياق يستهدف إعداد الأمة المسلمة لدورها العظيم فى الأرض ، يعيد ذكر هذه الحقيقة التى تكرر ذكرها مرات ومرات فى القرآن المكى ، والتى ظل القرآن يعمق جذورها ويمد فى آفاقها حتى تشمل كل جوانب الحس والعقل ، وكل جوانب الحياة والوجود . . . يعيد ذكر هذه الحقيقة ليقيم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف . . ثم يذكر من صفات الله هنا: (الرحمن الرحيم). . فمن رحمته السابغة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف . تلك السماوات والأرض . . هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والآفاق المسحورة , والعوالم المجهولة . . هذا التناسق فى مواقعها وجريانها فى ذلك الفضاء الهائل الذى يدير الرؤوس واختلاف الليل والنهار . . تعاقب النور والظلام . . توالى الإشراق والعتمة . ذلك الفجر وذلك الغروب . . كم اهتزت لها مشاعر ، وكم وجفت لها قلوب ، وكم كانت أعجوبة الأعاجيب . . ثم فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار . إلا القلب المؤمن الذى تتجدد فى حسه هذه المشاهد ؛ ويظل أبدا يذكر يد الله فيها فيتلقاها فى كل مرة بروعة الخلق الجديد . والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . . وأشهد ما أحسست ما فى هذه اللفتة من عمق قدر ما أحسست ونقطة صغيرة فى خضم المحيط تحملنا وتجرى بنا ، والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا . والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك . ولا شيء إلا قدرة الله , وإلا رعاية الله ، وإلا قانون الكون الذى جعله الله ، يحمل تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمها الرعيب ! (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض . . وكلها مشاهد لو أعاد الإنسان تأملها – كما يوحى القرآن للقلب المؤمن – بعين مفتوحة وقلب واع ، لارتجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها .تلك الحياة التى تنبعث من الأرض حينما يجودها الماء . . هذه الحياة المجهولة الكنه ، اللطيفة الجوهر ، التى تدب فى لطف ، ثم تتبدى جاهرة معلنة قوية . . هذه الحياة من أين جاءت ؟ كانت كامنة فى الحبة والنواة ! ولكن من أين جاءت إلى الحبة والنواة ؟ أصلها ؟ مصدرها الأول ؟ إنه لا يجدى الهرب من مواجهة هذا السؤال الذى يلح على الفطرة . لقد حاول الملحدون تجاهل هذا السؤال الذى لا جواب عليه إلا وجود خالق قادر على إعطاء الحياة للموات . وحاولوا طويلا أن يوهموا الناس أنهم فى طريقهم إلى إنشاء الحياة – بلا حاجة إلى إله – ! ثم أخيرا إذا هم فى أرض الإلحاد الجاحد الكافر ينتهون إلى نفض أيديهم والإقرار بما يكرهون:استحالة خلق الحياة ! وأعلم علماء روسيا الكافرة فى موضوع الحياة هو الذى يقول هذا الآن ! ومن قبل راغ داروِن صاحب نظرية النشوء والارتقاء من مواجهة هذا السؤال ! ثم تلك الرياح المتحولة من وجهة إلى وجهة ، وذلك السحاب المحمول على هواء ، المسخر بين السماء

والأرض ، الخاضع للناموس الذى أودعه الخالق هذا الوجود إن فى ذلك(لآيات لقوم يعقلون). . ومع هذا فإن هناك من لا ينظر ولا يتعقل ، فيحيد عن التوحيد الذى يوحى به تصميم الوجود , والنظر فى وحدة الناموس الكونى العجيب (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله). . من الناس من يتخذ من دون الله اندادا . . كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجارا وأشجارا ، أو نجوما وكواكب ، أو ملائكة وشياطين . . وهم فى كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص أو شارات أو اعتبارات . . وكلها شرك خفى أو ظاهر ، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله ، وإذا أشركها المرء فى قلبه مع حب الله . فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذى لا يكون إلا لله ؟ إن المؤمنين لا يحبون شيئا حبهم لله . لا أنفسهم ولا سواهم . لا أشخاصا ولا اعتبارات ولا شارات ولا قيما من قيم هذه الأرض التى يجرى وراءها الناس(والذين آمنوا أشد حبا لله). . أشد حبا لله ، حبا مطلقا من كل موازنة ، ومن كل قيد . أشد حبا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه (ولو يرى الذين ظلموا – إذ يرون العذاب – أن القوة لله جميعا ، وأن الله شديد العذاب) . (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا:لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار). . أولئك الذين اتخذوا من دون الله اندادا . فظلموا الحق ، وظلموا أنفسهم . . لو مدوا بأبصارهم إلى يوم يقفون بين يدى الله الواحد! لو يرون لرأوا (أن القوة لله جميعا)فلا شركاء ولا انداد . . (وأن الله شديد العذاب) لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب ، وانشغل كل بنفسه تابعا كان أم متبوعا . وسقطت الرياسات والقيادات التى كان المخدوعون يتبعونها ، وعجزت عن وقاية أنفسها فضلا عن وقاية تابعيها . وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة ، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا). . وتبدى الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين فى القيادات الضالة . وتمنوا لو يردون لهم الجميل ! لو يعودون إلى الأرض فيتبرأوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة فى حقيقتها ، التى خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب ! (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار). .

ثم يمضى السياق يدعو الناس إلى التمتع بطيبات الحياة ، والبعد عن خبائثها ، محذرا من اتباع الشيطان ، الذى يأمرهم بالخبائث ، والادعاء على الله فى التحليل والتحريم بغير إذن منه ولا تشريع ؛ ويحذرهم من التقليد فى شأن العقيدة بغير هدى من الله , ويندد بالذين يدعون من دون الله ما لا يعقل ولا يسمع . . وبهذا يلتقى موضوع هذه الفقرة بموضوع الفقرة السابقة فى السياق: (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . وإذا قيل لهم:اتبعوا ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وهنا يبيح الله للناس جميعا أن يأكلوا مما رزقهم فى الأرض حلالا طيبا – إلا ما شرع لهم حرمته وهو المبين فيما بعد – وأن يتلقوا منه هو الأمر فى الحل والحرمة ، وألا يتبعوا الشيطان فى شىء من هذا ، لأنه عدوهم ؛ ومن ثم فهو لا يأمرهم بخير ، إنما يأمرهم بالسوء من التصور والفعل ؛ ويأمرهم بأن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم ، دون أمر من الله ، مع الزعم بأن هذا الذى يقولونه هو شريعة الله . . كما كان اليهود مثلا يصنعون ، وكما كان مشركو قريش يدعون (وإذا قيل لهم:اتبعوا ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا). . وسواء كان هؤلاء الذين تعنيهم الآية هم المشركون الذين تكرر منهم هذا القول كلما دعوا إلى الإسلام ، . أو كانوا هم اليهود الذين كانوا يصرون على ما عندهم من مأثور آبائهم ويرفضون الاستجابة للدين الجديد جملة وتفصيلا . . سواء كانوا هؤلاء أم هؤلاء فالآية تندد بتلقى شىء فى أمر العقيدة من غير الله ؛ وتندد بالتقليد فى هذا الشأن والنقل بلا تعقل ولا إدراك: أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون). أولو كان الأمر كذلك ، يصرون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ؟ فأى جمود هذا وأى تقليد !? ومن ثم يرسم لهم صورة زرية تليق بهذا التقليد وهذا الجمود ، صورة البهيمة السارحة التى لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا تعنى ! بل هم أضل من هذه البهيمة ، فالبهمية ترى وتسمع وتصيح ، وهم صم بكم عمى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لا يعقلون)! صم بكم عمى . ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون . ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون . فكأنها لا تؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان وألسنة وعيون . وهنا يتجه بالحديث – خاصة – إلى الذين آمنوا . يبيح لهم الأكل من طيبات ما رزقهم . ويوجههم إلى شكر المنعم على نعمه . ويبين لهم ما حرم عليهم ، وهو غير الطيبات التى أباحها لهم . ويندد بالذين يجادلونهم فى هذه الطيبات والمحرمات من اليهود . وهى عندهم فى كتابهم(يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم . إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) إن الله ينادى الذين آمنوا بالصفة التى تربطهم به سبحانه ، وتوحى إليهم أن يتلقوا منه الشرائع ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام . ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق , ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم ؛ فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات , وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلأنه غير طيب ، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم – وهو الذى أفاض عليهم الرزق ابتداء – ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك . فيوحى إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد . . كل أولئك فى آية واحدة قليلة الكلمات (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) ثم يبين لهم المحرمات من المآكل نصا وتحديدا باستعمال أداة القصر "(إنما) (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله). . والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم ، فضلا على ما أثبته الطب – بعد فترة طويلة من تحريم القرآن – من تجمع الميكروبات والمواد الضارة فى الميتة وفى الدم ، ولا ندرى إن كان الطب الحديث قد استقصى ما فيهما من الأذى أم إن هناك أسبابا أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس . فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم . . والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم . . ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن فى لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة [الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة] . ويقول الآن قوم:إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت ، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التى توافرها وسائل الطهو الحديثة . . وينسى هؤلاء الناس

أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة . فمن ذا الذى يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى فى لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها ؟ أفلا تستحق الشريعة التى سبقت هذا العلم البشرى بعشرات القرون أن نثق بها ، وندع كلمة الفصل لها , ونحرم ما حرمت ، ونحلل ما حللت ، وهى من لدن حكيم خبير ! (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِير وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) أما ما أهل به لغير الله . أى ما توجه به صاحبه لغير الله . فهوَ محرم ، لا لعلة فيه , ولكنَ للتوجه بَه لغير الله . محرم لعلة روحية تنافى صحة التصور ، وسلامة القلب , وطهارة الروح ، وخلوص الضمير ، ومع هذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات ، فيبيح فيها المحظورات ، ويحل فيها المحرمات بقدر ما تنتفى هذه الضرورات ، بغير تجاوز لها ولا تعد لحدودها (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم) وهو مبدأ عام ينصب هنا على هذه المحرمات . ولكنه بإطلاقه يصح أن يتناول سواها فى سائر المقامات . فأيما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة ، فلصاحبها أن يتفادى هذا الحرج بتناول المحظور فى الحدود التى تدفع هذه الضرورة ولا زيادة

الدرس السادس:١٧٤ - ١٧٦ عذاب الذين يكتمون العلم ومن ثم نجد هنا حملة قوية على الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ، ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولا أهل الكتاب . ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة ، يكتمون الحق الذى يعلمونه ، ويشترون به ثمنا قليلا . إما هو النفع الخاص الذى يحرصون عليه بكتمانهم للحق ، والمصالح الخاصة التى يتحرونها بهذا الكتمان ، ويخشون عليها من البيان . وإما هو الدنيا كلها - وهى ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله ، ومن ثواب الآخرة . وفى جو الطعام ما حرم منه وما حلل ، يقول القرآن عن هؤلاء (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) (مَا يأكلون فى بطونهم إلا النار).)أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى وَالعذاب بالمغفرة) فكأنما هى صفقة يدفعونَ فيها الهدى ويقبضون الضلالة (فما أصبرهم على النار !). فيا لطول صبرهم على النار ، التى اختاروها اختيارا ، وقصدوا إليها قصدا . فيا للتهكم الساخر من طول صبرهم على النار ! و كأنما هذا الذى يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار فى بطونهم ! وكأنما هم يأكلون النار ! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار فى الآخرة , فإذا هى لهم لباس ، وإذا هى لهم طعام ! وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة ، ويدعهم فى مهانة وازدراء (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم) (ولهم عذاب أليم). . وإنه لجزاء مكافىء لشناعة الجريمة . جريمة كتمان الكتاب الذى أنزله الله ليعلن للناس , وليحقق فى واقع الأرض ، وليكون شريعة ومنهاجا . فمن كتمه فقد عطله عن العمل . وهو الحق الذى جاء للعمل (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق). . فمن فاء إليه فهو على الهدى ، وهو فى وفاق مع الحق ، (وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد). . شقاق مع الحق ، وشقاق مع ناموس الفطرة ، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم . . ولقد كانوا كذلك ، وما يزالون . وتلحق بهم كل أمة تختلف فى كتابها . فلا تأخذ به جملة ،

(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٧٨}

إنه ليس القصد من تحويل القبلة ، ولا من شعائر العبادة على الإطلاق ، أن يولى الناس وجوهم قبل المشرق والمغرب . . نحو بيت المقدس أو نحو المسجد الحرام . . وليست غاية البر - وهو الخير جملة - هى تلك الشعائر الظاهرة . فهى فى ذاتها - مجردة عما يصاحبها فى القلب من المشاعر وفى الحياة من السلوك - لا تحقق البر ، ولا تنشىء الخير:إنما البر تصور وشعور وأعمال وسلوك . تصور ينشىء أثره فى ضمير الفرد والجماعة ; وعمل ينشىء أثره فى حياة الفرد والجماعة (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)ذلك هو البر الذى هو جماع الخير . . فماذا فى تلك الصفات من قيم تجعل لها هذا الوزن فى ميزان الله ؟ ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؟ إن الإيمان بالله هو نقطة التحول فى حياة البشرية من العبودية لشتى القوى ، وشتى الأشياء , وشتى الاعتبارات . . إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية ، وما قيمة إيتاء المال - على حبه والاعتزاز به - لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ؟ إن قيمته هى الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة . انعتاق الروح من حب المال الذى يقبض الأيدى عن الإنفاق ، ويقبض النفوس عن الأريحية, وإقامة الصلاة ؟ ما قيمتها فى مجال البر الذى هو جماع الخير ؟ إن إقامة الصلاة شىء غير التولى قبل المشرق والمغرب . إنها توجه الإنسان بكليته إلى ربه ، ظاهرا وباطنا ، جسما وعقلا وروحا . . .وإيتاء الزكاة ؟ . . إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التى جعلها الله حقا فى أموال الأغنياء. والوفاء بالعهد ؟ إنه سمة الإسلام التى يحرص عليها ، ويكررها القرآن كثيرا ؛ ويعدها آية الإيمان ، وآية الآدمية وآية الإحسان . وهى ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ؟ . . إنها تربية للنفوس وإعداد ، كى لا تطير شعاعا مع كل نازلة ، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ، ولا تنهار جزعا أمام الشدة على كل حال . كى تنهض بواجبها الضخم ، وتؤدى دورها المرسوم ، فى ثبات وفى ثقة وفى طمأنينة وفى اعتدال . وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد ، وتكاليف النفس والمال ، ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم(أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون). . أولئك الذين صدقوا ربهم فى إسلامهم . صدقوا فى إيمانهم واعتقادهم ، وصدقوا فى ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة فى الحياة . وأولئك هم المتقون الذين يخشون ربهم ويتصلون به ، ويؤدون واجبهم له فى حساسية وفى إشفاق .

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {١٧٩} كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ {١٨٠} فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {١٨١} فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {١٨٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {١٨٣} أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {١٨٤} شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {١٨٥} إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ {١٨٦} أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {١٨٧}

في هذا الدرس حديث عن القصاص في القتلي وتشريعاته . وفيه حديث عن الوصية عند الموت . . ثم حديث عن فريضة الصوم وشعيرة الدعاء وشعيرة الاعتكاف . . وفي النهاية حديث عن التقاضي في الأموال . وفي التعقيب علي القصاص ترد إشارة إلي التقوي:(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون). . وفي التعقيب علي الوصية ترد الإشارة إلي التقوى كذلك:(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت - إن ترك خيرا - الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا علي المتقين). . وفي التعقيب علي الصيام ترد الإشارة إلي التقوى أيضا:(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذين من قبلكم لعلكم تتقون). . (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى:الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثي بالأنثي . فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون). . النداء للذين آمنوا . . بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله ، الذي آمنوا به ، في تشريع القصاص . وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلي ، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولي . وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة ، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة ، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى ؛ وهو صمام الأمن في مجال القتلي والقصاص . وهذه الشريعة التي تبينها الآية:أنه عند القصاص للقتلى - في حالة العمد - بقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثي بالأنثي .(فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان). . وهذ العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلا من قتل الجاني . ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه ، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة . ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال وقد امتن الله علي الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم). . وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة . . يتعين قتله ، ولا تقبل منه الدية . لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول ، نكث للعهد ، وإهدار للتراضي ، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب ، ومتى قبل ولي الدم الدية ، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي . وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة . نسختها آية المائدة التي نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا: وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . الآية .والذي يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس . . وأن لكل منهما مجالا غير مجال الأخرى . وأن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين ، أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين كذلك . فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمدا . . فأما الآية التي نحن بصددها فمجالها مجال الاعتداء الجماعي - كحالة ذينك الحيين من العرب - حيث تعتدي أسرة على أسرة ، أو قبيلة على قبيلة , أو جماعة على جماعة . فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء . . فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك ، والعبد من هذه بالعبد من تلك ، والأنثي من هذه بالأنثي من تلك . وإلا فكيف يكون القصاص في مثل هذه الحالة التي يشترك فيها جماعة في الاعتداء على جماعة ؟ وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ لهذه الآية ، ولا تعارض في آيات القصاص. ثم يكمل السياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها الأخيرة (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون). . إنه ليس الانتقام ، وليس إرواء الأحقاد . إنما هو أجل من ذلك وأعلى . إنه للحياة , وفي سبيل الحياة ، بل هو في ذاته حياة . والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء . فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل . . جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد . كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل . شفائها من الحقد والرغبة في الثأر . الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم . وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم ، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل ، ولا تكف عن المسيل . . وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم . فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها ، واعتداء على كل إنسان حي ، يشترك مع القتيل في سمة الحياة . فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها . وكان في هذا الكف حياة . حياة مطلقة . لا حياة فرد ، ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . . بل حياة ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله , ولتقواه (لعلكم تتقون). . هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء . الاعتداء بالقتل ابتداء ، والاعتداء في الثأر أخيرا . . التقوى . . حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله ؛ وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه . إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة ، ولا يفلح قانون ، ولا يتحرج متحرج ، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان ! وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجاني نفسه طائعا مختارا . . لقد كانت هنالك التقوى . . كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر ، وفي حنايا القلوب ، تكفها عن مواضع الحدود . . إلي جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب . . وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى ، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور . نظيف الحركة نظيف السلوك . لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير ! ثم يجيء تشريع الوصية عند الموت . . والمناسبة في جوها وجو آيات القصاص حاضرة (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت - إن ترك خيرا - الوصية للوالدين

والأقربين بالمعروف حقا على المتقين . فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه . إن الله سميع عليم . فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم) وهذه كذلك فريضة . الوصية للوالدين والأقربين . إن كان سيترك وراءه خيرا . وفسر الخير بأنه الثروة . واختلف فى المقدار الذى تجب عنده الوصية . والأرجح أنها مسألة اعتبارية بحسب العرف . والمقدار الذى يعتبر ثروة تستحق الوصية لا شك يختلف من زمان إلى زمان ، ومن بيئة إلى بيئة . وقد نزلت آيات المواريث بعد نزول آيات الوصية هذه . وحددت فيها أنصبة معينة للورثة , وجعل الوالدان وارثين فى جميع الحالات . ومن ثم لم تعد لهما وصية لأنه لا وصية لوارث . لقوله ﷺ إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث " . أما الأقربون فقد بقى النص بالقياس إليهم على عمومه . فمن ورثته آيات الميراث فلا وصية له ; ومن لم يرث بقى نص الوصية هنا يشمله . . وهذا هو رأى بعض الصحابة والتابعين نأخذ به . وحكمة الوصية لغير الورثة تتضح فى الحالات التى توجب فيها صلة القرابة البر ببعض الأقارب , على حين لا تورثهم آيات الميراث لأن غيرهم يحجبهم . وهى لون من الوان التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة . ومن ثم ذكر المعروف وذكر التقوى: (بالمعروف حقا على المتقين) فلا يظلم فيها الورثة ، ولا يهمل فيها غير الورثة ؛ ويتحرى التقوى فى قصد واعتدال , وفى بر وإفضال و قد حددت السنة نسبة الوصية ، فحصرتها فى الثلث لا تتعداه والربع أفضل . كى لا يضار الوارث بغير الوارث . وقام الأمر على التشريع وعلى التقوى ، كما هى طبيعة التنظيمات الاجتماعية التى يحققها الإسلام فى تناسق وسلام . فمن سمع الوصية فهو آثم إن بدلها بعد وفاة المورث ، وهذا من التبديل برىء (فمن بدله بعد ما سمعه ، فإنما إثمه على الذين يبدلونه . إن الله سميع عليم). . وهو - سبحانه - الشهيد بما سمع وعلم ، والشهيد على من بدل فيؤاخذه بإثم التبديل والتغيير . إلا حالة واحدة يجوز فيها للموصى أن يبدل من وصية الموصى . ذلك إذا عرف أن الموصى إنما يقصد بوصيته محاباة أحد ، أو النكاية بالوريث . فعندئذ لا حرج على من يتولى تنفيذ الوصية أن يعدل فيها بما يتلافى به ذلك الجنف ، وهو الحيف ، ويرد الأمر إلى العدل والنصف (فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم). . ولقد كان من الطبيعى أن يفرض الصوم على الأمة التى يفرض عليه الجهاد فى سبيل الله , لتقرير منهجه فى الأرض ، وللقوامة به على البشرية ، وللشهادة على الناس . فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة ، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد ؛ كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها ، واحتمال ضغطها وثقلها , إيثارا لما عند الله من الرضى والمتاع . (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون , أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ؛ فمن تطوع خيرا فهو خير له ؛ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون). . إن الله - سبحانه - يعلم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون ودفع واستجاشة لتنهض به وتستجيب له ؛ مهما يكن فيه من حكمة ونفع ، حتى تقتنع به وتراض عليه . ومن ثم يبدأ التكليف بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين ، المذكر لهم بحقيقتهم الأصيلة ; ثم يقرر لهم - بعد ندائهم ذلك النداء - أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله فى كل دين ، وأن الغاية الأولى هى إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم . . إنها التقوى . . فالتقوى هى التى تستيقظ فى القلوب وهى تؤدى هذه الفريضة ، طاعة لله ، وإيثارا لرضاه ، ثم يثنى بتقرير أن الصوم أيام معدودات ، فليس فريضة العمر وتكليف الدهر . ومع هذا فقد أعفى من أدائه المرضى حتى يصحوا ، والمسافرون حتى يقيموا ، تحقيقا وتيسيرا (أياما معدودات . فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر). . وظاهر النص فى المرض والسفر يطلق ولا يحدد . فأى مرض وأى سفر يسوغ الفطر ، على أن يقضى المريض حين يصح والمسافر حين يقيم . وهذا هو الأولى فى فهم هذا النص القرآنى المطلق ، والأقرب إلى المفهوم الإسلامى فى رفع الحرج ومنع الضرر(أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) (أياما معدودات) مدة زمنية محدودة ، عدة أيام وفى أول الأمر كان تكليف الصوم شاقا على المسلمين - وقد فرض فى السنة الثانية من الهجرة قبيل فرض الجهاد - فجعل الله فيه رخصة لمن يستطيع الصوم بجهد - وهو مدلول يطيقونه - فالإطاقة الاحتمال بأقصى جهد - جعل الله هذه الرخصة ، وهى الفطر مع إطعام مسكين . . ثم حببهم فى التطوع بإطعام المساكين إطلاقا ، إما تطوعا بغير الفدية ، وإما بالإكثار عن حد الفدية ، كأن يطعم اثنين أو ثلاثة أو أكثر بكل يوم من أيام الفطر فى رمضان: (فمن تطوع خيرا فهو خير له). . ثم حببهم فى اختيار الصوم مع المشقة - فى غير سفر ولا مرض -: (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون). . لما فى الصوم من خير فى هذه الحالة . يبدو منه لنا عنصر تربية الإرادة ، وتقوية الاحتمال ، وإيثار عبادة الله على الراحة . وكلها عناصر مطلوبة فى التربية الإسلامية . وعلى أية حال فقد كان هذا التوجيه تمهيدا لرفع هذه الرخصة عن الصحيح المقيم وإيجاب الصيام إطلاقا . كما جاء فيما بعد . وقد بقيت للشيخ الكبير الذى يجهده الصوم , ولا ترجى له حالة يكون فيها قادرا على القضاء وتحبيب آخر فى أداء هذه الفريضة للصحيح المقيم . . إنها صوم رمضان:الشهر الذى أنزل فيه القرآن - إما بمعنى أن بدء نزوله كان فى رمضان ، أو أن معظمه نزل فى أشهر رمضان - والقرآن هو كتاب هذه الأمة الخالد (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) الشهر الذى نزل فيه القرآن (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى من حضر منكم الشهر غير مسافر . أو من رأى منكم هلال الشهر . والمستيقن من مشاهدة الهلال بأية وسيلة أخرى كالذى يشهده فى إيجاب الصوم عليه عدة أيام رمضان . ولما كان هذا نصا عاما فقد عاد ليستثنى منه من كان مريضا أو على سفر(ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) وتحبيب ثالث فى أداء الفريضة ، وبيان لرحمة الله فى التكليف وفى الرخصة سواء (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر). . وهذه هى القاعدة الكبرى فى تكاليف هذه العقيدة كلها . فهى ميسرة لا عسر فيها . وهى توحى للقلب الذى يتذوقها ، بالسهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها. وقد جعل الصوم للمسافر والمريض فى أيام أخر ، لكى يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر ، فلا يضيع عليه أجرها (ولتكملوا العدة). والصوم على هذا نعمة تستحق التكبير والشكر (ولتكبروا الله على ما هداكم . ولعلكم تشكرون) فهذه غاية من غايات الفريضة . . أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذى يسره الله لهم . وهم يجدون هذا فى أنفسهم فى فترة الصيام أكثر من كل فترة . وهم مكفوفو القلوب عن التفكير فى المعصية ، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها . وهم شاعرون بالهدى

ملموسا محسوسا . ليكبروا الله على هذه الهداية وليشكروه على هذه النعمة . ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة . كما قال لهم في مطلع الحديث عن الصيام: (لعلكم تتقون). . وهكذا تبدو منة الله في هذا التكليف الذى يبدو شاقا على الأبدان والنفوس . وتتجلى الغاية التربوية منه ، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذى أخرجت هذه الأمة لتؤديه , أداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير . (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون) فإنى قريب . . أجيب دعوة الداع إذا دعان . . أية رقة ؟ وأى انعطاف ؟ وأية شفافية ؟ وأى إيناس ؟ وأين تقع مشقة الصوم ومشقة أى تكليف في ظل هذا الود ، وظل هذا القرب , وظل هذا الإيناس ؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة إضافة العباد إليه ، والرد المباشر عليهم منه ، وفى ظل هذا الأنس الحبيب ، وهذا القرب الودود ، يوجه الله عباده إلى الاستجابة له ، والإيمان به ، لعل هذا أن يقودهم إلى الرشد والهداية والصلاح . (فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون). . فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هي لهم كذلك . . وهى الرشد والهدى والصلاح . فالله غنى عن العالمين . والرشد الذى ينشئه الإيمان وتنشئه الاستجابة لله هو الرشد.

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (١٨٨)

. ثم يمضي السياق يبين للذين آمنوا بعض أحكام الصيام . فيقرر لهم حل المباشرة للنساء في ليلة الصوم ما بين المغرب والفجر ، وحل الطعام والشراب كذلك ، كما يبين لهم مواعيد الصوم من الفجر إلى الغروب ، وحكم المباشرة في فترة الاعتكاف في المساجد :وفي أول فرض الصوم كانت المباشرة والطعام والشراب تمتنع لو نام الصائم بعد إفطاره . فإذا صحا بعد نومه من الليل – ولو كان قبل الفجر – لم تحل له المباشرة ولم يحل له الطعام والشراب . وقد وقع أن بعضهم لم يجد طعاما عند أهله وقت الإفطار ، فغلبه النوم ، ثم صحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل . ثم جهد في النهار التالي وبلغ أمره إلى النبى ﷺ كما وقع أن بعضهم نام بعد الإفطار أو نامت امرأته ، ثم وجد في نفسه دفعة للمباشرة ففعل وبلغ أمره إلى النبى ﷺ وبدت المشقة في أخذ المسلمين بهذا التكليف ، فردهم الله إلى اليسر وتجربتهم حاضرة في نفوسهم ، ليحسوا بقيمة اليسر وبمدى الرحمة والاستجابة . . ونزلت هذه الآية . نزلت تحل لهم المباشرة ، ما بين المغرب والفجر، و هى اللقاء الحميمى بين الرجل زوجته • (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) والرفث هو مقدمات المباشرة أى الجماع ، أو المباشرة ذاتها ، وكلاهما مقصود هنا ومباح . . ولكن القرآن لا يمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفافة ، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقا ونداوة ، وتنأى بها عن غلظ المعنى الحيواني وعرامته ، وتوقظ معنى الستر في تيسير هذه العلاقة (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) واللباس ساتر وواق . . وكذلك هذه الصلة بين الزوجين . تستر كلا منهما وتقيه (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم . فتاب عليكم وعفا عنكم) وهذه الخيانة لأنفسهم التى يحدثهم عنها ، تتمثل في الهواتف الحبيسة ، والرغبات المكبوتة ; أو تتمثل في الفعل ذاته ، وفى كلتا الحالتين لقد تاب عليهم وعفا عنهم ، مذ ظهر ضعفهم وعلمه الله منهم . . فأباح لهم ما كانوا يختانون فيه أنفسهم (فالآن باشروهن) ولكن هذه الإباحة لا تمضى دون أن تربط بالله ، ودون توجيه النفوس في هذا النشاط لله أيضا (وابتغوا ما كتب الله لكم) ابتغوا هذا الذى كتبه الله لكم من المتعة بالنساء ، ومن المتعة بالذرية ، ثمرة المباشرة . فكلتاهما من أمر الله ، ومن المتاع الذى أعطاكم إياه ، وهي موصولة بالله فهي من عطاياه . ومن ورائها حكمة , ولها في حسابه غاية . فليست إذن مجرد اندفاع حيوانى موصول بالجسد وكما أباح المباشرة أو الجماع بين الأزواج أباح الطعام والشراب في الفترة ذاتها (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) أى حتى ينتشر النور في الأفق وعلى قمم الجبال . وليس هو ظهور الخيط الأبيض في السماء وهو ما يسمى بالفجر الكاذب. وإننا نمسك الآن وفق المواعيد المعروفة في قطرنا هذا قبل أوان الإمساك الشرعى ببعض الوقت . . ربما زيادة في الاحتياط . . ثم يذكر حكم المباشرة في فترة الاعتكاف في المساجد . والاعتكاف – بمعنى الخلوة إلى الله في المساجد . وعدم دخول البيوت إلا لضرورة قضاء الحاجة ، أو ضرورة الطعام والشراب - يستحب في رمضان في الأيام الأخيرة . وكانت سنة رسول الله ﷺ في العشر الأواخر منه . . وهى فترة تجرد لله . ومن ثم امتنعت فيها المباشرة تحقيقا لهذا التجرد الكامل ، الذى تنسلخ فيه النفس من كل شيء ، ويخلص فيه القلب من كل شاغل (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) وفي النهاية يربط الأمر كله بالله على طريقة القرآن في توجيه كل نشاط وكل امتناع . كل أمر وكل نهى . كل حركة وكل سكون (تلك حدود الله فلا تقربوها) والنهي هنا عن القرب لتكون هناك منطقة أمان . فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والإنسان لا يملك نفسه في كل وقت ؛ فأحرى به ألا يعرض إرادته للامتحان بالقرب من المحظورات المشتهاة ، اعتمادا على أنه يمنع نفسه حين يريد . ولأن المجال هنا مجال حدود للملاذ والشهوات كان الأمر: (فلا تقربوها). . والمقصود هو المواقعة لا القرب . ولكن هذا التحذير على هذا النحو له إيحاؤه في التحرج والتقوى (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون). . وكذلك تلوح التقوى غاية يبين الله آياته للناس ليبلغوها ، وهى غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا ، المخاطبون بهذا القرآن في كل حين . وفي ظل الصوم ، والامتناع عن المأكل والمشرب ، يرد تحذير من نوع آخر من الأكل ،:أكل أموال الناس بالباطل ، عن طريق التقاضى بشأنها أمام الحكام اعتمادا على المغالطة في القرائن والأسانيد ، واللحن بالقول والحجة . حيث يقضى الحاكم بما يظهر له , وتكون الحقيقة غير ما بدا له . ويجيء هذا التحذير عقب ذكر حدود الله ، والدعوة إلى تقواه ، ليظللها جو الخوف الرادع عن حرمات الله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال:" إنما أنا بشر ، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار . فليحملها أو ليذرها " . . وهكذا يتركهم لما يعلمونه من حقيقة دعواهم . فحكم الحاكم لا يحل حراما ، ولا يحرم حلالا . إنما هو ملزم في الظاهر . وإثمه على المحتال فيه

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (١٨٩)

وهكذا يربط الأمر فى التقاضى وفى المال بتقوى الله . كما ربط فى القصاص ، وفى الوصية وفى الصيام . فكلها قطاعات متناسقة فى جسم المنهج الإلهى المتكامل . وكلها مشدودة إلى تلك العروة التى تربط قطاعات المنهج كله . . ومن ثم يصبح المنهج الإلهى وحدة واحدة . لا تتجزأ ولا تتفرق . ويصبح ترك جانب منه وإعمال جانب ، إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعض . . فهو الكفر فى النهاية . والعياذ بالله . .

(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ {١٩٠} وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ {١٩١} فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {١٩٢} وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ {١٩٣} الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ {١٩٤} وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٩٥} وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {١٩٦} الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ {١٩٧} لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ {١٩٨} ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {١٩٩} فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ {٢٠٠} وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {٢٠١} أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {٢٠٢} وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {٢٠٣}

ويتضمن هذا الدرس بيانا عن الأهلة – جمع هلال – كما يتضمن تصحيحا لعادة جاهلية وهى إتيان البيوت من ظهورها بدلا من أبوابها فى مناسبات معينة ، ثم بيانا عن أحكام القتال عامة ، وأحكام القتال فى الأشهر الحرم ، وعند المسجد الحرام خاصة . وفى النهاية بيانا لشعائر الحج والعمرة كما أقرها الإسلام وهذبها ، وعدل فيها كل ما يمت إلى التصورات الجاهلية . فى موضوع إتيان البيوت من ظهورها يجىء تعقيب يصحح معنى البر ، وأنه ليس فى الحركة الظاهرة إنما هو فى التقوى: (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون). . وفى القتال بصفة عامة يوجههم إلى عدم الاعتداء ، ويربط هذا بحب الله وكرهه . (إن الله لا يحب المعتدين) وفى القتال فى الشهر الحرام يعقب بتقوى الله: (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) وفى الإنفاق يعقب بحب الله للمحسنين: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). . وفى التعقيب على بعض شعائر الحج يقول: (واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) وفى التعقيب الآخر على بيان مواقيت الحج والنهى عن الرفث فيه والفسوق والجدال يقول) :وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب). . وحتى فى توجيه الناس لذكر الله بعد الحج يجىء التعقيب: (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون). وهناك ظاهرة فى هذه السورة تطالعنا منذ هذا القطاع . تطالعنا فى صورة مواقف يسأل فيها المسلمون نبيهم ﷺ عن شؤون شتى ، هى الشؤون التى تصادفهم فى حياتهم الجديدة , ويريدون أن يعرفوا كيف يسلكون فيها وفق تصورهم الجديد ، ووفق نظامهم الجديد . وعن الظواهر التى تلفت حسهم الذى استيقظ تجاه الكون الذى يعيشون فيه . . فهم يسألون عن الأهلة . . ما شأنها ؟ ما بال القمر يبدو هلالا ، ثم يكبر حتى يستدير بدرا ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يرتد هلالا ، ثم يختفى ليظهر هلالا من جديد ؟ ويسألون ماذا ينفقون ؟ من أى نوع من مالهم ينفقون ؟ وأى قدر وأية نسبة مما يملكون ? ويسألون عن القتال فى الشهر الحرام وعند المسجد الحرام . هل يجوز ؟ ويسألون عن الخمر والميسر ما حكمهما ؟ وقد كانوا أهل خمر فى الجاهلية وأهل ميسر ! ويسألون عن المحيض ؟ وعلاقتهم بنسائهم فى فترته . ثم يسألون عن أشياء فى أخص علاقاتهم بأزواجهم ، وأحيانا تسأل فيها الزوجات أنفسهن . وقد وردت أسئلة أخرى فى موضوعات متنوعة فى سور أخرى من القرآن أيضا . . وهذه الأسئلة ذات دلالات شتى فهى:

أولا دليل على تفتح وحيوية فى صور الحياة وعلاقاتها ، وبروز أوضاع جديدة فى المجتمع الذى جعل يأخذ شخصيته الخاصة ، ويتعلق به الأفراد تعلقا وثيقا ؛ فلم يعودوا أولئك الأفراد المبعثرين ، ولا تلك القبائل المتناثرة . إنما عادوا أمة لها كيان ، ولها نظام ، ولها وضع يشد الجميع إليه ؛ ويهم كل فرد فيه أن يعرف خطوطه وارتباطاته . . وهى حالة جديدة أنشأها الإسلام بتصوره ونظامه وقيادته

وهى ثانيا دليل على يقظة الحس الدينى ، وتغلغل العقيدة الجديدة وسيطرتها على النفوس , مما يجعل كل أحد يتحرج أن يأتى أمرا فى حياته اليومية قبل أن يستوثق من رأى العقيدة الجديدة فيه ،

فلم تعد لهم مقررات سابقة فى الحياة يرجعون إليها ، وقد انخلعت قلوبهم من كل مألوفاتهم فى

والدلالة الثالثة تؤخذ من تاريخ هذه الفترة ؛ وقيام اليهود فى المدينة والمشركين فى مكة بين الحين والحين بمحاولة التشكيك فى قيمة النظم الإسلامية ، وانتهاز كل فرصة للقيام بحملة مضللة على بعض التصرفات والأحداث

– كما وقع في سرية عبد الله بن جحش وما قيل من اشتباكها في قتال مع المشركين في الأشهر الحرم – مما كان يستدعى بروز بعض الاستفهامات والإجابة عليها، بما يقطع الطريق على تلك المحاولات ؛ ويسكب الطمأنينة واليقين في قلوب المسلمين . . ومعنى هذه الدلالة أن القرآن كان دائما في المعركة . سواء تلك المعركة الناشئة في القلوب بين تصورات الجاهلية وتصورات الإسلام ; والمعركة الناشئة في الجو الخارجي بين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين يتربصون بها من كل جانب .

(يسألونك عن الأهلة . قل:هي مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها , ولكن البر من إتقى . وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون) تقول بعض الروايات:إن النبي ﷺ سئل ذلك السؤال الذى أسلفناه عن الأهلة:ظهورها ونموها وتناقصها . . ما بالها تصنع هذا ؟ وتقول بعض الروايات:أنهم قالوا:يا رسول الله لم خلقت الأهلة ؟ وقد يكون هذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب . فقال الله لنبيه ﷺ (قل:هي مواقيت للناس والحج) مواقيت للناس في حلهم وإحرامهم ، وفي صومهم وفطرهم ، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدتهم , وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم . . وفي أمور دينهم وأمور دنياهم على سواء . وسواء كان هذا الجواب ردا على السؤال الأول أو على السؤال الثاني ، فهو في كلتا الحالتين اتجه إلى واقع حياتهم العملى لا إلى مجرد العلم النظرى ؛ وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم وهي داخلة في مدلول السؤال:ما بال القمر يبدو هلالا . . وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه , وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها . . كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه ! إن القرآن كتاب كامل في موضوعه ، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها . . لأنه هو الإنسان ذاته الذى يكشف هذه المعلومات وينتفع بها . . والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان . والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه . بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره . إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة . أما ما يصل إليه البحث الإنساني - أيا كانت الأدوات المتاحة له – فهى حقائق غير نهائية ولا قاطعة ؛ وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها . . فمن الخطأ المنهجي – بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته – أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية . وهي كل ما يصل إليه العلم البشرى ! ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات – ومن حقائق – عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن . . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها . ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها , واتقوا الله لعلكم تفلحون) والارتباط بين شطرى الآية يبدو أنه هو المناسبة بين أن الأهلة هى مواقيت للناس والحج , وبين عادة جاهلية خاصة بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني . . في الصحيحين - بإسناده – عن البراء – رضي الله عنه – قال:" كان الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت ، فجاء رجل منهم فدخل من قبل بابه ، فكأنه عير بذلك . فنزلت: (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ؛ ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها). . وسواء كانت هذه عادتهم في السفر بصفة عامة ، أو في الحج بصفة خاصة وهو الأظهر في السياق , فقد كانوا يعتقدون أن هذا هو البر – أى الخير أو الإيمان – فجاء القرآن ليبطل هذا التصور الباطل ، وهذا العمل المتكلف الذى لا يستند إلى أصل ، .ولا تعني أكثر من عادة جاهلية . كذلك أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها . وكرر الإشارة إلى التقوى ، بوصفها سبيل الفلاح (وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون) وبهذا ربط القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة – هى التقوى – وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة .

بعد ذلك يجيء بيان عن القتال بصفة عامة ، وعن القتال عند المسجد الحرام وفي الأشهر الحرم بصفة خاصة ، كما تجيء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ، وهي مرتبطة بالجهاد كل الارتباط: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ؛ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين . وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة , وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). . ورد في بعض الروايات أن هذه الآيات هى أول ما نزل في القتال . نزل قبلها الإذن من الله للمؤمنين الذين يقاتلهم الكفار بأنهم ظلموا . وأحس المؤمنون بأن هذا الإذن هو مقدمة لفرض الجهاد عليهم ، وللتمكين لهم في الأرض ، كما وعدهم الله في آيات سورة الحج):أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا:ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور). . ومن ثم كانوا يعرفون لم أذن لهم بأنهم ظلموا ، وأعطيت لهم إشارة الانتصاف من هذا الظلم , بعد أن كانوا مكفوفين عن دفعه وهم في مكة ، وقيل لهم: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة). . وكان هذا الكف لحكمة قدرها الله . . نستطيع أن نحدس بعض أسبابها على سبيل التقدير البشرى الذى لا يحصى ولا يستقصى .

وأول ما نراه من أسباب هذا الكف ، أنه كان يراد أولا تطويع نفوس المؤمنين من العرب للصبر امتثالا للأمر ، وخضوعا للقيادة ، وانتظارا للإذن . وقد كانوا في الجاهلية شديدى الحماسة ، يستجيبون لأول ناعق ، ولا يصبرون على الضيم . . وبناء الأمة المسلمة التي تنهض بالدور العظيم الذى نيطت به هذه الأمة يقتضى ضبط هذه الصفات النفسية ، وتطويعها لقيادة تقدر وتدبر ، وتطاع فيما تقدر وتدبر وأن يربطوا على أعصابهم في انتظار أمر رسول الله ﷺ وأن يخضعوا لأمر القيادة العليا وهي تقول لهم: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة). . ومن ثم وقع التوازن بين الاندفاع والتروى ، والحماسة والتدبر ، والحمية والطاعة . . في هذه النفوس التي كانت تعد لأمر عظيم . .

والأمر الثاني الذى يلوح لنا من وراء الكف عن القتال في مكة . . هو أن البيئة العربية , كانت بيئة نخوة ونجدة . وقد كان صبر المسلمين على الأذى ، وفيهم من يملك رد الصاع صاعين ، مما يثير النخوة ويحرك القلوب نحو الإسلام ؛ وقد حدث

بالفعل عندما أجمعت قريش على مقاطعة بنى هاشم فى شعب أبى طالب ، كى يتخلوا عن حماية الرسول ﷺ أنه عندما اشتد الاضطهاد لبنى هاشم ، ثارت نفوس نجدة ونخوة ، ومزقت الصحيفة التى تعاهدوا فيها على المقاطعة . وانتهى هذا الحصار تحت تأثير هذا الشعور الذى كانت القيادة الإسلامية فى مكة تراعيه فى خطة الكف عن المقاومة ، ومما يتعلق بهذا الجانب أن القيادة الإسلامية لم تشأ أن تثير حربا دموية داخل البيوت . فقد كان المسلمون حينذاك فروعا من البيوت . وكانت هذه البيوت هى التى تؤذى أبناءها وتفتنهم عن دينهم ؛ ولم تكن هناك سلطة موحدة هى التى تتولى الإيذاء العام . ولو أذن للمسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم يومذاك ، لكان معنى هذا الإذن أن تقوم معركة فى كل بيت ، وأن يقع دم فى كل أسرة . . مما كان يجعل الإسلام – فى نظر البيئة العربية - يبدو دعوة تفتت البيوت ، وتشعل النار فيها من داخلها . . فأما بعد الهجرة فقد انعزلت الجماعة المسلمة كوحدة مستقلة ، تواجه سلطة أخرى فى مكة ، تجند الجيوش وتقود الحملات ضدها . . وهذا وضع متغير عما كان عليه الوضع الفردى فى مكة ، بالنسبة لكل مسلم فى داخل أسرته .

طبيعة الجهاد في الإسلام

لقد جاءت هذه العقيدة فى صورتها الأخيرة التى جاء بها الإسلام ؛ لتكون قاعدة للحياة البشرية فى الأرض من بعدها ، ولتكون منهجا عاما للبشرية جميعها ؛ ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية فى طريق الله وفق هذا المنهج ، المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ، ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهى الشامل ، وألا تقف عقبة أو سلطة فى وجه التبليغ بأى حال من الأحوال . ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارا فى اعتناق هذا الدين ؛ لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة . فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان ، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضى فى طريقها . وكان عليه أن يعطى من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان ؛ وما يضمن للجماعة المسلمة المضى فى طريق التبليغ بلا عدوان . . فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأى وسيلة من وسائل الفتنة . لا بالأذى ولا بالإغراء . ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة . (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ) ١٩١ (واجب الأمة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة . ضمانا لحرية العقيدة , وكفالة لأمن الذين هداهم الله ، وإقرارا لمنهج الله فى الحياة ، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام . وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة ؛ وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس فى حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها . وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة فى الأرض , ويكون الدين لله . . لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان . ولكن بمعنى استعلاء دين الله فى الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ؛ ولا يخاف قوة فى الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه . وبحيث لا يكون فى الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ويضلهم عن سبيل الله . بأية وسيلة وبأية أداة ، وفى حدود هذه المبادىء العامة كان الجهاد فى الإسلام ، إنه الجهاد للعقيدة . لحمايتها من الحصار ؛ وحمايتها من الفتنة ؛ وحماية منهجها وشريعتها فى الحياة ؛ وإقرار رايتها فى الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء ؛ و يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى فى الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه وهذا هو الجهاد الوحيد الذى يأمر به الإسلام ، ويقره ويثيب عليه ؛ ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء ؛ والذين يحتملون أعباءه أولياء . وهذه الآيات من سورة البقرة فى هذا الدرس كانت تواجه وضع الجماعة المسلمة فى المدينة مع مشركى قريش الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم ، وآذوهم فى دينهم ، وفتنوهم فى عقيدتهم ، وهى – مع هذا – تمثل قاعدة أحكام الجهاد فى الإسلام ، وتبدأ الآيات بأمر المسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم وما يزالون يقاتلونهم ، وبقتال من يقاتلهم فى أى وقت وفى أى مكان ، ولكن دون اعتداء (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين وفى أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال ، والراية التى تخاض تحتها المعركة فى وضوح وجلاء (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم). . إنه القتال لله ، لا لأى هدف آخر من الأهداف التى عرفتها البشرية فى حروبها الطويلة . القتال فى سبيل الله . لا فى سبيل الأمجاد والاستعلاء فى الأرض ، ولا فى سبيل المغانم والمكاسب ؛ ولا فى سبيل الأسواق والخامات ؛ ولا فى سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس . ومع تحديد الهدف ، تحديد المدى (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). . والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة ، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين . . كما يكون بتجاوز آداب القتال التى شرعها الإسلام ، ووضع بها حدا للشناعات التى عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء ، ثم يمعن السياق فى توكيد القتال لهؤلاء الذين قاتلوا المسلمين وفتنوهم فى دينهم , وأخرجوهم من ديارهم ، والمضى فى القتال حتى يقتلوهم على أية حالة ، وفى أى مكان وجدوهم . باستثناء المسجد الحرام . إلا أن يبدأ الكفار فيه بالقتال . وإلا أن يدخلوا فى دين الله فتكف أيدى المسلمين عنهم ، مهما كانوا قد آذوهم من قبل وقاتلوهم وفتنوهم (واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم – والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما فى الحياة الإنسانية . ومن ثم فهى أشد من القتل . أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة . ويستوى أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلى ، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ، وتزين لهم الكفر به أو الاعراض عنه (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى حيث وجدتموهم . (فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (١٩٢) فى أية حالة كانوا عليها ؛ وبأية وسيلة تملكونها – مع مراعاة أدب الإسلام فى عدم المثلة أو الحرق بالنار ، ولا قتال عند المسجد الحرام ، الذى كتب الله له الأمن ، وجعل جواره أمنا استجابة لدعوة خليله إبراهيم (عليه السلام) حيث الأمن والحرمة والسلام . . لا قتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته , فيبدأون بقتال المسلمين عنده . وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم ، (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم). . والانتهاء الذى يستأهل غفران الله ورحمته ، هو الانتهاء عن الكفر ، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين . فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون . ولكنه لا يؤهل لمغفرة الله ورحمته .

فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان ، لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . .(

وإذا كان النص – عند نزوله – يواجه قوة المشركين فى شبه الجزيرة ، وهي التي كانت تفتن الناس ، وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . ففى كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها فى أمان . والجماعة المسلمة مكلفة فى كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ؛ وتطلق الناس أحرارا من قهرها ، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله ، وهذا المبدأ العظيم الذى سنه الإسلام فى أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائما . وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها فى شتى العصور . . وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة فى بعض الأحيان . . وكل من يتعرض للفتنة فى دينه والأذى فى عقيدته فى أية صورة من الصور(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وفى أى شكل من الأشكال ، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل ؛ وأن يحقق المبدأ العظيم الذى سنه الإسلام ، فكان ميلادا جديدا للإنسان . . فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم ؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم ؛ فلا عدوان عليهم (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ثم يبين حكم القتال فى الأشهر الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين) فالذى ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التى يكفلها له الشهر الحرام . وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام فى المكان ؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام فى الزمان . تصان فيها الدماء ، والحرمات والأموال ، ولا يمس فيها حي بسوء . فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأراد أن يحرم المسلمين منها ، فجزاؤه أن يحرم هو منها . والذى ينتهك الحرمات لا تصان حرماته ، فالحرمات قصاص (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم). بلا تجاوز ولا مغالاة . . والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم ،أنهم إنما ينصرون بعون الله . فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين . بعد أمرهم بالتقوى . . وفى هذا الضمان كل الضمان . .

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال . ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة , ومركب ، وزاد القتال و لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند . وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم . إنها لا تحتاج حينئذ أن تنفق لتحمى نفسها من أهلها أو من أعدائها ، إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها! ولكن كثيرا من فقراء المسلمين الراغبين فى الجهاد ، والذود عن منهج الله وراية العقيدة , لم يكونوا يجدون ما يزودون به أنفسهم ، ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب ومركب الحرب . وكانوا يجيئون إلى النبي ﷺ يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد , الذى لا يبلغ على الأقدام . فإذا لم يجد ما يحملهم عليه كما جاء في سورة التوبة {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ }التوبة٩٢ و يَعد عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنها المسلمون (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح ، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف . وبخاصة في نظام يقوم على التطوع ، كما كان يقوم الإسلام ، ثم يرتقى بهم من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). ومرتبه الإحسان هى عليا المراتب فى الإسلام . وهي كما قال رسول الله ﷺ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة ، فإنها تفعل الطاعات كلها ، وتنتهى عن المعاصى كلها , وتراقب الله فى الصغيرة والكبيرة ، وفى السر والعلن على السواء

بعد ذلك يجيء الحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما . والتسلسل فى السياق واضح بين الحديث عن الأهلة وإنها مواقيت للناس والحج ؛ والحديث عن القتال في الأشهر الحرم وعن المسجد الحرام ؛ والحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما وليس لدينا تاريخ محدد لنزول آيات الحج هذه إلا رواية تذكر أن قوله تعالى(فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) نزلت فى الحديبية سنة ست من الهجرة . كذلك ليس لدينا تاريخ مقطوع به لفرضية الحج في الإسلام . سواء على الرأى الذى يقول بأنه فرض بآية (وأتموا الحج والعمرة لله) أو بآية (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا). . الواردة في سورة آل عمران . فهذه كتلك ليس لدينا عن وقت نزولها رواية قطعية الثبوت . وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية في كتاب:"زاد المعاد" إن الحج فرض فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة لأن الرسول ﷺ حج حجة الوداع فى السنة العاشرة ؛ وأنه أدى الفريضة عقب فرضها إما فى السنة التاسعة أو العاشرة . . ولكن هذا لا يصلح سندا . فقد تكون هناك اعتبارات أخرى هى التى جعلت الرسول ﷺ يؤخر حجه إلى السنة العاشرة . وبخاصة إذا لاحظنا أنه أرسل أبا بكر – رضى الله عنه – أميرا على الحج فى السنة التاسعة . وقد ورد أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك هم بالحج ؛ ثم تذكر أن المشركين يحضرون موسم الحج على عادتهم , وأن بعضهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم . . ثم نزلت سورة براءة ، فأرسل ﷺ على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – يبلغ مطلع براءة للناس ، وينهى بها عهود المشركين , ويعلن يوم النحر إذا اجتمع الناس بمنى:" أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته " . . . . ومن ثم لم يحج ﷺ حتى تطهر البيت من المشركين ومن العرايا . . إلا أن آيات سورة الحج المكية – على الأرجح – ذكرت معظم شعائر الحج ، بوصفها الشعائر التى أمر الله إبراهيم بها . وقد ورد فيها:(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق). .(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق). .(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها ، وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين) وقد ذكر فى

هذه الآيات أو أشير إلى الهدى والنحر والطواف والإحلال من الإحرام وذكر اسم الله . وهى شعائر الحج الأساسية . وكان الخطاب موجها إلى الأمة المسلمة موصولة بسيرة أبيهم إبراهيم . مما يشير إلى فرضية الحج فى وقت مبكر ، باعتباره شعيرة إبراهيم الذى إليه ينتسب المسلمون . فإذا كانت قد وجدت عقبات من الصراع بين المسلمين والمشركين - وهم سدنة الكعبة إذ ذاك - جعلت أداء الفريضة متعذرا بعض الوقت , فذلك اعتبار آخر . وقد رجحنا فى أوائل هذا الجزء أن بعض المسلمين كانوا يؤدون الفريضة أفرادا فى وقت مبكر ؛ بعد تحويل القبلة فى السنة الثانية من الهجرة . (وأتموا الحج والعمرة لله - فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى - ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله . فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . فإذا أمنتم:فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم - تلك عشرة كاملة . ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب). . وأول ما يلاحظ فى بناء الآية هو تلك الدقة التعبيرية فى معرض التشريع ، وتقسيم الفقرات فى الآية لتستقل كل فقرة ببيان الحكم الذى تستهدفه . ومجيء الاستدراكات على كل حكم قبل الانتقال إلى الحكم التالى . . ثم ربط هذا كله فى النهاية بالتقوى ومخافة الله . . والفقرة الأولى فى الآية تتضمن الأمر بإتمام أعمال الحج والعمرة إطلاقا متى بدأ الحاج أو المعتمر فأهل بعمرة أو بحج أو بهما معا ؛ وتجريد التوجه بهما لله (وأتموا الحج والعمرة لله) وقد فهم بعض المفسرين من هذا الأمر أنه إنشاء لفريضة الحج . وفهم بعضهم أنه الأمر بإتمامه متى بدىء - وهذا هو الأظهر - فالعمرة ليست فريضة عند الجميع ومع هذا ورد الأمر هنا بإتمامها كالحج . مما يدل على أن المقصود هو الأمر بالإتمام لا إنشاء الفريضة بهذا النص . ويؤخذ من هذا الأمر كذلك أن العمرة - ولو أنها ابتداء ليست واجبة - إلا أنه متى أهل بها المعتمر فإن اتمامها يصبح واجبا . والعمرة كالحج فى شعائرها ما عدا الوقوف بعرفة . والأشهر أنها تؤدى على مدار العام . وليست موقوتة بأشهر معلومات كالحج ، ويستدرك من هذا الأمر العام بإتمام الحج والعمرة حالة الإحصار . من عدو يمنع الحاج والمعتمر من إكمال الشعائر - وهذا متفق عليه - أو من مرض ونحوه يمنع من إتمام أعمال الحج والعمرة - واختلفوا فى تفسير الإحصار بالمرض والراجح صحته (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) وفى هذه الحالة ينحر الحاج أو المعتمر ما تيسر له من الهدى ويحل من إحرامه فى موضعه الذى بلغه . ولو كان لم يصل بعد إلى المسجد الحرام ولم يفعل من شعائر الحج والعمرة إلا الإحرام عند الميقات [وهو المكان الذى يهل منه الحاج أو المعتمر بالحج أو العمرة أو بهما معا ، ويترك لبس المخيط من الثياب ، ويحرم عليه حلق شعره أو تقصيره أو قص أظافره كما يحرم عليه صيد البر وأكله ، وهذا ما حدث فى الحديبية عندما حال المشركون بين النبى ﷺ ومن معه من المسلمين دون الوصول إلى المسجد الحرام ، سنة ست من الهجرة ، ثم عقدوا معه صلح الحديبية , على أن يعتمر فى العام القادم . فقد ورد أن هذه الآية نزلت ؛ وأن رسول الله ﷺ أمر المسلمين الذين معه أن ينحروا فى الموضع الذى بلغوا إليه ويحلوا من إحرامهم فتلبثوا فى تنفيذ الأمر ، وشق على نفوسهم أن يحلوا قبل أن يبلغ الهدى محله - أى مكانه الذى ينحر فيه عادة - حتى نحر النبى ﷺ هديه أمامهم وأحل من إحرامه . . ففعلوا . . وما استيسر من الهدى ، أى ما تيسر ، والهدى من النعم ، وهى الإبل والبقر والغنم والمعز , ويجوز أن يشترك عدد من الحجاج فى بدنة أى ناقة أو بقرة ، كما اشترك كل سبعة فى بدنة فى عمرة الحديبية ، فيكون هذا هو ما استيسر ؛ ويجوز أن يهدى الواحد واحدة من الضأن أو المعز فتجزىء ، والحكمة من هذا الاستدراك فى حالة الإحصار بالعدو كما وقع فى عام الحديبية ، أو الإحصار بالمرض ، هى التيسير ، فالغرض الأول من الشعائر هو استجاشة مشاعر التقوى والقرب من الله ، والقيام بالطاعات المفروضة . فإذا تم هذا ، ثم وقف العدو أو المرض أو ما يشبهه فى الطريق فلا يحرم الحاج أو المعتمر أجر حجته أو عمرته . ويعتبر كأنه قد أتم . فينحر ما معه من الهدى ويحل . وهذا التيسير هو الذى يتفق مع روح الإسلام وغاية الشعائر وهدف العبادة ، وبعد هذا الاستدراك من الأمر الأول العام ، يعود السياق فينشىء حكما جديدا عاما من أحكام الحج والعمرة (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله). . وهذا فى حالة الإتمام وعدم وجود الإحصار . فلا يجوز حلق الرؤوس - وهو إشارة إلى الإحلال من الإحرام بالحج أو العمرة أو منهما معا - إلا بعد أن يبلغ الهدى محله . وهو مكان نحره . بعد الوقوف بعرفة ، والإفاضة منها . والنحر يكون فى منى فى اليوم العاشر من ذى الحجة ، وعندئذ يحل المحرم . أما قبل بلوغ الهدى محله فلا حلق ولا تقصير ولا إحلال ، واستدراكا من هذا الحكم العام يجىء هذا الاستثناء (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) ففى حالة ما إذا كان هناك مرض يقتضى حلق الرأس ، أو كان به أذى من الهوام التى تتكون فى الشعر حين يطول ولا يمشط ، فالإسلام يبيح للمحرم أن يحلق شعره ، - قبل أن يبلغ الهدى الذى ساقه عند الإحرام محله ، وقبل أن يكمل أفعال الحج ، وذلك فى مقابل فدية: صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة بإطعام ستة مساكين ، أو ذبح شاة والتصدق بها . وهذا التحديد لحديث النبى ﷺ قال البخارى - بإسناده إلى كعب بن عجرة - قال: حملت إلى النبى ﷺ والقمل يتناثر على وجهى . فقال(ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا . أما تجد شاة ؟ قلت: لا . قال: صم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين , لكل مسكين نصف صاع من طعام ، وأحلق رأسك) ثم يعود إلى حكم جديد عام فى الحج والعمرة (فإذا أمنتم ، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فإذا لم تحصروا ، وتمكنتم من أداء الشعائر ، فمن أراد التمتع بالعمرة إلى الحج فلينحر ما استيسر من الهدى وتفصيل هذا الحكم أن المسلم قد يخرج للعمرة فيهل محرما عند الميقات . حتى إذا فرغ من العمرة - وهى تتم بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة - أحرم للحج وانتظر أيامه . وهذا إذا كان فى أشهر الحج ، وهى شوال وذو القعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة . . هذه صورة من صور التمتع بالحج إلى العمرة . والصورة الثانية هى أن يحرم من الميقات بعمرة وحج معا . فإذا قضى مناسك العمرة انتظر حتى يأتى موعد الحج . وهذه هى الصورة الثانية للتمتع - وفى أى من الحالتين على المعتمر المتمتع أن ينحر ما استيسر من الهدى بعد العمرة ليحل منها ؛ ويتمتع بالإحلال ما بين قضائه للعمرة وقضائه للحج . وما استيسر يشمل المستطاع من الأنعام سواء الإبل والبقر أو الغنم والمعز ، فإذا لم يجد ما استيسر من الهدى فهناك فدية (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم . تلك عشرة كاملة) والأولى أن يصوم الأيام الثلاثة الأولى قبل الوقوف بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة . أما الأيام السبعة الباقية فيصومها بعد عودته من الحج إلى بلده (تلك عشرة كاملة). . ينص عليها نصا للتوكيد وزيادة البيان ، ولعل حكمة الهدى أو الصوم هى استمرار صلة القلب بالله ، فيما بين العمرة والحج ، فلا يكون الإحلال بينهما مخرجا للشعور عن جو الحج ، وجو الرقابة ، ولما كان أهل الحرم عماره المقيمين فيه لا عمرة لهم . . إنما هو الحج وحده . . لم يكن لهم تمتع ، ولا إحلال بين العمرة والحج . ومن ثم فليس عليهم فدية ولا صوم بطبيعة الحال (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) وعند هذا المقطع من بيان أحكام الحج والعمرة يقف السياق ليعقب تعقيبا قرآنيا ، يشد به القلوب إلى الله وتقواه (واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) وهذه الأحكام ضمان القيام بها هو هذه التقوى ، وهى

مخافة الله ، وخشية عقابه . والإحرام بصاحبه تحرج ، ثم يمضى فى بيان أحكام أخرى للحج فيبين مواعيده ، وآدابه ، وينتهى فى هذا المقطع الجديد إلى التقوى كما انتهى إليها فى المقطع الأول (الحج أشهر معلومات . فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج . وما تفعلوا من خير يعلمه الله . وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب) وظاهر النص أن للحج وقتا معلوما ، هو شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة . . وعلى هذا لا يصح الإحرام بالحج إلا فى هذه الأشهر المعلومات ، فمن فرض الحج فى هذه الأشهر المعلومات – أى أوجب على نفسه اتمامه بالإحرام (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج). . والرفث هنا هو ذكر الجماع ودواعيه إما إطلاقا وإما فى حضرة النساء . والجدال هو المناقشة والمشادة حتى يغضب الرجل صاحبه . والفسوق هو إتيان المعاصى كبرت أم صغرت . . والنهى عن هذه الأمور يؤدى إلى ترك كل ما ينافى حالة التجرد لله فى هذه الفترة ، والتأدب الواجب فى بيته الحرام لمن قصد إليه متجردا حتى من مخيط الثياب ! (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ) (١٩٧) وبعد النهى عن فعل القبيح يحبب إليهم فعل الجميل (وما تفعلوا من خير يعلمه الله). . ويكفى فى حس المؤمن أن يتذكر أن الله يعلم ما يفعله من خير ويطلع عليه ، ليكون هذا حافزا على فعل الخير ، ليراه الله منه ويعلمه ، ثم يدعوهم إلى التزود فى رحلة الحج . . زاد الجسد وزاد الروح . . فقد ورد أن جماعة من أهل اليمن كانوا يخرجون من ديارهم للحج ليس معهم زاد ، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا ! وهذا القول – فوق مخالفته لطبيعة الإسلام التى تأمر باتخاذ العدة الواقعية فى الوقت الذى يتوجه فيه القلب إلى الله ويعتمد عليه كل الاعتماد – يحمل كذلك رائحة عدم التحرج فى جانب الحديث عن الله ، ورائحة الامتنان على الله بأنهم يحجون بيته فعليه أن يطعمهم !! ومن ثم جاء التوجيه إلى الزاد بنوعيه ، مع الإيحاء بالتقوى فى تعبير عام دائم الإيحاء (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . واتقون يا أولى الألباب) والتقوى زاد القلوب والأرواح . منه تقتات . وبه تتقوى وأولوا الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى ، وخير من ينتفع بهذا الزاد ، ثم يمضى، فيبين حكم مزاولة التجارة أو العمل بأجر بالنسبة للحاج . وحكم الإفاضة ومكانها . وما يجب من الذكر والاستغفار بعدها (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم . فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم) قال البخارى – بإسناده – عن ابن عباس . قال:كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية . فتأثموا أن يتجروا فى الموسم . فنزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج ، وروى أبو داود – بإسناده من طريق آخر – إلى ابن عباس . قال:كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون:أيام ذكر . فأنزل الله: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وهذا التحرج هو طرف من ذلك التحرج الذى أنشأه الإسلام فى النفوس من كل ما كان سائغا فى الجاهلية ، وانتظار رأى الإسلام فيه قبل الإقدام عليه (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) وقد نزلت إباحة البيع والشراء والكراء فى الحج ، وسماها القرآن ابتغاء من فضل الله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم). . ليشعر من يزاولها أنه يبتغى من فضل الله حين يتجر وحين يعمل بأجر وحين يطلب أسباب الرزق إنه لا يرزق نفسه بعمله إنما هو يطلب من فضل الله ، فيعطيه الله . فأحرى ألا ينسى هذه الحقيقة وهى أنه يبتغى من فضل الله ، فهو إذن فى حالة عبادة لله ، لا تتنافى مع عبادة الحج ، فى الاتجاه إلى الله ، لهذا يجعل الحديث عن طلب الرزق جزءا من آية تتحدث عن بقية شعائر الحج ، فتذكر الإفاضة والذكر عند المشعر الحرام (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين) والوقوف بعرفة عمدة أفعال الحج . . روى أصحاب السنن بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير , عن عطاء ، عن عبد الرحمن بن معمر الديلمى . قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول(الحج عرفات – ثلاثا – فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة . فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه) ووقت الوقوف بعرفة من الزوال [الظهر] يوم عرفة – وهو اليوم التاسع من ذى الحجة – إلى طلوع الفجر من يوم النحر، ومد وقت الوقوف بعرفة إلى فجر يوم النحر – وهو العاشر من ذى الحجة – ليخالف هدى المشركين فى وقوفهم بها . . روى ابن مردويه والحاكم فى المستدرك كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشى – بإسناده – عن المسور ابن مخرمة قال:" خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال(أما بعد فإن هذا اليوم الحج الأكبر. ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس ، إذا كانت الشمس فى رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها . وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس ، مخالفا هدينا هدى أهل الشرك) وهذا الذى فعله رسول الله ﷺ هو الذى تشير إليه الآية (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين) والمشعر الحرام هو المزدلفة . والقرآن هنا يأمر بذكر الله عنده بعد الإفاضة من عرفات .ثم يذكر المسلمين بأن هذا الذكر من هداية الله لهم ؛ وهو مظهر الشكر على هذه الهداية . ويذكرهم بما كان من أمرهم قبل أن يهديهم: وإن كنتم من قبله لمن الضالين) (واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين) كانت ولا شك تتواكب على خيالهم ومشاعرهم صور حياتهم الضالة الزرية الهابطة التى كانت تطبع تاريخهم كله ، ثم يتلفتون على أنفسهم ليروا مكانهم الجديد الذى رفعهم إليه الإسلام ، والذى هداهم الله إليه بهذا الدين ، فيدركون عمق هذه الحقيقة وأصالتها فى وجودهم كله بلا جدال وهذه الحقيقة ما تزال قائمة بالقياس إلى المسلمين من كل أمة ومن كل جيل . . من هم بغير الإسلام ؟ وما هم بغير هذه العقيدة ؟ إنهم حين يهتدون إلى الإسلام ، وحين يصبح المنهج الإسلامى حقيقة فى حياتهم ينتقلون من طور ضال مضطرب إلى طور آخر رفيع عظيم مستقيم . ولا يدركون هذه النقلة إلا حين يصبحون مسلمين حقا ، أى حين يقيمون حياتهم كلها على النهج الإسلامى . . وإن البشرية كلها لتتيه فى جاهلية عمياء ما لم تهتد إلى هذا النهج القويم .. لا يدرك هذه الحقيقة إلا من يعيش فى الجاهلية البشرية التى تعج بها الأرض فى كل مكان ، ثم يحيا بعد ذلك بالتصور الإسلامى الرفيع للحياة وحين يطل الإنسان من قمة التصور الإسلامى والمنهج الإسلامى ، على البشرية كلها فى جميع تصوراتها ، وجميع مناهجها ، وجميع نظمها – بما فى ذلك تصورات أكبر فلاسفتها قديما وحديثا ، ومذاهب أكبر مفكريها قديما وحديثا – حين يطل الإنسان من تلك القمة الشامخة يدركه العجب من انشغال هذه البشرية بما هى فيه من عبث ، ومن عنت ومن شقوة ، ومن ضآلة ، ومن اضطراب لا يصنعه بنفسه عاقل يدعى – فيما يدعى – أنه لم يعد فى حاجة إلى إله ! أو لم يعد على الأقل – كما يزعم – فى حاجة لاتباع شريعة إله ومنهج إله ! فهذا هو الذى يذكر الله به المسلمين ، وهو يمتن عليهم بنعمته الكبرى (واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين). . والحج هو مؤتمر المسلمين الجامع ، الذى يتلاقون فيه مجردين من كل

آصرة سوى آصرة الإسلام , متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام ، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة ، ولا يميز فردا عن فرد ، ولا قبيلة عن قبيلة ، ولا جنسا عن جنس . . إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة ، ونسب الإسلام هو وحده النسب ، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة . وقد كانت قريش في الجاهلية تسمى نفسها "الحمس" جمع أحمس ، ويتخذون لأنفسهم امتيازات تفرقهم عن سائر العرب . ومن هذه الامتيازات أنهم لا يقفون مع سائر الناس في عرفات ، ولا يفيضون – أي يرجعون – من حيث يفيض الناس . فجاءهم هذا الأمر ليردهم إلى المساواة التي أرادها الإسلام ، وإلى الاندماج الذي يلغي هذه الفوارق المصطنعة بين الناس (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم) قال البخاري:حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت (كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة , وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ثم يفيض منها . فذلك قوله:من حيث أفاض الناس) قفوا معهم حيث وقفوا ، وانصرفوا معهم حيث انصرفوا . . إن الإسلام لا يعرف نسبا ، ولا يعرف طبقة . إن الناس كلهم أمة واحدة . سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

ولقد سبق أنهم كانوا يأتون أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز . . وهذه الأسواق لم تكن أسواق بيع وشراء فحسب ؛ إنما كانت كذلك أسواق كلام ومفاخرات بالآباء ومعاظمات بالأنساب . . ذلك حين لم يكن للعرب من الإهتمامات الكبيرة ما يشغلهم عن هذه المفاخرات والمعاظمات ! لم تكن لهم رسالة إنسانية بعد ينفقون فيها طاقة القول وطاقة العمل . فرسالتهم الإنسانية الوحيدة هي التي ناطهم بها الإسلام . فأما قبل الإسلام وبدون الإسلام فلا رسالة لهم في الأرض ، ولا ذكر لهم في السماء ، فأما الآن وقد أصبحت لهم بالإسلام رسالة ضخمة ، وأنشأ لهم الإسلام تصورا جديدا ، بعد أن أنشأهم نشأة جديدة . . أما الآن فيوجههم القرآن لما هو خير ، يوجههم إلى ذكر الله بعد قضاء مناسك الحج ، بدلا من ذكر الآباء(فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقوله لهم (كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) لا يفيد أن يذكروا الآباء مع الله ، ولكنه يحمل طابع التنديد ، ويوحي بالتوجيه إلى الأجدر والأولى ، يقول لهم إنكم تذكرون آباءكم حيث لا يجوز أن تذكروا إلا الله . فاستبدلوا هذا بذاك . بل كونوا أشد ذكرا لله وأنتم خرجتم إليه متجردين من الثياب ، فتجردوا كذلك من الأنساب . . ويقول لهم:إن ذكر الله هو الذي يرفع العباد حقا ، وليس هو التفاخر بالآباء . فالميزان الجديد للقيم البشرية هو ميزان التقوى . ميزان الاتصال بالله وذكره وتقواه ، ثم يزن لهم بهذا الميزان ، ويريهم مقادير الناس ومآلاتهم بهذا الميزان (فمن الناس من يقول:ربنا آتنا في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق) (ومنهم من يقول:ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب). . إن هناك فريقين . فريقا همه الدنيا ، فهو حريص عليها ، مشغول بها . وقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف في الحج فيقولون:اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا . . وورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن الآية نزلت في هذا الفريق من الناس . . ولكن مدلول الآية اعم وأدوم . . فهذا نموذج من الناس مكرور في الأجيال والبقاع . النموذج الذي همه الدنيا وحدها . يذكرها حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء ؛ لأنها هي التي تشغله ،وتملأ فراغ نفسه ، هؤلاء قد يعطيهم الله نصيبهم في الدنيا – إذا قدر العطاء – ولا نصيب لهم في الآخرة على الإطلاق ! وفريقا أفسح أفقا وأكبر نفسا لأنه موصول بالله ، يريد الحسنة في الدنيا ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة فهو يقول(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار). . إنهم يطلبون من الله الحسنة في الدارين . . وهؤلاء لهم نصيب مضمون لا يبطىء عليهم . فالله سريع الحساب (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) إن الإسلام لا يريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا . فهم خلقوا للخلافة في هذه الدنيا . ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها ، وألا يضيقوا من آفاقهم ، فيجعلوا من الدنيا سورا يحصرهم فيها . . إنه يريد أن يطلق(الإنسان)من أسوار هذه الأرض الصغيرة ؛ فيعمل فيها وهو أكبر منها ؛ ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى . . ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على هذه الأرض ضئيلة هزيلة وحدها حين ينظر إليها الإنسان من قمة التصور الإسلامي و أيام الذكر هي في الأرجح يوم عرفة ويوم النحر والتشريق بعده . . قال ابن عباس:الأيام المعدودات أيام التشريق . . وقال عكرمة: (واذكروا الله في أيام معدودات) يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر . الله أكبر ، وأيام عرفة والنحر والتشريق . كلها صالحة للذكر . اليومين الأولين منها أو اليومين الأخيرين . بشرط التقوى (ذلك لمن اتقى) ثم يذكرهم بمشهد الحشر بمناسبة مشهد الحج ، وهو يستجيش في قلوبهم مشاعر التقوى أمام ذلك المشهد المخيف (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وهكذا نجد في هذه الآيات كيف جعل الإسلام الحج فريضة إسلامية ، وكيف خلعها من جذورها الجاهلية ، وربطها بعروة الإسلام ، وشدها إلى محوره ، وظللها بالتصورات الإسلامية ; ونقاها من الشوائب والرواسب . . وهذه هي طريقة الإسلام في كل ما رأى أن يستبقيه من عادة أو شعيرة . . إنها لم تعد هي التي كانت في الجاهلية ؛ إنما عادت قطعة جديدة متناسقة في الثوب الجديد . . إنها لم تعد تقليدا عربيا ، إنما عادت عبادة إسلامية .

وفي الآيات التالية نجد الملامح الواضحة لنموذجين من نماذج البشر:الأول نموذج المرائي الشرير , الذلق اللسان . الذي يجعل شخصه محور الحياة كلها . والذي يعجبك مظهره ويسوؤك مخبره . فإذا دعي إلى الصلاح وتقوى الله لم يرجع إلى الحق ؛ ولم يحاول إصلاح نفسه ; بل أخذته العزة بالإثم ، واستنكف أن يوجه إلى الحق والخير . . ومضى في طريقه يهلك الحرث والنسل ! والثاني نموذج المؤمن الصادق الذي يبذل نفسه كلها لمرضاة الله , لا يستبقي منها بقية ، ولا يحسب لذاته حسابا في سعيه وعمله ، لأنه يفنى في الله ، ويتوجه بكليته إليه . وعقب عرض هذين النموذجين نسمع هتافا بالذين آمنوا ليستسلموا بكليتهم لله ، دون ما تردد ، ودون ما تلفت ، ويسمى هذا الاستسلام دخولا في السلم . فيفتح بهذه الكلمة بابا واسعا للتصور الحقيقي الكامل لحقيقة الإيمان بدين الله ، والسير على منهجه في الحياة وفي مواجهة نعمة الإيمان الكبرى ، وحقيقة السلام التي تنشر ظلالها على الذين آمنوا . . يعرض سوء تصور الكفار لحقيقة الأمر ، وسخريتهم من الذين آمنوا بسبب ذلك التصور الضال . ويقرر إلى جانب ذلك حقيقة القيم في ميزان الله: (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) يلي هذا تلخيص لقصة اختلاف الناس . وبيان للميزان الذي يجب أن يفيئوا إليه ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه . وتقرير لوظيفة الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويتطرق إلى ما ينتظر القائمين على هذا الميزان من مشاق الطريق ، ويخاطب الجماعة المسلمة فيكشف لها عما ينتظرها في طريقها الشائك من البأساء والضراء والجهد الذي لقيته كل جماعة نيطت بها

هذه الأمانة من قبل . كى تعد نفسها لتكاليف الأمانة التى لا مفر منها ولا محيص عنها . وكى تقبل عليها راضية النفس ، مستقرة الضمير ؛ تتوقع نصر الله كلما غام الأفق ، وبدا أن الفجر بعيد !

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ {٢٠٤} وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ {٢٠٥} وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ {٢٠٦} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ {٢٠٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٢٠٨} فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {٢٠٩} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ {٢١٠} سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {٢١١} زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {٢١٢} كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {٢١٣} أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ {٢١٤} سَأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ {٢١٥} كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٢١٦}

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ {٢٠٤} وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ {٢٠٥} هذا المخلوق الذى يتحدث ، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير ومن الإخلاص ، ومن التجرد ، ومن الحب ، ومن الترفع ، ومن الرغبة فى إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس . . هذا الذى يعجبك حديثه . تعجبك ذلاقة لسانه ، وتعجبك نبرة صوته ، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح . . (ويشهد الله على ما فى قلبه). . زيادة فى التأثير والإيحاء ، وتوكيدا للتجرد والإخلاص ، وإظهارا للتقوى وخشية الله) . . وهو ألد الخصام)! تزدحم نفسه باللدد والخصومة ، فلا ظل فيها للود والسماحة ، ولا موضع فيها للحب والخير ، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار . هذا الذى يتناقض ظاهره وباطنه ، ويتنافر مظهره ومخبره . . هذا الذى يتقن الكذب والتمويه والدهان . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد (٢٠٥) وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) ٢٠٦ (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد (٢٠٧) حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء ، وانكشف المستور ، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغى والحقد والفساد (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) وإذا انصرف إلى العمل ، كانت وجهته الشر والفساد ، فى قسوة وجفوة ولدد ، تتمثل فى إهلاك كل حى من الحرث الذى هو موضع الزرع والإنبات والأثمار ، ومن النسل الذى هو امتداد الحياة بالإنسال . .(والله لا يحب الفساد) ولا يحب المفسدين الذين ينشئون فى الأرض الفساد ويمضى السياق يوضح معالم الصورة ببعض اللمسات (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم . فحسبه جهنم ولبئس المهاد). . إذا تولى فقصد إلى الإفساد فى الأرض ؛ وأهلك الحرث والنسل ؛ ونشر الخراب والدمار ؛ . إذا فعل هذا كله ثم قيل له: (اتق الله). . تذكيرا له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه . . أنكر أن يقال له هذا القول ؛ واستكبر أن يوجه إلى التقوى ؛ وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ وأن يوجه إلى صواب . وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير ولكن (بالإثم). . فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة ، ورفع رأسه فى وجه الحق الذى يذكر به ، وامام الله بلا حياء منه ؛ وهو الذى كان يشهد الله على ما فى قلبه ؛ ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء ! إنها لمسة تكمل ملامح الصورة ، وتزيد فى قسماتها وتمييزها بذاتها . . وتدع هذا النموذج حيا يتحرك . تقول فى غير تردد:هذا هو . هذا هو الذى عناه القرآن ! وأنت تراه أمامك ماثلا فى الأرض الآن وفى كل آن ! وفى مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم ، واللدد فى الخصومة ، والقسوة فى الفساد يجبهه السياق باللطمة اللائقة بهذه الجبلة النكدة (فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد !) حسبه ! ففيها الكفاية ! حسبه جهنم (ولبئس المهاد !) ويا للسخرية القاصمة فى ذكر(المهاد) هنا . . ويا لبؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء ! . ذلك نموذج من الناس . يقابله نموذج آخر على الطرف الآخر من القياس (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله . والله رؤوف بالعباد) ويشرى هنا معناها يبيع . فهو يبيع نفسه كلها لله ؛ ويسلمها كلها لا يستبقى منها بقية ، ولا يرجو من وراء أدائها وبيعها غاية إلا مرضاة الله والتعبير يحتمل معنى آخر يؤدى إلى نفس الغاية .(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) إنها دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا فى السلم كافة ، وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ، وشعور المؤمن بأنه يمضى مع قدر الله ، فى طاعة الله ، لتحقيق إرادة الله . . وما يسكبه هذا الشعور فى روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق فى النفوس التى لا تطمئن بالإيمان ، فى المجتمعات التى لا تعرف الإسلام ، أو التى عرفته ثم تنكرت له ، وارتدت إلى الجاهلية ، تحت عنوان من شتى العنوانات فى جميع الأزمان . . هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادى والتقدم الحضارى ، وسائر مقومات الرقى فى عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة . . ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين) ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا فى السلم كافة ، حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان . فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان . إما الدخول فى السلم كافة ، وإما اتباع خطوات الشيطان . إما هدى وإما ضلال . إما إسلام وإما جاهلية . إما طريق الله وإما طريق الشيطان ، وبمثل هذا الحسم ينبغى أن يدرك المسلم موقفه ، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات ،إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها ، أو يخلط واحدا منها بواحد. . ليس هنالك حل وسط ، ولا منهج بين بين ، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك ! إنما هناك حق وباطل . هدى وضلال . إسلام وجاهلية . منهج الله أو غواية الشيطان . والله يدعو المؤمنين فى الأولى إلى الدخول فى السلم كافة ؛ ويحذرهم فى الثانية من اتباع خطوات الشيطان . ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم

الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٢٠٩} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ{٢١٠} وتذكيرهم بأن الله (عزيز) يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة ، وأنهم يتعرضون لقوة الله حين يخالفون عن توجيهه . . وتذكيرهم بأنه (حكيم). . فيه إيحاء بأن ما اختاره لهم هو الخير ، وما نهاهم عنه هو الشر فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير فى هذا المقام بعد ذلك يتخذ السياق أسلوبا جديدا فى التحذير من عاقبة الانحراف عن الدخول فى السلم واتباع خطوات الشيطان . فيتحدث بصيغة الغيبة بدلا من صيغة الخطاب (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ؟ وقضى الأمر ، وإلى الله ترجع الأمور) وهو سؤال استنكارى عن علة انتظار المترددين المتلكئين الذين لا يدخلون فى السلم كافة . ما الذى يقعد بهم عن الاستجابة ؟ ماذا ينتظرون ؟ وماذا يرتقبون ؟ تراهم سيظلون هكذا فى موقفهم حتى يأتيهم الله – سبحانه – فى ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة ؟ وبتعبير آخر:هل ينتظرون ويتلكأون حتى يأتيهم اليوم الرعيب الموعود ، الذى قال الله سبحانه:إنه سيأتى فيه فى ظلل من الغمام ، ويأتى الملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ؟ وفجأة - وبينما نحن أمام السؤال الاستنكارى الذى يحمل طابع التهديد الرعيب – نجد أن اليوم قد جاء ، وأن كل شىء قد انتهى ، وأن القوم أمام المفاجأة التى كان يلوح لهم بها ويخوفهم إياها (وقضى الأمر) وطوى الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ، ووقفوا أمام الله ؛ الذى ترجع إليه وحده الأمور (وإلى الله ترجع الأمور)

هنا يلتفت السياق لفتة أخرى . فيخاطب النبى ﷺ يكلفه أن يسأل بنى إسرائيل – وهم نموذج التلكؤ فى الاستجابة و التردد فى تنفيذ أوامر الله (سل بنى إسرائيل:كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) والعودة هنا إلى بنى إسرائيل عودة طبيعية ، فيها تحذير من مواقف بنو إسرائيل حيث التلكؤ دون الاستجابة والنشوز وعدم الدخول فى السلم كافة ، التعنت وسؤال الخوارق ، والسؤال هنا قد لا يكون مقصورا على حقيقته . إنما هو أسلوب من أساليب البيان ، للتذكير بكثرة الآيات التى آتاها الله بنى إسرائيل ، والخوارق التى أجراها لهم . . إما بسؤال منهم وتعنت ، وإما ابتداء من عند الله لحكمة حاضرة . . ثم ما كان منهم – على الرغم من كثرة الخوارق – من تردد وتلكؤ وتعنت ونكوص عن السلم الذى يظلل كنف الإيمان . ثم يجىء التعقيب عاما (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) ونعمة الله المشار إليها هنا هى نعمة السلم . أو نعمة الإيمان . فهما مترادفان . والتحذير من تبديلها يجد مصداقه أولا فى حال بنى إسرائيل ، وحرمانهم من السلم والطمأنينة والاستقرار ، منذ أن بدلوا نعمة الله ، وأبوا الطاعة الراضية ، والاستسلام لتوجيه الله . وكانوا دائما فى موقف الشاك المتردد وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد فى حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة . وها هى ذى البشرية المنكودة الطالع فى أنحاء الأرض كلها تعانى العقاب الشديد ، وتجد الشقوة النكدة ، وتعانى القلق والحيرة ، ويأكل بعضها بعضا ؛ ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه تارة بالمسكرات والمخدرات ، وتارة بالحركات الحائرة التى يخيل إليك معها أنهم هاربون تطاردهم الأشباح ! ونظرة إلى صورهم فى الأوضاع العجيبة المتكلفة التى يظهرون بها:من مائلة برأسها ، إلى كاشفة عن صدرها ، إلى رافعة ذيلها ، إلى مبتدعة قبعة غريبة على هيئة حيوان ! إلى واضع رباط عنق رسم عليه تيتل أو فيل ! إلى لابس قميص تربعت عليه صورة أسد أو دب ! ونظرة إلى رقصاتهم المجنونة ، وأغانيهم المحمومة ، وأوضاعهم المتكلفة وأزيائهم الصارخة فى بعض الحفلات والمناسبات ؛ ومحاولة لفت النظر بالشذوذ الصارخ ، أو ترضية المزاج بالتميز الفاضح ، ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصداقات والأزياء بين فصل وفصل ، لا بل بين الصباح والمساء ! كل أولئك يكشف عن الحيرة القاتلة التى لا طمأنينة فيها ولا سلام . ويكشف عن حالة الملل الجاثم التى يفرون منها ، وعن حالة "الهروب" من أنفسهم الخاوية وأرواحهم الموحشة ، كالذى تطارده الجنة والأشباح . وفى ظل هذا التحذير من التلكؤ فى الاستجابة ، والتبديل بعد النعمة ، يذكر حال الذين كفروا وحال الذين آمنوا ؛ ويكشف عن الفرق بين ميزان الذين كفروا وميزان الذين آمنوا للقيم والأحوال والأشخاص (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب). . لقد زينت للذين كفروا هذه الحياة الدنيا ؛ بأعراضها الزهيدة ، واهتماماتها الصغيرة . زينت لهم فوقفوا عندها لا يتجاوزونها ؛ ولا يمدون بأبصارهم إلى شىء وراءها ؛ ولا يعرفون قيما أخرى غير قيمها . والذى يقف عند حدود هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن يسمو تصوره إلى تلك الاهتمامات الرفيعة التى يحفل بها المؤمن ، ويمد إليها بصره فى آفاقها البعيدة ، إن المؤمن قد يحتقر أعراض الحياة كلها ؛ لا لأنه أصغر منها همة أو أضعف منها طاقة ، ولا لأنه سلبى لا ينمى الحياة ولا يرقيها . . ولكن لأنه ينظر إليها من عل – مع قيامه بالخلافة فيها ، وإنشائه للعمران والحضارة ، وعنايته بالنماء والإكثار – فينشد من حياته ما هو أكبر من هذه الاعراض وأغلى . ينشد منها أن يقر فى الأرض منهجا ، وأن يقود البشرية إلى ما هو أرفع وأكمل ، وأن يركز راية الله فوق هامات الأرض والناس ، ليتطلع إليها البشر فى مكانها الرفيع ، وليمدوا بأبصارهم وراء الواقع الزهيد المحدود ، الذى يحيا له من لم يهبه الإيمان رفعة الهدف ، وضخامة الاهتمام ، وشمول النظرة . وينظر الصغار الغارقون فى وحل الأرض ، المستعبدون لأهداف الأرض . . ينظرون للذين آمنوا ، فيرونهم يتركون لهم وحلهم وسفسافهم ، ومتاعهم الزهيد ؛ ليحاولوا آمالا كبارا لا تخصهم وحدهم ، ولكن تخص البشرية كلها ؛ ولا تتعلق بأشخاصهم إنما تتعلق بعقيدتهم ؛ ويرونهم يعانون فيها المشقات ؛ ويقاسون فيها المتاعب ؛ ويحرمون أنفسهم اللذائذ التى يعدها الصغار خلاصة الحياة وأعلى أهدافها المرموقة . . ينظر الصغار المطموسون إلى الذين آمنوا – فى هذه الحال – فلا يدركون سر اهتماماتهم العليا . عندئذ يسخرون منهم . يسخرون من حالهم ، ويسخرون من تصوراتهم ، ويسخرون من طريقهم الذى يسيرون فيه !(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{٢١٢}ولكن هذا الميزان الذى يزن الكافرون به القيم ليس هو الميزان . . إنه ميزان الأرض . ميزان الكفر . ميزان الجاهلية . . أما الميزان الحق فهو فى يد الله سبحانه . والله يبلغ الذين آمنوا حقيقة وزنهم فى ميزانه (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) إنهم فوقهم يوم القيامة . فوقهم عند الحساب الختامى الأخير . فوقهم فى حقيقة الأمر بشهادة الله أحكم الحاكمين ، والله يدخر لهم ما هو خير ، وما هو أوسع من الرزق (والله يرزق من يشاء بغير حساب). . وهو المانح الوهاب يمنح من يشاء ، ويفيض على من يشاء . لا خازن لعطائه ولا بواب ! وهو قد يعطى الكافرين زينة الحياة الدنيا لحكمة منه ، وليس لهم فيما أعطوا فضل . وهو يعطى المختارين من عباده ما يشاء فى الدنيا أو فى الآخرة . . فالعطاء كله من عنده . (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن

قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) هذه هى القصة . . كان الناس أمة واحدة . على نهج واحد ، وتصور واحد . وقد تكون هذه إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم ، قبل اختلاف التصورات والاعتقادات . فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد . وهم أبناء الأسرة الأولى:أسرة آدم وحواء . وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعا نتاج أسرة واحدة صغيرة , ليقرر مبدأ الأسرة فى حياتهم ، وليجعلها هى اللبنة الأولى ، ثم اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر ، وتعددت المناهج ، وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وهنا تتبين تلك الحقيقة الكبرى . . إن من طبيعة الناس أن يختلفوا ، لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم ، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن فى الأرض . . إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة ، واستعدادات شتى من ألوان متعددة ؛ كى تتكامل جميعها وتتناسق ، وتؤدى دورها الكلى فى الخلافة والعمارة ، وفق التصميم الكلى المقدر فى علم الله . فلا بد إذن من تنوع فى المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف ; ولا بد من اختلاف فى الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف فى الحاجات . . (ولا يزالون مختلفين - إلا من رحم ربك – ولذلك خلقهم) هذا الاختلاف فى الاستعدادات والوظائف ينشىء بدوره اختلافا فى التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق . . ولكن الله يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعا حين تصلح وتستقيم . . هذا الإطار هو إطار التصور الإيمانى الصحيح . الذى ينفسح حتى يضم جوانحه على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات ؛ فلا يقتلها ولا يكبحها ؛ ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها فى طريق الصلاح ، ومن ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفىء إليه المختلفون ؛ وحكم عدل يرجع إليه المختصمون (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه). فهو كتاب واحد فى حقيقته ، جاء به الرسل جميعا . فهو كتاب واحد فى أصله ، وهى ملة واحدة فى عمومها ، وهو تصور واحد فى قاعدته: إله واحد ، ورب واحد ، ومعبود واحد , ومشرع واحد لبنى الإنسان . . ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال ; ووفق أطوار الحياة والارتباطات ؛ حتى تكون الصورة الأخيرة التى جاء بها الإسلام , وأطلق الحياة تنمو فى محيطها الواسع الشامل بلا عوائق . بقيادة الله ومنهجه وشريعته الحية المتجددة فى حدود ذلك المحيط الشامل الكبير . وهذا الذى يقرره القرآن فى أمر الكتاب هو النظرية الإسلامية الصحيحة فى خط سير الأديان والعقائد . . كل نبى جاء بهذا الدين الواحد فى أصله ، يقوم على القاعدة الأصيلة:قاعدة التوحيد المطلق . . ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة ، وتتراكم الخرافات والأساطير , حتى يبعد الناس نهائيا عن ذلك الأصل الكبير . وهنا تجىء رسالة جديدة تجدد العقيدة الأصيلة ، وتنفى ما علق بها من الانحرافات ، وتراعى أحوال الأمة وأطوارها فى التفصيلات . . وهذه النظرية أولى بالإتباع من نظريات الباحثين فى تطور العقائد من غير المسلمين ، والتى كثيرا ما يتأثر بها باحثون مسلمون ، وهم لا يشعرون , فيقيمون بحوثهم على أساس التطور فى أصل العقيدة وقاعدة التصور ، كما يقول المستشرقون وأمثالهم من الباحثين الغربيين الجاهليين ! وهذا الثبات فى أصل التصور الإيمانى ، هو الذى يتفق مع وظيفة الكتاب الذى أنزله الله بالحق ، ليحكم بين الناس (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات . . بغيا بينهم) فالبغى . . بغى الحسد . وبغى الطمع . وبغى الحرص . وبغى الهوى . . هو الذى قاد الناس إلى المضى فى الاختلاف على أصل التصور والمنهج ؛ والمضى فى التفرق واللجاج والعناد . وهذه حقيقة . . فما يختلف اثنان على أصل الحق الواضح فى هذا الكتاب ، القوى الصادع المشرق المنير . . ما يختلف اثنان على هذا الأصل إلا وفى نفس أحدهما بغى وهوى , أو فى نفسيهما جميعا . . فأما حين يكون هناك إيمان فلا بد من التقاء واتفاق (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) هداهم بما فى نفوسهم من صفاء ، وبما فى أرواحهم من تجرد ، وبما فى قلوبهم من رغبة فى الوصول إلى الحق . وما أيسر الوصول حينئذ والاستقامة (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) هو هذا الصراط الذى يكشف عنه ذلك الكتاب . هو هذا المنهج الذى يقوم على الحق الحق . ولا تتقاذفه الأهواء والشهوات ، ولا تتلاعب به الرغاب والنزوات ، والله يختار من عباده لهذا الصراط المستقيم من يشاء ، ممن يعلم منهم الاستعداد للهدى والاستقامة على الصراط وتنتهى هذه التوجيهات التى تستهدف إنشاء تصور إيمانى كامل ناصع فى قلوب الجماعة المسلمة . . تنتهى بالتوجه إلى المؤمنين الذين كانوا يعانون فى واقعهم مشقة الاختلاف بينهم وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، وما كان يجره هذا الخلاف من حروب ومتاعب وويلات ، يتوجه إليهم بأن هذه هى سنة الله القديمة ، فى تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة ، وليكونوا لها أهلا:أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم ; وأن يلقوا فى سبيلها العنت والألم والشدة والضر ؛ وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة ; حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم ، لم تزعزعهم شدة ، ولم ترهبهم قوة ، فاستحقوا نصر الله ، لأنهم يومئذ أمناء على دين الله, . واستحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف ومن الذل ، ومن الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء . فهى عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة ، وارفع ما تكون عن عالم الطين (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه:متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، وإلى سنته – سبحانه – فى تربية عباده المختارين ، وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة . . إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه . من الرسول الموصول بالله , والمؤمنين الذين آمنوا بالله . إن سؤالهم (متى نصر الله ؟) ليصور مدى المحنة التى تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون إلا محنة فوق الوصف ، تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب ، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب (متى نصر الله؟ . وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة . . عندئذ تتم كلمة الله ، ويجىء النصر من الله: ألا إن نصر الله قريب) إنه مدخر لمن يستحقونه . ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية . الذين يثبتون على البأساء والضراء .. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة . الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله .

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٢١٦) لقد وردت آيات كثيرة فى الإنفاق سابقة على هذا السؤال . فالإنفاق فى مثل الظروف التى نشأ فيها الإسلام ضرورة لقيام الجماعة المسلمة فى وجه تلك الصعاب والمشاق والحرب التى كانت تواجهها وتكتنفها ؛ ثم هو ضرورة من ناحية أخرى ، من ناحية التضامن والتكافل بين أفراد الجماعة ؛ وإزالة الفوارق الشعورية بحيث لا يحس أحد إلا أنه عضو فى ذلك الجسد ، لا يحتجن دونه شيئا ، ولا يحتجز عنه شيئا . وهو أمر له قيمته الكبرى فى قيام الجماعة شعوريا

، إذا كان سد الحاجة له قيمته في قيامها عمليا ، وهنا يسأل بعض المسلمين: (ماذا ينفقون ؟) وهو سؤال عن نوع ما ينفقون فجاءهم الجواب يبين صفة الإنفاق ؛ ويحدد كذلك أولى مصارفه وأقربها (قل:ما أنفقتم من خير) ولهذا التعبير إيحاءان:الأول إن الذي ينفق خير . . خير للمعطي وخير للآخذ وخير للجماعة وخير في ذاته فهو عمل طيب ،. والإيحاء الثاني أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه ؛ وخير ما لديه فيشارك الآخرين فيه على أن هذا الإيحاء ليس إلزاما ، فالإلزام – كما ورد في آية أخرى – أن ينفق المنفق من الوسط ، لا أردأ ما عنده ولا أغلى ما عنده . ولكن الإيحاء هنا يعالج تطويع النفس لبذل ما هو خير أما طريق الإنفاق ومصرفه فيجيء بعد تقرير نوعه (فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل). . وهو يربط بين طوائف من الناس . بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب ، وبعضهم رابطة الرحم ، وبعضهم رابطة الرحمة ، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى في إطار العقيدة (عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل ":ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل شيء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا . . .) ثم يربط هذا كله بالأفق الأعلى ، فيستجيش في القلب صلته بالله فيما يعطي ، وفيما يفعل ، وفيما يضمر من نية أو شعور (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم). . عليم به ، وعليم بباعثه ، وعليم بالنية المصاحبة له ، وهو إذن لا يضيع . فهو في حساب الله الذي لا يضيع عنده شيء ، وعلى هذا المنهج ذاته ، يجرى الأمر في فريضة الجهاد ، التي تأتي تالية في السياق للحديث عن الإنفاق (كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون) إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة . ولكنها فريضة واجبة الأداء ، لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة ، وللبشرية كلها . وللحق والخير والصلاح ، والإسلام يحسب حساب الفطرة ، فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا يهون من أمرها . ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها (كتب عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{٢١٦}وكل إنسان – في تجاربه الخاصة – يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائهاالخير العميم . ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه . وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها . ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشيء له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل . إن الإنسان لا يعلم . والله وحده يعلم .إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية . لتؤمن وتسلم وتستلم في أمر الغيب المخبوء ، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعى المكشوف ، ومن قيادة الجماعة إلى السلم كانت الفتوى التالية في أمر القتال في الشهر الحرام

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ {٢١٩}

وقد جاء في روايات متعددة أنها نزلت في سرية عبد الله بن جحش – رضى الله عنه – وكان رسول الله ﷺ قد بعثه مع ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار ومعه كتاب مغلق وكلفه ألا يفتحه حتى يمضي ليلتين . فلما فتحه وجد به:" إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بطن نخلة – بين مكة والطائف – ترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . . ولا تكرهن أحدا على المسير معك من أصحابك " – وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى . فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال:سمعا وطاعة . ثم قال لأصحابه:قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منها بخبر . وقد نهى أن استكره أحدا منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع ، فأنا ماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف أحد منهم . فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان – رضى الله عنهما – فتخلفا عن رهط عبد الله بن جحش ليبحثا عن البعير ومضى الستة الباقون . حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة ، فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون ، فقتلت السرية عمرا ابن الحضرمي وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير . وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة . فإذا هي في اليوم الأول من رجب – وقد دخلت الأشهر الحرم – التي تعظمها العرب . وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها . . فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال ":ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام " . فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ؛ وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش:قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على محمد .

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير) نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام ، وتقرر أن القتال فيه كبيرة ، نعم ! ولكن (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل). . إن المسلمين لم يبدأوا القتال ، إنما هم المشركون . هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله ، والكفر به وبالمسجد الحرام . لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . ولقد كفروا بالمسجد الحرام . انتهكوا حرمته ؛ فآذوا المسلمين فيه ، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة . وأخرجوا أهله منه ، وهو الحرم الذي جعله الله آمنا ، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . . وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام . ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات ؛ الذي يتخذون منها ستارا حين يريدون ، وينتهكون قداستها حين يريدون ! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أني وجدوهم ، لأنهم عادون باغون أشرار، ويمضي السياق فيكشف لهم عن عمق الشر في نفوس أعدائهم ، وأصالة العدوان في نيتهم وخطتهم (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ، ولكن الهدف يظل ثابتا . . أن يردوا المسلمين الصادقين عن

دينهم إن استطاعوا ، العليم الخبير يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبهها إلى الخطر ؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، وإلا فهى خسارة الدنيا والآخرة ؛ والعذاب الذى لا يدفعه عذر ولا مبرر (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت . . والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل ، فيتطابق المدلول الحسي والمدلول المعنوى ! ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه ؛ تحت مطارق الأذى والفتنة – مهما بلغت – هذا مصيره الذى قرره الله له . . حبوط العمل فى الدنيا والآخرة . ثم ملازمة العذاب فى النار خلودا ، وهناك رحمته التي يرجوها من يؤذون في سبيله ، لا ييئس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم) ورجاء المؤمن فى رحمة الله لا يخيبه الله أبدا . . ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق ، فجاهدوا وصبروا ، حتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة . وكلاهما خير .. وفازوا بمغفرة الله ورحمته (والله غفور رحيم)

ثم يمضى السياق ، يبين للمسلمين حكم الخمر والقمار . . وكلتاهما لذة من اللذائذ التي كان العرب غارقين فيها . يوم أن لم تكن لهم اهتمامات عليا ينفقون فيها نشاطهم , وتسغرق مشاعرهم وأوقاتهم (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) وإلى ذلك الوقت لم يكن قد نزل تحريم الخمر والميسر . ولكن نصا فى القرآن كله لم يرد بحلهما . إنما كان الله يأخذ بيد هذه الجماعة الناشئة خطوة خطوة فى الطريق الذى أراده لها ، ويصنعها على عينه للدور الذى قدره لها . وهذا الدور العظيم لا تتلاءم معه تلك المضيعة فى الخمر والميسر ، ولا تناسبه بعثرة العمر ، وبعثرة الوعى ، وبعثرة الجهد فى عبث الفارغين ، الذين لا تشغلهم إلا لذائذ أنفسهم ، أو الذين يطاردهم الفراغ والخواء فيغرقونه فى السكر بالخمر والانشغال بالميسر ؛ أو الذين تطاردهم أنفسهم فيهربون منها فى الخمار والقمار ؛ كما يفعل كل من يعيش فى الجاهلية . أمس واليوم وغدا ! إلا أن الإسلام على منهجه فى تربية النفس البشرية كان يسير على هينة وفى يسر وفى تؤدة ، وهذا النص الذى بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم . فالأشياء والأعمال قد لا تكون شرا خالصا . فالخير يتلبس بالشر ، والشر يتلبس بالخير فى هذه الأرض . ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر . فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع ، فتلك علة تحريم ومنع . وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع وعندما يتعلق الأمر أو النهى بقاعدة من قواعد التصور الإيمانى ، ,فإن الإسلام يقضى فيها قضاء حاسما منذ اللحظة الأولى ، ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتماعى معقد ، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ، ويهىء الظروف الواقعية التى تيسر التنفيذ والطاعة ، فأما فى الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة وإلف . والعادة تحتاج إلى علاج . . فبدأ بتحريك الوجدان الدينى والمنطق التشريعى فى نفوس المسلمين ، بأن الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع . وفى هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى . . ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون). . والصلاة فى خمسة أوقات ، معظمها متقارب ، لا يكفى ما بينها للسكر والإفاقة ! وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب ، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطى ؛ إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر فى الموعد الذى اعتاد تناوله . فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترت حدة العادة وأمكن التغلب عليها . . حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهى الحازم الأخير بتحريم الخمر والميسر: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ، لقد سألوا مرة:ماذا ينفقون ؟ فكان الجواب عن النوع والجهة . فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة . . والعفو:الفضل والزيادة . فكل ما زاد على النفقة الشخصية - فى غير ترف ولا مخيلة – فهو محل للإنفاق . الأقرب فالأقرب . ثم الآخرون على ما أسلفنا . . والزكاة وحدها لا تجزىء . فهذا النص لم تنسخه آية الزكاة ولم تخصصه فيما أرى ، فالزكاة لا تبرىء الذمة إلا بإسقاط الفريضة . ويبقى التوجيه إلى الإنفاق قائما . (ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) لقد سألوا مرة:ماذا ينفقون ؟ فكان الجواب عن النوع والجهة . فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة . . والعفو هوالفضل والزيادة . فكل ما زاد على النفقة الشخصية - فى غير ترف ولا مخيلة – فهو محل للإنفاق . الأقرب فالأقرب. والزكاة وحدها لا تجزىء . فهذا النص لم تنسخه آية الزكاة ولم تخصصه فيما أرى ، إن الزكاة هى حق بيت مال المسلمين تجبيها الحكومة التى تنفذ شريعة الله , وتنفقها فى مصارفها المعلومة ، (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) فهذا البيان لاستجاشة التفكر والتدبر فى أمر الدنيا والآخرة . فالتفكر فى الدنيا وحدها لا يعطى العقل البشرى ولا القلب الإنسانى صورة كاملة عن حقيقة الوجود الإنسانى . وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها . ولا ينشىء تصورا صحيحا للأوضاع والقيم والموازين . ومسألة الإنفاق بالذات فى حاجة إلى حساب الدنيا والآخرة . فما ينقص من مال المرء بالإنفاق يرد عليها طهارة لقلبه ، وزكاة لنفسه.

إن التكافل الاجتماعى هو قاعدة المجتمع الإسلامى . والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها . واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها . رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم . ولقد كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم . وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعا ؛ وكان الغبن يقع أحيانا على اليتامى . فنزلت الآيات فى التخويف من أكل أموال الأيتام . عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى من طعامهم . فكان الرجل يكون فى حجره اليتيم . يقدم له الطعام من ماله . فإذا فضل منه شىء بقى له حتى يعاود أكله أو يفسد فيطرح ! وهذا تشدد ليس من طبيعة الإسلام . فوق ما فيه من الغرم أحيانا على اليتيم . فعاد القرآن يرد المسلمين إلى الاعتدال واليسر فى تناول الأمور ؛ وإلى تحرى خير اليتيم والتصرف فى حدود مصلحته . فالإصلاح لليتامى خير من اعتزالهم . والمخالطة لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم . فاليتامى أخوان للأوصياء . كلهم أخوة فى الإسلام . أعضاء فى الأسرة المسلمة الكبيرة . والله يعلم المفسد من المصلح ، فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله . ولكن نيته وثمرته . والله لا يريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمشقة عليهم فيما يكلفهم (....وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٢٢٠}

نلتقى فى هذا الدرس مع جانب من دستور الأسرة . جانب من التنظيم للقاعدة الركينة التى تقوم عليها الجماعة المسلمة ، ويقوم عليها المجتمع الإسلامى . هذه القاعدة التى أحاطها الإسلام برعاية ملحوظة ، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهدا كبيرا ، نراه متناثرا فى سور شتى من القرآن ، إن النظام الاجتماعى الإسلامى نظام أسرة – بما أنه نظام ربانى للإنسان ، ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها . ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التى كان منها الزوجان ، ثم الذرية ، ثم البشرية جميعا والطفل الإنسانى هو أطول الأحياء طفولة . تمتد طفولته أكثر من أى طفل آخر للإحياء الأخرى . ذلك أن مرحلة الطفولة هى فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حى باقى حياته ،وقد أثبتت التجارب العملية أن أى جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يعوض عنها ، ولا يقوم مقامها ، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته ، وبخاصة نظام المحاضن الجماعية التى أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة فى ثورتها الجامحة الشاذرة المتعسفة ضد النظام الفطرى الصالح القويم الذى جعله الله للإنسان ، أو التى اضطرت بعض الدول الأوربية اضطرارا لإقامتها بسبب فقدان عدد كبير من الأطفال لأهليهم فى الحرب ومن ثم نجد النظام الاجتماعى الإسلامى ، الذى أراد الله به أن يدخل المسلمون فى السلم , وأن يستمتعوا فى ظله بالسلام الشامل . . يقوم على أساس الأسرة ، ويبذل لها من العناية ما يتفق مع دورها الخطير ، إن الإسلام يشرع لناس من البشر ، لا لجماعة من الملائكة ، ولا لأطياف مهومة فى الرؤى المجنحة ! ومن ثم لا ينسى – وهو يرفعهم إلى جو العبادة بتشريعاته وتوجيهاته – أنهم بشر ، وإنها عبادة من بشر . . بشر فيهم ميول ونزعات ، وفيهم نقص وضعف ، وفيهم ضرورات وانفعالات ، ولهم عواطف ومشاعر ، وإشراقات وكثافات . . والإسلام يلاحظها كلها ; ويقودها جملة فى طريق العبادة النظيف ، إلى مشرق النور الوضىء ، فى غير ما تعسف ولا اصطناع . ويقيم نظامه كله على أساس أن هذا الإنسان إنسان ! إنه التيسير على الفطرة . التيسير الحكيم على الرجل والمرأة على السواء . إذا لم يقدر لتلك المنشأة العظيمة .

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٢٢٠} وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{٢٢١} وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ{٢٢٢} نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{٢٢٣} وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٢٢٤} لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ{٢٢٥} لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٢٦} وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٢٢٧} وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٢٢٨} الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{٢٢٩} فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{٢٣٠} وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٢٣١} وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ{٢٣٢} وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٢٣٣} وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{٢٣٤} وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ{٢٣٥} لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ{٢٣٦} وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٢٣٧} حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ{٢٣٨} فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ{٢٣٩} وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{٢٤٠} وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ{٢٤١} كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٢٤٢}﴾

(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ؛ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون إلى النار . والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ؛ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) النكاح - وهو الزواج – أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين من بنى الإنسان ؛ وتشمل أوسع الاستجابات التى يتبادلها فردان . فلا بد إذن من توحد القلوب ، والتقائها فى عقدة لا تحل . ولكى تتوحد القلوب يجب أن يتوحد ما تنعقد عليه ، وما تتجه إليه . والعقيدة الدينية هى أعمق وأشمل ما يعمر النفوس ، ويؤثر فيها ، ويكيف مشاعرها, . وإن كان الكثيرون يخدعهم أحيانا كمون العقيدة أو ركودها . فيتوهمون أنها شعور عارض يمكن الاستغناء عنه ببعض الفلسفات الفكرية ، أو بعض

المذاهب الاجتماعية . وهذا وهم وقلة خبرة بحقيقة النفس الإنسانية ، ومقوماتها الحقيقية . ولقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة فى مكة لا تسمح فى أول الأمر بالانفصال الاجتماعى الكامل الحاسم ، كالانفصال الشعورى الاعتقادى الذى تم فى نفوس المسلمين . لأن الأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى زمن وإلى تنظيمات متريثة . فلما أن أراد الله للجماعة المسلمة أن تستقل فى المدينة ، وتتميز شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية . بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه ، ونزلت هذه الآية . نزلت تحرم إنشاء أى نكاح جديد بين المسلمين والمشركين – فأما ما كان قائما بالفعل من الزيجات فقد ظل إلى السنة السادسة للهجرة حين نزلت فى الحديبية آية سورة الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . الله أعلم بإيمانهن . فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن . .(ولا تمسكوا بعصم الكوافر . . .). . فانتهت آخر الارتباطات بين هؤلاء وهؤلاء . لقد بات حراما أن ينكح المسلم مشركة ، وأن ينكح المشرك مسلمة . حرام أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة . إنه فى هذه الحالة رباط زائف واه ضعيف . إنهما لا يلتقيان فى الله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) فإذا أمن فقد زالت العقبة الفاصلة وقد التقى القلبان فى الله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) فهذا الإعجاب المستمد من الغريزة وحدها ، لا تشترك فيه مشاعر الإنسان العليا ، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس، حتى لو كانت المسلمة أمة غير حرة فإن نسبها إلى الإسلام يرفعها عن المشركة ذات الحسب . إنه نسب فى الله وهو أعلى الأنساب (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) القضية نفسها تتكرر فى الصورة الأخرى ، توكيدا لها وتدقيقا فى بيانها والعلة فى الأولى هى العلة فى الثانية (أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه . ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) إن الطريقين مختلفان ، والدعوتين مختلفتان ، فكيف يلتقى الفريقان فى وحدة تقوم عليها الحياة ؟ إن طريق المشركين والمشركات إلى النار ، ودعوتهم إلى النار . وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق الله . والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه . . فما أبعد دعوتهم إذن من دعوة الله ! والله يحذر من هذه الدعوة المردية (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) فمن لم يتذكر ، واستجاب لتلك الدعوة فهو الملوم ! هنا نتذكر أن الله لم يحرم زواج المسلم من كتابية – مع اختلاف العقيدة – ولكن الأمر هنا يختلف . إن المسلم والكتابية يلتقيان فى أصل العقيدة فى الله . وإن اختلفت التفصيلات التشريعية ، وهناك خلاف فقهى فى حالة الكتابية التى تعتقد أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله هو المسيح بن مريم ، أو أن العزيز ابن الله . . أهى مشركة محرمة . أم تعتبر من أهل الكتاب ؟ وقد رواه البخارى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال:قال ابن عمر(لا أعلم شركا أعظم من أن تقول ربها عيسى) فأما الأمر فى زواج الكتابى من مسلمة فهو محظور ؛ لأنه يختلف فى واقعه عن زواج المسلم بكتابية – غير مشركة – ومن هنا يختلف فى حكمه . . إن الأطفال يدعون لآبائهم بحكم الشريعة الإسلامية . كما أن الزوجة هى التى تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع . فإذا تزوج المسلم من الكتابية [غير المشركة] انتقلت هى إلى قومه ، ودعى أبناؤه منها باسمه ، فكان الإسلام هو الذى يهيمن ويظلل جو المحضن . ويقع العكس حين تتزوج المسلمة من كتابى ، فتعيش بعيدا عن قومها ، وقد يفتنها ضعفها ووحدتها هنالك عن إسلامها ، كما أن أبناءها يدعون إلى زوجها ، ويدينون بدين غير دينها . والإسلام يجب أن يهيمن دائما . على أن هناك اعتبارات عملية قد تجعل المباح من زواج المسلم بكتابية مكروها . وهذا ما رآه عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أمام بعض الاعتبارات: قال ابن كثير فى التفسير:"قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله – بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات – وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات ، أو لغير ذلك من المعانى ". . وروى أن حذيفة تزوج يهودية فكتب إليه عمر:خل سبيلها . فكتب إليه:أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال:لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاظلوا المؤمنات منهن . وفى رواية أخرى أنه قال:المسلم يتزوج النصرانية . والمسلمة ؟ ونحن نرى اليوم أن هذه الزيجات شر على البيت المسلم . فالذى لا يمكن إنكاره واقعيا أن الزوجة اليهودية أو المسيحية أو اللادينية تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها ، وتخرج جيلا أبعد ما يكون عن الإسلام . وبخاصة فى هذا المجتمع الذى نعيش فيه, . والذى لا يمسك من الإسلام إلا بخيوط واهية شكلية تقضى عليها القضاء الأخير زوجة تجىء من هناك !

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىَ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

. إن المباشرة (أى الجماع بين الأزواج) وسيلة لا غاية . وسيلة لتحقيق هدف أعمق فى طبيعة الحياة . هدف النسل وامتداد الحياة ، ووصلها كلها بعد ذلك بالله . والمباشرة فى المحيض قد تحقق اللذة الحيوانية – مع ما ينشأ عنها من أذى ومن أضرار صحية مؤكدة للرجل والمرأة سواء – ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى . فضلا على انصراف الفطرة السليمة النظيفة عنها فى تلك الفترة. ومن ثم جاء ذلك النهى إجابة عن ذلك السؤال (ويسألونك عن المحيض . قل:هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) وليست المسألة بعد ذلك فوضى ، ولا وفق الأهواء والانحرافات . إنما هى مقيدة بأمر الله ;فهى وظيفة ناشئة عن أمر وتكليف ، مقيدة بكيفية وحدود (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) فى منبت الإخصاب دون سواه . فليس الهدف هو مطلق الشهوة ، إنما الغرض هو امتداد الحياة . وابتغاء ما كتب الله . والله يحب الذين يتوبون حين يخطئون ويعودون إليه مستغفرين (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وفى هذا الظل يصور لونا من ألوان العلاقة الزوجية يناسبه ويتسق مع خطوطه (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وفى هذا التعبير الدقيق ما فيه من إشارات إلى طبيعة تلك العلاقة فى هذا الجانب ، وإلى أهدافها واتجاهاتها (فأتوا حرثكم أنى شئتم) وفى الوقت ذاته تذكروا الغاية والهدف ، واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى. واستيقنوا من لقاء الله ، الذى يجزيكم بما قدمتم (وقدموا لأنفسكم . واتقوا الله . واعلموا أنكم ملاقوه) ثم يختم الآية بتبشير المؤمنين بالحسنى عند لقاء الله، وهو يتجه فيه إلى الله (وبشر المؤمنين) هنا نطلع على سماحة الإسلام ، الذى يقبل الإنسان كما هو ، بميوله وضروراته ، لا يحاول أن يحطم فطرته باسم التسامى والتطهر ؛ ولا يحاول أن يستقذر ضروراته التى لا يد له فيها (وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآؤُواْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ٢٢٦ (وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ثم ينتقل السياق إلَى الحديث عن حكم الإيلاء . . أىَ الحلف بالهجران والامتناع عَن المباشرة . . وبهذه المناسبة يلم بالحلف ذاته

فيجعل الحديث عنه مقدمة للحديث عن الإيلاء . التفسير المروى في قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم . .)عن ابن عباس - رضى الله عنهما – قال:لا تجعلن عرضة يمينك ألا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير فيكون معناهالا تجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس . فإذا حلفتم ألا تفعلوا ، فكفروا عن إيمانكم وأتوا الخير . فتحقيق البر والتقوى والإصلاح أولى من المحافظة على اليمين . على أن الله كان أرأف بالناس ، فلم يجعل الكفارة إلا فى اليمين المعقودة ، التى يقصد إليها الحالف قصدا ، وينوى ما وراءها مما حلف عليه . فأما ما جرى به اللسان عفوا ولغوا من غير قصد ، فقد أعفاهم منه ولم يوجب فيه الكفارة (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم . والله غفور حليم). . وقد روى أبو داود – بإسناده – عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال (اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته:كلا والله . وبلى والله) ويعقب السياق على حكم العدول عن اليمين إلى ما فيه البر والخير بقوله: (والله سميع عليم) و على حكم يمين اللغو واليمين المعقودة التى ينويها القلب بقوله: (والله غفور حليم) بهذا وذلك يربط الأمر بالله ، ويعلق القلوب بالاتجاه إليه فى كل ما تكسب وكل ما تقول . ثم يأخذ فى الحديث عن يمين الإيلاء وهى أن يحلف الزوج ألا يباشر زوجته . إما لأجل غير محدود ، وإما لأجل طويل معين (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) إن هناك حالات نفسية واقعة ، تلم بنفوس بعض الأزواج ، بسبب من الأسباب فى أثناء الحياة الزوجية وملابساتها الواقعية الكثيرة ، تدفعهم إلى الإيلاء بعدم المباشرة ، وفى هذا الهجران ما فيه من إيذاء لنفس الزوجة ؛ ومن إضرار بها نفسيا وعصبيا ؛ ومن إهدار لكرامتها كأنثى ، ومن تعطيل للحياة الزوجية ، ومن جفوة تمزق أوصال العشرة ، ولم يعمد الإسلام إلى تحريم هذا الإيلاء منذ البداية ، لأنه قد يكون علاجا نافعا فى بعض الحالات للزوجة الشامسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله أو اعناته . كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم ، أو ثورة غضب ، تعود بعده الحياة أنشط وأقوى ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك ، لأنه قد يكون باغيا فى بعض الحالات يريد اعنات المرأة وإذلالها ؛ أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة ، لا تستمتع بحياة زوجية معه ، ولا تنطلق من عقالها هذا لتجد حياة زوجية أخرى . فتوفيقا بين الاحتمالات المتعددة ، ومواجهة للملابسات الواقعية فى الحياة . جعل هنالك حدا أقصى للإيلاء . لا يتجاوز أربعة أشهر . وهذا التحديد قد يكون منظورا فيه إلى أقصى مدى الاحتمال ، كى لا تفسد نفس المرأة ، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الفطرية إلى غير رجلها الهاجر . (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم)

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

و يأخذ فى تفصيل أحكام الطلاق ؛ وما يتبعه من العدة والفدية والنفقة والمتعة ، ويبدأ بحكم العدة والرجعة (يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) أى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف ... يتربصن بأنفسهن . . لقد وقفت أمام هذا التصوير لحالة نفسية دقيقة . . إن المعنى الذهنى المقصود هو أن ينتظرن دون زواج جديد حتى تنقضى ثلاث حيضات ، أو حتى يطهرن منها . . ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالا أخرى بجانب ذلك المعنى الذهنى . . إنه يلقى ظلال الرغبة الدافعة إلى استئناف حياة زوجية جديدة . رغبة الأنفس التى يدعوهن إلى التربص بها ، والإمساك بزمامها ، مع التحفز ، والتوفز .. وهى حالة طبيعية ، تدفع إليها رغبة المرأة فى أن تثبت لنفسها ولغيرها أن إخفاقها فى حياة الزوجية لم يكن لعجز فيها أو نقص ، وأنها قادرة على أن تجتذب رجلا آخر ، وأن تنشىء حياة جديدة . . هذا الدافع لا يوجد بطبيعته فى نفس الرجل ، لأنه هو الذى طلق ، بينما يوجد بعنف فى نفس المرأة لأنها هى التى وقع عليها الطلاق .. يتربصن بأنفسهن هذه الفترة كى يتبين براءة أرحامهن من آثار الحياة الزوجية السابقة ، قبل إقدامهن على تجربة زوجية أخرى (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر)لا يجوز لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن من حمل أو من حيض ، تحت تأثير أى رغبة أو هوى أو غرض من شتى الأغراض التى تعرض لنفوسهن . و لا بد من فترة معقولة يختبر فيها الزوجان عواطفهما بعد الفرقة . فقد يكون فى قلوبهما رمق من ود يستعاد ، وعواطف غلبت عليها نزوة أو غلطة أو كبرياء ! فإذا سكن الغضب استصغرت تلك الأسباب التى دفعت إلى الفراق ، وبرزت اعتبارات جديدة , وعاودها الحنين إلى استئناف الحياة . والطلاق أبغض الحلال إلى الله ، وهو عملية بتر لا يلجأ إليها إلا حين يخيب كل علاج (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) أى فى فترة الانتظار والتربص وهى فترة العدة ، إن أرادوا إصلاحا بهذا الرد ؛ ولم يكن القصد هو اعنات الزوجة ، وإعادة تقييدها فى حياة محفوفة بالأشواك , انتقاما منها ، أو استكبارا واستنكافا أن تنكح زوجا آخر (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وللمطلقات من الحقوق فى هذه الحالة مثل الذى عليهن من الواجبات (وللرجال عليهن درجة) أحسب أنها مقيدة فى هذا السياق بحق الرجال فى ردهن إلى عصمتهم فى فترة العدة ، ثم يجىء التعقيب (والله عزيز حكيم) مشعرا بقوة الله الذى يفرض هذه الأحكام وحكمته فى فرضها على الناس (الطلاق مرتان . فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا . إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) الطلاق الذى يجوز بعده استئناف الحياة مرتان . فإذا تجاوزهما المتجاوز لم يكن إلى العودة من سبيل إلا بشرط تنص عليه الآية التالية فى السياق . وقد ورد فى سبب نزول هذا القيد ، أنه فى أول العهد بالإسلام كان الطلاق غير محدد بعدد من المرات . فكان للرجل أن يراجع مطلقته فى عدتها ، ثم يطلقها ويراجعها . هكذا ما شاء . . ثم إن رجلا من الأنصار إختلف مع زوجته فوجد عليها فى نفسه ، فقال: والله لا آويك ولا أفارقك . قالت: وكيف ذلك ؟ قال: أطلقك ، فإذا دنا أجلك راجعتك . فذكرت ذلك للرسول ﷺ فأنزل الله عز وجل: (الطلاق مرتان). . وهذا التقييد جعل الطلاق محصورا مقيدا ؛ لا سبيل إلى العبث باستخدامه طويلا ، وعلى أية حال فما يجوز أن يكون الطلاق إلا علاجا أخيرا لعلة لا يجدى فيها سواه . فإذا وقعت الطلقتان: فإما إمساك للزوجة بالمعروف ، واستئناف حياة رضية رخية ؛ وإما تسريح لها بإحسان لا عنت فيه ولا إيذاء . وهو الطلقة الثالثة التى

تمضى بعدها الزوجة إلى خط فى الحياة جديد . ولا يحل للرجل أن يسترد شيئا من صداق أو نفقة أنفقها فى أثناء الحياة الزوجية فى مقابل تسريح المرأة إذا لم تصلح حياته معها . ما لم تجد هى أنها كارهة لا تطيق عشرته لسبب يخص مشاعرها الشخصية ؛ وتحس أن كراهيتها له ، أو نفورها منه ، سيقودها إلى الخروج عن حدود الله فى حسن العشرة ، أو العفة ، أو الأدب . فهنا يجوز لها أن تطلب الطلاق منه ، وأن تعوضه عن تحطيم عشه بلا سبب متعمد منه ، برد الصداق الذى أمهرها إياه ، أو بنفقاته عليها كلها أو بعضها لتعصم نفسها من معصية الله وتعدى حدوده , وظلم نفسها ذنب جناه . ولكى نتصور حيوية هذا النص ومداه ، يحسن أن نراجع سابقة واقعية من تطبيقه على عهد رسول الله ﷺ تكشف عن مدى الجد والتقدير والقصد والعدل فى هذا المنهج الربانى القويم . وروى البخارى – بإسناده – عن ابن عباس رضى الله عنهما – أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ فقالت:يا رسول الله . ما اعيب عليه فى خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ (أتردين عليه حديقته ؟ ــ وكان قد أمهرها حديقة ــ قالت: نعم . قال رسول الله ﷺ اقبل الحديقة وطلقها تطليقة " ولما كان مرد الجد أو العبث ، والصدق أو الاحتيال ، فى هذه الأحوال هو تقوى الله , جاء التعقيب يحذر من اعتداء حدود الله (تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون

ثم نمضى مع السياق فى أحكام الطلاق (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا . . إن ظنا أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون). . إن الطلقة الثالثة – كما تبين – دليل على فساد أصيل فى هذه الحياة لا سبيل إلى إصلاحه من قريب – إن كان الزوج جادا عامدا فى الطلاق – وفى هذه الحالة يحسن أن ينصرف كلاهما إلى التماس شريك جديد . فأما إن كانت تلك الطلقات عبثا أو تسرعا أو رعونة , فالأمر إذن يستوجب وضع حد للعبث بهذا الحق ، الذى قرر ليكون صمام أمن (فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ٢٣٠) ويجب حينئذ أن تنتهى هذه العلاقة وقد يقول قائل:وما ذنب المرأة تهدد حياتها وأمنها واستقرارها بسبب كلمة تخرج من فم رجل عابث ؟ ولكننا نواجه واقعا فى حياة البشر . فكيف يا ترى يكون العلاج ، إن لم نأخذ بهذا العلاج ؟ تراه يكون بأن نرغم مثل هذا الرجل على معاشرة زوجة لا يحترم علاقته بها ولا يوقرها ؟. كلا إن فى هذا من المهانة للزوجة وللعلاقة الزوجية ما لا يرضاه الإسلام . إنما تكون عقوبته أن نحرمه زوجه التى عبث بحرمة علاقاتها معه ؛ وأن نكلفه مهرا وعقدا جديدين أن تركها تبين منه فى الطلقتين الأوليين ; وأن نحرمها عليه فى الطلقة الثالثة تحريما كاملا – إلا أن تنكح زوجا غيره - وقد خسر صداقها وخسر نفقته عليها ؛ ونكلفه بعد ذلك نفقة عدة فى جميع الحالات . . والمهم أن ننظر إلى واقع النفس البشرية ؛ وواقع الحياة العملية ، فإذا سارت الحياة فى طريقها فتزوجت بعد الطلقة الثالثة زوجا آخر . ثم طلقها هذا الزوج الآخر . . فلا جناح عليها وعلى زوجها الأول أن يتراجعا . . ولكن بشرط (إن ظنا أن يقيما حدود الله) فليست المسألة هوى يطاع ، وشهوة تستجاب . وليسا متروكين لأنفسهما وشهواتهما ونزواتهما فى تجمع أو افتراق . إنما هى حدود الله تقام (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون)

بعد ذلك يجىء التوجيه الإلهى للأزواج المطلقين . توجيههم إلى المعروف واليسر والحسنى بعد الطلاق فى جميع الأحوال (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ؛ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا ؛ واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ؛ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم) إن المعروف والجميل والحسنى يجب أن تسود جو هذه الحياة . سواء اتصلت حبالها أو انفصمت عراها . ولا يجوز أن تكون نية الإيذاء والإعنات عنصرا من عناصرها . ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة فى حالة الانفصال والطلاق التى تتأزم فيها النفوس ، إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضية . عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن ، ويوسع من آفاق الحياة ويمدها وراء الحاضر الواقع الصغير . . هو عنصر الإيمان بالله . والإيمان باليوم الآخر.(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُواْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ولقد كانت المرأة فى الجاهلية تلاقى من العنت ما يتفق وغلظ الجاهلية وانحرافها . كانت. تعضل فتمنع من الزواج حتى يسمح مطلقها ويأذن ! أو يعضلها أهلها دون العودة إلى مطلقها ، إن أرادا أن يتراجعا. والمقصود ببلوغ الأجل هنا هو قرب انتهاء العدة التى قررها فى آية سابقة . فإذا قرب الأجل فإما رجعة على نية الاصلاح – والمعاملة بالمعروف – وهذا هو الإمساك بالمعروف . . وإما ترك الأجل يمضى فتبين الزوجة – وهذا هو التسريح بإحسان ، بدون إيذاء ولا طلب فدية من الزوجة وبدون عضل لها عن الزواج بمن تشاء (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) وهنا يستجيش القرآن أنبل المشاعر ؛ كما يستجيش عاطفة الحياء من الله ، وشعور الخوف منه (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا . واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به . واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم)إن الذى يمسك المطلقة ضرارا واعتداء يظلم نفسه . فهى أخته . من نفسه . فإذا ظلمها فقد ظلم نفسه . وهو يظلم نفسه بإيرادها مورد المعصية ، والجموح بها عن طريق الطاعة ، ثم يلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة فى هذه الآية ، وهو يخوفهم الله ويذكرهم أنه بكل شىء عليم (واتقوا الله ، واعلموا أن الله بكل شىء عليم) فيستجيش شعور الخوف والحذر ، ويأخذ النفس من أقطارها , ليقودها فى طريق السماحة والرفق والتجمل كذلك ينهاهم أن يعضلوا المطلقة – حين توفى العدة – ويمنعوها أن تتراجع مع زوجها إذا تراضيا بالمعروف (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَقد أورد الترمذى عن مَعقل بن يسار ، أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت . ثم طلقها تطليقة لم يراجعها ، حتى انقضت عدتها ؛ فهويها وهويته ؛ ثم خطبها مع الخطاب . فقال له:يا لكع ابن لكع ! أكرمتك بها وزوجتكها , فطلقتها . والله لا ترجع إليك أبدا آخر ما عليك . قال:فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن)إلى قوله وأنتم لا تعلمون). . فلما سمعها معقل قال:سمع لربى وطاعة . ثم دعاه ، فقال:أزوجك وأكرمك ، وهذه الاستجابة الحانية من الله – سبحانه – لحاجات القلوب التى علم من صدقها ما علم , تكشف عن جانب من رحمة الله بعباده . . أما الآية بعمومها فيبدو فيها التيسير الذى أراده الله بالعباد ، والنعمة التى أفاضها عليها بهذا المنهج القويم ، الذى يواجه الواقع من حياة الناس فى جميع الأحوال ، وهنا كذلك يستجيش الوجدان والضمير بعد النهى

والتحذير (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر . ذلكم أزكى لكم وأطهر . والله يعلم وأنتم لا تعلمون) والإيمان بالله واليوم الآخر هو الذى يجعل هذه الموعظة تبلغ إلى القلوب . حين تتعلق هذه القلوب بعالم أرحب من هذه الأرض ؛ وحين تتطلع إلى الله ورضاه فيما تأخذ وما تدع .

إن دستور الأسرة لا بد أن يتضمن بيانا عن تلك العلاقة التى لا تنفصم بين الزوجين بعد الطلاق . علاقة النسل الذى ساهم كلاهما فيه ، وارتبط كلاهما به ؛ فإذا تعذرت الحياة بين الوالدين فإن الفراخ الزغب لا بد لها من ضمانات دقيقة مفصلة ، تستوفى كل حالة من الحالات (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلف نفس إلا وسعها . لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم – إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف – واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير). . إن على الوالدة المطلقة واجبا تجاه طفلها الرضيع . واجبا يفرضه الله عليها ولا يتركها فيه لفطرتها وعاطفتها التى قد تفسدها الخلافات الزوجية ، فيقع الغرم على هذا الصغير . إذن يكفله الله ويفرض له فى عنق أمه . فالله أولى بالناس من أنفسهم ، وأبر منهم وأرحم من والديهم . والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين ؛ لأنه سبحانه يعلم أن هذه الفترة هى المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وتثبت البحوث الصحية والنفسية اليوم أن فترة عامين ضرورية لينمو الطفل نموا سليما من الوجهتين الصحية والنفسية . وللوالدة فى مقابل ما فرضه الله عليها حق على والد الطفل أن يرزقها ويكسوها بالمعروف والمحاسنة ، فكلاهما شريك فى التبعة ، وكلاهما مسؤول تجاه هذا الصغير الرضيع , هى تمده باللبن والحضانة وأبوه يمدها بالغذاء والكساء لترعاه ، وكل منهما يؤدى واجبه فى حدود طاقته (لا تكلف نفس إلا وسعها) ولا ينبغى أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل سببا لمضارة الآخر (لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده) فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ، ليهددها فيه أو تقبل رضاعة بلا مقابل . ولا تستغل هى عطف الأب على إبنه وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها ، والواجبات الملقاة على الوالد تنتقل فى حالة وفاته إلى وارثه الراشد (وعلى الوارث مثل ذلك) فهو المكلف أن يرزق الأم المرضع ويكسوها بالمعروف والحسنى ، وهكذا لا يضيع الطفل إن مات والده . فحقه مكفول وحق أمه فى جميع الحالات (فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) فإذا شاء الوالد والوالدة ، أو الوالدة والوارث ، أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين ; لأنهما يريان مصلحة للطفل فى ذلك الفطام ، لسبب صحى أو سواه ، فلا جناح عليهما , إذا تم هذا بالرضى و التشاور ، كذلك إذا رغب الوالد فى أن يحضر لطفله مرضعا مأجورة ، حين تتحقق مصلحة الطفل فى هذه الرضاعة ، فله ذلك على شرط أن يوفى المرضع أجرها ، وأن يحسن معاملتها (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) وفى النهاية يربط الأمر كله بذلك الرباط الإلهى . بالتقوى ذلك الشعور العميق اللطيف (واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير) (الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{٢٣٤}

وبعد استيفاء التشريع للمطلقات وللآثار المتخلفة عن الطلاق يأخذ فى بيان حكم المتوفى عنها زوجها . . عدتها . وخطبتها بعد انقضاء العدة . والتعريض بالخطبة فى أثنائها ، والمتوفى عنها زوجها كانت تلقى الكثير من العنت من الأهل وقرابة الزوج والمجتمع كله . . وعند العرب كانت إذا مات زوجها دخلت مكانا رديئا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئا مدة سنة ، ثم تخرج فتقوم بعدة شعائر جاهلية سخيفة تتفق مع سخف الجاهلية , من أخذ بعرة وقذفها ومن ركوب دابة:حمار أو شاة . . . إلخ . . فلما جاء الإسلام خفف عنها هذا العنت ، بل رفعه كله عن كاهلها ؛ ولم يجمع عليها بين فقدان الزوج واضطهاد الأهل بعده . . وإغلاق السبيل فى وجهها دون حياة شريفة ، وحياة عائلية مطمئنة . جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال – ما لم تكن حاملا فعدتها عدة الحامل – وهى أطول قليلا من عدة المطلقة . تستبرىء فيها رحمها ، ولا تجرح أهل الزوج فى عواطفهم بخروجها لتوها . وفى أثناء هذه العدة تلبس ثيابا محتشمة ولا تتزين للخطاب . فأما بعد هذه العدة فلا سبيل لأحد عليها . سواء من أهلها أو من أهل الزوج . ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف فى حدود المعروف من سنة الله وشريعته ,فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات ، ولها أن تتلقى خطبة الخطاب ، ولها أن تتزوج ممن ترتضى . لا تقف فى سبيلها عادة بالية ، ولا كبرياء زائفة . وليس عليها من رقيب إلا الله (والله بما تعملون خبير) هذا شأن المرأة . . ثم يلتفت السياق إلى الرجال الراغبين فى الزواج بتلك المرأة أثناء فترة العدة فيوجههم توجيها قائما على أدب النفس ، وأدب الإجتماع ، ورعاية المشاعر والعواطف ، مع رعاية الحاجات والمصالح (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ{٢٣٥} إن المرأة فى عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت ، وبمشاعر أسرة الميت ، ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين ، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه . . وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة . لأن هذا الحديث لم يحن موعده , ولأنه يجرح مشاعر ، ويخدش ذكريات ، ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض – لا التصريح – بخطبة النساء . أبيحت الإشارة البعيدة التى تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها ، وقد روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما (أن التعريض مثل أن يقول:إنى أريد التزويج . وإن النساء لمن حاجتى . ولوددت أنه تيسر لى امرأة صالحة) كذلك أبيحت الرغبة المكنونة التى لا يصرح بها لا تصريحا ولا تلميحا . لأن الله يعلم أن هذه الرغبة لا سلطان لإرادة البشر عليها (علم الله أنكم ستذكرونهن) وقد أباحها الله لأنها تتعلق بميل فطرى ، حلال فى أصله ، مباح فى ذاته ، والملابسات وحدها هى التى تدعو إلى تأجيل اتخاذ الخطوة العملية فيه . والإسلام لا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها ، ولا يكبت النوازع البشرية إنما يضبطها . ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور ، وطهارة الضمير (ولكن لا تواعدوهن سرا) لا جناح فى أن تعرضوا بالخطبة ، أو أن تكنوا فى أنفسكم الرغبة ، ولكن المحظور هو المواعدة سرا على الزواج قبل انقضاء العدة . ففى هذا مجانبة لأدب النفس ، ومخالسة لذكرى الزوج ، وقلة استحياء من الله الذى جعل العدة فاصلا بين عهدين من الحياة (إلا أن تقولوا قولا معروفا) لا نكر فيه ولا فحش ، ولا مخالفة لحدود الله التى بينها فى هذا الموقف الدقيق (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) ولم يقل ولا تعقدوا النكاح ، إنما قال: (ولا تعزموا عقدة النكاح) زيادة فى التحرج (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) فإذا هز

الضمير البشرى هزة الخوف والحذر ، فصحا وارتعش رعشة التقوى والتحرج ، عاد فسكب فيه الطمأنينة لله ، والثقة بعفو الله ، وحلمه وغفرانه (واعلموا أن الله غفور حليم) غفور يغفر خطيئة القلب الشاعر بالله ، حليم لا يعجل بالعقوبة فلعل عبده الخاطىء أن يتوب (لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ) (٢٣٨)

والحالة الأولى هى حالة المطلقة قبل الدخول ، ولم يكن قد فرض لها مهر معلوم . والمهر فريضة ، فالواجب فى هذه الحالة على الزوج المطلق أن يمتعها . أى أن يمنحها عطية حسبما يستطيع . ولهذا العمل قيمته النفسية بجانب كونه نوعا من التعويض . . إن انفصام هذه العقدة من قبل ابتدائها ينشىء جفوة ممضة فى نفس المرأة ، ويجعل الفراق طعنة عداء وخصومة . ولكن التمتيع يذهب بهذا الجو المكفهر ، ولهذا يوصى أن يكون المتاع بالمعروف استبقاء للمودة الإنسانية ، واحتفاظا بالذكرى الكريمة . وفى الوقت نفسه لا يكلف الزوج ما لا يطيق ، فعلى الغنى بقدر غناه , وعلى الفقير فى حدود ما يستطيع (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) ويلوح بالمعروف والإحسان فيندى بهما جفاف القلوب واكفهرار الجو المحيط (متاعا بالمعروف حقا على المحسنين)

والحالة الثانية: أن يكون قد فرض مهرا معلوما . وفى هذه الحالة يجب نصف المهر المعلوم . هذا هو الحكم الشرعى . ولكن القرآن يدع الأمر بعد ذلك للسماحة والفضل واليسر . فللزوجة - ولوليها إن كانت صغيرة - أن تعفو وتترك ما يفرضه الشرع . والتنازل فى هذه الحالة هو تنازل الإنسان الراضى القادر العفو السمح . الذى يعف عن مال رجل قد انفصمت منه عروته . ومع هذا فإن القرآن يظل يلاحق هذه القلوب كى تصفو وترف وتخلو من كل شائبة (وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير) وفى هذا الجو الذى يربط القلوب بالله ، ويجعل الإحسان والمعروف فى العشرة عبادة لله , يأتى الحديث عن الصلاة - , فيوحى بأن الطاعة لله فى كل هذا عبادة كعبادة الصلاة ، ومن جنسها ، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن . واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر , بل شاملة لكل نشاط ، الاتجاه فيه إلى الله ، والغاية منه طاعة الله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا . فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) والأمر هنا بالمحافظة على الصلوات ، يعنى إقامتها فى أوقاتها ، وإقامتها صحيحة الأركان , مستوفية الشرائط . أما الصلاة الوسطى فالأرجح من مجموع الروايات أنها صلاة العصر لقوله ﷺ (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا) وتخصيصها بالذكر ربما لأن وقتها يجيء بعد نومة القيلولة ، وقد تفوت المصلى ، والأمر بالقنوت ، الأرجح أنه يعنى الخشوع لله والتفرغ لذكره فى الصلاة! فأما إذا كان الخوف الذى لا يدع مجالا لإقامة الصلاة تجاه القبلة ، فإن الصلاة تؤدى ولا تتوقف . يتجه الراكب على الدابة والراجل المشغول بالقتال ودفع الخطر حيث يقتضيه حاله ، وبومىء إيماءة خفيفة للركوع والسجود . وهذه غير صلاة الخوف التى بين كيفيتها فى سورة النساء (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (٢٣٩) فإذا كان الأمن فالصلاة المعروفة التى علمها الله للمسلمين ، وذكر الله جزاء ما علمهم ما لم يكونوا يعلمون (فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) ثم يعود السياق إلى ختام الأحكام (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ) ٢٤١ (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) والآية الأولى تقرر حق المتوفى عنها زوجها فى وصية منه تسمح لها بالبقاء فى بيته والعيش من ماله ، مدة حول كامل ، لا تخرج ولا تتزوج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة بها ما يدعوها إلى البقاء . . وذلك مع حريتها فى أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالذى قررته آية سابقة . فالعدة فريضة عليها . والبقاء حولا حق لها . . وبعضهم يرى أن هذه الآية منسوخة بتلك . ولا ضرورة لافتراض النسخ ، لاختلاف الجهة كما رأينا . فهذه تقرر حقا لها إن شاءت استعملته . وتلك تقرر حقا عليها لا مفر منه (فإن خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف) وكلمة (عليكم) توحى بمعنى الجماعة المتضامنة المسؤولة عن كل ما يقع فيها . فالجماعة هى التى يناط بها أمر هذه العقيدة وأمر هذه الشريعة وأمر كل فرد وكل فعل فى محيطها ، والتعقيب (والله عزيز حكيم) للفت القلوب إلى قوة الله ، وحكمته فيما يفرض وما يوجه . وفيه معنى التهديد والتحذير ، والآية الثانية تقرر حق المتاع للمطلقات عامة ، وتعلق الأمر كله بالتقوى (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وعدد من المفسرين يرى أنها منسوخة بالأحكام السابقة ولا حاجة لافتراض النسخ . فالمتاع غير النفقة ، ومما يتمشى مع الإيحاءات القرآنية فى هذا المجال تقرير المتعة لكل مطلقة . المدخول بها وغير المدخول بها . المفروض لها مهر وغير المفروض لها . لما فى المتعة من تندية لجفاف جو الطلاق ، وترضية للنفوس الموحشة بالفراق . وفى الآية استجاشة لشعور التقوى ، وتعليق الأمر به . وهى الضمان الأكيد والضمان الوحيد . والآية الثالثة تعقيب على الأحكام السابقة جميعا (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) كذلك . . كهذا البيان الذى سلف فى هذه الأحكام . . وهو بيان محكم دقيق موح مؤثر . . كذلك يبين الله لكم آياته عسى أن تقودكم إلى التعقل والتدبر فيها ، وفى الحكمة الكامنة وراءها ، وفى الرحمة المتمثلة فى ثناياها .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{٢٤٣} وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{٢٤٤} مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٤٥} أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{٢٤٦} وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{٢٤٧} وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٤٨} فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{٢٤٩} وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{٢٥٠} فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{٢٥١} تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{٢٥٢}

.ندرك قيمة هذه الآيات . وما يتضمنه من تجارب الجماعات السابقة والأمم الغابرة ، حين نستحضر فى أنفسنا أن القرآن هو كتاب هذه الأمة الحى ، ورائدها الناصح ; وأنه هو مدرستها التى تلقت فيها دروس حياتها . وأن الله – سبحانه – كان يربى به الجماعة المسلمة الأولى التى قسم لها إقامة منهجه الربانى فى الأرض ، وناط بها هذا الدور العظيم بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم . وأنه – تعالى – أراد بهذا القرآن أن يكون هو الكتاب الصالح بعد وفاة الرسول ﷺ لقيادة أجيال هذه الأمة ، وتربيتها ، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذى وعدها به ، كلما اهتدت بهديه , واستمسكت بعهدها معه ، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن ، واستعزت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية .

هذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم ، يضمهما إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب

والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها ، ويعرضها فى اختصار كامل ، ولكنه واف . فهى تجربة جماعة (خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت). . فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر ; وأدركهم قدر الله الذى خرجوا حذرا منه . . فقال لهم الله (موتوا) (ثم أحياهم). . لم ينفعهم الجهد فى اتقاء الموت ، ولم يبذلوا جهدا فى استرجاع الحياة . وإنما هو قدر الله فى الحالين ، وفى ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال ، وعلى الإنفاق فى سبيل الله .

والثانية تجربة فى حياة بنى إسرائيل من بعد موسى . . بعدما ضاع ملكهم ، ونهبت مقدساتهم , وذلوا لأعدائهم ، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدى ربهم ، وتعاليم نبيهم . . ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة ، واستيقظت فى قلوبهم العقيدة ، واشتاقوا القتال فى سبيل الله . فقالوا (لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله)

ومن خلال هذه التجربة – كما يعرضها السياق القرآنى الموحى – تبرز جملة حقائق ، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة فى كل جيل ،

والعبرة الكلية التى تبرز من القصة كلها هى أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ، ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق – على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا . . فقد كان فيها النصر والعز والتمكين , بعد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل والذى تحت أقدام المتسلطين . ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان – وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض ، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه ; والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الكبرى . . وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت !

وفى خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية ; كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة فى كل حين:

من ذلك . . أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها . فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة . . فقد تقدم الملأ من بنى إسرائيل – من ذوى الرأى والمكانة فيهم – إلى نبيهم فى ذلك الزمان ، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم ، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم: (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا(! استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له: (وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟). . ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة ; وكما يقول السياق بالإجمال: (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم). . ومع أن لبنى إسرائيل طابعا خاصا فى النكول عن العهد ، والنكوص عن الوعد ، والتفرق فى منتصف الطريق . . إلا أن هذه الظاهرة هى ظاهرة بشرية على كل حال ، فى الجماعات التى لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب . . وهى خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة فى أى جيل . . فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل . وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة . . وكلها واضحة فى قيادة طالوت . والعبرة الأخيرة التى تكمن فى مصير المعركة . . أن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته ; لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل. فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التى ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر ، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده). . ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . إنما حكمت حكما آخر ، فقالت: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين). . ثم اتجهت لربها تدعوه: (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين). وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدى الكافرين ، إنما هو فى يد الله وحده . فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه . . وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا ، وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ; فقال لهم الله: موتوا . ثم أحياهم . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن

أكثر الناس لا يشكرون) لا أحب أن نذهب فى تيه التأويلات ، عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . . من هم ؟ وفى أى أرض كانوا ؟ وفى أى زمان خرجوا ؟ . . . . فلو كان الله يريد بيانا عنهم لبين ، كما يجىء القصص المحدد فى القرآن . إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها ، ولا تراد أحداثها وأماكنها وأزمانها . وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئا على عبرة القصة ومغزاها إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة ، وأسبابهما الظاهرة ، وحقيقتهما المضمرة ; ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة . والاطمئنان إلى قدر الله فيهما يراد أن يقال إن الحذر من الموت لا يجدى ؛ وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة ، ولا يمدان أجلا ، وإن الله هو واهب الحياة ، وهو آخذ الحياة ؛ وإنه متفضل فى الحالتين:حين يهب ، وحين يسترد ، إن تجمع هؤلاء القوم (وهم ألوف)وخروجهم من ديارهم (حذر الموت). لا يكون إلا فى حالة هلع وجزع ، سواء كان هذا الخروج خوفا من عدو مهاجم ، أو من وباء حائم . . إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئا (فقال لهم الله . . موتوا) كيف قال لهم ؟ كيف ماتوا ؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا ؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا ؟ كل ذلك لم يرد عنه تفصيل ، لأنه ليس موضع العبرة . إنما موضع العبرة أن الفزع والجزع والخروج والحذر ، لم تغير مصيرهم ، ولم تدفع عنهم الموت , ولم ترد عنهم قضاء الله . وكان الثبات والصبر والتجمل أولى لو رجعوا لله (ثم أحياهم) كيف ؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة ، هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء ؟ . . ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل . فلا ضرورة لأن نذهب وراءه فى التأويل ، لئلا نتيه فى أساطير لا سند لها كما جاء فى بعض التفاسير . . إنما الإيحاء الذى يتلقاه القلب من هذا النص أن الله وهبهم الحياة ، فى حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم (وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) هنا ندرك طرفا من هدف تلك الحادثة ومغزاها ، طرفا من حكمة الله فى سوق هذه التجربة ، ألا يقعدن بكم حب الحياة , وحذر الموت ، عن الجهاد فى سبيل الله . فالموت والحياة بيد الله . قاتلوا فى سبيل الله لا فى سبيل غاية أخرى . وتحت راية الله لا تحت راية أخرى . . قاتلوا فى سبيل الله (واعلموا أن الله سميع عليم). .يسمع ويعلم . . يسمع القول ويعلم ما وراءه ، والجهاد فى سبيل الله بذل وتضحية . وبذل المال والإنفاق فى سبيل الله يقترن فى القرآن غالبا بذكر الجهاد والقتال . وبخاصة فى تلك الفترة حيث كان الجهاد تطوعا ، والمجاهد ينفق على نفسه ، وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد ؛ فلم يكن بد من الحث المستمر على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين فى سبيل الله . وهنا تجىء الدعوة إلى الإنفاق فى صورة موحية دافعة (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط ، وإليه ترجعون)

إنما هو قرض حسن لله ، مضمون عنده ، يضاعفه أضعافا كثيرة . يضاعفه فى الدنيا مالا وبركة وسعادة وراحة ؛ ويضاعفه فى الآخرة نعيما ومتاعا ، ورضى وقربى من الله ، ومرد الأمر فى الغنى والفقر إلى الله ، لا إلى حرص وبخل ، ولا إلى بذل وإنفاق (والله يقبض ويبسط) والمرجع إليه سبحانه فى نهاية المطاف (وإليه ترجعون) وإذن فلا فزع من الموت ، ولا خوف من الفقر. فليجاهد المؤمنون فى سبيل الله ، وليقدموا الأرواح والأموال ؛ وليستقينوا أن أنفاسهم معدودة ، وأن أرزاقهم مقدرة ، وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحياة كريمة . ومردهم بعد ذلك إلى الله .

ثم يورد السياق التجربة الثانية ، وأبطالها هم بنو إسرائيل من بعد موسى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال:هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ! قالوا:وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين) ألم تر ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور . . لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل ، من كبرائهم وأهل الرأى فيهم – إلى نبى لهم . ولم يرد فى السياق ذكر اسمه ، لأنه ليس المقصود بالقصة ، وذكره هنا لا يزيد شيئا فى إيحاء القصة ، وقد كان لبنى إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون فى تاريخهم الطويل ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته (فى سبيل الله) وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه فى (سبيل الله) يشى بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر (قال:هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا !) فأنتم الآن فى سعة من الأمر . فأما إذا استجبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ؛ ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . . إنها الكلمة اللائقة بنبى ، وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة ؛ وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال فى سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذى لا تردد فيه (قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟) إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله . وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم(من السبى أى الأسر) فقتالهم واجب والطريق الواحدة التى أمامهم هى القتال ، ولكن هذه الحماسة الفائرة فى ساعة الرخاء لم تدم . ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم) وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل فى نقض العهد ، ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية ، فهى سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير (والله عليم بالظالمين) (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا:أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ قال إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء . والله واسع عليم) وفى هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التى وردت الإشارات إليها كثيرة فى هذه السورة . . لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه . ولقد قالوا إنهم يريدون أن يقاتلوا (فى سبيل الله) فها هم أولاء ينغضون رؤوسهم ، ويلوون اعناقهم , ويجادلون فى اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ؛ ويستنكرون أن يكون طالوت - الذى بعثه الله لهم – ملكا عليهم . لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة . فلم يكن من نسل الملوك فيهم ! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضى عن أحقية الوراثة . ! ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية ، وعن حكمة الله فى اختياره (قال:إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء . والله واسع عليم) (إنه رجل قد اختاره الله . . فهذه واحدة . . وزاده بسطة فى العلم والجسم . . وهذه أخرى . .والله (يؤتى ملكه من يشاء). . فهو ملكه ، وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء . . (والله واسع عليم). . ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد . وهو الذى يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع الأمور فى مواضعها ، ولكن طبيعة إسرائيل لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها . وهم مقبلون على معركة . ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله

الملائكة . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة – التي غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى – عليه السلام – قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة فى التابوت الذى يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . وقيل:كانت فيه نسخة الألواح التى أعطاها الله لموسى على الطور . . فجعل لهم نبيهم علامة من الله ، أن تقع خارقة يشهدونها ، فيأتيهم التابوت بما فيه (تحمله الملائكة) فتفيض على قلوبهم السكينة . . وقال لهم إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت ، إن كنتم حقا مؤمنين ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت ، فانتهى القوم منها إلى اليقين ، ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، . . والسياق القرآنى على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين . فيعرض المشهد التالى مباشرة وطالوت خارج بالجنود(فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بنهر . فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى – إلا من اغترف غرفة بيده . فشربوا منه إلا قليلا منهم)

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل . . إنه مقدم على معركة ؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات , وتصمد للحرمان والمشاق ، فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش . ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، وصحت فراسته (فشربوا منه إلا قليلا منهم) شربوا وارتووا . فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لا تشى بالرغبة في التخلف ! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم . ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى ؛ ولا بد من التجربة العملية , ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها . ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذى لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى . . بل مضى فى طريقه . وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت – إلى حد – ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا:لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) لقد صاروا قلة . وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته بقيادة جالوت . إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا أمام الواقع الذى يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته . إنها التجربة الحاسمة . تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور . وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم ؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التى يستمدها الناس من واقع حالهم ! وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة . والفئة ذات الموازين الربانية (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله:كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين) (هكذا) (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة). . بهذا التكثير . فهذه هى القاعدة فى حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله . القاعدة أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى وهم يكلون هذا النصر لله (بإذن الله) ويعللونه بعلته الحقيقية (والله مع الصابرين) ونمضى مع القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ،. إذا هذه الفئة القليلة الصابرة ، التى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها . . إذا هذه الفئة هى التى تقرر مصير المعركة .، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهى تواجه الهول الرعيب (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا:ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة , وعلمه مما يشاء) (هكذا) (ربنا أفرغ علينا صبرا). . وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم ، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة . (وثبت أقدامن) . .فهى فى يده – سبحانه – يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد . (وانصرنا على القوم الكافرين). . فقد وضح الموقف . . إيمان تجاه كفر . وحق إزاء باطل. . فلا غبش فى التصور ، ولا شك فى وضوح الطريق ، وكانت النتيجة هي التى ترقبوها واستيقنوهم (فهزموهم بإذن الله) ويؤكد النص هذه الحقيقة (بإذن الله) ليعلمها المؤمنون. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجرى في هذا الكون ، ولطبيعة القوة التى تجريه (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ويبرز السياق دور داود (وقتل داود جالوت) وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل . وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا ، ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها ، إنما تجرى بحقائقها . وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها فى يده وحده . فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا الله بعهدهم . ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذى يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم . . وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله . فلقد قدر أن يكون داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه إبنه سليمان ، فيكون عهده هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة فى نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وحين ينتهى إلى هذه الخاتمة ، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية ، حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى . . إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات . . إنما هو الصلاح فى الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين) وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا فى الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعى فى تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار ، لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . ولولا أن فى طبيعة الناس التى فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة , لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، وفى النهاية يكون الصلاح والخير والنماء . . يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة التى تعرف الحق الذى بينه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحا . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق فى الأرض (تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وفى النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة تلك الآيات العالية المقام البعيدة الغايات (نتلوها عليك). الله – سبحانه وتعالى - هو الذى يتلوها وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة) (نتلوها عليك بالحق). . تحمل معها الحق . ويتلوها من يملك حق تلاوتها وتنزيلها , وجعلها دستورا للعباد . وليس هذا الحق لغير الله سبحانه . فكل من يسن للعباد منهجا غيره إنما هو مفتات على حق

الله ، ظالم لنفسه وللعباد ، مدع ما لا يملك , مبطل لا يستحق أن يطاع . فإنما يطاع أمر الله . وأمر من يهتدى بهدى الله . . دون سواه (وإنك لمن المرسلين) ومن ثم نتلو عليك هذه الآية ؛ ونزودك بتجارب البشرية وتجارب الموكب الإيمانى فى جميع مراحله ، ونورثك ميراث المرسلين أجمعين .

مقدمة الجزء الثالث

هذا الجزء الثالث مؤلف من شطرين :الشطر الأول تتمة سورة البقرة التى استغرقت الجزءين الأولين . والشطر الثانى أوائل سورة آل عمران . . وسنتحدث هنا – إجمالا – عن الشطر الأول . أما الشطر الثانى فسيجىء الحديث عنه عند استعراض سورة آل عمران إن شاء الله .

وهذه البقية الباقية من سورة البقرة هى استطراد فى موضوعها الرئيسى ، وهو إعداد الجماعة المسلمة فى المدينة لتنهض بتكاليف الأمة المسلمة . . تنهض بها وقد تهيأت لهذه الأمانة الضخمة بالتصور الإيمانى الصحيح ؛ وزودت بتجارب الأمة المؤمنة على مدار الرسالات السابقة ؛ وعرفت زاد الطريق كما عرفت مزالق الطريق ؛ وحذرت كيد أعدائها . . أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الإيمان . . لتكون منهم على بينة فى كل مراحل الطريق .

وهذا الإعداد بكل وسائله .. هو الذى يعالج به القرآن الكريم أجيال الجماعة المسلمة على مدار الزمان بعد الجيل الأول . فهو المنهج الثابت لإنشاء الجماعة المسلمة ، ولقيادة الحركة الإسلامية فى كل جيل . والقرآن من ثم أداة حية متحركة ، ودستور شامل عامل فى كل وقت ؛ بل هو قيادة راشدة فى كل موقف وفى كل خطوة وفى كل جيل .

تعريف بباقي سورة البقرة

هذه البقية تأتى بعد قول الله لنبيه ﷺ فى نهاية الجزء الثانى من السورة (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . وإنك لمن المرسلين) وذلك تعقيبا على قصة الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم . . فنهاية الجزء الثانى كانت حديثا عن قوم موسى ، وكانت حديثا عن داود – عليهما السلام – وكانت كذلك إشارة إلى رسالة النبى ﷺ وإلى تزويده بتجارب المرسلين،ومن ثم يبدأ الجزء الثالث بعد هذا حديثا ملتحما بما قبله عن الرسل ، وتفضيل الله بعضهم على بعض ، وخصائص بعضهم ، ورفع بعضهم درجات . . وحديثا عن اختلاف من جاء بعدهم من اتباعهم ، وقتال بعضهم لبعضومناسبة هذا الاستطراد واضحة فى الحديث عن الرسل بين أواخر الجزء الثانى وأوائل هذا الجزء الثالث . .والمناسبة كذلك واضحة فى سياق السورة كله . فمعظم الجدل فى السياق كان بين الجماعة المسلمة الناشئة فى المدينة وبين بنى إسرائيل ، ومن ثم يجىء الحديث هنا عن اختلاف اتباع الرسل من بعدهم واقتتالهم – بعد ما كفر منهم من كفر وآمن منهم من آمن – يجىء الحديث عن هذا الاختلاف والاقتتال فى موضعه المناسب . لتمضى الأمة المسلمة فى طريقها , تواجه بنى إسرائيل وغيرهم وفق ما يقتضيه الموقف الواقعى بين اتباع الرسل:المستقيمين على الهدى والمنحرفين عن الطريق . ولتنهض هذه الأمة بتبعاتها ، فهى الجماعة المهتدية التى ينبغى أن تكافح المنحرفين . لهذا يعقب ذلك البيان دعوة حارة إلى الإنفاق من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فالإنفاق هو فريضة المال الملازمة لفريضة الجهاد فى جميع الأحوال ؛ وبخاصة فى الحالة التى كانت فيها الجماعة المسلمة ثم بيان لقواعد التصور الإسلامى الذى يقوم عليه وجود الجماعة المسلمة . وهو بيان عن وحدانية الله وحياته ، وقيامه على كل شىء وقيام كل شىء به ، وملكيته المطلقة لكل شىء , وعلمه المحيط بكل شىء ، وهيمنته الكاملة على كل شىء ، وقدرته الكاملة وحفظه لكل شىء . . لا شفاعة عنده إلا بإذنه ثم هو يقاتل فى سبيل الله ، لا ليكره الناس على عقيدته هذه وعلى تصوره ؛ ولكن ليتبين الرشد من الغى وهو يمضى مطمئنا فى طريقه ، فى كنف الله وولايته ، واثقا من هداية الله ورعايتهيلى ذلك استطراد فى توضيح التصور الإيمانى لحقيقة الموت وحقيقة الحياة . . فى سلسلة من التجارب يذكر إبراهيم – عليه السلام – فى تجربتين منها ، ويذكر شخص آخر لا يفصح عن اسمه فى التجربة الثالثة . . وتنتهى كلها إلى إيضاح لحقيقة الموت ولحقيقة الحياة وارتباطهما مباشرة بإرادة الله وعلمه ؛ واستعصاء هذا السر على الإدراك البشرى أن يعرف كنهه ؛ فهو فوق مجال الإدراك ، ومرده إلى الله وحده دون سواه . ومن هنا يبدأ فى حديث طويل عن الارتباطات التى يقوم عليها المجتمع المسلم . فيقرر أن التكافل هو قاعدة هذا المجتمع وأن الربا منبوذ منه ملعون . ومن ثم يرد حديث عن الإنفاق والصدقة يستغرق مساحة واسعة من بقية السورة وفى الجانب الآخر المقابل لجانب الإنفاق والصدقة يقوم الربا . . ذلك النظام الخبيث الذى يحمل عليه القرآن حملة قاصمة فى خلال صفحة من المصحف ، كأنما تنقض منها الصواعق لتحطيم هذا الأساس النكد للحياة الاقتصادية والاجتماعية ؛ ولإقامة قاعدة أخرى سليمة قوية ينهض عليها بناء المجتمع الإسلامى الذى كان ينشئه الله – سبحانه – بهذا القرآن . يليه تشريع الدين ، الذى سبق به القرآن الكريم كل تشريع فى موضوعه . وهو مسوق فى آيتين , إحداهما أطول آية فى القرآن الكريم . وتتجلى فيهما خاصية هذا القرآن فى سوق تشريعاته سياقة حية موحية يتفرد بها تفردا كاملا معجزا . وفى النهاية تختم السورة ختاما يتناسق تماما مع افتتاحها ، ومع أظهر ما اشتمل عليه سياقها . ختاما يتناول قاعدة التصور الإسلامى فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وهو ختام يناسب المطلع ويناسب السياق الطويل الدقيق . .

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ {٢٥٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ {٢٥٤} اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ {٢٥٥} لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ

بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٢٥٦} اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٥٧}

أول ما يواجهنا في هذا الدرس هو ذلك التعبير الخاص عن الرسل (تلك الرسل) لم يقل هؤلاء الرسل . إنما استهل الحديث عنهم بهذا التعبير الخاص ، الذى يشتمل على إيحاء قوى واضح (تلك الرسل) إنهم جماعة خاصة . ذات طبيعة خاصة . وإن كانوا بشرا من البشر ، ولقد شاءت الإرادة العليا أن تبعث بالرسل بين الحين والحين ، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة ، التى ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلا بعد مئات القرون . وما كانت لتبلغ إليها كلها أبدا على مدار القرون . وقيمة هذا الاتصال هى استقامة خطاهم مع خطى الكون ؛ واستقامة حركاتهم مع حركة الكون ؛ واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون . ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنسانى . ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنسانى . ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ، الذى يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته ، وحقيقة اتجاهه . ويدخل به الناس فى السلم كافة . السلم مع هذا الكون ، والسلم مع فطرتهم وهى من فطرة هذا الكون ، والسلم مع بعضهم البعض فى سعيهم ونشاطهم ونموهم ورقيهم المهيأ لهم فى هذه الحياة الدنيا (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول . والذى تشمله دعوته ونشاطه . كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل . أو رسول الأمم كافة فى جميع الأجيال . . كذلك يتعلق بالمزايا التى يوهبها لشخصه أو لأمته . كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية (منهم من كلم الله – ورفع بعضهم درجات – وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)

وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى – عليه السلام – ومن ثم لم يذكره باسمه . وذكر عيسى بن مريم – عليه السلام – وهكذا يرد اسمه منسوبا إلى أمه فى أغلب المواضع القرآنية . والحكمة فى هذا واضحة . فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى – عليه السلام – وبنوته لله – سبحانه وتعالى – أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت . أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة فى الكأس ! إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى غرقت الكنائس والمجامع فى الجدل حولها ؛ وجرت حولها الدماء أنهارا فى الدولة الرومانية ! ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى – عليه السلام – وذكره فى معظم المواضع منسوبا إلى أمه مريم . . أما روح القدس فالقرآن يعنى به جبريل – عليه السلام – فهو حامل الوحى إلى الرسل . وهذا أعظم تأييد وأكبره .وهو الذى ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم أما البينات التى آتاها الله عيسى – عليه السلام – فتشمل الإنجيل الذى نزله عليه ، كما تشمل الخوارق التى أجراها على يديه , ولم يذكر النص هنا محمدا ﷺ لأن الخطاب موجه إليه والسياق سياق إخبار له عن غيره من الرسل . وبعد فقد اقتتل اتباع (تلك الرسل) ولم تغن وحدة جماعة الرسل فى طبيعتهم ، ووحدة الرسالة التى جاءوا بها كلهم . . لم تغن هذه الوحدة عن اختلاف اتباع الرسل حتى ليقتتلون (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم – من بعد ما جاءتهم البينات – ولكن اختلفوا:فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما اقتتلوا . ولكن الله يفعل ما يريد)إن هذا الاقتتال لم يقع مخالفا لمشيئة الله . فما يمكن أن يقع فى هذا الكون ما يخالف مشيئته – سبحانه – فمن مشيئته أن يكون هذا الكائن البشرى كما هو . بتكوينه هذا واستعداداته للهدى وللضلال . وأن يكون موكولا إلى نفسه فى اختيار طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال . ومن ثم فكل ما ينشأ عن هذا التكوين وإفرازاته واتجاهاته داخل فى إطار المشيئة ؛ وواقع وفق هذه المشيئة (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) وحين يصل الاختلاف إلى هذا المدى ، فيكون اختلاف كفر وإيمان ، يتعين القتال . يتعين لدفع الناس بعضهم ببعض . دفع الكفر بالإيمان . والضلال بالهدى ، والشر بالخير ، وكان المسلمون عند نزول هذا النص يقاتلون المشركين من العرب . كما كانوا على وشك أن يوجهوا إلى قتال الكفار من أهل الكتاب . ومن ثم جاء هذا النص يقرر أن الاقتتال بين المختلفين على العقيدة إلى هذا الحد ، هو من مشيئة الله وبإذنه (ولو شاء الله ما اقتتلوا) ولكنه شاء . شاء ليدفع الكفر بالإيمان ؛ وليقر فى الأرض حقيقة العقيدة الصحيحة الواحدة التى جاء بها الرسل جميعا ، فانحرف عنها المنحرفون . وقد علم الله أن الضلال لا يقف سلبيا جامدا ، إنما هو ذو طبيعة شريرة . فلا بد أن يعتدى ، ولا بد أن يحاول إضلال المهتدين ،.فلا بد من قتاله لتستقيم الأمور (ولكن الله يفعل ما يريد) مشيئة مطلقة . ومعها القدرة الفاعلة . وقد قدر أن يكون الناس مختلفين فى تكوينهم . وقدر أن يكونوا موكولين إلى أنفسهم فى اختيار طريقهم . وقدر أن من لا يهتدى منهم يضل . وقدر أن الشر لا بد أن يعتدى ويريد العوج . وقدر أن يقع القتال بين الهدى والضلال . وقدر أن يجاهد أصحاب الإيمان لإقرار حقيقته الواحدة الواضحة المستقيمة ؛ وأنه لا عبرة بالانتساب إلى الرسل من اتباعهم وهذه الحقيقة التى قررها الله للجماعة المسلمة فى المدينة حقيقة مطلقة لا تتقيد بزمان ، ومن ثم يعقب السياق على ذكر الاختلاف والاقتتال بنداء (الذين آمنوا) ودعوتهم إلى الإنفاق مما رزقهم الله . فالإنفاق صنو الجهاد وعصب الجهاد (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة . والكافرون هم الظالمون) إنها الدعوة بالصفة الحبيبة إلى نفوس المؤمنين ، والتى تربطهم بمن يدعوهم ، والذى هم به مؤمنون وهى الدعوة إلى الإنفاق من رزقه الذى أعطاهم إياه . فهو الذى أعطى ، وهو الذى يدعو إلى الإنفاق مما أعطى (أنفقوا مما رزقناكم) وهى الدعوة إلى الفرصة التى إن أفلتت منهم فلن تعود (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) فهى الفرصة التى ليس بعدها – لو فوتوها على أنفسهم – بيع تربح فيه الأموال وتنمو . وليس بعده صداقة أو شفاعة ترد عنهم عاقبة النكول والتقصير (والكافرون هم الظالمون) ظلموا الحق فأنكروه . وظلموا أنفسهم فأوردوها موارد الهلاك . وظلموا الناس فصدوهم عن الهدى وفتنوهم عن الإيمان ، وموهوا عليهم الطريق ،

وبمناسبة الاختلاف بعد الرسل والاقتتال ، والكفر بعد مجىء البينات والإيمان ، تجىء آية تتضمن قواعد التصور الإيمانى ، وتذكر من صفات الله سبحانه ما يقرر معنى الوحدانية فى أدق مجالاته ، وأوضح سماته . وهى آية جليلة الشأن ، عميقة الدلالة ، واسعة المجال (اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(٢٥٥) وكل صفة من هذه الصفات التي تضمنتها هذه الآية تمثل قاعدة يقوم عليها التصور الإسلامى الناصع ، كما يقوم عليها المنهج الإسلامى الواضح (الله لا إله إلا هو) فهذه الوحدانية الحاسمة التى لا مجال فيها لأى انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة ، هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هى القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامى ؛ والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها . فلا يكون إنسان عبدا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله , ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده . فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ؛ ويجيء تشريع البشر مستمدا من شريعة الله . وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله ؛ فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل فى ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله (الحى القيوم) والحياة التى يوصف بها الإله الواحد هى الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق . ومن ثم يتفرد الله – سبحانه – بالحياة على هذا المعنى . كما أنها هى الحياة الأزلية الأبدية التى لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهى إلى نهاية ، فهى متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية . أما صفة (القيوم). . فتعنى قيامه – سبحانه – على كل موجود . كما تعنى قيام كل موجود به فلا قيام لشيء إلا مرتكنا إلى وجوده وتدبيره . . لا كما كان أكبر فلاسفة الإغريق - أرسطو – يتصور أن الله لا يفكر فى شيء من مخلوقاته ، لأنه تعالى أن يفكر فى غير ذاته ! ويحسب أن فى هذا التصور تنزيها لله وتعظيما ؛ وهو يقطع الصلة بينه وبين هذا الوجود الذى خلقه . . وتركه . . فالتصور الإسلامى تصور إيجابى لا سلبى . يقوم على أساس أن الله – سبحانه – قائم على كل شيء ، وأن كل شيء قائم فى وجوده على إرادة الله وتدبيره (لا تأخذه سنة ولا نوم) وهذا توكيد لقيامه – سبحانه – على كل شيء ، وقيام كل شيء به . ولكنه توكيد فى صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشرى صورة القيام الدائم ، وهي تتضمن نفى السنة الخفيفة أو النوم المستغرق ، وتنزهه – سبحانه – عنهما إطلاقا (له ما فى السماوات وما فى الأرض) فهى الملكية الشاملة . كما أنها هى الملكية المطلقة . . الملكية التى لا يرد عليها قيد ولا شرط ولا فوت ولا شركة . وهى مفهوم من مفاهيم الألوهية الواحدة . فالله الواحد هو الحى الواحد ، القيوم الواحد ، المالك الواحد وهى نفى للشركة فى صورتها التى ترد على أذهان الناس ومداركهم . كما أنها ذات أثر فى إنشاء معنى الملكية وحقيقتها فى دنيا الناس . فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء . إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلى الذى يملك كل شيء . ومن ثم وجب أن يخضعوا فى خلافتهم لشروطالمالك المستخلف فى هذه الملكية . وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم فى شريعته ؛ فليس لهم أن يخرجوا عنها ؛ وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ، ووقعت تصرفاتهم باطلة , ووجب رد هذه التصرفات من المؤمنين بالله في الأرض . . وهكذا نجد أثر التصور الإسلامى فى التشريع الإسلامى ، وفى واقع الحياة العملية التى تقوم عليه . وحين يقول الله فى القرآن الكريم (له ما فى السماوات وما فى الأرض) مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك - سبحانه – لما فى السماوات وما فى الأرض . . مجرد تصور الإنسان لخلو يده هو من ملكية أى شيء مما يقال:إنه يملكه ؛ ورد هذه الملكية لصاحبها الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض . . مجرد إحساسه بأن ما فى يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذى أعارها له فى الأجل يسكب فى النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق والسماحة والجود بالموجود يفيض على القلب الطمأنينة (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وهذه صفة أخرى من صفات الله ؛ توضح مقام الألوهية ومقام العبودية . . فالعبيد جميعا يقفون فى حضرة الألوهية موقف العبودية لا يتعدونه ولا يتجاوزونه ، يقفون فى مقام العبد الخاشع الخاضع ، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده , إلا بعد أن يؤذن له ، فيخضع للإذن ويشفع فى حدوده (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وهذه الحقيقة بطرفيها تساهم كذلك فى تعريف المسلم بإلهه ، وفى تحديد مقامه هو من إلهه . فالله يعلم ما بين أيدى الناس وما خلفهم . وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصى لكل ما حولهم . فهو يشمل حاضرهم الذى بين أيديهم ؛ ويشمل غيبهم الذى كان ومضى والذى سيكون وهو عنهم محجوب أما هم فلا يعلمون شيئا إلا ما يأذن لهم الله أن يعلموه (وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما) وقد جاء التعبير فى هذه الصورة الحسية فى موضع التجريد المطلق ؛ على طريقة القرآن فى التعبير التصويرى ، لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا وثباتا . فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك . فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه . وهذه هى الحقيقة من الناحية الذهنية . ولكن الصورة التي ترتسم فى الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن . وكذلك التعبير بقوله (ولا يؤوده حفظهما) فهو كناية عن القدرة الكاملة . و التعبير القرآنى يتجه إلى رسم صور للمعانى تجسمها للحس , فتكون فيه أوقع وأعمق وأحس (وهو العلى العظيم). .

وهذه خاتمة الصفات فى الآية ، تقرر حقيقة ، وتوحى للنفس بهذه الحقيقة . وتفرد الله سبحانه بالعلو والعظمة . فالتعبير على هذا النحو يتضمن معنى القصر والحصر . فلم يقل وهو على عظيم ، ليثبت الصفة مجرد إثبات . ولكنه قال: (العلى العظيم) ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك ! إنه المتفرد بالعلو ، المتفرد بالعظمة . و ما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا ويرده الله إلى الخفض والهون ؛ وإلى العذاب فى الآخرة والهوان . ويعلو الإنسان ما يعلو ، ويعظم الإنسان ما يعظم ، فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلى العظيم . وعندما تستقر هذه الحقيقة فى نفس الإنسان ، فإنها تثوب به إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه ؛ وترده إلى مخافة الله ومهابته ؛ وإلى الشعور بجلاله وعظمته ؛ وإلى الأدب فى حقه والتحرج من الاستكبار على عباده . فهى اعتقاد وتصور . وهى كذلك عمل وسلوك . .

ثم ينتقل السياق إلى إيضاح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور ؛ ويقومون بهذه الدعوة ؛ وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة (لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). . إن قضية العقيدة – كما جاء بها هذا الدين – قضية اقتناع بعد البيان والإدراك ؛ وليست قضية إكراه وغصب وإجبار . ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشرى بكل قواه وطاقاته . يخاطب العقل المفكر ، والبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة . يخاطب الكيان البشرى كله ، والإدراك البشرى بكل جوانبه ؛ في غير قهر حتى بالخارقة المادية التى قد تلجيء مشاهدها الجاء إلى الإذعان ، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعى والإدراك . وكانت المسيحية – آخر الديانات

قبل الإسلام – قد فرضت فرضا بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية . بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعا وحبا ! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية ؛ بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة ؛ وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح ! فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن – في أول ما يعلن – هذا المبدأ العظيم الكبير(لا إكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي) وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان ؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره ؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه . . وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني . . التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب معتسفة ونظم مذلة ؛ لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله – باختياره لعقيدته ، إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق "الإنسان" التي يثبت له بها وصف "إنسان" . فالذي يسلب إنسانا حرية الاعتقاد ، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء . . ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة . . وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة . والإسلام - وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء - هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين ؛ وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين . . فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة ؛ ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ؟! والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق (لا إكراه في الدين). نفي الجنس كما يقول النحويون . . أي نفي جنس الإكراه . نفي كونه ابتداء . فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهي عن مزاولته . والنهي في صورة النفي – والنفي للجنس - أعمق إيقاعا وآكد دلالة ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى ، وتهديه إلى الطريق (قد تبين الرشد من الغي) فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه . والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به ، ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحا وتحديدا وبيانا (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) والطاغوت صيغة من الطغيان ، تفيد كل ما يطغى على الوعي ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله ، ومن الشريعة التي يسنها الله ، ومنه كل منهج غير مستمد من الله ، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله . فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجا . . وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، إن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبدا . . إنها متينة لا تنقطع . . ولا يضل الممسك بها طريق النجاة . . إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة . . والإيمان في حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقائق في هذا الوجود . . حقيقة الله (والله سميع عليم) يسمع منطق الألسنة ، ويعلم مكنون القلوب . فالمؤمن الموصول به لا يبخس ولا يظلم ولا يخيب . ثم يمضي السياق يصور في مشهد حسي حي متحرك طريق الهدى وطريق الضلال ؛ وكيف يكون الهدى وكيف يكون الضلال . . يصور كيف يأخذ الله – ولي الذين آمنوا – بأيديهم ، فيخرجهم من الظلمات إلى النور . بينما الطواغيت – أولياء الذين كفروا – تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور إلى الظلمات ! (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) إن الإيمان نور . . نور واحد في طبيعته وحقيقته . . وإن الكفر ظلمات . . ظلمات متعددة متنوعة . ولكنها كلها ظلمات . وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور ، والتعبير عن الكفر بالظلمة . إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره . تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نورا ووضاءة ووضوحا . . نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات ، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش ، بينة بغير لبس ، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة ؛ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في هوادة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه ، وهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد . فأما ضلال الكفر فظلمات شتى منوعة . . ظلمة الهوى والشهوة . وظلمة الشرود والتيه . وظلمة الكبر والطغيان . وظلمة الضعف والذلة . وظلمة الرياء والنفاق . وظلمة الطمع والسعر . وظلمة الشك والقلق . . . وظلمات شتى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله ، والتلقي من غير الله ، والاحتكام لغير منهج الله ، والعاقبة هي اللائقة بأصحاب الظلمات (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وإذ لم يهتدوا بالنور ، فليخلدوا إذن في النار ! وقبل أن ننتقل من هذا الدرس يحسن أن نقول كلمة عن قاعدة: (لا إكراه في الدين) إلى جوار فرضية الجهاد في الإسلام ، والمواقع التي خاضها الإسلام . وقوله تعالى في آية سابقة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله). إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض ؛ فيزعمون أنه فرض بالسيف ، في الوقت الذي قرر فيه أن لا إكراه في الدين . . أما بعضهم الآخر فيتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة ؛ وهو يحاول في خبث أن يخمد في حس المسلم روح الجهاد ؛ ويهون من شأن هذه الأداة في تاريخ الإسلام وفي قيامه وانتشاره . ويوحي إلى المسلمين – بطريق ملتوية ناعمة ماكرة – أن لا ضرورة اليوم أو غدا للاستعانة بهذه الأداة! وذلك كله في صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الإسلام ! . . وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذين يعملون في حقل واحد في حرب الإسلام ، وتحريف منهجه ، وقتل إيحاءاته الموحية في حس المسلمين ، كي يأمنوا انبعاث هذا الروح , الذي لم يقفوا له مرة في ميدان ! والذي آمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلوه بشتى الوسائل , وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية في كل مكان ! وألقوا في خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضي الجهاد ! إنما هي فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد . . ومن ثم فلا داعي للجهاد ! لقد انتضى الإسلام السيف ، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل . لا ليكره أحدا على الإسلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد .

جاهد الإسلام أولا ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها ؛ وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم . وجاهد الإسلام ثانيا لتقرير حرية الدعوة – بعد تقرير حرية العقيدة

– فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة ، وبأرقى نظام لتطوير الحياة . جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ؛ ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها . فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر . ولا إكراه في الدين . ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة ؛ كما جاء من عند الله للناس كافة . وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا . ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية

في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضا . فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية ؛ وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة . . وما يزال هذا الهدف قائما ، وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين !

وجاهد الإسلام ثالثا ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه . . وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان ؛ حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ؛ ويلغى من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها . فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس ، وتستذلهم عن طريق التشريع . إنما هنالك رب واحد للناس جميعا هو الذي يشرع لهم على السواء ، وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع ، كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء . فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذا لشريعة الله ، موكلا عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ . حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء ، لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها , وهو مظهر الألوهية في حياة البشر ، فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعى لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد !

هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام . وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان ، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام ، وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام ، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيا كانت عقيدته . ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام ، ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ .

جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه . وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر ، والتي يدعى فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية – بغير حق – ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض كلها وتناصبه العداء . ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقا ليعلن نظامه الرفيع في الأرض . . ثم يدع الناس في ظله أحرارا في عقائدهم الخاصة . لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية . أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار . وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار ، يزاولونها وفق عقائدهم ؛ والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمي حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم ، ويصون لهم حرماتهم ، في حدود ذلك النظام .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) {٢٥٨}

هذه الآيات الثلاث تتناول موضوعا واحدا في جملته هو سر الحياة والموت ، وحقيقة الحياة والموت . وهي بهذا تؤلف جانبا من جوانب التصور الإسلامي ؛ يضاف إلى القواعد التي قررتها الآيات السابقة منذ مطلع هذا الجزء ؛ وتتصل اتصالا مباشرا بآية الكرسي وما قررته من صفات الله تعالى . . وهي جميعا تمثل جانبا من جوانب الجهد الطويل المتجلي في القرآن الكريم لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود في ضمير المسلم وفي إدراكه .الأمر الذي لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالا بصيرا ، منبثقا من الرؤية الصحيحة الواضحة ، وقائما على اليقين الثابت المطمئن . فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب . . ليست بمعزل عن التصور الاعتقادي ؛ بل هي قائمة عليه ، مستمدة منه . وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلا أن ترتبط بالعقيدة ، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذي وهبه الوجود . . ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي الذي استغرق القرآن المكي كله ، وما يزال يطالع الناس في القرآن المدني بمناسبة كل تشريع وكل توجيه في شؤون الحياة جميعا ، والآية الأولى تحكي حوارا بين إبراهيم – عليه السلام – وملك في أيامه يجادله في الله . لا يذكر السياق اسمه ، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئا . وهذا الحوار يعرض على النبي ﷺ وعلى الجماعة المسلمة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل ، الذي حاج إبراهيم في ربه ، وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ؟ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت . قال أنا أحيي وأميت ! قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين) إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرا لوجود الله أصلا إنما كان منكرا لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده ، ! وكذلك كان منكرا أن الحاكمية لله وحده ، فلا حكم إلا حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع . إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر . هذا السبب هو (أن آتاه الله الملك). . وجعل في يده السلطان ! لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف ، لولا أن الملك يطغى ويبطر من لا يقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام . ومن ثم يضعون الكفر في موضع الشكر ؛ ويضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا به مهتدين ! فهم حاكمون لأن الله حكمهم ، وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم . فهم كالناس عبيد لله ، يتلقون مثلهم الشريعة من الله , ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء ! ومن ثم يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك؟)

ألم تر ؟ إنه تعبير التشنيع و التفظيع ؛ وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء . فالفعلة منكرة حقا أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء ! وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب ، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله (قال إبراهيم:ربي الذي يحيي ويميت) والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة ، المعروضتان لحس الإنسان وعقله . وهما – في الوقت نفسه – السر الذي يحير ، ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز ، إننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة . ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات . ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق . . قوة الله ، ومن ثم عرف إبراهيم – عليه السلام – ربه بالصفة التي

لا يمكن أن يشاركه فيها أحد , ولا يمكن أن يزعمها أحد ، وقال وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره . . قال: ربى الذى يحيى ويميت فهو من ثم الذى يحكم ويشرع !، وما كان إبراهيم – عليه السلام – وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية ، ليعنى من الأحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء . فذلك عمل الرب المتفرد الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه . ولكن الذى حاج إبراهيم فى ربه رأى فى كونه حاكما لقومه وقادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية . فقال لإبراهيم:أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف فى شأنهم , فأنا إذن الرب الذى يجب عليك أن تخضع له ، وتسلم بحاكميته (قال:أنا أحيى وأميت!) عند ذلك لم يرد إبراهيم – عليه السلام – أن يسترسل فى جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يمارى ويداور فى تلك الحقيقة الهائلة . حقيقة منح الحياة وسلبها . هذا السر الذى لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئا . . وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية ، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية إلى طريقة التحدى ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل فى الله ؛ ليريه أن الرب ليس حاكم قوم فى ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله . ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم (قال إبراهيم:فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهى حقيقة كونية مكرورة كذلك ؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم ؛ ولا تتخلف مرة ولا تتأخر . وهى شاهد يخاطب الفطرة – حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئا عن تركيب هذا الكون , ولم يتعلم شيئا من حقائق الفلك ونظرياته – والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشرى فى أية مرحلة من مراحل نموه العقلى والثقافى والاجتماعى ، لتأخذ بيده من الموضع الذى هو فيه . ومن ثم كان هذا التحدى الذى يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذى لا يقبل الجدل (فبهت الذى كفر) فالتحدى قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم ، أو الجدال والمراء . . وكان التسليم أولى والإيمان أجدر . ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذى كفر ، فيبهت ويبلس ويتحير . ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يرغب فى الحق ; ولم يلتزم القصد والعدل (والله لا يهدى القوم الظالمين) ويمضى هذا الجدل الذى عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة . مثلا للضلال والعناد ؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين ؛ وفى ترويض النفوس على تعنت المنكرين!

وفى سياق الحديث عن سر الموت والحياة تجىء القصة الأخرى:

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) {٢٥٩}

من هو (الذى مر على قرية ؟) ما هذه القرية التى مر عليها وهى خاوية على عروشها ؟ إن القرآن لم يفصح عنهما شيئا ، ولو شاء الله لأفصح ، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله فى القرآن . فلنقف نحن – على طريقتنا فى هذه الظلال – عند تلك الظلال . إن المشهد ليرتسم للحس قويا موحيا . مشهد الموت والبلى والخواء . . يرتسم بالوصف (وهى خاوية على عروشها) محطمة على قواعدها . ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذى مر على القرية . هذه المشاعر التى ينضح بها تعبيره (أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) كيف تدب الحياة فى هذا الموات ؟ إن القائل ليعرف أن الله هناك . ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف فى حسه جعله يحار كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟ وهكذا يلقى التعبير القرآنى ظلاله وإيحاءاته ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر (فأماته الله مائة عام . ثم بعثه) لم يقل له كيف . إنما أراه فى عالم الواقع كيف ! فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانا من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلى ، ولا حتى بالمنطق الوجدانى ؛ ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان . . إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، التى يمتلىء بها الحس ، ويطمئن بها القلب ، دون كلام ! (قال:كم لبثت ؟ قال:لبثت يوما أو بعض يوم !) وما يدريه كم لبث والإحساس بالزمن لا يكون إلا مع الحياة والوعى ؟ على أن الحس الإنسانى ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة ، فهو يخدع ويضل ، فيرى الزمن الطويل المديد قصيرا لملابسة طارئة ، كما يرى اللحظة الصغيرة دهرا طويلا لملابسة طارئة كذلك ! (قال:بل لبثت مائة عام) وتبعا لطبيعة التجربة ، وكونها تجربة حسية واقعية ، نتصور أنه لا بد كانت هنالك آثار محسوسة تصور فعل مائة عام . . هذه الآثار المحسوسة لم تكن فى طعام الرجل ولا شرابه , فلم يكونا آسنين متعفنين (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) فلا بد أن هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة فى شخصه أو فى حماره (وانظر إلى حمارك – ولنجعلك آية للناس – وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) أية عظام ؟ عظامه هو ؟ لو كان الأمر كذلك – كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هى التى تعرت من اللحم – للفت هذا نظره عندما استيقظ ، ووخز حسه كذلك ، ولما كانت إجابته (لبثت يوما أو بعض يوم) لذلك نرجح أن الحمار هو الذى تعرت عظامه وتفسخت . ثم كانت الآية هى ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة ، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى ، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن . ليكون هذا التباين فى المصائر والجميع فى مكان واحد ، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة ، آية أخرى على القدرة التى لا يعجزها شىء ، والتى تتصرف مطلقة من كل قيد ؛ وليدرك الرجل كيف يحيى هذه الله بعد موتها ! أما كيف وقعت الخارقة ؟ فكما تقع كل خارقة ! كما وقعت خارقة الحياة الأولى . الخارقة التى ننسى كثيرا أنها وقعت ، وأننا لا ندرى كيف وقعت ! ولا ندرى كذلك كيف جاءت إلا أنها جاءت من عند الله بالطريق التى أرادها الله . . وهذا "دارون" أكبر علماء الحياة يظل ينزل فى نظريته بالحياة درجة درجة ، ويتعمق أغوارها قاعا قاعا ، حتى يردها إلى الخلية الأولى . . ثم يقف بها هناك . إنه يجهل مصدر الحياة فى هذه الخلية الأولى . ولكنه لا يريد أن يسلم بما ينبغى أن يسلم به الإدراك البشرى ، والذى يلح على المنطق الفطرى إلحاحا شديدا . وهو أنه لا بد من واهب وهب الحياة لهذه الخلية الأولى . لا يريد أن يسلم لأسباب ليست علمية وإنما هى تاريخية فى صراعه مع الكنيسة ! فإذا به يقول :"أن تفسير شؤون الحياة بوجود خالق يكون بمثابة ادخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت ! " أى وضع ميكانيكى ! إن الميكانيكية هى أبعد شىء عن هذا الأمر الذى يفرض على الإدراك فرضا أن يبحث عن مصدر لهذا السر القائم تجاه الأبصار والبصائر ! وكذلك تمضى هذه التجربة ، فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد ، وتقرر – إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله – حقيقة أخرى

هي. حقيقة طلاقة المشيئة ، فالله فعال لما يريد . وهكذا قال الرجل الذى مرت به التجربة (فلما تبين له ، قال:أعلم أن الله على كل شيء قدير). .

ثم تجيء التجربة الثالثة . تجربة إبراهيم أقرب الأنبياء إلى أصحاب هذا القرآن، إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية . وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم ، المؤمن الراضى الخاشع. فإنه يكشف عما يختلج أحيانا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية فى قلوب أقرب المقربين

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) {٢٦٠}

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ؛ وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان . . إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخر . . إنه أمر الشوق الروحى ، إلى ملابسة السر الإلهى ، فى أثناء وقوعه العملى . ومذاق هذه التجربة فى الكيان البشرى مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل ، الذى يقول لربه ، ويقول له ربه . وليس وراء هذا إيمان ، ولا برهان للإيمان . ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهى تعمل ؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس فى جوها ، ويعيش معها . . وهى أمر آخر غير الإيمان الذى ليس بعده إيمان ، لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ، ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله . ولكنه سؤال الكشف والبيان ، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه ، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم ، مع عبده الأواه الحليم المنيب ! ولقد استجاب الله لهذ الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم ، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة (قال:فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ؛ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ؛ ثم ادعهن يأتينك سعيا . واعلم أن الله عزيز حكيم). . لقد أمره أن يختار أربعة من الطير ، فيقربهن منه ويميلهن إليه ، حتى يتأكد من مميزاتهن التى لا يخطىء معها معرفتهن . وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن ، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة . ثم يدعوهن . فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى ، وترتد إليهن الحياة ، ويعدن إليه ساعيات . . وقد كان طبعا ، ورأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه. وهو السر الذى يقع فى كل لحظة . ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه . إنه سر هبة الحياة . الحياة التى جاءت أول مرة بعد أن لم تكن ؛ والتى تنشأ مرات لا حصر لها فى كل حى جديد . هذا هو السر الذى يعلو على التكوين البشرى إدراكه . إنه قد يراه كما رآه إبراهيم . وقد يصدق به كما يصدق به كل مؤمن . ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته . إنه من أمر الله . والناس لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه ، لأنه أكبر منهم ، وطبيعته غير طبيعتهم . ولا حاجة لهم به فى خلافتهم .

و فى آخر السورة يتعرض السياق لإقامة قواعد النظام الاقتصادى الاجتماعى الذى يريد الإسلام أن يقوم عليها المجتمع المسلم ؛ وأن تنظم بها حياة الجماعة المسلمة . إنه نظام التكافل والتعاون الممثل فى الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع . وليس النظام الربوى الذى كان سائدا فى الجاهلية . ومن ثم يتحدث عن آداب الصدقة . ويلعن الربا ، نجد الحديث عن تكليف البذل والإنفاق ، ودستور الصدقة والتكافل كان هناك من يضن بالمال . فلا يعطيه إلا بالربا . وكان هناك من ينفقه كارها أو مرائيا . وكان هناك من يتبع النفقة بالمن والأذى . وكان هناك من يقدم الردىء من ماله ويحتجز الجيد . . وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين فى سبيل الله مخلصين له ، الذين يجودون بخير أموالهم ، وينفقون سرا فى موضع السر وعلانية فى موضع العلانية فى تجرد وإخلاص ونقاء . . كان هؤلاء وكان أولئك فى الجماعة المسلمة حينذاك . وإدراك هذه الحقيقة يفيدنا فوائد كثيرة ،

يفيدنا فى إدراك طبيعة هذا القرآن ووظيفته . فهو كائن حى متحرك . ونحن نراه فى ظل هذه الوقائع يعمل ويتحرك فى وسط الجماعة المسلمة ؛ ويواجه حالات واقعة فيدفع هذه ويقر هذه ؛ ويدفع الجماعة المسلمة ويوجهها . فهو فى عمل دائب ، وفى حركة دائبة . . إنه فى ميدان المعركة وفى ميدان الحياة . . وهو العنصر الدافع المحرك الموجه فى الميدان !

ويفيدنا ثانيا فى رؤية حقيقة الطبيعة البشرية الثابتة المطردة تجاه دعوة الإيمان وتكاليفها . رؤيتها رؤية واقعية من خلال الواقع الذى تشير إليه الآيات القرآنية فى حياة الجماعة المسلمة الأولى . . فهذه الجماعة التى كان يتنزل عليها القرآن ، ويتعهدها رسول الله ﷺ كان فيها بعض الضعف والنقص ، وإدراك هذه الحقيقية ينفعنا لأنه يرينا حقيقة الجماعات البشرية بلا غلو ولا مبالغة ولا هالات ولا تصورات مجنحة ! وينفعنا لأنه يدفع عن نفوسنا اليأس من أنفسنا حين نرى أننا لم نبلغ تلك الآفاق التى يرسمها الإسلام ويدعو الناس إلى بلوغها . فيكفى أن نكون فى الطريق ، وأن تكون محاولتنا مستمرة ومخلصة للوصول . . وينفعنا فى إدراك حقيقة أخرى:وهى أن الدعوة إلى الكمال يجب أن تلاحق الناس ، ولا تفتر ولا تنى ولا تيئس إذا ظهرت بعض النقائص والعيوب . فالنفوس هكذا . وهى ترتفع رويدا رويدا بمتابعة الهتاف لها بالواجب ، ودعوتها إلى الكمال المنشود ، وتذكيرها الدائم بالخير.

ويفيدنا ثالثا فى الاستقرار إلى هذه الحقيقة البسيطة التى كثيرا ما نغفل عنها وننساها:وهى أن الناس هم الناس ؛ والدعوة هى الدعوة ؛ والمعركة هى المعركة . . إنها أولا وقبل كل شىء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص فى داخل النفس . ثم هى معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان فى واقع الحياة . والمعركة بطرفيها لا بد من خوضها . ولا بد للقائمين على الجماعة المسلمة فى الأرض من مواجهتها بطرفيها كما واجهها رسول الله ﷺ ولا بد من الأخطاء والعثرات . ولا بد من ظهور الضعف والنقص فى مراحل الطريق ؛ ولا بد من المضى أيضا فى علاج الضعف والنقص كلما أظهرتهما الأحداث والتجارب . ولا بد من توجيه القلوب إلى الله بالأساليب التى اتبعها القرآن فى التوجيه .

(مثل الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٢٦١} الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٢٦٢} قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ {٢٦٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {٢٦٤} وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {٢٦٥} أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ {٢٦٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {٢٦٧} الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٢٦٨} يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {٢٦٩} وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {٢٧٠} إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {٢٧١} لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ {٢٧٢} لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ {٢٧٣} الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٢٧٤}

إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف ؛ إنما يبدأ بالحض والتأليف . . إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية فى الكيان الإنسانى كله . . إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة:صورة الزرع . هبة الأرض أو هبة الله . الزرع الذى يعطى أضعاف ما يأخذه ، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره . يعرض هذه الصورة (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء . والله واسع عليم) إن المعنى الذهنى للتعبير ينتهى إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة ! أما المشهد الحى الذى يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل ؛ مشهد الطبيعة الحية . ثم مشهد العجيبة فى عالم النبات العود الذى يحمل سبع سنابل . والسنبلة التى تحوى مائة حبة ! وفى موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشرى إلى البذل والعطاء . إنه لا يعطى بل يأخذ ؛ وإنه لا ينقص بل يزاد . . وتمضى موجة العطاء والنماء فى طريقها . إن الله يضاعف لمن يشاء . يضاعف بلا عدة ولا حساب . يضاعف من رزقه الذى لا يعلم أحد حدوده ؛ ومن رحمته التى لا يعرف أحد مداها (والله واسع عليم) واسع . . لا يضيق عطاؤه ولا يكف ولا ينضب . عليم . . يعلم بالنوايا ويثبت عليها , ولا تخفى عليه خافية . ولكن أى إنفاق هذا الذى ينمو ويربو ؟ وأى عطاء هذا الذى يضاعفه الله فى الدنيا والآخرة لمن يشاء ؟ إنه الإنفاق الذى يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها . الإنفاق الذى لا يؤذى كرامة ولا يخدش شعورا . الإنفاق الذى ينبعث عن أريحية ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والمن عنصر كريه لئيم ، وشعور خسيس واط . فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة فى الاستعلاءالكاذب , أو رغبة فى إذلال الآخذ ، أو رغبة فى لفت أنظار الناس . فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء . . وكلها مشاعر لا تجيش فى قلب طيب ، ولا تخطر كذلك فى قلب مؤمن . . فالمن – من ثم – يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء . أذى للواهب بما يثير فى نفسه من كبر وخيلاء ؛ ورغبة فى رؤية أخيه ذليلا له كسيرا لديه ؛ وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله . . وأذى للآخذ بما يثير فى نفسه من انكسار وانهزام ، ومن رد فعل بالحقد والانتقام ، وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة وتلافى الحاجة . . كلا ! إنما أراده تهذيبا وتزكية وتطهيرا لنفس المعطى ؛ واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير فى الله وفى الإنسانية (وبعض الباحثين النفسيين فى هذه الأيام يقررون أن رد الفعل الطبيعى فى النفس البشرية للإحسان هو العداء فى يوم من الأيام ! وهم يعللون هذا بأن الآخذ يحس بالنقص والضعف أمام المعطى ؛ ويظل هذا الشعور يحز فى نفسه ؛ فيحاول الاستعلاء عليه بالتجهم لصاحب الفضل عليه واضمار العداوة له ؛ لأنه يشعر دائما بضعفه ونقصه تجاهه ؛ ولأن المعطى يريد منه دائما أن يشعر بأنه صاحب الفضل عليه ! وهو الشعور الذى يزيد من ألم صاحبه حتى يتحول إلى عداء ! وقد يكون هذ كله صحيحا فى المجتمعات الجاهلية – وهى المجتمعات التى لا تسودها روح الإسلام ولا يحكمها الإسلام – أما هذا الدين فقد عالج المشكلة على نحو آخر . عالجها بأن يقرر فى النفوس أن المال مال الله ؛ وأن الرزق الذى فى أيدى الواجدين هو رزق الله . . وهى الحقيقة التى لا يجادل فيها إلا جاهل بأسباب الرزق البعيدة والقريبة , وكلها منحة من الله لا يقدر الإنسان منها على شىء . وحبة القمح الواحدة قد اشتركت فى إيجادها قوى وطاقات كونية من الشمس إلى الأرض إلى الماء إلى الهواء . وكلها ليست فى مقدور الإنسان . . وقس على حبة القمح نقطة الماء وخيط الكساء وسائر الأشياء . . فإذا أعطى الواجد من ماله شيئا فإنما من مال الله أعطى ؛ وإذا أسلف حسنة فإنما هى قرض لله يضاعفه له أضعافا كثيرة . (ولا خوف عليهم) من فقر ولا من حقد ولا من غبن (ولا هم يحزنون) على ما أنفقوا فى الدنيا ، ولا على مصيرهم فى الآخرة ، وتوكيدا للمعنى الذى سلف من حكمة الإنفاق والبذل ، لأن الغرض هو تهذيب النفوس , وترضية القلوب , وربط الواهب والآخذ برباط الحب فى الله . . يقول فى الآية التالية (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) (٢٦٣) فيقرر أن الصدقة التى يتبعها الأذى لا ضرورة لها ! وأولى منها كلمة طيبة وشعور سمح . كلمة طيبة تضمد جراح القلوب ، وتفعمها بالرضى والبشاشة . ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة ، ولأن الصدقة ليست تفضلا من المانح على الآخذ ، إنما هى قرض لله . . عقب على هذا بقوله (والله غنى حليم) غنى عن الصدقة المؤذية . حليم يعطى عباده الرزق فلا يشكرون ، فلا يعجلهم بالعقاب ولا يبادرهم بالإيذاء و عندما يصل التأثر الوجدانى غايته بهذا وذاك ، يتوجه بالخطاب إلى الذين آمنوا ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى . ويرسم لهم مشهدين عجيبين يتسقان مع المشهد الأول . مشهد الزرع والنماء . ويصوران طبيعة الإنفاق الخالص لله ، والإنفاق المشوب بالمن والأذى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة . أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ؛ فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ

صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٢٦٥)

هذا هو المشهد الأول . . مشهد كامل مؤلف من منظرين متقابلين شكلا ووضعا وثمرة . وفي كل منظر جزئيات ، يتسق بعضها مع بعض من ناحية فن الرسم وفن العرض ؛ ويتسق كذلك مع ما يمثله من المشاعر والمعانى التى رسم المنظر كله لتمثيلها وتشخيصها وإحيائها (كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر). . فهو لا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته . ولكنه يغطى هذه الصلادة بغشاء من الرياء ، هذا القلب الصلد المغشى بالرياء يمثله (صفوان عليه تراب) أى حجر لا خصب فيه ولا ليونة , يغطيه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين ، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالى من الإيمان (فأصابه وابل فتركه صلدا) وذهب المطر الغزير بالتراب القليل ! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته ، ولم ينبت زرعه , ولم يثمر ثمرة . . كذلك القلب الذى أنفق ماله رئاء الناس ، فلم يثمر خيرا ولم يعقب مثوبة !

أما المنظر الثانى المقابل له فى المشهد . . فقلب عامر بالإيمان ، ندى ببشاشته . ينفق ماله (ابتغاء مرضاة الله). . وينفقه عن ثقة ثابتة فى الخير ، نابعة من الإيمان , عميقة الجذور فى الضمير .. والقلب المؤمن تمثله جنة خصبة عميقة التربة ، جنة تقوم على ربوة فى مقابل الحجر الذى تقوم عليه حفنة التراب ! ليكون المنظر متناسق الأشكال ! فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتربة الخصبة هنا كما ذهب بغشاء التراب هناك . بل أحياها وأخصبها ونماها . . (أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين) أحياها كما تحيى الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلة بالله ، ويزكو ماله كذلك ويضاعف له الله ما يشاء . وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو (فإن لم يصبها وابل) غزير (فطل) من الرذاذ يكفى فى التربة الخصبة ويكفى منه القليل ! ولما كان المشهد مجالا للبصر والبصيرة من جانب ، ومرد الأمر فيه كذلك إلى رؤية الله ومعرفته بما وراء الظواهر ، جاء التعقيب لمسة للقلوب (والله بما تعملون بصير)

فأما المشهد الثانى فتمثيل لنهاية المن والأذى ، كيف يمحق آثار الصدقة محقا فى وقت لا يملك صاحبها قوة ولا عونا ، ولا يستطيع لذلك المحق ردا . تمثيل لهذه النهاية البائسة فى صورة موحية عنيفة الإيحاء . كل ما فيها عاصف بعد أمن ورخاء (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)٢٦٦ هذه الصدقة فى أصلها وفى آثارها تمثل فى عالم المحسوسات ، إنها ظليلة وارفة مخصبة مثمرة . . وكذلك الصدقة فى طبيعتها وفى آثارها . . كذلك هى فى حياة المعطى وفى حياة الآخذ وفى حياة الجماعة الإنسانية فمن ذا الذى يود أن تكون له هذه الجنة – أو هذه الحسنة – ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقا ، كما يمحق الجنة الإعصار فيه نار ومتى ؟ فى أشد ساعاته عجزا عن إنقاذها ، وحاجة إلى ظلها ونعمائها ! (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء . فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت). . من ذا الذى يود هذا ؟ ومن ذا الذى يفكر فى ذلك المصير ثم لا يتقيه (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)

ويمضى السياق خطوة أخرى فى دستور الصدقة . ليبين نوعها وطريقتها ، بعد ما بين آدابها وثمارها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) وهو نداء عام للذين آمنوا ، يشمل جميع الأموال التى تصل إلى أيديهم . تشمل ما كسبته أيديهم من حلال طيب ، وما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبترول . ومن ثم يستوعب النص جميع أنواع المال ، ما كان معهودا على عهد النبى ﷺ وما يستجد ، ومن ثم جاء هذا التعقيب (واعلموا أن الله غنى حميد) غنى عن عطاء الناس إطلاقا . فإذا بذلوه فإنما يبذلونه لأنفسهم فليبذلوه طيبا ، وليبذلوه طيبة به نفوسهم كذلك ، حميد . . يتقبل الطيبات ويحمدها ويجزى عليها بالحسنى ، ولما كان الكف عن الإنفاق ، أو التقدم بالردىء الخبيث ، إنما ينشأ عن دوافع السوء , وعن تزعزع اليقين فيما عند الله ، وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفسا تتصل بالله ، وتعتمد عليه ، وتدرك أن مرد ما عندها إليه . . كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية ، وليعرفوا من أين تنبت النفوس ؛ وما الذى يثيرها فى القلوب . . إنه الشيطان (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) ٢٧٠ الشيطان يخوفكم الفقر ، فيثير فى نفوسكم الحرص والشح والتكالب . والشيطان يأمركم بالفحشاء - والفحشاء كل معصية تفحش أى تتجاوز الحد ، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصى ولكنها شاملة . وخوف الفقر كان يدعو القوم فى جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة ; والحرص على جمع الثروة كان يؤدى ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة . . على أن خوف الفقر بسبب الإنفاق فى سبيل الله فى ذاته فاحشة ، وحين يعدكم الشيطان الفقر ويأمركم بالفحشاء يعدكم الله المغفرة والعطاء (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) ويقدم المغفرة ، ويؤخر الفضل ، فالفضل زيادة فوق المغفرة . وهو يشمل كذلك عطاء الرزق فى هذه الأرض ، جزاء البذل فى سبيل الله والإنفاق (والله واسع عليم). . يعطى عن سعة ، ويعلم ما يوسوس فى الصدور ، وما يهجس فى الضمير ، والله لا يعطى المال وحده ، ولا يعطى المغفرة وحدها . إنما يعطى(الحكمة) وهى توخى القصد والاعتدال , وإدراك العلل والغايات ، ووضع الأمور فى نصابها فى تبصر وروية وإدراك (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) أوتى القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود ؛ وأوتى إدراك العلل والغايات فلا يضل فى تقدير الأمور ؛ وأوتى البصيرة المستنيرة التى تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال . . وذلك خير كثير (وما يذكر إلا أولوا الألباب). . فصاحب اللب – وهو العقل – هو الذى يتذكر فلا ينسى ، ويتنبه فلا يغفل ، ويعتبر فلا يلج فى الضلال . . وهذه وظيفة العقل . . وظيفته أن يذكر موحيات الهدى ودلائله ؛ وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهيا غافلا .

هذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، فهي معقودة بمشيئة الله سبحانه، وفي الوقت ذاته يقرر القرآن حقيقة أخرى:أن من أراد الهداية وسعى لها سعيها وجاهد فيها فإن الله لا يحرمه منها ، بل يعينه عليها:(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين). ليطمئن كل من يتجه إلى هدى الله أن مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيهالحكمة , وتمنحه ذلك الخير الكثير .

بعد ذلك نعود مع السياق إلى الصدقة ، إن الله يعلم كل ما ينفقه المنفق ، صدقة كان أم نذرا . وسرا كان أم جهرا . ومن مقتضى علمه أنه يجزى على الفعل وما وراءه من النية (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه . وما للظالمين من أنصار . إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ؛ ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير) والنفقة تشمل سائر ما يخرجه صاحب المال من ماله ، زكاة أو صدقة أو تطوعا بالمال في جهاد . . والنذر نوع من أنواع النفقة يوجبه المنفق على نفسه مقدرا بقدر معلوم . والنذر لا يكون لغير الله) (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه). وشعور المؤمن بأن الله – سبحانه – مطلع على نيته وضميره ، وعلى حركته وعمله . . يثير في حسه مشاعر حية متنوعة ؛ شعور التقوى والتحرج أن يهجس في خاطره هاجس رياء أو تظاهر , وهاجس شح أو بخل ، وهاجس خوف من الفقر أو الغبن ، فأما الذى لا يقوم بحق النعمة ؛ والذى لا يؤدى الحق لله ولعباده ؛ والذى يمنع الخير بعد ما أعطاه الله إياه . . فهو ظالم . ظالم للعهد ، وظالم للناس ، وظالم لنفسه (وما للظالمين من أنصار) وإخفاء الصدقة حين تكون تطوعا أولى وأحب إلى الله ؛ وأجدر أن تبرأ من شوائب التظاهر والرياء . فأما حين تكون أداء للفريضة فإن إظهارها فيه معنى الطاعة ، وفشو هذا المعنى وظهوره خير . . ومن ثم تقول الآية (إن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) فتشمل هاتين الحالتين وتعطى كل حالة ما يناسبها من التصرف ؛ وتحمد هذه في موضعها وتلك في موضعها ; وتعد المؤمنين على هذه وتلك تكفير السيئات (ويكفر عنكم من سيئاتكم) وتستجيش في قلوبهم التقوى والتحرج من جانب ، والطمأنينة والراحة من جانب آخر ، وتصلها بالله في النية والعمل في جميع الأحوال (والله بما تعملون خبير). .

ومن ثم لفتة من خطاب الذين آمنوا إلى خطاب الرسول ﷺ لفتة لتقرير جملة حقائق كبيرة , ذات أثر عميق في إقامة التصور الإسلامي على قواعده ، وفي استقامة السلوك الإسلامي على طريقه روى ابن أبى حاتم – بإسناده – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية: ليس عليك هداهم . . إلى آخرها. . فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين ، إن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله – ولو كان هو رسول الله ﷺ إنه من أمر الله وحده . فهذه القلوب من صنعه ؛ ولا يحكمها غيره ، ولا يصرفها سواه ، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله . وما على الرسول إلا البلاغ . فأما الهدى فهو بيد الله ، يعطيه من يشاء ، ممن يعلم – سبحانه – أنه يستحق الهدى ، ويسعى إليه . وإخراج هذا الأمر من اختصاص البشر يقرر الحقيقة التي لا بد أن تستقر في حس المسلم ليتوجه في طلب الهدى إلى الله وحده ، وليتلقى دلائل الهدى من الله وحده (لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٢) فلتفسح لهم صدرك ، ولتفض عليهم سماحتك ، ولتبذل لهم الخير والعون ما احتاجوا إليه منك . وأمرهم إلى الله . وجزاء المنفق عند الله ، ومن هنا نطلع على بعض الآفاق السامية السمحة الوضيئة التي يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها ، ويروضهم عليها . إنه يقرر حق المحتاجين جميعا في أن ينالوا العون والمساعدة – ما داموا في غير حالة حرب مع الجماعة المسلمة – دون نظر إلى عقيدتهم . ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله على كل حال ، ما دام الإنفاق ابتغاء وجه الله . وهي وثبة بالبشرية لا ينهض بها إلا الإسلام ؛ ولا يعرفها على حقيقتها إلا أهل الإسلام (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله . وما تنفقوا من خير يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون) ثم يخص بالذكر مصرفا من مصارف الصدقة ؛ ويعرض صورة شفة عفة كريمة نبيلة ، لطائفة من المؤمنين . صورة تستجيش المشاعر ، وتحرك القلوب لإدراك نفوس أبية بالمدد فلا تهون , وبالإسعاف فلا تضام ، وهي تأنف السؤال وتأبى الكلام (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، لا يستطيعون ضربا في الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) لقد كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين ، تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم ; وأقاموا في المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله ، وحراسة رسول الله ﷺ كأهل الصفة الذين كانوا بالمسجد حرسا لبيوت الرسول ﷺلا يخلص إليها من دونهم عدو . وأحصروا في الجهاد لا يستطيعون ضربا في الأرض للتجارة والكسب . وهم مع هذا لا يسألون الناس شيئا . متجملون يحسبهم من يجهل حالهم أغنياء لتعففهم عن إظهار الحاجة ؛ ولا يفطن إلى حقيقة حالهم إلا ذوو الفراسة ولكن النص عام ، ينطبق على سواهم في جميع الأزمان . ينطبق على الكرام المعوزين ، الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب قهرا ، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون . إنهم يتجملون كي لا تظهر حاجتهم ؛ يحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء في تعففهم , ولكن ذا الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ما وراء التجمل . فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم وهم يدارونها في حياء (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) إنها صورة عميقة الإيحاء تلك التي يرسمها النص القصير لذلك النموذج الكريم . وهي صورة كاملة ترتسم على استحياء ! وكل جملة تكاد تكون لمسة ريشة ، ترسم الملامح والسمات ، وتشخص المشاعر والانفعالات . وما يكاد الإنسان يتم قراءتها حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها نابضة حية ! هؤلاء الفقراء الكرام الذين يكتمون الحاجة كأنما يغطون العورة . . لن يكون إعطاؤهم إلا سرا وفي تلطف لا يخدش آباءهم ولا يجرح كرامتهم . . ومن ثم كان التعقيب موحيا بإخفاء الصدقة وإسرارها ، مطمئنا لأصحابها على علم الله بها وجزائه عليها (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) وأخيرا يختم دستور الصدقة في هذا الدرس بنص عام يشمل كل طرائق الإنفاق ، وكل أوقات الإنفاق ؛ وبحكم عام يشمل كل منفق لوجه الله (الذين ينفقون أموالهم بالليل

والنهار ، سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال (بالليل والنهار . سرا وعلانية) لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات (فلهم أجرهم عند ربهم) هكذا إطلاقا . من مضاعفة المال . وبركة العمر . وجزاء الآخرة . ورضوان الله (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لا خوف من أى مخوف ، ولا حزن من أى محزن . . فى الدنيا وفى الآخرة سواء . .

وبعد فإن الإسلام لا يقيم حياة أهله على العطاء . فإن نظامه كله يقوم أولا على تيسير العمل والرزق لكل قادر ؛ وعلى حسن توزيع الثروة بين أهله بإقامة هذا التوزيع على الحق والعدل بين الجهد والجزاء . . ولكن هنالك حالات تتخلف لأسباب استثنائية وهذه هى التى يعالجها بالصدقة . . مرة فى صورة فريضة تجبيها الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الله كلها وهى وحدها صاحبة الحق فى جبايتها ، وهى مورد هام من موارد المالية العامة للدولة المسلمة . ومرة فى صورة تطوع غير محدود يؤديه القادرون للمحتاجين رأسا . مع مراعاة الآداب التى سبق بيانها . وبضمانة تعفف الاخذين ، روى البخارى - بإسناده - عن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبى عمرة . قالا:سمعنا أبا هريرة يقول:قال رسول الله: ﷺ (ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف . . اقرأوا إن شئتم يعنى قوله (لا يسألون الناس إلحافا). .

الوجه الآخر المقابل للصدقة التى عرض دستورها فى الآيات السابقة هو الربا ... الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل . . والربا شح ، وقذارة ودنس ، وأثرة وفردية ، والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذى استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئا ، لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود ! عرضه عرضا منفرا ، يكشف عما فى عملية الربا من قبح وشناعة . ومن جفاف فى القلب وشر فى المجتمع ، وفساد فى الأرض وهلاك للعباد ، ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . ولا بلغ من التهديد فى اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد فى أمر الربا - فى هذه الآيات وفى غيرها فى مواضع أخرى - ولله الحكمة البالغة . فلقد كانت للربا فى الجاهلية مفاسده وشروره . ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية فى مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت فى عالمنا الحاضر ، ولا كانت البشور والدمامل فى ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم فى مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية فى هذه الآيات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع فى حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة فى الجاهلية الأولى . ويدرك - من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام - يدرك اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وامامه اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا . والبشرية الضالة التى تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوى ، فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها . وتتلقى - حقا - حربا من الله تصب عليها النقمة والعذاب . . أفرادا وجماعات ، وأمما وشعوبا ، وهى لا تعتبر ولا تفيق !

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٧٥} يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ {٢٧٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٢٧٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ {٢٧٩} وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٢٨٠} وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ {٢٨١}

والكارثة التى تمت فى العصر الحديث - ولم تكن بهذه الصورة البشعة فى الجاهلية - هى أن هؤلاء المرابين - الذين كانوا يتمثلون فى الزمن الماضى فى صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن فى صورة مؤسسى المصارف العصرية - قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام فى الأرض كلها . . سواء فى ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها . . أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم فى ظل النظام الربوى . . هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعى المعقول ، والأساس الصحيح الذى لا أساس غيره للنمو الاقتصادى ؛ وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضارى فى الغرب . وأن الدين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين - غير العمليين - وأنهم إنما يعتمدون فى نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع ؛ وهى كفيلة بإفساد النظام الاقتصادى كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوى من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم فى حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمى نفسه . الذى تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجرى جريانا غير طبيعى ولا سوى . ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف عن أن يكون نافعا للبشرية كلها ، إلى أن يكون وقفا على حفنة من الذئاب قليلة ! إن النظام الربوى نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة - وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ؛ وهم قد نشأوا فى ظله ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التى تبثها عصابات المال فى كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق . وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة "دكتور شاخت" الألمانى ومدير بنك الرايخ الألمانى سابقا . وقد كان مما قاله فى محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ أنه (بعملية رياضية [غير متناهية] يتضح أن جميع المال فى الأرض صائر إلى عدد قليل جدا من المرابين . ذلك أن الدائن المرابى يربح دائما فى كل عملية ؛ بينما المدين معرض للربح والخسارة . ومن ثم فإن المال كله فى النهاية لا بد - بالحساب الرياضى - أن يصير إلى الذى يربح دائما ! وأن هذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الأرض الآن يملكه - ملكا حقيقيا - بضعة

الوف ! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك ، والعمال ، وغيرهم , فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجنى ثمرة كدهم أولئك الألوف . !)وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة . فإن قيام النظام الاقتصادى على الأساس الربوى يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابى يجتهد فى الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون فى التجارة والصناعة أنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدر عليهم ما يوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شىء . . عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم فى هذه المجالات التى تشتغل فيها الملايين ؛ وتضيق المصانع دائرة انتاجها , ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد , ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارا . فيقبل عليه العاملون فى الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء . . وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

ونحن هنا – فى ظلال القرآن – لا نستقصى كل عيوب النظام الربوى فهذا مجاله بحث مستقل — فنكتفى بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوى المقيت:

الحقيقة الأولى:– التى يجب أن تكون مستيقنة فى نفوسهم – أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوى فى مكان . وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا هو دجل وخداع . فأساس التصور الإسلامى – كما بينا – يصطدم اصطداما مباشرا بالنظام الربوى ، ونتائجه العملية فى حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم .

والحقيقة الثانية :أن النظام الربوى بلاء على الإنسانية – لا فى إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب – بل كذلك فى صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقا ، ويعطل نموها الإنسانى المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهرى الخداع ، الذى يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادى العام !

والحقيقة الثالثة:أن النظام الأخلاقى والنظام العملى فى الإسلام مترابطان تماما , وأن الإنسان فى كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن فى كل نشاط يقوم به فى حياته ، ومحاسب عليه فى آخرته . فليس هناك نظام أخلاقى وحده ونظام عملى وحده ، وإنما هما معا يؤلفان نشاط الإنسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن ، وإثم يؤاخذ عليه إن أساء . وأن الاقتصاد الإسلامى الناجح لا يقوم بغير أخلاق ، وأن الأخلاق ليست نافذة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية .

أن الإسلام – حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص - لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوى ، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعى السليم . ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه . ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة . وفى أول هذه المؤسسات والأجهزة:المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

و هناك حقيقة و هى ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلما ، بأن هناك استحالة اعتقادية فى أن يحرم الله أمرا لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه ! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك فى أن يكون هناك أمر خبيث ويكون فى الوقت ذاته حتميا لقيام الحياة وتقدمها . . فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة , وهو مستخلف الإنسان فيها ؛ وهو الأمر بتنميتها وترقيتها ؛ وهو المريد لهذا كله الموفق إليه

وما كان أى تهديد معنوى ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة . . صورة الممسوس المصروع . . وهى صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدى دورها الإيحائى فى إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم فى نظامهم الاقتصادى ؛ ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة . . وهى وسيلة فى التأثير التربوى ناجعة فى مواضعها . بينما هى فى الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة . . ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام فى هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث . ولكن هذه الصورة – فيما نرى - واقعة بذاتها فى حياة البشرية فى هذه الأرض أيضا . ثم إنها تتفق مع ما سيأتى بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله . ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التى تتخبط كالممسوس فى عقابيل النظام الربوى . وقبل أن نفصل القول فى مصداق هذه الحقيقة من واقع البشرية اليوم نبدأ بعرض الصورة الربوية التى كان يواجهها القرآن فى الجزيرة العربية ؛ وتصورات أهل الجاهلية عنها . . لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) إن الربا الذى كان معروفا فى الجاهلية والذى نزلت هذه الآيات وغيرها لإبطاله ابتداء كانت له صورتان رئيسيتان هما ربا النسيئة . وربا الفضل ، فأما ربا النسيئة فقد قال عنه قتادة (إن ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه) أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة . كبيع الذهب بالذهب . والدراهم بالدراهم . والقمح بالقمح . والشعير بالشعير . . وهكذا . . وقد ألحق هذا النوع بالربا لما فيه من شبه به ؛ ولما يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا . . وهذه النقطة شديدة الأهمية لنا فى الكلام عن العمليات الحاضرة ! فأما النوع الأول فالربا ظاهر فيه لا يحتاج إلى بيان ، إذ تتوافر فيه العناصر الأساسية لكل عملية ربوية . وهى:الزيادة على أصل المال . والأجل الذى من أجله تؤدى هذه الزيادة . وكون هذه الفائدة شرطا مضمونا فى التعاقد . أى ولادة المال للمال بسبب المدة ليس إلا ، وأما النوع الثانى ، فما لا شك فيه أن هناك فروقا أساسية فى الشيئين المتماثلين هى التى تقتضى الزيادة . وذلك واضح فى حادثة بلال حين أعطى صاعين من تمره الرديء وأخذ صاعا من التمر الجيد . . ولكن لأن تماثل النوعين فى الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية ، إذ يلد التمر التمر ! فقد وصفه ﷺ بالربا . ونهى عنه . وأمر ببيع الصنف المراد استبداله

بالنقد . ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضا . إبعادا لشبح الربا من العملية تماما ! وكذلك شرط القبض:"يدا بيد" . . كي لا يكون التأجيل فى بيع المثل بالمثل ، ولو من غير زيادة ، فيه شبح من الربا ، وعنصر من عناصره ! إلى هذا الحد بلغت حساسية الرسول ﷺ بشبح الربا فى أية عملية . وبلغت كذلك حكمته فى علاج عقلية الربا التى كانت سائدة فى الجاهلية . فأما اليوم فيريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا – ربا النسيئة – بالاستناد إلى حديث أسامة ، وإلى وصف السلف للعمليات الربوية فى الجاهلية . وأن يحلوا - دينيا – وباسم الإسلام ! – الصور الأخرى المستحدثة التى لا تنطبق فى حرفية منها على ربا الجاهلية ! ولكن هذه المحاولة لا تزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية . . فالإسلام ليس نظام شكليات . إنما هو نظام يقوم على تصور أصيل . فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة . إنما كان يناهض تصورا يخالف تصوره ؛ ويحارب عقلية لا تتمشى مع عقليته . وكان شديد الحساسية فى هذا إلى حد تحريم ربا الفضل إبعادا لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جدا ! ومن ثم فإن كل عملية ربوية حرام . سواء جاءت فى الصور التى عرفتها الجاهلية أم استحدثت لها أشكال جديدة . ما دامت تتضمن العناصر الأساسية للعملية الربوية ، أو تتسم بسمة العقلية الربوية . . وهى عقلية الأثرة والجشع والفردية والمقامرة . وما دام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث . شعور الحصول على الربح بأية وسيلة ! فينبغى أن نعرف هذه الحقيقة جيدا . ونستيقن من الحرب المعلنة من الله ورسوله على المجتمع الربوى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم – وإن كانوا هم أول المهددين بهذا النص الرعيب – إنما هم أهل المجتمع الربوى كلهم ، عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – أنه قال: (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله , وشاهديه وكاتبه ، وقال:" هم سواء) وكان هذا فى العمليات الربوية الفردية . فأما فى المجتمع الذى يقوم كله على الأساس الربوى فأهله كلهم ملعونون . معرضون لحرب الله . مطرودون من رحمته بلا جدال ، إنهم لا يقومون فى الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذى لا ينال استقرارا ولا طمأنينة ولا راحة ، إن العالم الذى نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف ; والأمراض العصبية والنفسية – باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه , وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية . . وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعى فى مجموعه من الضخامة فى هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادى التى تأخذ بالأبصار!. وما قيمة هذا كله إذا لم ينشىء فى النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة ؟ السبب الرئيسى طبعا هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة - على كل ما لديها من الرخاء المادى – من زاد الروح . . من الإيمان . . من الاطمئنان إلى الله . . وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التى ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه . ويتفرع من ذلك السبب الرئيسى الكبير . . بلاء الربا . . بلاء الاقتصاد الذى ينمو ولكنه لا ينمو سويا معتدلا بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . إنما ينمو مائلا جانحا إلى حفنة الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة فى المصارف , يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة ؛ ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير فى طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التى يسعد بها الجميع ; والتى تكفل عملا منتظما ورزقا مضمونا للجميع ; والتى تهىء طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع . . ولكن هدفه هو انتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح – ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف فى حياة البشرية جميعا ! ولقد اعترض المرابون فى عهد رسول الله ﷺ على تحريم الربا . اعترضوا بأنه ليس هناك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية (ذلك بأنهم قالوا:إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا) وكانت الشبهة التى ركنوا إليها ، هى أن البيع يحقق فائدة وربحا ، كما أن الربا يحقق فائدة وربحا . . وهى شبهة واهية . فالعمليات التجارية قابلة للربح وللخسارة . والمهارة الشخصية والجهد الشخصى والظروف الطبيعية الجارية فى الحياة هى التى تتحكم فى الربح والخسارة . أما العمليات الربوية فهى محددة الربح فى كل حالة . وهذا هو الفارق الرئيسى . وهذا هو مناط التحريم والتحليل ، إن كل عملية يضمن فيها الربح على أى وضع هى عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديده . . ولا مجال للمماحلة فى هذا ولا للمداورة ! (وأحل الله البيع وحرم الربا) لانتفاء هذا العنصر من البيع ؛ ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة فى أصلها نافعة للحياة البشرية ؛ وعمليات الربا فى أصلها مفسدة للحياة البشرية ، وقد عالج الإسلام الأوضاع التى كانت حاضرة فى ذلك الزمان معالجة واقعية ؛ دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله) لقد جعل سريان نظامه منذ ابتداء تشريعه . فمن سمع موعظة ربه فانتهى فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله ، يحكم فيه بما يراه (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وهذا التهديد بحقيقة العذاب فى الآخرة يقوى ملامح المنهج التربوى الذى أشرنا إليه , ويعمقه فى القلوب ؛ ولكن لعل كثيرين يغريهم طول الأمد ، وجهل الموعد ، فيبعدون من حسابهم حساب الآخرة هذا ! فها هو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالمحق فى الدنيا والآخرة جميعا ، ويقرر أن الصدقات – لا الربا – هى التى تربو وتزكو ؛ ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والإثم . ويلوح لهم بكره الله للكفرة الآثمين (يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

وصدق وعيد الله ووعده . فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة . . إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذى يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين – فى ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجا وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هى فى الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون – الممثلين فى الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع – وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع دائما إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها ، إلا بارك الله لأهله – أفرادا وجماعات – فى ما لهم ورزقهم , وفى صحتهم وقوتهم وفى طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم (والله لا يحب كل كفار أثيم) وهذا التعقيب هنا قاطع فى اعتبار من يصرون على التعامل الربوى – بعد تحريمه – من الكفار الآثمين ، الذين لا يحبهم الله . وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ، ولو قالوا بألسنتهم ألف

مرة:لا إله إلا الله . محمد رسول الله . فالإسلام ليس كلمة باللسان ؛ إنما هو نظام حياة ومنهج عمل ؛ وإنكار جزء منه كإنكار الكل . . وليس في حرمة الربا شبهة ؛ وليس في اعتباره حلالا وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم . . والعياذ بالله . . وفي الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم ، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا ونظامه , يعرض صفحة الإيمان والعمل الصالح (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم , ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والعنصر البارز في هذه الصفحة هو عنصر "الزكاة " . عنصر البذل بلا عوض ولا رد . والسياق يعرض بهذا صفة المؤمنين وقاعدة المجتمع المؤمن . ثم يعرض صورة الأمن والطمأنينة والرضى الإلهى المسبغ على هذا المجتمع المؤمن . إن الزكاة هى قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن ؛ الذى لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوى فى أى جانب من جوانب حياته .

وقد بهتت صورة "الزكاة " في حسنا وحس الأجيال التعيسة من الأمة الإسلامية التي لم تشهد نظام الإسلام مطبقا في عالم الواقع ؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ، ثم يقيم لها النظام الذى تتنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية . ويجعل "الزكاة " قاعدة هذا النظام، في مقابل نظام الجاهلية الذى يقوم على القاعدة الربوية . ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقى عن طريق الجهد الفردى , أو التعاون البرىء من الربا !

بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحسانا فرديا هزيلا ، لا ينهض على أساسه نظام عصرى ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهى تتناول اثنين ونصفا فى المائة من أصل رؤوس الأموال الأهلية مع ربحها ؟ يؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة ، ويربيهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذى يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه ! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقا مفروضا ، لا إحسانا فرديا . وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ; حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة فى كل حالة ؛ وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان دينا تجاريا أو غير تجارى ، من حصيلة الزكاة . وليس المهم هو شكلية النظام . إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذى يربيه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته ، متكامل مع التشريعات والتوجيهات ، إن الله – سبحانه – يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون , أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده . ويعدهم بالأمن فلا يخافون . وبالسعادة فلا يحزنون (لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفي الوقت الذى يوعد أكلة الربا والمجتمع الربوى بالمحق والسحق ، وبالتخبط والضلال , وبالقلق والخو وفي ظل هذا الرخاء الامن الذى يعد الله به الجماعة المسلمة ، التى تنبذ الربا من حياتها , فتنبذ الكفر والإثم ، وتقيم هذه الحياة على الإيمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة ، يهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوى الدنس المقيت ؛ وإلا فهى الحرب المعلنة من الله ورسوله , بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ{٢٧٩}إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقى من الربا . فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويذروا ما بقى من الربا . ليسوا بمؤمنين ولو اعلنوا أنهم مؤمنون . فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به . والنص القرآنى لا يدعهم فى شبهة من الأمر . ولا يدع إنسانا يتستر وراء كلمة الإيمان ، بينما هو لا يطيع ولا يرتضى ما شرع الله ، ولا ينفذه في حياته ، ولا يحكمه فى معاملاته . فالذين يفرقون فى الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين . مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون ! لقد ترك لهم ما سلف من الربا – لم يقرر استرداده منهم ، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزء منها بسبب أن الربا كان داخلا فيها . . إذ لا تحريم بغير نص . . ولا حكم بغير تشريع . . والتشريع ينفذ وينشىء آثاره بعد صدوره . . فأما الذى سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون . وبذلك تجنب الإسلام أحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريعه أثرا رجعيا . وهو المبدأ الذى أخذ به التشريع الحديث حديثا ! ذلك أن التشريع الإسلامى موضوع ليواجه حياة البشر الواقعية ، ويسيرها ، ويطهرها ، ويطلقها تنمو وترتفع معا ،فهذه صفحة الترغيب . . وإلى جوارها صفحة الترهيب الذى يزلزل القلوب (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) يا للهول ! حرب من الله ورسوله . . حرب تواجهها النفس البشرية . . حرب رهيبة معروفة المصير ، مقررة العاقبة . . فأين الإنسان الضعيف الفاني من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة ؟! (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ولقد أمر رسول الله ﷺ عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التى نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك إذا لم يكفوا عن التعامل الربوى . وقد أمر ﷺ فى خطبته يوم فتح مكة بوضع كل ربا فى الجاهلية – وأوله ربا عمه العباس – عن كاهل المدينين الذى ظلوا يحملونه إلى ما بعد الإسلام بفترة طويلة ، حتى نضج المجتمع المسلم , واستقرت قواعده ، وحان أن ينتقل نظامه الاقتصادى كله من قاعدة الربا الوبيئة . وقال ﷺ في هذه الخطبة ("وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين . وأول ربا أضع ربا العباس) . ولم يأمرهم برد الزيادات التى سبق لهم أخذها فى حالة الجاهلية . فالإمام مكلف – حين يقوم المجتمع الإسلامى – أن يحارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوى ، ويعتون عن أمر الله ، ولو اعلنوا أنهم مسلمون . كما حارب أبو بكر – رضى الله عنه – مانعى الزكاة ، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله , وإقامتهم للصلاة . فليس مسلما من يأبى طاعة شريعة الله ، ولا ينفذها فى واقع الحياة ! على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام . فهذه الحرب معلنة – كما قال أصدق القائلين – على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادى والاجتماعى . هذه الحرب معلنة فى صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهى حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء . وحرب على السعادة والطمأنينة . . حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض . حرب المطاردة والمشاكسة . حرب الغبن والظلم . حرب القلق والخوف . . وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول . الحرب الساحقة الماحقة التى تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوى المقيت . فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر . وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات . ثم تقع فيها الشعوب والحكومات . ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب ! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب ! أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم , فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع – إن لم يقع هذا كله – هو خراب

النفوس ، وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشرى من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبة ! لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى ، ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى المشرع الطاهر النظيف ، وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبىء (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم . لا تظلمون ولا تظلمون)

فهى التوبة عن خطيئة . إنها خطيئة الجاهلية التى لا تتعلق بزمان دون زمان , ولا نظام دون نظام . . إنما هى الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان . . خطيئة تنشىء آثارها فى مشاعر الأفراد وفى أخلاقهم وفى تصورهم للحياة . وتنشىء آثارها فى حياة الجماعة وارتباطاتها العامة ، ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين فى حالة الإعسار . . فليس السبيل هو ربا النسيئة:بالتأجيل مقابل الزيادة . . ولكنه هو الإنظار إلى ميسرة . والتحبيب فى التصدق به لمن يريد مزيدا من الخير أوفى وأعلى (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) إنها السماحة الندية التى يحملها الإسلام للبشرية . إنه الظل الظليل الذى تأوى إليه البشرية المتعبة فى هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار . إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع !

ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدى مفهوما "معقولا" فى عقول المناكيد الناشئين فى هجير الجاهلية المادية الحاضرة ! وأن مذاقها الحلو لا طعم له فى حسهم المتحجر البليد - ! وبخاصة وحوش المرابين سواء كانوا أفرادا قابعين فى زوايا الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم فى بعض الأحيان ، فلا يجدون فى هذا العالم المادى الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ؛ فيلجأون مرغمين إلى أوكار الوحوش . فرائس سهلة تسعى إلى الفخاخ بأقدامها . تدفعها الحاجة وتزجيها الضرورة ! سواء كانوا أفرادا هكذا أو كانوا فى صورة بيوت مالية ومصارف ربوية . فكلهم سواء . غير أن هؤلاء يجلسون فى المكاتب الفخمة على المقاعد المريحة ؛ ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية ، والمؤلفات العلمية ، والأساتذة والمعاهد والجامعات ، والتشريعات والقوانين ، والشرطة والمحاكم والجيوش . . كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتها , وأخذ من يجرؤ على التلكؤ فى رد الفائدة الربوية إلى خزائنهم باسم القانون !! . . نحن نعرف أن هذه الكلمات لا تصل إلى تلك القلوب . . ولكنا نعرف أنها الحق . ونثق أن سعادة البشرية مرهونة بالاستماع إليها والأخذ بها ، إن المعسر – فى الإسلام – لا يطارد من صاحب الدين ، أو من القانون والمحاكم . إنما ينظر حتى يوسر . . ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين . فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه – إن تطوع بهذا الخير . وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين . وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة . لو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر ! ذلك أن إبطال الربا يفقد شطرا كبيرا من حكمته إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين , ويضيق عليه الخناق . وهو معسر لا يملك السداد . فهنا كان الأمر – فى صورة شرط وجواب - بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء . وكان بجانبه التحبيب فى التصدق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار . على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظا من مصارف الزكاة ، ليؤدى دينه , وييسر حياته ، ثم يجىء التعقيب العميق الإيحاء ، الذى ترجف منه النفس المؤمنة ، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله ، ثم تمضى ناجية من الله يوم الحساب (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون) واليوم الذى يرجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير ، له فى القلب المؤمن وقع ؛ ومشهده حاضر فى ضمير المؤمن ، والوقوف بين يدى الله فى هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان ! وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات . جو الأخذ والعطاء . جو الكسب والجزاء . . إنه التصفية الكبرى للماضى جميعه بكل ما فيه ، إن التقوى هى الحارس القابع فى أعماق الضمير ؛ يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فرارا منه لأنه فى الأعماق هناك ! إنه الإسلام . . النظام القوى . . الحلم الندى الممثل فى واقع أرضى . . رحمة الله بالبشر . وتكريم الله للإنسان . والخير الذى تشرد عنه البشرية ؛ ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الإنسان !

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٢٨٢} وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) {٢٨٣}

هذه الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن تكملة للأحكام السابقة حول الصدقة والربا . فقد استبعد التعامل الربوى والديون الربوية والبيوع الربوية . . أما هنا فالحديث عن القرض الحسن بلا ربا ولا فائدة ، وعن المعاملات التجارية الحاضرة المبرأة من الربا ، وإن الإنسان ليقف فى عجب وفى إعجاب أمام التعبير التشريعى فى القرآن – حيث تتجلى الدقة العجيبة فى الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر . وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة فى الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته . وحيث يربط التشريع بالوجدان الدينى ربطا لطيف المدخل عميق الإيحاء قوى التأثير ، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية . وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة فى موقف طرفى التعاقد وموقف الشهود والكتاب ، فينفى هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها . وحيث لا ينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينها وبين نقطة جديدة يقتضى الإشارة إلى الرابطة بينهما ، إن الإعجاز فى صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز فى صياغة آيات الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضح وأقوى . لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ . ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفنى المطلق على هذا النحو الفريد ، ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامى بهذه المبادىء للتشريع المدنى والتجارى بحوالى عشرة قرون ، كما يعترف الفقهاء المحدثون ! (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) هذا هو المبدأ العام الذى يريد

تقريره . فالكتابة أمر مفروض بالنص ، غير متروك للاختيار في حالة الدين إلى أجل . لحكمة سيأتى بيانها فى نهاية النص (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) وهذا تعيين للشخص الذى يقوم بكتابة الدين فهو كاتب . وليس أحد المتعاقدين . وحكمة استدعاء ثالث – ليس أحد الطرفين فى التعاقد – هى الاحتياط والجيدة المطلقة . وهذا الكاتب مأمور أن يكتب بالعدل ، فلا يميل مع أحد الطرفين ، ولا ينقص أو يزيد فى النصوص (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) وهى وفاء لفضل الله عليه إذ علمه كيف يكتب (فليكتب) كما علمه الله ، وهنا ينتقل إلى فقرة تالية يبين فيها كيف يكتب (وليملل الذى عليه الحق . وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا . فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) إن المدين – الذى عليه الحق – هو الذى يملى على الكاتب اعترافه بالدين ، ومقدار الدين , وشرطه وأجله . . ذلك خيفة أن يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن ، فزاد فى الدين ، أو قرب الأجل ، أو ذكر شروطا معينة فى مصلحته . والمدين فى موقف ضعيف قد لا يملك معه إعلان المعارضة رغبة فى اتمام الصفقة لحاجته إليها ، فيقع عليه الغبن . فإذا كان المدين هو الذى يملى لم يمل إلا ما يريد الارتباط به عن طيب خاطر . ثم ليكون إقراره بالدين أقوى وأثبت ، وهو الذى يملى . وفى الوقت ذاته يناشد ضمير المدين - وهو يملى – أن يتقى الله ربه ولا يبخس شيئا من الدين الذى يقر به ولا من سائر أركان الإقرار الأخرى . . فإن كان المدين سفيها لا يحسن تدبير أموره . أو ضعيفا - أى صغيرا أو ضعيف العقل – أو لا يستطيع أن يمل هو إما لعى أو جهل أو آفة فى لسانه أو لأى سبب من الأسباب المختلفة الحسية أو العقلية . . فليملل ولى أمره القيم عليه (بالعدل) والعدل يذكر هنا لزيادة الدقة . فربما تهاون الولى ولو قليلا لأن الدين لا يخصه شخصيا . كى تتوافر الضمانات كلها لسلامة التعاقد . ثم ينتقل الشارع إلى نقطة أخرى فى العقد ، نقطة الشهادة (واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان – ممن ترضون من الشهداء - أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) إنه لا بد من شاهدين على العقد – (ممن ترضون من الشهداء)– والرضى يشمل معنيين:الأول أن يكون الشاهدان عدلين مرضيين فى الجماعة . والثانى أن يرضى بشهادتهما طرفا التعاقد . . ولكن ظروفا معينة قد لا تجعل وجود شاهدين أمرا ميسورا . فهنا ييسر التشريع فيستدعى النساء للشهادة ، وهو إنما دعا الرجال لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة فى المجتمع المسلم السوى ، الذى لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش , فتجور بذلك على أمومتها وأنوثتها وواجبها فى رعاية أثمن الأرصدة الإنسانية وهى الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل ، فى مقابل لقيمات أو دريهمات تنالها من العمل ، كما تضطر إلى ذلك المرأة فى المجتمع النكد المنحرف الذى نعيش فيه اليوم ! فأما حين لا يوجد رجلان فليكن رجل واحد وامرأتان . . ولكن لماذا امرأتان ؟ إن النص لا يدعنا نحدس ! ففى مجال التشريع يكون كل نص محددا واضحا معللا: (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى). . والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة . فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد ، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملابساته ومن ثم لا يكون من الوضوح فى عقلها بحيث تؤدى عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء , فتذكرها الأخرى بالتعاون معا على تذكر ملابسات الموضوع كله . وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية . فإن وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعى مقابلا نفسيا فى المرأة حتما . تستدعى أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لا ترجع فيهما إلى التفكير البطىء . . وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة . . وهذه الطبيعة لا تتجزأ ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعها – حين تكون امرأة سوية – بينما الشهادة على التعاقد فى مثل هذه المعاملات فى حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال ، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيحاء . ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تذكر إحداهما الأخرى – إذا انحرفت مع أى انفعال - فتتذكر وتفىء إلى الوقائع المجردة ، وكما وجه الخطاب فى أول النص إلى الكتاب ألا يأبوا الكتابة ، يوجهه هنا إلى الشهداء ألا يأبوا الشهادة (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) فتلبية الدعوة للشهادة إذن فريضة وليست تطوعا . فهى وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق . والله هو الذى يفرضها كى يلبيها الشهداء عن طواعيه تلبية وجدانية ، بدون تضرر أو تلكؤ . وبدون تفضل كذلك على المتعاقدين أو على أحدهما ، إذا كانت الدعوة من كليهما أو من أحدهما . وهنا يؤكد ضرورة الكتابة – كبر الدين أم صغر – ويعالج ما قد يخطر للنفس من استثقال الكتابة وتكاليفها بحجة أن الدين صغير لا يستحق ، أو أنه لا ضرورة للكتابة بين صاحبيه لملابسة من الملابسات كالتجمل والحياء أو الكسل وقلة المبالاة ! ثم يعلل تشديده فى وجوب الكتابة تعليلا وجدانيا وتعليلا عمليا (ولا تسأموا أن تكتبوه – صغيرا أو كبيرا – إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا) ا تسأموا . . فهو إدراك لانفعالات النفس الإنسانية حين تحس أن تكاليف العمل أضخم من قيمته . . (ذلكم أقسط عند الله). . أعدل وأفضل . وهو إيحاء وجدانى بأن الله يحب هذا ويؤثره . (وأقوم للشهادة). فالشهادة على شىء مكتوب أقوم من الشهادة الشفوية التى تعتمد على الذاكرة وحدها . وشهادة رجلين أو رجل وامرأتين أقوم كذلك للشهادة وأصح من شهادة الواحد ، أو الواحد والواحدة . (وأدنى ألا ترتابوا) أقرب لعدم الريبة فى صحة البيانات التى تضمنها العقد ، أو الريبة فى أنفسكم وفى سواكم إذا ترك الأمر بلا قيد ، وهكذا تتكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ؛ ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع ، ودقة أهدافه ، وصحة إجراءاته . إنها الصحة والدقة والثقة والطمأنينة . أما التجارة الحاضرة فإن بيوعها مستثناة من قيد الكتابة . وتكفى فيها شهادة الشهود تيسيرا للعمليات التجارية التى يعرقلها التعقيد ، والتى تتم فى سرعة ، وتتكرر فى أوقات قصيرة (إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوۤاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ) وظاهر النص أن الإعفاء من الكتابة رخصة لا جناح فيها . أما الإشهاد فموجب . وقد وردت بعض الروايات بأن الإشهاد كذلك للندب لا للوجوب . ولكن الأرجح هو ذاك . والأمر يقرر حقوق الكتاب والشهداء كما قرر واجباتهم من قبل . . لقد أوجب عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة . فالأمر يوجب لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب فى أداء التكاليف العامة (وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ{٢٨٢}لا يقع ضرر على كاتب أو شهيد ، بسبب أدائه لواجبه الذى فرضه الله عليه . وإذا وقع فإنه يكون خروجا منكم عن شريعة الله ومخالفة عن طريقه . وهو احتياط لا بد منه . لأن الكتاب والشهداء معرضون لسخط أحد الفريقين المتعاقدين فى أحيان كثيرة . فلا بد من تمتعهم بالضمانات التى تطمئنهم على أنفسهم ثم يدعو المؤمنين إلى تقوى الله فى النهاية ؛ ويذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم ، وهو الذى يعلمهم ويرشدهم ، وإن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيىء أرواحهم للتعليم ، ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان (وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) ثم يعود المشرع إلى تكملة فى أحكام الدين ، آخرها فى النص لأنها ذات ظروف خاصة ، فلم يذكرها هناك فى النص العام . . ذلك حين يكون الدائن والمدين على سفر فلا يجدان كاتبا . فتيسيرا للتعامل ، مع ضمان الوفاء ، رخص الشارع فى التعاقد الشفوى بلا كتابة مع تسليم رهن مقبوض للدائن ضامن للدين (وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ

وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{٢٨٣}وهنا يستجيش الشارع ضمائر المؤمنين للأمانة والوفاء بدافع من تقوى الله . فهذا هو الضمان الأخير لتنفيذ التشريع كله ، ولرد الأموال والرهائن إلى أصحابها ، والمحافظة الكاملة عليها: والمدين مؤتمن على الدين ، والدائن مؤتمن على الرهن ؛ وكلاهما مدعو لأداء ما أؤتمن عليه باسم تقوى الله ربه . والرب هو الراعى والمربى والسيد والحاكم والقاضى . وكل هذه المعانى ذات إيحاء فى موقف التعامل والائتمان والأداء . . وفي بعض الآراء أن هذه الآية نسخت آية الكتابة فى حالة الإئتمان . ونحن لا نرى هذا ، فالكتابة واجبة فى الدين إلا فى حالة السفر . والإئتمان خاص بهذه الحالة . والدائن والمدين كلاهما - فى هذه الحالة – مؤتمن . ويتكىء التعبير هنا على القلب . فينسب إليه الإثم . تنسيقا بين الاضمار للإثم ، والكتمان للشهادة . فكلاهما عمل يتم فى أعماق القلب . ويعقب عليه بتهديد ملفوف . فليس هناك خاف على الله (والله بما تعملون عليم) وهو يجزى عليه بمقتضى علمه الذى يكشف الإثم الكامن في القلوب ! و يعقب على التشريع المدنى البحت بهذا التوجيه الوجدانى البحت ؛ ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة ، بذلك الرباط الوثيق ، المؤلف من الخوف والرجاء فى مالك الأرض والسماء . فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية . . وهى الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام فى قلوب المسلمين فى المجتمع المسلم (لله ما فى السماوات وما فى الأرض . وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله , فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير)

و يأتى ختام السورة الكبيرة . . فى آيتين اثنتين . . ولكنهما تمثلان بذاتهما تلخيصا وافيا لأعظم قطاعات السورة . يصلح ختاما لها . ختاما متناسقا مع موضوعاتها وجوها وأهدافها . لقد بدأت السورة بقوله تعالى: الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . . وورد فى ثناياها إشارات إلى هذه الحقيقة , وبخاصة حقيقة الإيمان بالرسل جميعا . . وها هى ذى تختم بقوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله . .) وهو ختام يتناسق مع البدء كأنهما دفتا كتاب ! إنه الختام الذى يلخص ويشير ويتناسق مع خط السورة الأصيل . .

وفى هاتين الآيتين كل كلمة لها موضعها ، ولها دورها ، ولها دلالتها الضخمة . وهى قائمة فى العبارة لتمثيل ما وراءها – وهو كبير – من حقائق العقيدة . . من طبيعة الإيمان فى هذا الدين وخصائصه وجوانبه . ومن حال المؤمنين به مع ربهم ، وتصورهم لما يريده - سبحانه – بهم ، وبالتكاليف التى يفرضها عليهم . ومن التجائهم إلى كنفه واستسلامهم لمشيئته وارتكانهم إلى عونه . . نعم . . كل كلمة لها دورها الضخم . بصورة عجيبة . عجيبة حتى فى نفس من عاش فى ظلال القرآن ، وعرف شيئاً من أسرار التعبير فيه ؛ وطالع هذه الأسرار فى كل آية من آياته !

(لِّلَّه ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٢٨٤} آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {٢٨٥} لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) {٢٨٦}

إنها صورة للمؤمنين ، للجماعة المختارة التى تمثلت فيها حقيقة الإيمان فعلا . ولكل جماعة تتمثل فيها هذه الحقيقة الضخمة . . ومن ثم كرمها الله – سبحانه – وهو يجمعها - فى حقيقة الإيمان الرفيعة – مع الرسول ﷺ وهو تكريم تدرك الجماعة المؤمنة حقيقته ؛ لأنها تدرك حقيقة الرسول الكبيرة ؛ وتعرف أى مرتقى رفعها الله إليه عنده ، وهو يجمع بينها وبين الرسول ﷺ فى صفة واحدة ، فى آية واحدة ، من كلامه الجليل (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) وإيمان الرسول بما أنزل إليه من ربه هو إيمان التلقى المباشر . تلقى قلبه النقى للوحي العلى . واتصاله المباشر بالحقيقة المباشرة . الحقيقة التى تتمثل فى كيانه بذاتها من غير كد ولا محاولة ؛ وبلا أداة أو واسطة . وهى درجة من الإيمان لا مجال لوصفها فلا يصفها إلا من ذاقها ، ولا يدركها من الوصف – على حقيقتها – إلا من ذاقها كذلك ! فهذا الإيمان – إيمان الرسول ﷺ هو الذى يكرم الله عباده المؤمنين فيجمعهم فى الوصف مع الرسول الكريم . على فارق ما بين مذاقه فى كيان الرسول ﷺ بطبيعة الحال وكيان أى سواه ممن لم يتلق الحقيقة المباشرة (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا:سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا وإليك المصير) إنه الإيمان الشامل الذى جاء به هذا الدين . الإيمان الذى يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله ، القائمة على دعوته فى الأرض إلى يوم القيامة ، الضاربة الجذور فى أعماق الزمان ، الإيمان الذى يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها صفين اثنين : صف المؤمنين وصف الكافرين . حزب الله وحزب الشيطان . فليس هنالك صف ثالث على مدار الزمان (كل آمن بالله) والإيمان بالله فى الإسلام قاعدة التصور . وقاعدة المنهج الذي يحكم الحياة . وقاعدة الاقتصاد . وقاعدة كل حركة يتحركها المؤمن هنا أو هناك ، الإيمان بالله معناه إفراده – سبحانه – بالألوهية والربوبية والعبادة. ومن ثم إفراده بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه فى كل أمر من أمور الحياة ، ليس هناك شركاء – إذن – فى الألوهية أو الربوبية . فلا شريك له فى الخلق . ولا شريك له فى تصريف الأمور . ولا يتدخل فى تصريفه للكون والحياة أحد . ولا يرزق الناس معه أحد . ولا يضر أو ينفع غيره أحد . ولا يتم شيء فى هذا الوجود صغيرا كان أو كبيرا إلا ما يأذن به ويرضاه ، وليس هناك شركاء فى العبادة يتجه إليهم الناس . لا عبادة الشعائر ولا عبادة الخضوع والدينونة . فلا عبادة إلا لله . ولا طاعة إلا لله ولمن يعمل بأمره وشرعه ، فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذى لا سلطان إلا منه (وملائكته)والإيمان بالملائكة:إيمان بحقيقة غيبية ، لا سبيل للإدراك البشرى أن يعرفها بذاته , بوسائله الحسية والعقلية المهيأة له . . بينما كيانه مفطور على الشوق إلى معرفة شيء من تلك الحقائق الغيبية . ومن ثم شاءت رحمة الله بالإنسان – وهو فاطره وهو العليم بتكوينه وأشواقه وما يصلح له ويصلحه – أن يمده بطرف من الحقائق الغيبية هذه , ويعينه على تمثلها – ولو كانت أدواته الذاتية قاصرة عن الوصول إليها – وبذلك يريحه من العناء ومن تبديد الطاقة فى محاولة الوصول إلى تلك الحقائق التى لا يصلح كيانه وفطرته بدون معرفتها ، ولا يطمئن باله ولا يقر قراره قبل الحصول عليها ! بدليل أن الذين أرادوا أن يتمردوا على فطرتهم ، فينفوا حقائق

الغيب من حياتهم ، استبدت ببعضهم خرافات وأوهام مضحكة ; أو اضطربت عقولهم واعصابهم وامتلأت بالعقد والانحرافات ! وفضلا على ذلك كله فإن الإيمان بحقيقة الملائكة – شأنه شأن الإيمان بالحقائق الغيبية المستيقنة التى جاءت من عند الله – يوسع آفاق الشعور الإنسانى بالوجود ، فلا تنكمش صورة الكون فى تصور المؤمن حتى تقتصر على ما تدركه حواسه – وهو ضئيل – كما أنه يؤنس قلبه بهذه الأرواح المؤمنة من حوله ؛ تشاركه إيمانه بربه ، وتستغفر له , وتكون فى عونه على الخير – بإذن الله – وهو شعور لطيف ندى مؤنس ولا شك (وكتبه ورسله). (لا نفرق بين أحد من رسله) والإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعى الذى ينبثق من الإيمان بالله فى الصورة التى يرسمها الإسلام . فالإيمان بالله يقتضى الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله ، ووحدة الأصل الذى تقوم عليه رسالتهم ، وتتضمنه الكتب التى نزلت عليهم . . ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل فى ضمير المسلم . فكلهم جاء من عند الله بالإسلام فى صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم ؛ حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمدﷺ فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد ، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة . وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله ؛ وتقوم على دين الله فى الأرض ، وهى الوارثة له كله ؛ ويشعر المسلمون – من ثم – بضخامة دورهم فى هذه الأرض إلى يوم القيامة .فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية فى تاريخها الطويل . وهم المختارون لحمل راية الله – وراية الله وحدها – فى الأرض ، يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات ، من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية . . إلى آخر شارات الجاهلية التى يرفعها الجاهليون فى الأرض ، على اختلاف الأسماء والمصطلحات واختلاف الزمان والمكان . إن رصيد الإيمان الذى تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه فى الأرض ، ووارثة له منذ أقدم الرسالات ، هو أكرم رصيد وأقومه فى حياة البشرية . إنه رصيد من الهدى والنور ، ومن الثقة والطمأنينة ، ومن الرضى والسعادة ، ومن المعرفة واليقين . . وما يخلو قلب بشرى من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام ، وتعمره الوساوس والشكوك ، ويستبد به الأسى والشقاء . ثم يروح يتخبط فى ظلماء طاخية ، لا يعرف أين يضع قدميه فى التيه الكئيب ! والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة – ولو غرقت فى الرغد المادى – خاوية - ولو تراكم فيها الإنتاج – قلقة – ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجى - وأمامنا فى أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلا مراوغ يتنكر للحس والعيان ! والمؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يتوجهون إلى ربهم بالطاعة والتسليم ، ويعرفون أنهم صائرون إليه ، فيطلبون مغفرته من التقصير (وقالوا:سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير) ويتجلى فى هذه الكلمات أثر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . يتجلى فى السمع والطاعة , السمع لكل ما جاءهم من عند الله ، والطاعة لكل ما أمر به الله ، فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله ، وإنفاذ لنهجه فى الحياة . ولا إيمان حيث يعرض الناس عن أمر الله فى الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم ؛ أو حيث لا ينفذون شريعته ، أو حيث يتلقون تصوراتهم عن الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة من مصدر غير مصدره . فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ومع السمع والطاعة . . الشعور بالتقصير والعجز عن توفية آلاء الله حق شكرها ؛ وفرائض الله حق أدائها . والالتجاء إلى رحمة الله لتتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها (غفرانك ربنا) ولكن طلب الغفران إنما يجيء بعد تقديم الاستسلام وإعلان السمع والطاعة ابتداء بلا عناد أو نكران . . وإنما يعقبه كذلك اليقين بأن المصير إلى الله . المصير إليه فى الدنيا والآخرة . المصير إليه فى كل أمر وكل عمل . فلا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ولا عاصم من قدره ، ولا مرد لقضائه ولا نجوة من عقابه إلا برحمته وغفرانه (وإليك المصير)وهذا القول يتضمن الإيمان باليوم الآخر – كما رأينا – والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامى ، الذى يقوم على أساس أن الله خلق الإنسان ليستخلفه فى الأرض بعهد منه وشرط ، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه فى هذه الأرض ; وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه فى حياته الدنيا ، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء . . فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الإسلامى . . وهذا الإيمان على هذا النحو هو الذى يكيف ضمير المسلم وسلوكه ، وتقديره للقيم والنتائج فى هذه العاجلة . فهو يمضى فى طريق الطاعة ، وتحقيق الخير ، والقيام على الحق والاتجاه إلى البر سواء كانت ثمرة ذلك – فى الأرض – راحة له أم تعبا . كسبا له أم خسارة . نصرا له أم هزيمة . وجدانا له أو حرمانا . حياة له أو استشهادا . لأن جزاءه هناك فى الدار الآخرة بعد نجاحه فى الابتلاء ، واجتيازه للامتحان . . لا يزحزحه عن الطاعة والحق والخير والبر أن تقف له الدنيا كلها بالمعارضة والأذى والشر والقتل . . فهو إنما يتعامل مع الله ؛ وينفذ عهده وشرطه ؛ وينتظر الجزاء هناك ! إنها الوحدة الكبرى . طابع العقيدة الإسلامية . ترسمه هذه الآية القصيرة ، الإيمان بالله وملائكته . والإيمان بجميع كتبه ورسله ، بلا تفريق بين الرسل ، والسمع والطاعة , والإنابة إلى الله . واليقين بيوم الحساب ، إنه الإسلام تلك العقيدة اللائقة بأن تكون ختام العقائد ، وآخر الرسالات . العقيدة التى تصور موكب الإيمان الواصب من مبتدى الخليقة إلى منتهاها . وخط الهداية المتصل الموصول بأيدى رسل الله جميعا . المتدرج بالبشرية فى مراقى الصعود . الكاشف لها عن الناموس الواحد بقدر ما تطيق:حتى يجيء الإسلام ، فيعلن وحدة الناموس كاملة ، ويدع للعقل البشرى التفصيل والتطبيق ، ثم هى العقيدة التى تعترف بالإنسان إنسانا ، لا حيوانا ولا حجرا ، ولا ملكا ولا شيطانا . تعترف به كما هو ، بما فيه من ضعف وما فيه من قوة ، وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسد ذى نوازع ، وعقل ذى تقدير ، وروح ذى أشواق . . وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق ؛ وتراعى التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات ؛ وتلبى كل حاجات الجسد والعقل والروح فى تناسق يمثل الفطرة . . ثم تحمل الإنسان – بعد ذلك – تبعة اختياره للطريق الذى يختار(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله فى التكاليف التى يفرضها الله عليه فى خلافته للأرض ; وفى ابتلائه فى أثناء الخلافة ؛ وفى جزائه على عمله فى نهاية المطاف . ويطمئن إلى رحمة الله وعدله فى هذا كله ؛ فلا يتبرم بتكاليفه ، ولا يضيق بها صدرا ، ولا يستثقلها كذلك ، وهو يؤمن أن الله الذى فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ، ولو لم تكن فى طاقته ما فرضها عليه . ومن شأن هذا التصور – فضلا عما يسكبه فى القلب من راحة وطمأنينة وأنس – أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه ، وهو يحس أنها داخلة فى طوقه ؛ ولو لم تكن داخلة فى طوقه ما كتبها الله عليه ؛ فإذا ضعف مرة أو تعب مرة أو ثقل العبء عليه ، أدرك أنه الضعف لا فداحة العبء ! واستجاش عزيمته ونفض الضعف عن نفسه وهم همة جديدة للوفاء ، ما دام داخلا فى مقدوره ! وهو إيحاء كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق ! فهى التربية كذلك لروح المؤمن وهمته (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فردية التبعة ، فلا تنال نفس إلا ما كسبت ؛ ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت . . فردية التبعة ، ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه . فلا يحيل على أحد ، ولا ينتظر عون أحد ، وكأنما سمع المؤمنون هذه الحقيقة وأدركوها . . فها هو ذا ينطلق من قلوبهم دعاء خافق واجف ، يذكره النص القرآنى بطريقة القرآن

التصويرية ؛ فكأنما نحن أمام مشهد الدعاء , وصفوف المؤمنين قائمة ترده في خشوع ؛ عقب إعلان حقيقة التكاليف وحقيقة الجزاء (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) وهو دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم ؛ وإدراكهم لضعفهم وعجزهم ، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه ، وإلى مدده وعونه ؛ وإلصاق ظهورهم إلى ركنه ، والتجائهم إلى كنفه ، وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه ؛ واستعدادهم للجهاد في سبيله واستمدادهم النصر منه . . كل أولئك في نغمة وادعة واجفة تصور بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الروح (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) فدائرة الخطأ والنسيان هي التي تحكم تصرف المسلم حين ينتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه . وفي مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح ، وقد استجاب الله لدعاء عباده المؤمنين في هذا ، فقال رسول الله ﷺ (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) وهو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله ، ومعرفتهم – كما علمهم ربهم في هذا القرآن – بما كان من سلوك الأمم التي جاءتها الرسالات قبلهم ؛ وما حملهم الله من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم . فقد حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بعملهم . وفي آية الأنعام: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر , ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم) . . وكتب عليهم قتل أنفسهم تكفيرا عن عبادتهم للعجل كما سبق في أول هذه السورة . وحرم عليهم(السبت)أن يبتغوا فيه تجارة أو صيدا . . وهكذا فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالا كالتي حملها على الذين من قبلهم ، وقد بعث الله النبي الأمي يضع عن المؤمنين به من البشر كافة (إصرهم والأغلال التي كانت عليهم). . فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة ، هينة لينة ، تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة ، على أن الإصر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة ، والذي حمله الله على عاتق الأمم التي استخلفها في الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عنه . . هذا الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشر . عبودية العبد للعبد . ممثلة في تشريع العبد للعبد . وفي خضوع العبد للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه . . فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق الله عباده المؤمنين منه ، فردهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده ، وتلقى الشريعة منه وحده . وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد ! إن العبودية لله وحده – متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده - هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري . الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة , ومن سلطان السدنة والكهنة ، ومن سلطان الأوهام والخرافات ، ومن سلطان العرف والعادة ، ومن سلطان الهوى والشهوة . ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوى اعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار ، ودعاء المؤمنون (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) يمثل شعورهم بنعمة الانطلاق والتحرر من العبودية للعبيد ؛ كما يمثل خوفهم من الارتداد إلى ذلك الدرك السحيق (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) وهو دعاء يشي بحقيقة الاستسلام . فالمؤمنون لا ينوون نكولا عن تكليف الله أيا كان . ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون . كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه . . وإلا فهي الطاعة المطلقة والتسليم . . إنه طمع الصغير في رحمة الكبير . ورجاء العبد الضعيف في سماحة المالك المتصرف ، ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير ، الذي لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور (واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا) فهذا هو الضمان الحقيقي لاجتياز الامتحان ، ونيل الرضوان . فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء . ومن رحمة الله به أن يعامله بالعفو والمرحمة والغفران . . عن عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله ﷺ (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا:ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا . إلا أن يتغمدني الله برحمته) وهذا هو قوام الأمر في حس المؤمن:عمل بكل ما في الوسع . وشعور مع ذلك بالتقصير والعجز . . ورجاء – بعد ذلك – في الله لا ينقطع . وتطلع إلى العفو والمغفرة والسماح ، وأخيرا يطلبون نصره لأوليائه بما أنه هو مولاهم الوحيد ؛ وهم باسمه يقاتلون الكفار الخارجين (أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين) إنه الختام الذي يلخص السورة . ويلخص العقيدة . ويلخص تصور المؤمنين ، وحالهم مع ربهم في كل حين . .

سورة آل عمران

مدنية وآياتها (200)

هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها . وهو قوامها وكيانها . وهو حارسها وراعيها . وهو بيانها وترجمانها . وهو دستورها ومنهجها . وهو فى النهاية المرجع الذى تستمد منه الدعوة – كما يستمد منه الدعاة – وسائل العمل ، ومناهج الحركة , وزاد الطريق ، ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل فى حسنا ، ونستحضر فى تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية ، ذات وجود حقيقى ؛ ووجهت به أحداث واقعية فى حياة هذه الأمة ؛ ووجهت به حياة إنسانية حقيقية فى هذه الأرض ؛ وأديرت به معركة ضخمة فى داخل النفس البشرية وفى رقعة من الأرض كذلك . معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات ، وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهومة ، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التى تواجه هذا الخلق المسمى بالإنسان ، والتى تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين ! بينما هذه الآيات نزلت لتواجه نفوسا ووقائع وأحداثا حية ، ذات كينونة واقعية حية ؛ ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعيا حيا ، نشأ عنه وجود ، ذو خصائص فى حياة "الإنسان" بصفة عامة ، وفى حياة الأمة المسلمة بوجه خاص . هذه السورة تمثل قطاعا حيا من حياة الجماعة المسلمة فى المدينة من بعد "غزوة بدر - "فى السنة الثانية من الهجرة – إلى ما بعد "غزوة أحد" فى السنة الثالثة . وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتى فى خلال هذه الفترة الزمنية . وفعل القرآن - إلى جانب الأحداث – فى هذه الحياة ، وتفاعله معها فى شتى الجوانب . والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة ؛ وصورة الحياة التى عاشتها الجماعة المسلمة ؛ وصورة الاشتباكات والملابسات التى أحاطت بهذه الحياة . مع استبطان السرائر والضمائر ، وما يدب فيها من الخواطر ، وما يشتجر فيها من المشاعر ، حتى لكأن قارئها يعيش هذه الأحداث ، ويعايش الأمة التى كانت تخوضها وتتفاعل وإياها . ولو أغمض الإنسان عينيه فلربما تراءت له – كما تراءت لى – شخوص الجماعة المسلمة رائحة غادية ، بسماتها الظاهرة على الوجوه ، ومشاعرها المستكنة فى الضمائر . ومن حولها أعداؤها يتربصون بها ، ويبيتون لها ، ويلقون بينها بالفرية والشبهة ، ويتحاقدون عليها ، ويجمعون لها ، ويلقونها فى الميدان ، وينهزمون أمامها – فى أحد – ثم يكرون عليها فيوقعون بها . . وكل ما يجرى فى المعركة من حركة وكل ما يصاحب حركاتها من انفعال باطن وسمة ظاهرة . . والقرآن يتنزل ليواجه الكيد والدس ، ويبطل الفرية والشبهة ، ويثبت القلوب والأقدام ، ويوجه الأرواح والأفكار ، ويعقب على الحادث ويبرز منه العبرة ، ويبنى التصور ويزيل عنه الغبش ، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر والكيد الماكر ، ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل ، قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور . . ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التى احتوتها السورة خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان ، وقيد الظروف والملابسات ، تواجه النفس البشرية ، وتواجه الجماعة المسلمة – اليوم وغدا – وتواجه الإنسانية كلها ، وكأنها تتنزل اللحظة لها ، وتخاطبها فى شأنها الحاضر ، وتواجهها فى واقعها الراهن . ذلك أنها تتناول أمورا وأحداثا ومشاعر وجدانية وحالات نفسية كأنما كانت ملحوظة فى سياق السورة . بل هى ملحوظة قطعا فى تقدير العليم الخبير بالنفوس والأشياء والأمور . فى هذه الفترة كانت الجماعة المسلمة فى المدينة قد استقرت بعض الاستقرار فى موطنها الجديد فى مدينة الرسول ﷺ كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت ؛ وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش . وكان هذا النصر بظروفه التى تم فيها والملابسات التى أحاطت به تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة ، ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبى بن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونبيه ﷺ وأن يكبت حقده وحسده للرسول الكريم ؛ وأن ينضم - منافقا – للجماعة المسلمة ، وهو يقول: (هذا أمر قد توجه) أى ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يرده عنها راد ! بذلك وجدت بذرة النفاق فى المدينة – أو تمت وأفرخت ، فقد كان هناك قبل بدر من اضطروا لمنافقة أهلهم الذين دخلوا فى الإسلام – وأصبحت مجموعة من الرجال ، ومن ذوى المكانة فيهم ، مضطرة إلى التظاهر بالإسلام ، والانضمام إلى المجتمع المسلم ، بينما هى تضمر فى أنفسها الحقد والعداء للإسلام والمسلمين ؛ وتتربص بهم الدوائر ؛ وتتلمس الثغرات فى الصف ؛ وتترقب الأحداث التى تضعضع قوى المسلمين أو تزعزع الصف المسلم ، ليظهروا كوامن صدورهم ، أو ليضربوا ضربة الإجهاز إذا كان ذلك فى مكنتهم ! وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم فى اليهود ، الذين كانوا يجدون فى أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين ، وعلى نبى الإسلام ﷺ مثل ما يجد المنافقون بل أشد . وقد هددهم الإسلام تهديدا قويا فى مكانتهم بين "الأميين" من العرب فى المدينة ؛ وسد عليهم الثغرة التى كانوا ينفذون منها للعب بين الأوس والخزرج , بعدما أصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وفى ظل الإسلام صفا واحدا مرصوصا . وقد غص اليهود وشرقوا بانتصار المسلمين فى بدر ، وارتفع غليان حقدهم على الجماعة المسلمة , وانطلقوا بكل ما يمكلون من دس وكيد وتآمر يحاولون تفتيت الصف الإسلامى ، وإلقاء الحيرة فى قلوب المسلمين ، ونشر الشبهات والشكوك ، فى عقيدتهم وفى أنفسهم على السواء ! وفى هذه الفترة وقع حادث بنى قينقاع فوضح العداء وسفر ، على الرغم مما كان بين اليهود والنبى ﷺ من مواثيق أبرمها معهم عقب مقدمه إلى المدينة . كذلك كان المشركون موتورين من هزيمتهم فى بدر ، يحسبون ألف حساب لانتصار محمد ﷺ ومعسكر المدينة ، وللخطر الذى يتمثل إذن على تجارتهم وعلى مكانتهم وعلى وجودهم كذلك ! ومن ثم يتهيأون لدفع هذا الخطر الماحق قبل أن يصبح القضاء عليه مستحيلا . وبينما كان أعداء المعسكر الإسلامى فى عنفوان قوتهم وفى عنفوان حقدهم كذلك ! كان الصف المسلم ما يزال فى أوائل نشأته بالمدينة . غير متناسق تماما . فيه الصفوة المختارة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ ولكن فيه كذلك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد . والجماعة كلها على العموم لم تنل من التجارب الواقعية ما يسوى النتوءات ، ويوضح حقيقة الدعوة وحقيقة الظروف الملابسة لها ، وحقيقة منهجها العملى وتكاليفه . ومن ناحية أخرى كان المسلمون قد انتصروا فى بدر ذلك النصر الكامل الباهر بأيسر الجهد والبذل . فقد خرج ذلك العدد القليل من المسلمين ، غير مزودين بعدة ولا عتاد – إلا اليسير – فلاقوا ذلك الجحفل الضخم من قريش فى عدتهم وعتادهم . ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزر الباهر . وكان هذا النصر فى الوقعة الأولى التى يلتقى فيها جند الله بجند الشرك قدرا من قدر الله . ندرك اليوم طرفا من حكمته . ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها . بل لإثبات وجودها الفعلى على محك المعركة ، لتأخذ بعد ذلك طريقها . فأما المسلمون فلعلهم قد وقع فى نفوسهم – من هذا النصر – أنه الشأن

الطبيعى الذى لا شأن غيره . وأنه لا بد ملازمهم على أى حال فى كل مراحل الطريق ! أليسوا بالمسلمين ؟ أليس أعداؤهم بالكافرين ؟ وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين ! غير أن سنة الله فى النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة ، فلهذه السنة مقتضياتها فى تكوين النفوس ، وتكوين الصفوف ، وإعداد العدة ، واتباع المنهج ، والتزام الطاعة والنظام ، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان . . وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة فى "غزوة أحد" على النحو الذى تعرضه السورة عرضا حيا مؤثرا عميقا ، وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين ؛ وتوجه فى ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء . ومن مراجعة نصوص السورة يتبين أن الوسائل هى الوسائل كذلك ؛ والأهداف هى الأهداف . ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة ، ومرجع هذه الأمة - اليوم وغدا - كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس فى نشأتها إذا أخذنا بالروايات التى تقول:إن الآيات الأولى من هذه السورة إلى بضع وثمانين آية منها قد نزلت فى مناسبة قدوم الوفد من نصارى نجران اليمن ، ومناظرته للرسول ﷺ فى أمر عيسى عليه السلام ، فإن هذا الدرس بجملته يكون داخلا فى إطار هذه المناسبة . لولا أن هذه الروايات توقت مجىء ذلك الوفد بالسنة التاسعة للهجرة ، وهى السنة المعروفة فى السيرة باسم "عام الوفود" حيث كان الإسلام قد انتهى إلى درجة من القوة والشهرة فى الجزيرة العربية كلها - وفيما وراءها كذلك - جعل الوفود من شتى بقاع الجزيرة تفد على النبى ﷺ تخطب وده ، أو تعرض التعاهد معه ، أو تستجلى حقيقة أمره . ونحن كما أشرنا فيما تقدم نحس أن الموضوع الذى تعالجه هذه الآيات ، وطريقة علاجها له ، كلاهما يرجح أن هذه الآيات نزلت مبكرة فى السنوات الأولى للهجرة . . ومن ثم فنحن أميل إلى اعتبار ما ورد فى هذه السورة من حجاج وجدل مع أهل الكتاب ، ونفى للشبهات التى تضمنتها معتقداتهم المنحرفة ، أو التى تعمدوا نثرها حول صحة رسالة النبى ﷺ وحقيقة عقيدة التوحيد الإسلامية ، وكذلك ما اقتضاه كيد أهل الكتاب من تحذير للجماعة المسلمة وتثبيت . . نحن أميل إلى اعتبار هذا كله غير مقيد بحادث وفد نجران فى السنة التاسعة ؛ وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة هى التى نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة . ومن ثم سنمضى فى استعراض هذه النصوص بوصفها مواجهة لأهل الكتاب غير مقيد بهذا الحادث الخاص المتأخر فى التاريخ . مع التأكيد أن هذه النصوص تكشف عن الصراع الأصيل الدائم بين الجماعة المسلمة وعقيدتها ، وبين أهل الكتاب والمشركين وعقائدهم . . هذا الصراع الذى لم يفتر منذ ظهور الإسلام - وبخاصة منذ مقدمه إلى المدينة وقيام دولته فيها - والذى اشترك فيه المشركون واليهود اشتراكا عنيفا يسجله القرآن تسجيلا رائعا دقيقا . ولا عجب أن يشاركهم بعض رجال الكنيسة فى أطراف الجزيرة العربية فى صورة من الصور . ليس بعيدا عن الواقع أن يفد أفراد منهم أو جماعات لمناظرة النبى ﷺ ومجادلته فى المواضع التى يظهر فيها الاختلاف بين عقائدهم المنحرفة والعقيدة الجديدة القائمة على التوحيد الخالص الناصع وفى هذا الدرس منذ ابتدائه تحديد لمفرق الطريق بين عقيدة التوحيد الخالصة الناصعة والشبهات والانحرافات . وتهديد لمن يكفر بالفرقان وآيات الله فيه ، واعتبارهم كفارا ولو كانوا من أهل الكتاب ! وبيان لحال المؤمنين مع ربهم وموقفهم مما ينزل على رسله . وهو بيان يحدد الموقف ويحسمه: فللإيمان علاماته التى لا تخطىء وللكفر علاماته التى لا شبهة فيها كذلك ! (الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد . والله عزيز ذو انتقام). . . (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، ما يذكر إلا أولو الألباب) (شهد الله أنه لا إله إلا هو - والملائكة وأولوا العلم - قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) كما أن هذا الدرس يحمل تهديدا لليهود . وذلك فى قوله تعالى:(إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم). . فحين يذكر قتل الأنبياء يتجه الذهن مباشرة إلى اليهود ! وكذلك النهى الوارد فى قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. . . إلخ). فالغالب أن المقصود به هم اليهود . وإن كان من الجائز أن يشمل المشركين أيضا . فحتى هذا التاريخ كان بعض المسلمين لا يزالون يوالون أقاربهم من المشركين كما يوالون اليهود ، فنهوا عن ذلك كله ، وحذروا هذا التحذير العنيف . سواء كان الأولياء من اليهود أو من المشركين . فكلهم سماهم (الكافرين!) وظاهر أن قوله تعالى: (قل للذين كفروا: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا:فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين . . .) إلخ . تتضمن الإشارة إلى أحداث غزوة بدر ، وأن الخطاب فيها موجه إلى اليهود . وقد وردت فى هذا رواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر ، وقدم المدينة وجمع اليهود ، وقال: أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا ، قالوا:يا محمد:لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش أغمارا لا يعرفون القتال . إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى فى ذلك: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) إلى قوله (فئة تقاتل فى سبيل الله - أى ببدر - وأخرى كافرة (أخرجه أبو داود) كذلك يبدو من التلقين الموجه للرسول ﷺ فى آية:(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله - ومن اتبعن - وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد). . أنه وإن كان هذا التلقين فى صدد مناقشة حاضرة ، إلا أنه تلقين عام شامل ، ليواجه به النبى ﷺ كل المخالفين له فى العقيدة . وظاهر من قوله تعالى: (وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)أن الرسول ﷺحتى ذلك الحين لم يكن مأمورا بقتال أهل الكتاب ، ولا بأخذ الجزية منهم , مما يرجح ما ذهبنا إليه من نزول هذه الآيات فى وقت مبكر . ثم يتضمن هذا الدرس الأول إيضاحات قوية لأسس التصور الإسلامى من ناحية العقيدة ، وإلى جانبها إيضاحات قوية كذلك فى طبيعة هذه العقيدة وآثارها فى الحياة الواقعية . هذه الآثار الملازمة للإيمان بها . فهى عقيدة التوحيد لله . ومن ثم تجعل الدين هو الإسلام لله . ولا دين سواه . . الإسلام بمعنى الاستسلام والطاعة والاتباع . الاستسلام لأمره ، والطاعة لشرعه ، والاتباع لرسوله ومنهجه . فمن لم يستسلم ويطع ويتبع فليس بمسلم ، ومن ثم فليس بصاحب دين يرضاه الله . فالله لا يرضى إلا الإسلام . والإسلام - كما قلنا هو الاستسلام والطاعة والاتباع . . ومن ثم يرد التعجيب والتشهير بأهل الكتاب الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم (ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون). . ويعتبر الاعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التى تنفى دعوى الإيمان . الإيمان بالله على الإطلاق ! ولا يتم التعريف المجمل بهذه السورة حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها ، تتناثر نقطها فى السورة كلها ، وتتجمع وتتركز فى مجموعها ، حتى ترسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد . .

أول هذه الخطوط بيان معنى "الدين" ومعنى "الإسلام" . . فليس الدين – كما يحدده الله - سبحانه – ويريده ويرضاه – هو كل اعتقاد فى الله . . إنما هى صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه – سبحانه – صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع، توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق فى الكون بالعبودية . وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله . فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين الذى يقبله الله من عباده هو "الإسلام" وهو فى هذه الحالة، الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية ، والتلقى من هذا المصدر وحده فى كل شأن من شؤون الحياة ، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر ، واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب . وهو فى صميمه كتاب واحد ، وهو فى صميمه دين واحد . . الإسلام . . بهذا المعنى الواقعى فى ضمائر الناس وواقعهم العملى على السواء . والذى يلتقى عليه كل المؤمنين أتباع الرسل . . كل فى زمانه . . متى كان معنى إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة ؛ والطاعة والاتباع فى منهج الحياة كله بلا استثناء . ويتكىء سياق السورة على هذا الخط ويوضحه فى أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ظاهر ملحوظ. (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (إن الدين عند الله الإسلام) . .(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين:أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . .). .(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون). .) قل:إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله . . .). .(قل:أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين). . (قال الحواريون:نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهد) (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟). . (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه). . وغيرها كثير . .

فأما الخط الثانى الذى يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا – وما يذكر إلا أولوا الألباب (-)ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد). .(الذين يقولون:ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار). . (قال الحواريون:نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين). . (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). . (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون , يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين). (وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا:ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)

والخط الثالث العريض فى سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء – إلا أن تتقوا منهم تقاة – ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل . إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السماوات وما فى الأرض . والله على كل شيء قدير) (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . . .) إلخ . .(لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا) وغيرها كثى ، وهذه الخطوط الثلاثة العريضة متناسقة فيما بينها متكاملة ،فى تقرير التصور الإسلامى ,وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه فى حياة البشر وفى شعورهم بالله ، وأثر ذلك فى موقفهم من أعداء الله الذى لا موقف لهم سواه .

والنصوص فى مواضعها من السياق أكثر حيوية وأعمق إيحاء . . لقد نزلت فى معمعان المعركة . معركة العقيدة , ومعركة الميدان . المعركة فى داخل النفوس ، والمعركة فى واقع الحياة . . ومن ثم تضمنت ذلك الرصيد الحى العجيب ، من الحركة والتأثير والإيحاء ...

(الم {١} اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ {٢} نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ {٣} مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {٤} إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ {٥} هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {٦} هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {٧} رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ {٨} رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ {٩} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُوْلَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ {١٠} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {١١} قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{١٢} قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ {١٣} زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ {١٤} قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ

مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {١٥} الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {١٦} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ){١٧}

(ألم). هذه الأحرف المقطعة ألف . لأم . ميم . نختار في تفسيرها – على سبيل الترجيح لا الجزم - ما اخترنا في مثلها في أول سورة البقرة:"إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ؛ وهي في متناول المخاطبين به من العرب . ولكنه – مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . . . إلخ . . "فأما هنا في سورة "آل عمران" فتبدو مناسبة أخرى لهذه "الإشارة" . . هي أن هذا الكتاب منزل من الله الذي لا إله إلا هو . وهو مؤلف من أحرف وكلمات شأنه في هذا شأن ما سبقه من الكتب السماوية التي يعترف بها أهل الكتاب – المخاطبون في السورة – فليس هناك غرابة في أن ينزل الله هذا الكتاب على رسوله بهذه الصورة .

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذي أنزل عليك الكتاب:منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله – وما يعلم تأويله إلا الله – والراسخون في العلم يقولون:آمنا به ، كل من عند ربنا – وما يذكر إلا أولو الألباب – ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد) هكذا تبدأ السورة في مواجهة أهل الكتاب المنكرين لرسالة النبي ﷺ وهم بحكم معرفتهم بالنبوات والرسالات والكتب المنزلة والوحي من الله ، كانوا أولى الناس بأن يكونوا أول المصدقين المسلمين . لو أن الأمر أمر اقتناع بحجة ودليل ! هكذا تبدأ السورة في مواجهتهم بهذا الشوط القاطع ، الفاصل في أكبر الشبهات التي تحيك في صدورهم ، أو التي يتعمدون نثرها في صدور المسلمين تعمدا (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وهذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين:يهودا أو نصارى . على اختلاف مللهم ونحلهم جميعا (الله لا إله إلا هو). فلا شريك له في الألوهية (الحي) الذي يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كل قيد فلا شبيه له في صفته (القيوم) الذي به تقوم كل حياة وبه يقوم كل وجود ، نزل هذا القرآن – عليك – كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل . وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية . إنما هناك إله واحد ينزل الكتب على المختارين من عباده . وهناك عبيد يتلقون . وهم عبيد لله ولو كانوا أنبياء مرسلين ،وهي تقرر وحدة الدين ووحدة الحق الذي تتضمنه (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) (٤) إنه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية إلا لله . ولا مكان للاستمداد والتلقي إلا من الله . لا في شريعة أو نظام ، ولا في أدب أو خلق . ولا في اقتصاد أو اجتماع . ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، وما بعد الحياة . . أما في تلك التصورات الزائغة المنحرفة المهزوزة الغامضة فلا متجه ولا قرار ، ولا حدود لحرام أو حلال ، ولا لخطأ أو صواب:في شرع أو نظام ، في أدب أو خلق ، وفي معاملة أو سلوك . . فكلها . كلها . . إنما تتحدد وتتضح عندما تتحدد الجهة التي منها التلقي ، وإليها التوجه ، ولها الطاعة والعبودية والاستسلام (إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) (٥) وهي تقرر وحدة الدين ووحدة الحق الذي تتضمنه الكتب المنزلة من عند الله . فهذا الكتاب نزله – عليك (بالحق) (مصدقا لما بين يديه). . من التوراة والإنجيل ، وكلها تستهدف غاية واحدة هي (هدى للناس) وهذا الكتاب الجديد "فرقان" بين الحق الذي تضمنته الكتب المنزلة ، والانحرافات والشبهات التي لحقت بها بفعل الأهواء والتيارات الفكرية والسياسية وهي تقرر – ضمنا – أنه لا وجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة . فهي سائرة على نمط الرسالات قبلها . وكتابها نزل بالحق كالكتب المنزلة . ونزل على رسول من البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر . وهو مصدق لما بين يديه من كتب الله ، ثم تتضمن الآية في شطرها الثاني التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات الله ، وتلوح لهم بعزة الله وقوته وشدة عذابه وانتقامه ، وفي صدد التهديد بالعذاب والانتقام يؤكد لهم علم الله الذي لا يند عنه شيء ، فلا خفاء عليه ولا إفلات منه (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء). وتوكيد العلم المطلق الذي لا يخفى عليه شيء ، وإثبات هذه الصفة لله – سبحانه – في هذا المقام يتفق أولا مع وحدانية الألوهية والقوامة التي افتتح بها السياق . كما يتفق مع التهديد الرعيب في الآية السابقة . . فلن يفلت "شيء" من علم الله (في الأرض ولا في السماء)بهذا الشمول والإطلاق . ولن يمكن إذن ستر النوايا عليه ، ولا إخفاء الكيد عنه . ولن يمكن كذلك التفلت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق ، وفي ظلال العلم اللطيف الشامل الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يلمس المشاعر الإنسانية لمسة رفيقة عميقة ، تتعلق بالنشأة الإنسانية . النشأة المجهولة في ظلام الغيب وظلام الأرحام ، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) هكذا (يصوركم). . يمنحكم الصورة التي يشاء ؛ ويمنحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة . وهو وحده الذي يتولى التصوير ، بمحض إرادته ، ومطلق مشيئته (كيف يشاء). . (لا إله إلا هو). .(العزيز) ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير(الحكيم) الذي يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق بلا معقب ولا شريك ، وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام ونشأته ومولده . فالله هو الذي صور عيسى . . (كيف يشاء). . لا أن عيسى هو الرب . أو هو الله . أو هو الابن . أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي . إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة ، بعدئذ يكشف الذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتركون الحقائق القاطعة في آيات القرآن المحكمة , ويتبعون النصوص التي تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ؛ ويصور سمات المؤمنين حقا وإيمانهم الخالص وتسليمهم لله في كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال (هو الذي أنزل عليك الكتاب . منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون:آمنا به . كل من عند ربنا – وما يذكر إلا أولوا الألباب – ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد) وقد روى أن نصارى نجران قالوا للرسول ﷺ ألست تقول عن المسيح:إنه كلمة الله وروحه ؟ يريدون أن يتخذوا من هذا التعبير أداة لتثبيت معتقداتهم عن عيسى – عليه السلام - وأنه

ليس من البشر ، إنما هو روح الله – على ما يفهمون هم من هذا التعبير - بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التى تقرر وحدانية الله المطلقة ، وتنفى عنه الشريك والولد فى كل صورة من الصور . . فنزلت فيهم هذه الآية ، تكشف محاولتهم هذه فى استغلال النصوص المجازية المصورة ، وترك النصوص التجريدية القاطعة . على أن نص الآية اعم من هذه المناسبة ؛ فهى تصور موقف الناس على اختلافهم من هذا الكتاب الذى أنزله الله على نبيه ﷺ متضمنا حقائق التصور الإيمانى ، ومنهاج الحياة الإسلامية ؛ أمورا غيبية لا سبيل للعقل البشرى أن يدركها بوسائله الخاصة ، ولا مجال له لأن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها ، فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهى مفهومة المدلولات قاطعة الدلالة ، مدركة المقاصد – وهى أصل هذا الكتاب – وأما السمعيات والغيبيات – ومنها نشأة عيسى عليه السلام ومولده – فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر "الحق" ويصعب إدراك ماهياتها وكيفياتها ، لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الإنسانى المحدود ، وهنا يختلف الناس – حسب استقامة فطرتهم أو زيغها – فى استقبال هذه الآيات وتلك . فأما الذين فى قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة ، فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التى تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملى للحياة ، ويجرون وراء المتشابه الذى يعول فى تصديقه على الإيمان بصدق مصدره ، والتسليم بأنه هو الذى يعلم "الحق" كله ، بينما الإدراك البشرى نسبى محدود المجال . كما يعول فيه على استقامة الفطرة التى تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله ، وأنه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . يجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر ، نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله . . (وما يعلم تأويله إلا الله) وأما الراسخون فى العلم ، الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشرى ، وحدود المجال الذى يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة له فيقولون فى طمأنينة وثقة (آمنا به ، كل من عند ربنا) يدفعهم إلى هذه الطمأنينة ، أنه من عند ربهم . فهو إذن حق وصدق . وما يقرره الله صادق بذاته . وليس من وظيفة العقل البشرى ولا فى طوقه أن يبحث عن أسبابه وعلله ، كما أنه ليس فى طوقه أن يدرك ماهيته وطبيعة العلل الكامنة وراءه ، وهذا تصوير صحيح للراسخين فى العلم . . فما يتبجح وينكر إلا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم ، فيتوهمون أنهم أدركوا كل شىء ، وأن ما لم يدركوه لا وجود له ؛ أو يفرضون إدراكهم على الحقائق ، فلا يسمحون لها بالوجود إلا على الصورة التى أدركوها . ومن ثم يقابلون كلام الله المطلق بمقررات عقلية لهم ! صاغتها عقولهم المحدودة! (وما يذكر إلا أولوا الألباب) وكأنه ليس بين أولى الألباب وإدراك الحق إلا أن يتذكروا . . فإذا الحق المستقر فى فطرتهم الموصولة بالله ، ينبض ويبرز ويتقرر فى الألباب ، عندئذ تنطلق ألسنتهم وقلوبهم فى دعاء خاشع وفى ابتهال منيب أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله . . ويتذكرون يوم الجمع الذى لا ريب فيه ، والميعاد الذى لا خلف له (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد) والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال . قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش . قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة . قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة . قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده ، بعد هذا البيان يتجه إلى تقرير مصير الذين كفروا ، وسنة الله التى لا تتخلف فى أخذهم بذنوبهم ، وإلى تهديد الذين يكفرون من أهل الكتاب ، ويقفون لهذا الدين ، ويلقن الرسول ﷺ أن ينذرهم ، ويذكرهم ما رأوه بأعينهم فى غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين ، إن هذه الآيات واردة فى صدد خطاب بنى إسرائيل ، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم . وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كذلك . . فهو يذكرهم فيها بمصير آل فرعون . . وكان الله سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بنى إسرائيل . ولكن هذا لا يمنحهم حقا خاصا إذا هم ضلوا وكفروا ، ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفوا ، وأن ينالوا جزاء الكافرين فى الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين انجاهم الله منهم ! كذلك يذكرهم مصارع قريش فى بدر – وهم كفار – ليقول لهم:إن سنة الله لا تتخلف . وإنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قريش . فالعلة هى الكفر . وليس لأحد على الله دالة ، ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح ! ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىَ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ (١٣) والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ؛ ولكنهما لا يغنيان شيئا فى ذلك اليوم الذى لا ريب فيه ، لأنه لا إخلاف لميعاد الله . وهم فيه (وقود النار) بهذا التعبير الذى يسلبهم كل خصائص "الإنسان" ومميزاته ، ويصورهم فى صورة الحطب والخشب وسائر(وقود النار) (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار).لا بل إن الأموال والأولاد ، ومعهما الجاه والسلطان ، لا تغنى شيا فى الدنيا (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب) وإذن فالذين كفروا وكذبوا بدعوة محمد ﷺ وآيات الكتاب الذى نزله عليه بالحق ، معرضون لهذا المصير فى الدنيا والآخرة سواء . . ومن ثم يلقن الرسول ﷺ أن ينذرهم هذا المصير فى الدارين ، وأن يضرب لهم المثل بيوم بدر القريب ، فلعلهم نسوا مثل فرعون والذين من قبله فى التكذيب والأخذ الشديد (قل للذين كفروا:ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا:فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار). وقوله تعالى(يرونهم مثليهم رأى العين) يحتمل تفسيرين ، فإما أن يكون ضمير(يرون) راجعا إلى الكفار ، وضمير(هم)راجعا إلى المسلمين ، ويكون المعنى أن الكفار على كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين(مثليهم) وكان هذا من تدبير الله حيث خيل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة ، فتزلزلت قلوبهم وأقدامهم ، وإما أن يكون العكس ، ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين(مثليهم) هم فى حين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم ، ومع هذا ثبتوا وانتصروا ، والمهم هو رجع النصر إلى تأييد الله وتدبيره . . وفى هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد . كما أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبونهم . . وكان الموقف ، وكان القرآن يعمل هنا وهناك ، وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ؛ وتثق فى ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التى فى طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ؛ ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب فى علم الله ، المدبر بحكمته ، المؤجل لموعده الذى يحقق هذه الحكمة . ولا بد من بصر ينظر وبصير تتدبر ، لتبرز العبرة ، وتعيها القلوب . وإلا فالعبرة تمر فى كل لحظة فى الليل والنهار ! (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) وفى مجال التربية للجماعة المسلمة يكشف لها عن البواعث

الفطرية الخفية التى من عندها يبدأ الانحراف ؛ إذا لم تضبط باليقظة الدائمة ؛ وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى ; وإذا لم تتعلق بما عند الله وهو خير وأزكى .

. ولما كانت الرغائب والدوافع طبيعية وفطرية ، ومكلفة من قبل البارىء - جل وعلا - أن تؤدى للبشرية دورا أساسيا فى حفظ الحياة وامتدادها ، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ; وإلى أن يكون الإنسان مالكا لها متصرفا فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ؛ وإلى تقوية روح التسامى فيه والتطلع إلى ما هو أعلى ، وفى آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان:النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام . . وهى خلاصة للرغائب الأرضية . إما بذاتها ، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى . . وفى الآية التالية يعرض لذائذ أخرى فى العالم الآخر:جنات تجرى من تحتها الأنهار . وأزواج مطهرة . وفوقها رضوان من الله . . وذلك كله لمن يمد ببصره إلى أبعد من لذائذ الأرض , ويصل قلبه بالله ، على النحو الذى تعرضه آيتان تاليتان (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث . . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل:أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار - خالدين فيها - وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله . والله بصير بالعباد . الذين يقولون:ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (زين للناس). وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطرى قد تضمن هذا الميل فهو محبب ومزين . . وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه . ففى الإنسان هذا الميل إلى هذه "الشهوات" ، وهو جزء من تكوينه الأصيل ، لا حاجة إلى إنكاره ، ولا إلى استنكاره فى ذاته . فهو ضرورى للحياة البشرية كى تتأصل وتنمو وتطرد ، ولكن الواقع يشهد كذلك بأن فى فطرة الإنسان جانبا آخر يوازن ذلك الميل ، ويحرس الإنسان أن يستغرق فى ذلك الجانب وحده ؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها . هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامى ، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه "الشهوات". والاتجاه إلى الله ، وتقواه ، هو خيط الصعود والتسامى إلى تلك الأشواق البعيدة (زين للناس حب الشهوات) فهى شهوات مستحبة مستلذة ، وليست مستقذرة ولا كريهة . والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها ؛ إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها , ووضعها فى مكانها لا تتعداه ، ولا تطغى على ما هو أكرم فى الحياة وأعلى

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها ورفعها , لا كبتها وقمعها . . والذين يتحدثون فى هذه الأيام عن "الكبت" واضراره ، وعن" العقد النفسية " التى ينشئها الكبت والقمع ، يقررون أن السبب الرئيسى للعقد هو" الكبت" وليس هو "الضبط" . . وهو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس ، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين:ضغط من شعوره - الذى كونه الإيحاء أو كونه الدين أو كونه العرف - بأن دوافع الفطرة دوافع قذرة لا يجوز وجودها أصلا ، فهى خطيئة ودافع شيطانى ! وضغط هذه الدوافع التى لا تغلب لأنها عميقة فى الفطرة ، ولأنها ذات وظيفة أصيلة فى كيان الحياة البشرية ، لا تتم إلا بها ، ولم يخلقها الله فى الفطرة عبثا . . وعندئذ وفى ظل هذا الصراع تتكون "العقد النفسية " . . فحتى إذا سلمنا جدلا بصحة هذه النظريات النفسية ، فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنسانى من هذا الصراع بين شطرى النفس البشرية . بين نوازع الشهوة واللذة ، وأشواق الارتفاع والتسامى . . وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر فى حدود التوسط والاعتدال (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية قوية ، وقد قرن اليهما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ونهم المال هو الذى ترسمه (القناطير المقنطرة) ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال:والأموال . أو والذهب والفضة . ولكن القناطير المقنطرة تلقى ظلا خاصا هو المقصود . ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة . ذلك أن التكديس ذاته شهوة . بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى ! و الخيل المسومة . والخيل كانت - وما تزال حتى فى عصر الآلة المادى اليوم - زينة محببة مشتهاة . ففى الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة . وفيها ذكاء وألفة ومودة . وحتى الذين لا يركبونها فروسية ، يعجبهم مشهدها ، ما دام فى كيانهم حيوية تجيش لمشهد الخيل الفتية ! والأنعام والحرث . وهما يقترنان عادة فى الذهن وفى الواقع . . الأنعام والحقول المخصبة . . والحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء . وإن تفتح الحياة فى ذاته لمشهد حبيب فإذا أضيفت إليه شهوة الملك ، كان الحرث والأنعام شهوة ، وهذه الشهوات التى ذكرت هنا هى نموذج لشهوات النفوس ، يمثل شهوات البيئة التى كانت مخاطبة بهذا القرآن ؛ ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان (ذلك متاع الحياة الدنيا) ذلك كله الذى عرضه من اللذائذ المحببة - وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات - متاع الحياة الدنيا . لا الحياة الرفيعة ، ولا الآفاق البعيدة . . متاع هذه الأرض القريب . . فأما من أراد الذى هو خير . . خير من ذلك كله . خير لأنه أرفع فى ذاته . وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق فى الشهوات ، والإنكباب على الأرض دون التطلع إلى السماء . . من أراد الذى هو خير فعند الله من المتاع ما هو خير . وفيه عوض كذلك عن تلك الشهوات (قل:أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار - خالدين فيها - وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد) وهذا المتاع الأخروى الذى تذكره الآية هنا ، ويؤمر الرسول ﷺ أن يبشر به المتقين , هو نعيم حسى فى عمومه . . ولكن هنالك فارقا أساسيا بينه وبين متاع الدنيا . . إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا . الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسى الذى يبشرون به يتطلعون إليه فى شفافية مبرأة من غلظة الحس ! وفى حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة ! ويرتفعون بالتطلع إليه - وهم فى هذه الأرض - قبل أن ينتهى بهم المطاف إلى قرب الله ، وفى هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا وفيه زيادة ، فإذا كان متاعهم فى الدنيا حرثا معطيا مخصبا ، ففى الآخرة جنات كاملة تجرى من تحتها الأنهار . وهى فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها ، لا كالحرث المحدود الميقات ! وإذا كان متاعهم فى الدنيا نساء وبنين ، ففى الآخرة أزواج مطهرة . وفى طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض فى الحياة ! فأما الخيل المسومة والأنعام . وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . فقد كانت فى الدنيا وسائل لتحقيق متاع . فأما فى نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات ! ثم هنالك ما هو أكبر من كل متاع . . هنالك (رضوان من الله) رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما (والله بصير بالعباد) بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونوازع . بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات . بصير بتصريفها فى الحياة وما بعد الحياة ، ثم وصف

لهؤلاء العباد ، يصور حال المتقين مع ربهم ، الحال التي استحقوا عليها هذا الرضوان (الذين يقولون:ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين . والقانتين . والمنفقين . والمستغفرين بالأسحار) وفى دعائهم ما ينم عن تقواهم . فهو إعلان للإيمان ، وشفاعة به عند الله ، وطلب للغفران , وتوق من النيران . وفى كل صفة من صفاتهم تتحقق سمة ذات قيمة فى حياة الإنسانية وفى حياة الجماعة المسلمة :فى الصبر ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى ، وثبات على تكاليف الدعوة ، وأداء لتكاليف الحق ، وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر ، وقبول لحكمه ورضاء . . وفى الصدق اعتزاز بالحق الذى هو قوام الوجود ، وترفع عن الضعف ؛ فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق ، اتقاء لضرر أو اجتلابا لمنفعة . وفى القنوت لله أداء لحق الألوهية وواجب العبودية ؛ وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله الواحد الذى لا قنوت لسواه . وفى الإنفاق تحرر من استذلال المال ؛ وانفلات من ربقة الشح ؛ وإعلاء لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية ؛ وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس ! والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقى ظلالا رفافة ندية عميقة . . ولفظة "الأسحار" بذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر . الفترة التى يصفو فيها الجو ويرق ويسكن ؛ وتترقرق فيها خواطر النفس وخوالجها الحبيسة ! فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة فى عالم النفس وفى ضمير الوجود سواء . وتلاقت روح الإنسان وروح الكون فى الاتجاه لبارىء الكون وبارىء الإنسان (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) هؤلاءَ الصابرون ، الصادقون ، القانتون ، المنفقونَ ، المستغفرونَ بالأسحار . . لهم (رضوان من الله) وهم أهل لهذا الرضوان ظله الندى ومعناه الحانى . وهو خير من كل شهوة وخير من كل متاع ، وهكذا يبدأ القرآن بالنفس البشرية من موضعها على الأرض . . وشيئا فشيئا يرف بها فى آفاق وأضواء ، حتى ينتهى بها إلى الملإ الأعلى فى يسر وهينة ، وفى رفق ورحمة . وفى اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها . وفى مراعاة لضعفها وعجزها ، وفى استجاشة لطاقاتها وأشواقها ، ودون ما كبت ولا إكراه . ودون ما وقف لجريان الحياة . . فطرة الله . ومنهج الله لهذه الفطرة . . (والله بصير بالعباد)

فالآن - وإلى نهاية هذا الدرس – نجدنا أمام حقيقة أخرى . . هى مقتضى الحقيقة الأولى . . فحقيقة التوحيد تستلزم مصداقا لها فى واقع الحياة البشرية ، هو الذى يقرره الشطر الثانى من هذا الدرس ومن ثم يبدأ بإعادة تقرير الحقيقة الأولى ليرتب عليها آثارها الملازمة لها . . يبدأ بشهادة الله – سبحانه – (أنه لا إله إلا هو) وشهادة الملائكة وأولى العلم بهذه الحقيقة . ويقرر معها صفة الله المتعلقة بالقوامة ، وهى قيامه بالقسط فى أمر الناس وفى أمر الكون .

(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {١٨} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {١٩} فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {٢٠} إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {٢١} أُولَـئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ {٢٢} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ {٢٣} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ {٢٤} فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ {٢٥} قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٢٦} تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ {٢٧} لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ {٢٨} قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {٢٩} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) {٣٠} قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٣١} قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ { ٣٢}

وما دام الله متفردا بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهذه الحقيقة , هو الإقرار بالعبودية لله وحده وتحكيمه فى شأن العبيد كله ؛ واستسلام العبيد لإلههم , وطاعتهم للقيوم عليهم ، واتباعهم لكتابه ولرسوله ﷺ (شهد الله أنه لا إله إلا هو – والملائكة وأولوا العلم – قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) هذه هى الحقيقة الأولى التى يقوم عليها التصور الاعتقادى فى الإسلام . حقيقة التوحيد:توحيد الألوهية ، وتوحيد القوامة . . القوامة بالقسط . . وهى الحقيقة التى بدأت بها السورة (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وهى تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة ، وجلاء الشبهات التى يلقيها أهل الكتاب من جهة . جلاءها عن أهل الكتاب أنفسهم ، وجلاءها عن المسلمين الذين قد تؤثر هذه الشبهات فى عقيدتهم ، وشهادة الله – سبحانه – أنه لا إله إلا هو هى حسب كل من يؤمن بالله ، وقد يقال:إنه لا يكتفى بشهادة الله إلا من يؤمن بالله . وأن من يؤمن بالله ليس فى حاجة إلى هذه الشهادة . . ولكن واقع الأمر أن أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم فى نفس الوقت يجعلون له ابنا وشريكا . بل إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله ، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد والأبناء والبنات ! فإذا قرر لهؤلاء وهؤلاء أن الله – سبحانه – شهد أنه لا إله إلا هو ، فهذا مؤثر قوى فى تصحيح تصوراتهم ، على أن الأمر كما يبدو من متابعة السياق لا إله إلا هو ، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها ؛ وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة فى الإسلام بمعنى الاستسلام – لا اعتقادا وشعورا فحسب – ولكن كذلك عملا وطاعة واتباعا للمنهج العملى الواقعى المتمثل فى أحكام الكتاب . . ومن هذه الناحية نجد كثيرين فى كل زمان يقولون:إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون معه غيره فى الألوهية , حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه ; وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره . . فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله . ولا تستقيم مع شهادة الله – سبحانه – بأنه لا إله إلا هو . وأما شهادة الملائكة وشهادة أولى العلم ، فهى

متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها , والتلقي عن الله وحده ، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال , وشهادة الله سبحانه وشهادة الملائكة وأولى العلم بوحدانية الله يصاحبها شهادتهم بأنه - تعالى - قائم بالقسط . بوصفها حالة ملازمة للألوهية (شهد الله أنه لا إله إلا هو - والملائكة وأولوا العلم - قائما بالقسط) فهى حالة ملازمة للألوهية كما تفيد صياغة العبارة . وهذا إيضاح للقوامة التي وردت في مطلع السورة (الله لا إله إلا هو الحي القيوم). . فهى قوامة بالقسط . وتدبير الله لهذا الكون ولحياة الناس متلبس دائما بالقسط - وهو العدل (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) يؤكد حقيقة وحدة الألوهية مرة أخرى فى الآية الواحدة ، مصحوبة بصفة العزة وصفة الحكمة . والقدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط . فالقسط يقوم على وضع الأمور في مواضعها مع القدرة على إنفاذها ، ويرتب على هذه الحقيقة التى عاد لتوكيدها مرتين في الآية الواحدة ، نتيجتها الطبيعية . . الوهية واحدة . فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة ، ألوهية واحدة . . وإذن فجهة واحدة هى صاحبة الحق فى تعبيد الناس لها ؛ وفى تطويعهم لأمرها ؛ وفى إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ؛ وفى وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها ؛ وفى إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التى ترضاها (إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل:أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين:أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد) الإسلام الذى هو ليس مجرد دعوى ، وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ; ولا حتى تصورا يشتمل عليه القلب فى سكون ؛ ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام . . لا . فهذا ليس بالإسلام الذى لا يرضى الله من الناس دينا سواه . إنما الإسلام هو الاستسلام هو الطاعة والاتباع هو تحكيم كتاب الله فى أمور العباد (إن الدين عند الله الإسلام) والإسلام يعني توحيد الألوهية والقوامة . . بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله - سبحانه - وذات المسيح - عليه السلام - كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح أيضا . . ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافا عنيفا يصل فى أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال . . هنا يبين الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . بغيا بينهم) إنه ليس اختلافا عن جهل بحقيقة الأمر . فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله ، وتفرد الألوهية . وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية . . ولكنهم إنما اختلفوا بغيا بينهم واعتداء وظلما ؛ حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذى تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه ، ومن ثم يجيء التهديد القاصم فى موضعه المناسب (ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب)وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفرا ، وهدد الكافرين بسرعة الحساب ؛ كى لا يكون الإمهال - إلى أجل - مدعاة للجاجة فى الكفر والإنكار والاختلاف ثم لقن نبيه ﷺ فصل الخطاب فى موقفه من أهل الكتاب والمشركين جميعا . ليحسم الأمر معهم عن بينة ، ويدع أمرهم بعد ذلك لله ، ويمضى في طريقه الواضح (فإن حاجوك فقل:أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغ . والله بصير بالعباد) إنه لا سبيل إلى مزيد من الإيضاح بعد ما تقدم . فإما اعتراف بوحدة الألوهية والقوامة , وإذن فلا بد من الإسلام والاتباع . وإما مماحكة ومداورة . وإذن فلا توحيد ولا إسلام ، ومن ثم يلقن الله - تعالى - رسوله ﷺ كلمة واحدة تبين عقيدته كما تبين منهج حياته (فإن حاجوك) أى فى التوحيد وفي الدين (فقل أسلمت وجهى لله) أنا (ومن اتبعن) والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا ، فليس هو مجرد التصديق ، إنما هو الأتباع ، كما أن التعبير بالإسلام الوجه ذو مغزى كذلك . فليس هو مجرد النطق باللسان أو الاعتقاد بالجنان . إنما هو كذلك الاستسلام . استسلام الطاعة والاتباع . . وإسلام الوجه كناية عن هذا الاستسلام . والوجه أعلى وأكرم ما في الإنسان . فهى صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع المستجيب ، هذا اعتقاد محمد ﷺ ومنهج حياته . والمسلمون متبعوه ومقلدوه فى اعتقاده ومنهج حياته . . فليسأل إذن أهل الكتاب والأميين سؤال التبين والتمييز (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟) فهم سواء . هؤلاء وهؤلاء . المشركون وأهل الكتاب هم مدعوون إلى الإسلام . مدعوون للإقرار بتوحيد ذات الله ، ووحدة الألوهية ووحدة القوامة . مدعوون بعد هذا الإقرار إلى الخضوع لمقتضاه . وهو تحكيم كتاب الله ونهجه في الحياة (فإن أسلموا فقد اهتدوا) فالهدى يتمثل فى صورة واحدة . هى صورة الإسلام . بحقيقته تلك وطبيعته . وليس هنالك صورة أخرى ، ولا تصور آخر ، إنما هو الضلال والجاهلية والحيرة والزيغ والالتواء (وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) فعند البلاغ تنتهى تبعة الرسول وينتهى عمله . وكان هذا قبل أن يأمره الله بقتال من لا يقبلون الإسلام حتى ينتهوا:إما إلى اعتناق الدين والخضوع للنظام الذى يتمثل فيه . وإما إلى التعهد فقط بالطاعة للنظام في صورة أداء الجزية . . حيث لا إكراه على الاعتقاد (والله بصير بالعباد) يرى كل شيء و لا تخفى عليه خافية في السماء و الأرض ، ولكنه لا يدعهم حتى يبين لهم مصيرهم الذى ينتظرهم وينتظر أمثالهم وفق سنة الله الماضية أبدا فى المكذبين والبغاة (إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وما لهم من ناصرين) فهذا هو المصير المحتوم:عذاب اليم ، لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة ، فهو متوقع هنا وهناك . وبطلان لأعمالهم فى الدنيا والآخرة فى تعبير مصور . فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتا مسموما ، توطئة لهلاكها . . وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين . ولكنه الانتفاخ المؤدى إلى البطلان والهلاك ! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام ! وذكر الكفر بآيات الله مصحوبا بقتل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يقتل نبى ثم يكون هناك حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أى الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط ، ذكر هذه الصفات يوحى بأن التهديد كان موجها لليهود ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجها للنصارى كذلك . فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية - بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه السلام - وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع وكثير منهم فى كل زمان , و مكان (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ ذلك بأنهم قالوا:لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت ؟ وهم لا يظلمون) إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب . موقف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب . وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصارى . وكل منهما (نصيب) من الكتاب باعتبار أن كتاب الله هو كل ما أنزل على رسله ، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته . فهو كتاب واحد فى حقيقته ، (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) .ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فى خلافاتهم ، وليحكم بينهم فى شؤون حياتهم ومعاشهم ، فلا يستجيبون جميعا لهذه الدعوة ، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته . الأمر الذى يتناقض مع الإيمان بأى نصيب من كتاب

الله ؛ والذى لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب (هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم – لا كلهم – عن الاحتكام إلى كتاب الله فى أمور الاعتقاد وأمور الحياة . فكيف بمن يقولون:إنهم مسلمون ، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها . ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضا كى يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ؛ ويحذروا أن يكونوا موضعا لتعجيب الله وتشهيره بهم ، ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض (ذلك بأنهم قالوا:لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) هذا هو السبب فى الاعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب . . إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة ، وجدية القسط الإلهى الذى لا يحابى ولا يميل . يتجلى هذا فى قولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) إنهم لا يقولون إلا افتراء , ثم يغرهم هذا الافتراء (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) وحقا إنه لا يجتمع فى قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله ، والشعور بحقيقة هذا اللقاء , مع هذا التميع فى تصور جزائه وعدله ، ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون . ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين ! وأن لا ضرورة لإقحام الدين فى حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، بل العائلية ، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون ! ثم يعتقد بعضهم فى غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيرا من المعاصى ، ثم يساقون إلى الجنة ! أليسوا مسلمين ؟ إنه نفس الظن الذى كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء ، ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له فى الدين . . وهؤلاء وأولئك سواء فى تنصلهم من أصل الدين , وتملصهم من حقيقته التى يرضاها الله و هى الإسلام أى الاستسلام والطاعة والاتباع . والتلقى من الله وحده فى كل شأن من شؤون الحياة (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون) كيف ؟ إنه التهديد الرعيب الذى يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء الله ، وجدية عدل الله ؛ وهو تهديد قائم للجميع . . مشركين وملحدين ، وأهل كتاب ومدعى إسلام ، فهم سواء فى أنهم لا يحققون فى حياتهم الإسلام ! (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) وجرى العدل الإلهى مجراه (ووفيت كل نفس ما كسبت) بلا ظلم ولا محاباة (وهم لا يظلمون). . كما أنهم لا يحابون فى حساب الله ، سؤال يلقى ويترك بلا جواب . . وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب ! بعدئذ يلقن رسول الله ﷺ وكل مؤمن ، أن يتجه إلى الله ، مقررا حقيقة الألوهية الواحدة , وحقيقة القوامة الواحدة ، فى حياة البشر ، وفى تدبير الكون (قل:اللهم مالك الملك:تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير . إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل . وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى . وترزق من تشاء بغير حساب) نداء خاشع . . فى تركيبه اللفظى إيقاع الدعاء . وفى ظلاله المعنوية روح الابتهال . وفى التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر فى رفق وإيناس . وفى جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة:حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس ؛ وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفا من شأن الكون الكبير الذى يصرفه الله ؛ وأن الدينونة لله وحده هى شأن الكون كله كما هى شأن الناس ؛ وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف ! (قل:اللهم مالك الملك . تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء) هو (مالك الملك) بلا شريك يملك من يشاء ما يشاء من ملكه . يملكه إياه تمليك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عندما يشاء . فليس لأحد ملكية أصيلة يتصرف فيها على هواه ، وكذلك هو يعز من يشاء ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه ، وبلا مجير عليه ، وبلا راد لقضائه ، فهو صاحب الأمر كله بما أنه – سبحانه – هو الله . . وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بالقسط والعدل . ويعز من يشاء ويذل من يشاء بالقسط والعدل . فهو الخير الحقيقى فى جميع الحالات ؛ وهى المشيئة المطلقة والقدرة المطلقة على تحقيق هذا الخير فى كل حال (بيدك الخير) (إنك على كل شىء قدير) (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ؛ وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ؛ وترزق من تشاء بغير حساب) والتعبير التصويرى لهذه الحقيقة الكبيرة ، يملأ بها القلب والمشاعر والبصر والحواس ، هذه الحركة الخفية المتداخلة . حركة إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل ؛ وإخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ، متى القى القلب إليها انتباهه ، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق . وسواء كان معنى إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل هو أخذ هذا من ذاك وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . أو كان هو دخول هذا فى هذا عند دبيب الظلمة ودبيب الضياء فى الأمساء والأصباح . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر كيف تتحرك الأفلاك ، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ، تلك حركة لا يدعى الإنسان أنه هو الذى يمسك بخيوطها الخفية الدقيقة ؛ ولا يدعى كذلك عاقل أنها تمضى هكذا مصادفة بلا تدبير ! كذلك الحياة والموت ، يدب أحدهما فى الآخر فى بطء وتدرج . كل لحظة تمر على الحى يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة ! خلايا حية منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل . وهكذا دورة دائبة فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . . ولا يدعى الإنسان أنه هو الذى يصنع من هذا كله شيئا . ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ! ثم أنى يتخذ بعضهم بعضا عبيدا ، ويتخذ بعضهم بعضا أربابا ، ورزق الجميع بيد الله وكلهم عليه عيال (وترزق من تشاء بغير حساب) إنها اللمسة التى ترد القلب البشرى إلى الحقيقة الكبرى . حقيقة الألوهية الواحدة . حقيقة القوامة الواحدة . وحقيقة الفاعلية الواحدة وحقيقة التدبير الواحد . وحقيقة المالكية الواحدة وحقيقة العطاء الواحد . ثم حقيقة أن الدينونة لا تكون إلا لله القيوم . ثم تأتى هذه اللمسة لتؤكد الاستنكار الذى سبق فى الفقرة الماضية لموقف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، ثم هم يتولون ويعرضون عن التحاكم إلى كتاب الله ، وفى الوقت ذاته تمهد للتحذير الوارد فى الفقرة التالية من تولى المؤمنين الكافرين من دون المؤمنين . ما دام أن لا حول للكافرين فى هذا الكون ولا طول . والأمر كله بيد الله . (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء – إلا أن تتقوا منهم تقاة – ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل:إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، والله على كل شىء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ، لقد استجاش السياق القرآنى فى الفقرة الماضية الشعور بأن الأمر كله لله ، والقوة كلها لله ، والتدبير كله لله ، والرزق كله بيد الله . . فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟ إنه لا يجتمع فى قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . . ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد ، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو وإلى من لا يرتضى أن يحكم كتاب الله فى الحياة ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره ، أو باستنصاره سواء (لا يتخذ المؤمنون

الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) هكذا . . ليس من الله في شيء .. فهو بعيد عن الله ، ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات . . ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل . قال ابن عباس – رضي الله عنهما – " ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان " . . فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر ، ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكا للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب , فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقا (ويحذركم الله نفسه . وإلى الله المصير) ثم يتابع السياق التحذير ولمس القلوب ، وإشعارها أن الله يتابعها (قل: إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير) ثم يتابع السياق التحذير ولمس القلوب خطوة أخرى كذلك باستحضار اليوم المرهوب ؛ الذي لا يند فيه عمل ولا نية ؛ والذي تواجه فيه كل نفس برصيدها كله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) وهي مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشري ، وتحاصره برصيده من الخير والسوء . وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ، ويود – ولكن لات حين مودة ! – لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمدا بعيدا. بينما هو في مواجهته ، آخذ بخناقه ، ولات حين خلاص ، ولات حين فرار ! ثم يكرر تحذير الله للناس من نفسه – سبحانه (ويحذركم الله نفسه) ويذكرهم رحمته في هذا التحذير والفرصة متاحة قبل فوات الأوان (والله رؤوف بالعباد)

وأخيرا يجيء ختام هذا الدرس قويا حازما ، حاسما في القضية التي يعالجها ، والتي تمثل أكبر الخطوط العريضة الأساسية في السورة . يجيء ليقرر في كلمات قصيرة حقيقة الإيمان , وحقيقة الدين . ويفرق تفريق حاسما بين الإيمان والكفر في جلاء لا يحتمل الشبهات (قل:إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل:أطيعوا الله والرسول:فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياما بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الأتباع لرسول الله ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة . . وإن الإيمان ليس كلمات تقال , ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام . ولكنه طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول .

(إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {٣٣} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٣٤} إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٣٥} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {٣٦} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {٣٧} هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ {٣٨} فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ {٣٩} قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {٤٠} قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ {٤١} وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ {٤٢} يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ {٤٣} ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ {٤٤} إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {٤٥} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ {٤٦} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ {٤٧} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ {٤٨} وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {٤٩} وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ {٥٠} إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {٥١} فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {٥٢} رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {٥٣} وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {٥٤} إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٥٥} فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ {٥٦} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {٥٧} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ {٥٨} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ {٥٩} الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ {٦٠} فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ {٦١} إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {٦٢} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ {٦٣} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {٦٤}

تقول الروايات التي تصف المناظرة بين النبي ﷺ ووفد نجران اليمن إن هذا القصص الذي ورد في هذه السورة عن مولد عيسى عليه السلام ، ومولد أمه مريم ، ومولد يحيى ، وبقية القصص جاء ردا على ما أراد الوفد إطلاقه من الشبهات ؛ وهو يستند إلى ما جاء في القرآن عن عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله إلى مريم وروح منه ؛ وأنهم كذلك سألوا عن أمور لم ترد في سورة مريم وطلبوا الجواب عنها ، وقد يكون هذا صحيحا . . ولكن ورود هذا القصص في هذه السورة على هذا النحو يمضي مع طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق معينة يريد إيضاحها . وغالبا ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص ؛

إن القضية الأصيلة التي يركز عليها سياق السورة كما قدمنا هى:قضية التوحيد . توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . . وقصة عيسى تؤكد هذه الحقيقة ، وتنفى فكرة الولد والشريك ، وتستبعدهما استبعادا كاملا ; وتظهر زيف هذه الشبهة وسخف تصورها ؛ وتبسط مولد مريم وتاريخها ، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها ، بطريقة لا تدع مجالا لإثارة أية شبهة فى بشريته الكاملة ، وأنه واحد من سلالة الرسل ، شأنه شأنهم ، وطبيعته طبيعتهم ، وتفسر الخوارق التى صاحبت مولده وسيرته تفسيرا لا تعقيد فيه ولا غموض ، من شأنه أن يريح القلب والعقل ، ويدع الأمر فيهما طبيعيا عاديا لا غرابة فيه . . حتى إذا عقب على القصة بقوله:(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له:كن . فيكون). . وجد القلب برد اليقين والراحة ؛ وعجب كيف ثارت تلك الشبهات حول هذه الحقيقة البسيطة ؟

يبدأ هذا القصص ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ، ليكونوا طلائع الموكب الإيمانى فى شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون . فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض . وليس من الضرورى أن تكون ذرية النسب – وإن كان نسب الجميع يلتقى فى آدم ونوح – فهى أولا رابطة الاصطفاء والاختيار الإلهى ؛ ونسب هذه العقيدة الموصول فى ذلك الموكب الإيمانى الكريم (إن الله اصطفى آدم ونوحا ، وآل إبراهيم وآل عمران ، على العالمين . ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم) ولقد ذكر السياق آدم ونوحا فردين ، وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين . إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحا بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء . فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك ، ومن هذا الإعلان التمهيدى ينتقل السياق مباشرة إلى آل عمران ومولد مريم (إذ قالت امرأة عمران:رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت:رب:إنى وضعتها أنثى – والله أعلم بما وضعت – وليس الذكر كالأنثى , وإنى سميتها مريم ؛ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال:يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت:هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وقصة النذر تكشف لنا عن قلب "امرأة عمران" – أم مريم – وما يعمره من إيمان ، ومن توجه إلى ربها بأعز ما تملك . وهو الجنين الذى تحمله فى بطنها . خالصا لربها ، محررا من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه . ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر . فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشىء ما فى ذات نفسه ، أو فى مجريات حياته ، أو فى الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التى تصرف هذه الحياة . . لا تحرر وفى قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله . وفى حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله . وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر فى عالم الإنسان (رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى . إنك أنت السميع العليم) ولكنها وضعتها أنثى ، ولم تضعها ذكرا ! (فلما وضعتها قالت:رب إنى وضعتها أنثى – والله أعلم بما وضعت – وليس الذكر كالأنثى . وإنى سميتها مريم . وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) لقد كانت تنتظر ولدا ذكرا ، فالنذر للمعابد لم يكن معروفا إلا للصبيان ، ليخدموا الهيكل , وينقطعوا للعبادة والتبتل . ولكن ها هى ذى تجدها أنثى . فتتوجه إلى ربها فى نغمة أسيفة (رب . إنى وضعتها أنثى) (والله أعلم بما وضعت) ولكنها هى تتجه إلى ربها بما وجدت ، وكأنها تعتذر إن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة (وليس الذكر كالأنثى) ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر فى هذا المجال (وإنى سميتها مريم) وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة . مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه . يحدثه بما فى نفسه ، وبما بين يديه ، ويقدم له ما يملك تقديما مباشرا (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) وهى الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدى ربها ، وتدعها لحمايته ورعايته , وتعيذها به هى وذريتها من الشيطان الرجيم (فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا) جزاء هذا الإخلاص الذى يعمر قلب الأم ، وهذا التجرد الكامل فى النذر . . وإعدادا لها أن تستقبل نفخة الروح ، وكلمة الله ، وأن تلد عيسى – عليه السلام – على غير مثال من ولادة البشر (وكفلها زكريا) أى جعل كفالتها له ، وجعله أمينا عليها . . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودى و هو من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل ، ونشأت مباركة مجدودة . يهيىء لها الله من رزقه فيضا من فيوضاته (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال:يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت:هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) يكفى أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقا . حتى ليعجب كافلها - وهو نبى – من فيض الرزق . فيسألها:كيف ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول فى خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله ، وتفويض الأمر إليه كله هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وهى كلمة تصور حال المؤمن مع ربه ، والتواضع فى الحديث عن هذا السر ، لا التنفج به والمباهاة ! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التى تثير عجب نبى الله زكريا . هى التمهيد للعجائب التى تليها فى ميلاد يحيى وميلاد عيسى عندئذ تحركت فى نفس زكريا ، الشيخ الذى لم يوهب ذرية ، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية فى النفس البشرية . الرغبة فى الذرية . فى الامتداد . فى الخلف وكذلك . . نجدنا أمام حادث غير عادى . يحمل مظهرا من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية , وعدم تقيدها بالمألوف للبشر ، الذى يحسبه البشر قانونا لا سبيل إلى إخلافه ; ومن ثم يشكون فى كل حادث لا يجىء فى حدود هذا القانون ! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه , لأنه واقع ، صاغوا حوله الخرافات والأساطير ! فها هو ذا "زكريا" الشيخ الكبير وزوجه العاقر التى لم تلد فى صباها . . ها هو ذا تجيش فى قلبه الرغبة الفطرية العميقة فى الخلف – وهو يرى بين يديه مريم البتية الصالحة المرزوقة – فيتوجه إلى ربه يناجيه ، ويطلب منه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة (هنالك دعا زكريا ربه . قال:رب هب لى من لدنك ذرية طيبة . إنك سميع الدعاء) فما الذى كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب ؟ كانت الاستجابة التى لا تتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس ؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التى تفعل ما تريد (فنادته الملائكة – وهو قائم يصلى فى المحراب – أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله . وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذى علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ; ويملك الإجابة حين يشاء . وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر ، اسمه معروف قبل مولده" ; يحيى " ؛ وصفته معروفة كذلك:سيدا كريما ، وحصورا يحصر نفسه عن الشهوات ، ويملك زمام نزعاته من الانفلات . ومؤمنا مصدقا بكلمة تأتيه من الله . ونبيا صالحا فى موكب الصالحين . ولقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا نفسه ، واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر ؟ (قال:رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟) وجاءه الجواب فى بساطة ويسر . يرد الأمر إلى نصابه (قال:كذلك الله يفعل ما يشاء) كذلك ! فالأمر مألوف مكرور معاد حين يرد إلى مشيئة الله وفعله الذى يتم دائما على هذا النحو ؛ ولكن الناس لا يتفكرون فى الطريقة ، ولا

يتدبرون الصنعة ، ولا يستحضرون الحقيقة ! (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) ٤١ كذلك . بهذا اليسر . وبهذه الطلاقة . يفعل الله ما يشاء . . فماذا فى أنّ يهب لزكريا غلاما وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ؟ إنما هذه مألوفات البشر التى يقررون قواعدهم عليها ، ويتخذون منها قانونا ! فأما بالقياس إلى الله ، فلا مألوف ولا غريب . . كل شيء مرده إلى توجه المشيئة ، والمشيئة مطلقة من كل القيود ! ولكن زكريا لشدة لهفته على تحقق البشرى ، ولدهشة المفاجأة فى نفسه ، راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها (قال:رب اجعل لى آية . . .) هنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقى ، إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتجه إلى الناس ؛ وأن ينطلق إلى ربه وحده يذكره ويسبحه (قال:آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا . واذكر ربك كثيرا . وسبح بالعشى والإبكار) . ويسكت السياق هنا . ونعرف أن هذا قد كان فعلا . . رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر !!! وكأنما كانت هذه الخارقة تمهيدا فى السياق لحادث عيسى عليه السلام الذى انبثقت منه كل الأساطير والشبهات فهنا يبدأ فى قصة المسيح عليه السلام . وإعداد مريم لتلقى النفخة العلوية بالطهارة والقنوت والعبادة (وإذ قالت الملائكة:يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) وأى اصطفاء ؟! وهو يختارها لتلقى النفخة المباشرة ، كما تلقاها أول هذه الخليقة "آدم" ؟ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها ؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد فى تاريخ البشرية وهو بلا جدال أمر عظيم ، ولكنها - حتى ذلك الحين - لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم ! والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى . وذلك لما لابس مولد عيسى - عليه السلام - من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة ، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له فى عالم الناس فيزعموا أن وراءه سرا لا يشرف . . قبحهم الله !! إنه يتلقى "الحق" من ربه ؛ عن مريم وعن عيسى عليه السلام ؛ فيعلن هذا الحق ، فى هذا المجال . . ولو لم يكن رسولا من الله الحق ما أظهر هذا القول فى هذا المجال بحال ! (يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) طاعة وعبادة ، وخشوع وركوع ، وحياة موصولة بالله تمهيدا للأمر العظيم الخطير ، وعند هذا المقطع من القصة ، وقبل الكشف عن الحدث الكبير يشير السياق إلى شيء من حكمة مساق القصص ، إنه إثبات الوحي ، الذى ينبيء النبى ﷺ بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب ، (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ؟ وما كنت لديهم إذ يختصمون) وهى إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم ، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل ، وفاء لنذرها وعهدها مع ربها . والنص يشير إلى حادث لم يذكره "العهد القديم" ولا "العهد الجديد" المتداولان ؛ ولكن لا بد أنه كان معروفا عند الأحبار والرهبان . حادث إلقاء الأقلام . . أقلام سدنة الهيكل . . لمعرفة من تكون مريم من نصيبه . والنص القرآنى لا يفصل الحادث فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة - بواسطة إلقاء الأقلام - لمعرفة من هى من نصيبه ، على نحو ما نصنع فى "القرعة" مثلا . وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم فى نهر الأردن . فجرت مع التيار إلا قلم زكريا فثبت . وكانت هذه هى العلامة بينهم . فسلموا بمريم له ، وكل ذلك من الغيب الذى لم يكن الرسول ﷺ حاضره ، ولم يبلغ إلى علمه ، والآن نجيء إلى مولد عيسى ، العجيبة الكبرى فى عرف الناس ، والشأن العادى للمشيئة الطليقة (إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) لقد تأهلت مريم - إذن - بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقى هذا الفضل ، واستقبال هذا الحدث ، وها هى ذى تتلقى - لأول مرة - التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير ، إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله . بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم . . فالمسيح بدل من الكلمة فى العبارة . وهو الكلمة فى الحقيقة . فماذا وراء هذا التعبير ؟ إن هذه وأمثالها ، من أمور الغيب التى لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد ، وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم . . فتضمنت البشارة نوعه ، وتضمنت اسمه ونسبه . وظهر من هذا أن مرجعه أمه ، فكانت ظاهرة معجزة تصاحب مولده (ويكلم الناس فى المهد). ولمحة من مستقبله (وكهلا). . وسمته والموكب الذى ينتسب إليه (ومن الصالحين) فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر فى الحياة ، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة . واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان (قالت:رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟) وجاءها الجواب ، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول الفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل ، ومألوفهم المحدود (قال:كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمرا فإنما يقول له:كن فيكون) وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب ; ويعود الإنسان على نفسه يسألها فى عجب:كيف عجبت من هذا الأمر الفطرى الواضح القريب (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (٤٩) ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخلق الذى اختارها الله لإنجابه على غير مثال ؛ وكيف ستمضى سيرته فى بنى إسرائيل . . وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح ، ويلتقيان فى سياق واحد ، كأنما يقعان اللحظة ، (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) والكتاب قد يكون المراد به الكتابة ؛ وقد يكون هو التوراة والإنجيل ، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان . والحكمة حالة فى النفس يتأتى معها وضع الأمور فى مواضعها , وإدراك الصواب واتباعه . وهى خير كثير . والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل . فهى أساس الدين الذى جاء به . والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة ، ولروح الدين التى طمست فى قلوب بنى إسرائيل . وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة ، وهى قاعدة دين المسيح - عليه السلام - وفيها الشريعة التى يقوم عليها نظام المجتمع ؛ ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل . أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين ، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص (ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله . وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم . إن كنتم مؤمنين) ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى - عليه السلام - كانت لبنى إسرائيل ، فهو أحد أنبيائهم . ومن ثم كانت التوراة التى نزلت على موسى - عليه السلام - وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية ، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم ، هى كتاب عيسى كذلك ، مضافا إليها الإنجيل الذى يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير . والآية التى بشر الله أمه مريم أنها ستكون معه ، والتى واجه بها بالفعل بنى إسرائيل هى معجزة النفخ فى الموات فيدخله سر

الحياة ، وإحياء الموتى من الناس ، وإبراء المولود الأعمى ، وشفاء الأبرص ، والإخبار بالغيب – بالنسبة له – وهو المدخر من الطعام وغيره فى بيوت بنى إسرائيل ، وهو بعيد عن رؤيته بعينه ، وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح – عليه السلام – كما هو مقدر فى غيب الله عند البشارة لمريم ، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى – أن كل خارقة من هذه الخوارق التى جاءهم بها ، إنما جاءهم بها من عند الله . وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلا وتحديدا ؛ ولم يدع القول يتم ليذكر فى نهايته إذن الله زيادة فى الاحتياط ! وإذا كان الله قادرا أن يجرى هذه المعجزات على يد واحد من خلقه ، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال . . ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هذا المولد الخاص متى رد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسان الله – سبحانه – بمألوف (وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) وهذا الختام فى دعوة عيسىَ ـ عليه السلام – لبنى إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة فى طبيعة دين الله –وهى حقائق ذات قيمة ، خاصة حين ترد على لسان عيسى – عليه السلام – بالذات ، وهو الذى ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات ، التى نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التى لا تتبدل بين رسول ورسول ، وهو يستند فى تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى:حقيقة التوحيد الذى لا شبهة فيه (وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم) فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادى التى قام عليها دين الله كله و المعجزات التى جاءهم بها لم يجىء بها من عند نفسه . فما له قدرة عليها وهو بشر . إنما جاءهم بها من عند الله . ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله . . ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء – فما هو برب وإنما هو عبد – وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب , فلا عبودية إلا لله . . ويختم قوله بالحقيقة الشاملة . . فتوحيد الرب وعبادته , وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به: (هذا صراط مستقيم). . وما عداه عوج وانحراف ، ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر ، وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته ، ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه – عليه السلام – بالكفر من بنى إسرائيل ، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال:من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون:نحن أنصار الله , آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) والأن لقد أحس عيسى الكفر من بنى إسرائيل – بعد ما أراهم كل تلك المعجزات التى لا تتهيأ لبشر عندئذ دعا دعوته (قال:من أنصارى إلى الله ؟) من أنصارى إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصارى إلى الله لأبلغ إليه ، وأؤدى عنه ؟ ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ، ويحملون دعوته ، ويحامون دونها , ويلغونها (قال الحواريون:نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) فذكروا الإسلام بمعناه الذى هو حقيقة الدين ، وأشهدوا عيسى – عليه السلام – على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله . . أى نصرة رسوله ودينه ومنهجه فى الحياة ، ثم اتجهوا إلى ربهم مباشرة فى هذا الأمر الذى يقومون عليه (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين)

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدى شهادة لهذا الدين . شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء ؛ وتؤيد الخير الذى يحمله هذا الدين للبشر . . وهو لا يؤدى هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلا رفيعا ، يشهد لهذا الدين بالأحقية فى الوجود ، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات . وهو لا يؤدى هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ، ونظام مجتمعه , وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله ، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهى القويم . . وجهاده لقيام هذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج ؛ وإيثاره الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشرية ، فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه . . أى أن يوفقهم ويعينهم فى أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين ؛ وأن يبعثهم للجهاد فى سبيل تحقيق منهجه فى الحياة ، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج . ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من(الشهداء)على حق هذا الدين ، وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعى لنفسه الإسلام . . فهذا هو الإسلام ، كما فهمه الحواريون . وكما هو فى ضمير المسلمين الحقيقيين ! ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار فى نفسه غير سيرة الإسلام ; أو حاولها فى نفسه ، ولكنه لم يؤدها فى المجال العام ، ولم يجاهد لإقامة منهج الله فى الحياة إيثارا للعافية ، وإيثارا لحياته على حياة الدين ، فقد قصر فى شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين . شهادة تصد الآخرين عنه . وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له ! وويل لمن يصد الناس عن دين الله (وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (٥٤) عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين ، وما هو من المؤمنين ! والمكر الذى مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم – عيسى عليه السلام – مكر طويل عريض . فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذى لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل . . وقد اتهموه بالكذب والشعوذة ؛ ووشوا به إلى الحاكم الرومانى "بيلاطس" وادعوا أنه "مهيج" يدعو الجماهير للانتقاض على الحكومة ! وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير ! حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتولوا عقابه بأيديهم ، لأنه لم يجرؤ – وهو وثنى – على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة . . وهذا قليل من كثير ويمضى السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى – عليه السلام – وبنى إسرائيل (ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين) والمشاكلة هنا فى اللفظ هى وحدها التى تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله . . والمكر هو التدبير السيء . . ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذى يواجهه هو تدبير الله . فأين هم من الله ؟ وأين مكرهم من تدبير الله ؟ لقد أرادوا صلب عيسى – عليه السلام – وقتله . وأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه , وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . وكان ما أراده الله . وأبطل الله مكر الماكرين (إذ قال الله:يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه . . فهى أمور غيبية تدخل فى المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها ، الذين يجرون وراءها ، ويجعلونها مادة للجدل ، ينتهى بهم الحال إلى المراء , وإلى التخليط ، وإلى التعقيد . دون ما جزم بحقيقة ، وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . فلا يصعب القول فيه . فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح . . الإسلام . . الذى عرف حقيقته كل نبى ، وجاء به كل رسول ، وآمن به كل من آمن حقا بدين الله . . وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة فى ميزان الله . . كما أنهم كذلك فى واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان ، وحقيقة الأتباع . . ودين الله واحد . وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء

بِه من قبلِه ومن بعدِه كل رسول . والذين يتبعون محمدا ﷺ (إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) هم فى الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم . من لدن آدم – عليه السلام – إلى آخر الزمان وفى هذا النص تقرير لجدية الجزاء ، وللقسط الذى لا يميل شعرة ، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء ، رجعة إلى الله لا محيد عنها . وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له . وعذاب شديد فى الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه . وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس . . (والله لا يحب الظالمين). . فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين . .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من قصة عيسى التى تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجدل ، يبدأ التعقيب الذى يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص ، وينتهى إلى تلقين الرسول ﷺ ما يواجه به أهل الكتاب مواجهة فاصلة تنهى الحوار والجدل ; وتستقر على حقيقة ما جاء به ، وما يدعو إليه ، فى وضوح كامل وفى يقين ، وهكذا نجد هذا التعقيب يتضمن ابتداء صدق الوحى الذى يوحى إلى محمد ﷺ (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) ذلك القصص . وذلك التوجيه القرآنى كله . فهو وحى من الله . يتلوه الله على نبيه ﷺ وفى التعبير معنى التكريم والقرب والود . . فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه ؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم ، ثم يحسم التعقيب فى حقيقة عيسى عليه السلام ، وفى طبيعة الخلق والإرادة التى تنشىء كل شىء كما أنشأت عيسى عليه السلام (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . خلقه من تراب . ثم قال له:كن فيكون) إن ولادة عيسى عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبى البشر ؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى – بسبب مولده – ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب ، هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب . وأن النفخة من روح الله هى التى جعلت منه هذا الكائن الإنسانى ، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التى صاغوها حول عيسى . ودون أن يقولوا عن آدم:إن له طبيعة لاهوتية . على حين أن العنصر الذى به صار آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذى به ولد عيسى من غير أب:عنصر النفخة الإلهية فى هذا وذاك ! وإن هى إلا الكلمة:(كن) تنشىء ما تراد له النشأة(فيكون)! وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة . . حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم ، وحقيقة الخلق كله . وتدخل إلى النفس فى يسر وفى وضوح ، حتى ليعجب الإنسان:كيف ثار الجدل حول هذا الحادث , وهو جار وفق السنة الكبرى . سنة الخلق والنشأة جميعا ! وعندما يصل السياق بالقضية إلى هذا التقرير الواضح يتجه إلى الرسول ﷺيثبته على الحق الذى معه ، والذى يتلى عليه ، ويؤكده فى حسه ؛ كما يؤكده فى حس من حوله من المسلمين , الذين ربما تؤثر فى بعضهم شبهات أهل الكتاب ، وتلبيسهم وتضليلهم الخبيث (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) وما كان الرسول ﷺ ممتريا ولا شاكا فيما يتلوه عليه ربه ، فى لحظة من لحظات حياته . . وإنما هو التثبيت على الحق وهنا وقد وضحت القضية وظهر الحق جليا – يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البين وأن يدعوهم إلى المباهلة (فمن حاجك فيه – من بعد ما جاءك من العلم – فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) وقد دعا الرسول ﷺ من كانوا يناظرونه فى هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد , ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين . فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة . وتبين الحق واضحا . ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يسلموا احتفاظا بمكانتهم من قومهم ، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم !!! وما كانت البينة هى التى يحتاج إليها من يصدون عن هذا الدين إنما هى المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذى لا خفاء فيه ، ثم يمضى التعقيب بعد الدعوة إلى المباهلة – وربما كانت الآيات التالية قد نزلت بعد الامتناع عنها – يقرر حقيقة الوحى ، وحقيقة القصص ، وحقيقة الوحدانية التى يدور حولها الحديث ؛ ويهدد من يتولى عن الحق ويفسد فى الأرض بهذا التولى (إن هذا لهو القصص الحق . وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) والحقائق التى تقررها هذه النصوص سبق تقريرها . وهى تذكر هنا للتوكيد بعد الدعوة إلى المباهلة وآبائها ، فإنما الجديد هو وصف الذين يتولون عن الحق بأنهم مفسدون ، وتهديدهم بأن الله عليم بالمفسدين ، ومن ثم يتلو ذلك التهديد فى السياق دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء:إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله . . وإلا فهى المفاصلة التى لا مصاحبة بعدها ولا مجادلة (قل:يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون)

وإنها لدعوة منصفة من غير شك . دعوة لا يريد بها النبى ﷺ أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين . . كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد . لا يعلو بعضهم على بعض ، ولا يتعبد بعضهم بعضا . دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد ، لا يريد أن يفىء إلى الحق القويم (فإن تولوا فقولوا:اشهدوا بأنا مسلمون) فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك . والعبودية لله وحده دون شريك . وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية . . إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . . وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون . المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده ؛ ويتعبدون لله وحده ؛ ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . . إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد . والنظام الإسلامى هو وحده من بين سائر النظم الذى يحقق هذا التحرر . . إن الناس فى جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . . يقع هذا فى أرقى الديمقراطيات كما يقع فى أحط الديكتاتوريات سواء . . إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبد الناس . حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين . . وهذا الحق فى جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس – فى صورة من الصور وهذه المجموعة التى تخضع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هى الأرباب الأرضية التى يتخذها بعض الناس أربابا من دون الله ؛ ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبية ، وهم بذلك يعبدونها من دون الله ، وإن لم يسجدوا لها ويركعوا . فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلا لله .

الشوط التالى من السورة ما يزال يجرى مع الخط الأول الأساسى العريض فيها . . خط المعركة بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة . . معركة العقيدة ، وما يبذل أعداء هذا الدين من جهد ومن حيلة ومن مكيدة ومن خداع ، ومن كذب ، ومن تدبير ، للبس الحق بالباطل , وبث الريب والشكوك ، وتبييت الشر والضر لهذه الأمة بلا وناة ولا انقطاع ، ويبدأ هذا الشوط بمواجهة أهل الكتاب – اليهود والنصارى – بسخف موقفهم وهم يحاجون فى إبراهيم – عليه السلام – فيزعم اليهود أنه كان يهوديا ، ويزعم النصارى أنه كان نصرانيا . على حين أن إبراهيم سابق لليهودية والنصرانية ، سابق للتوراة والإنجيل .. ويقرر حقيقة ما كان عليه إبراهيم . . لقد كان على الإسلام . . دين الله القويم . يلى ذلك فى السياق كشف الهدف الأصيل الكامن وراء مماراة أهل الكتاب فى إبراهيم وغير إبراهيم فهو الرغبة الملحة فى إضلال المسلمين عن دينهم ، وتشكيكهم فى عقيدتهم ثم يطلع الجماعة المسلمة على لون من تبييت أعدائهم وتدبيرهم ، لزعزعة ثقتهم فى عقيدتهم ودينهم ، بطريقة خبيثة ماكرة لئيمة . ذلك أن يعلنوا إيمانهم بالإسلام أول النهار , ثم يكفروا بالإسلام آخره و يكشف عن طبيعة أهل الكتاب وأخلاقهم ونظرتهم للعهود والمواثيق – على أمانة فى بعضهم لا ينكرها عليهم ثم يذكر حقيقة الصلة بين موكب الرسل المتتابعة . . وهى عهد الله عليهم أن يسلم السابق منهم للاحق وينصر و يقرر أن الذى يبتغى دينا غير دين الله . . الإسلام . . يخرج فى الحقيقة على نظام الكون كله كما إراده الله وهنا يوجه الرسول ﷺ والمسلمين معه إلى إعلان الإيمان بدين الله الواحد ، ممثلا فى كل ما جاء به الرسل أجمعين . وأن الله لا يقبل من البشر جميعا إلا هذا الدين وبمناسبة البذل والفداء يحبب للمسلمين أن ينفقوا مما يحبون من مال فى هذه الدنيا.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ {٦٥} هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٦٦} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٦٧} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ {٦٨} وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {٦٩} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ {٧٠} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ {٧١} وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {٧٢} وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {٧٣} يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {٧٤} وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {٧٥} بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {٧٦} إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٧٧} وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {٧٨} مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ {٨٠} وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ {٨١} فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٨٢} أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {٨٣} قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {٨٤} وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {٨٥} كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {٨٦} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {٨٧} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ {٨٨} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٨٩} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ {٩٠} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ {٩١} لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ) {٩٢}

قال محمد بن إسحاق:حدثنى محمد بن أبى – مولى زيد بن ثابت – حدثنى سعيد بن جبير – أو عكرمة – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال:اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده . فقالت الأحبار:ما كان إبراهيم إلا يهوديا . وقالت النصارى:ما كان إبراهيم إلا نصرانيا . فأنزل الله تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم . . .)الآية . وسواء كانت هذه هى مناسبة نزول الآية أو لم تكن ، فظاهر من نصها أنها نزلت ردا على ادعاءات لأهل الكتاب ، وحجاج مع النبى ﷺ أو مع بعضهم البعض فى حضرة الرسول ﷺ والهدف من هذه الادعاءات هو إحتكار عهد الله مع إبراهيم – عليه السلام – أن يجعل فى بيته النبوة ؛ – تكذيب دعوى النبى ﷺ أنه على دين إبراهيم ، وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى ؛ وتشكيك المسلمين فى هذه الحقيقة ، ومن ثم يندد الله بهم ويكشف مراءهم الذى لا يستند إلى دليل . فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل . فكيف إذن يكون يهوديا ؟ أو كيف إذن يكون نصرانيا ؟ إنها دعوى مخالفة للعقل ، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟) ثم يمضى فى التنديد بهم ، وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟) حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه ، ونزع الثقة منهم ومما يقولون , عاد يقرر الحقيقة التى يعلمها الله . سبحانه . وقوله الفصل الذى لا يبقى معه لقائل قول ؛ إلا أن يجادل ويمارى بلا سلطان ولا دليل (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن كان حنيفا مسلما . وما كان من المشركين) فيؤكد ما قرره من قبل ضمنا من أن إبراهيم – عليه السلام – ما كان يهوديا ولا نصرانيا . وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . ويقرر أنه كان مائلا عن كل ملة إلا الإسلام . فقد كان مسلما . . مسلما بالمعنى الشامل للإسلام الذى مر تفصيله وبيانه

(وما كان من المشركين) وهذه الحقيقة متضمنة فى قوله قبلها (ولكن كان حنيفا مسلما). . ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

يشير أولا إلى أن اليهود والنصارى – الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة - مشركون . . ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن حنيفا مسلما !

ويشير إلى أن الإسلام شىء والشرك شىء آخر . فلا يلتقيان . الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه ، وكل مقتضياته . ومن ثم لا يلتقى مع لون من الوان الشرك أصلا .

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم ، وسدنة بيته فى مكة . . فهو حنيف مسلم ، وهم مشركون . (وما كان من المشركين)!

وما دام أن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، فليس لأى من اليهود أو النصارى – أو المشركين أيضا – أن يدعى وراثته ، ولا الولاية على دينه , وهم بعيدون عن عقيدته . . والعقيدة هى الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام . حين لا يلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض ، إذا أنبت تلك الوشيجة التى يتجمع عليها أهل الإيمان . فالإنسان فى نظر الإسلام إنسان بروحه . بالنفخة التى جعلت منه إنسانا . ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه . ولا يلتقى على مثل ما تلتقى عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد ، ثم يمضى السياق فالذين اتبعوا إبراهيم – فى حياته – وساروا على منهجه ، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه . ثم هذا النبى الذى يلتقى معه فى الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين . ثم الذين آمنوا بهذا النبى ﷺ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا) (والله ولى المؤمنين) فهم حزبه الذين ينتمون إليه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحدا غيره . وهم أسرة واحدة . وأمة واحدة . من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ; ومن رواء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت ! و يكشف للجماعة المسلمة عما يريده بها أهل الكتاب من وراء كل جدال وكل مراء (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ وقالت طائفة من أهل الكتاب:آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم - قل:إن الهدى هدى الله – أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم – قل:إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدى . يكرهون لها أن تفىء إلى عقيدتها الخاصة فى قوة وثقة ويقين . ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا المنهج ، (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) فهو ود النفس ورغبة القلب وراء كل كيد ، وكل دس , وكل مراء ، وكل جدال ، وكل تلبيس ، فهم يوقعون أنفسهم فى الضلالة فى اللحظة التى يودون فيها إضلال المسلمين . (وما يضلون إلا أنفسهم . وما يشعرون) وهنا يقرع أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟) وكان أهل الكتاب وقتها – وما يزالون حتى اليوم – يشهدون الحق واضحا و منهم من يسلم بناء على هذا الذى يجده فى كتبه ويشهده متحققا لأنهم يجدون فى الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان . . غير أنهم يكفرون . . لا لنقص فى الدليل . ولكن للهوى والمصلحة والتضليل . . والقرآن يناديهم: يا أهل الكتاب . . لأنها الصفة التى كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الجديد . .. يناديهم مرة أخرى ليفضح ما يقومون به من لبس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه وتضييعه فى غمار الباطل ، على علم وعن عمد وفى قصد ، وهذا الذى ندد الله به – سبحانه – من أعمال أهل الكتاب حينذاك ، هو الأمر الذى درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة . . فهذا طريقهم على مدار التاريخ . . اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى . ثم تابعهم الصليبيون ! وفى خلال القرون المتطاولة دسوا – مع الأسف – فى التراث الإسلامى ما لا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون ! اللهم إلا هذا الكتاب المحفوظ الذى تكفل الله بحفظه أبد الآبدين ، دسوا ولبسوا فى التاريخ الإسلامى وأحداثه ورجاله . ودسوا ولبسوا فى الحديث النبوى حتى قيض الله له رجاله الذين حققوه وحرروه إلا ما ند عن الجهد الإنسانى المحدود . ودسوا ولبسوا فى التفسير القرآنى حتى تركوه تيها لا يكاد الباحث يفىء فيه إلى معالم الطريق . ودسوا ولبسوا فى الرجال أيضا . فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامى – وما يزالون فى صورة المستشرقين وتلاميذ المستشرقين الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم فى البلاد التى يقول أهلها:إنهم مسلمون . والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة فى صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية , ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين ! كذلك يعرض بعض المحاولات التى يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة المسلمة فى دينها ، وردها عن الهدى ، من ذلك الطريق الماكر اللئيم (وقالت طائفة من أهل الكتاب:آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) وهى طريقة ماكرة لئيمة كما قلنا . فإن إظهارهم الإسلام ثم الرجوع عنه ، يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم فى بلبلة واضطراب . وبخاصة العرب الأميين ، الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب . فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون ، حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب إطلاعهم على خبيئة ونقص فى هذا الدين . وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال . وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم . فى شتى الصور التى تناسب تطور الملابسات والناس فى كل جيل ، ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلى اليوم هذه الخدعة ، فلجأت القوى المناهضة للإسلام فى العالم إلى طرق شتى ، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة . إن لهذه القوى اليوم فى أنحاء العالم الإسلامى جيشا جرارا من العملاء فى صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين – وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين – يحملون أسماء المسلمين ، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة ! وبعضهم من "علماء" المسلمين !

هذا الجيش من العملاء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتي الأساليب ، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة . وتوهين قواعدها من الأساس . والتهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء . وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق . والدق المتصل على "رجعيتها" ! والدعوة للتلفت منها . وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها ! وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها . وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية . وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التي تستوى عليها العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذى ينثرونه في الأرض نثرا ! ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص ! وهم بعد مسلمون ! أليسوا يحملون أسماء المسلمين ؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار . وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره . . ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم . لا يتغير إلا الشكل والإطار فى ذلك الدور القديم ! وكان أهل الكتاب يقول بعضهم لبعض: تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم . وليكن هذا سرا بينكم لا تبدونه ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)وفعل الإيمان حين يعدى باللام يعني الاطمئنان والثقة . أى ولا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تفضوا بأسراركم إلا لهؤلاء دون المسلمين ! وعملاء الصهيونية والصليبية اليوم كذلك . . إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر . . هو الإجهاز على هذه العقيدة فى الفرصة السانحة التى قد لا تعود . . وقد لا يكون هذا التفاهم فى معاهدة أو مؤامرة . ولكنه تفاهم العميل مع العميل على المهمة المطلوبة للأصيل ! ويأمن بعضهم لبعض فيفضى بعضهم إلى بعض . . ثم يتظاهرون – بعضهم على الأقل – بغير ما يريدون وما يبيتون . . والجو من حولهم مهيأ ، والأجهزة من حولهم معبأة . . والذين يدركون حقيقة هذا الدين فى الأرض كلها مغيبون أو مشردون ! وهنا يوجه الله نبيه ﷺ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله ؛ وأن من لا يفيء إليه لن يجد الهدى أبدا فى أى منهج ولا فى أى طريق (قل:إن الهدى هدى الله) يجيء هذا التقرير قبل أن ينتهى السياق من عرض مقولة أهل الكتاب كلها . . ثم يمضى يعرض بقية تآمرهم بعد هذا التقرير المعترض (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم) بهذا يعللون قولهم: (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) فهو الحقد والحسد والنقمة أن يؤتى الله أحدا من النبوة والكتاب ما أتى أهل الكتاب . وهو الخوف أن يكون فى الاطمئنان للمسلمين وإطلاعهم على الحقيقة التى يعرفها أهل الكتاب ، ثم ينكرونها ، عن هذا الدين ، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله ! ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) وقد شاءت إرادته أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب ؛ بعد ما خاسوا بعهدهم مع الله ؛ ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم ؛ وعرفوا الحق وليسوه بالباطل ؛ وتخلوا عن الأمانة التى ناطها الله بهم ؛ وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم (والله ذو الفضل العظيم) وليس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلا في كتاب . وبالخير ممثلا فى رسالة . . وبالرحمة ممثلة في رسول . ثم يمضى السياق يصف حال أهل الكتاب ؛ ويبين ما فى هذه الحال من نقائص ؛ ويقرر القيم الصحيحة التى يقوم عليها الإسلام دين المسلمين . ويبدأ فيعرض نموذجين من نماذج أهل الكتاب فى التعامل والتعاقد (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم) إنها خطة الإنصاف والحق وعدم البخس والغبن يجرى عليها القرآن الكريم فى وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك و حتى فى معرض الجدل والمواجهة . فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسا أمناء ، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك) ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين ، الذين لا يردون حقا – وإن صغر – إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة . ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم ، بالكذب على الله عن علم وقصد (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا:ليس علينا فى الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وهذه بالذات صفة يهود . فهم الذين يقولون هذا القول ؛ ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . فالأمانة بين اليهودى واليهودى . أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب ، فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم ، وغشهم وخداعهم ، ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) هنا نجد القرآن الكريم يقرر قاعدته الخلقية الواحدة ، وميزانه الخلقى الواحد . ويربط نظرته هذه بالله وتقواه (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) ومن هنا فلا نصيب لهم فى الآخرة عنده ، أن كانوا يبغون بالغدر والنكث بالعهد ثمنا قليلا هو هذه المصالح الدنيوية الزهيدة ! ولا رعاية لهم من الله فى الآخرة جزاء استهانتهم بعهده – وهو عهدهم مع الناس – فى الدنيا (أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم . ولهم عذاب أليم)

ثم يمضى فى عرض نماذج من أهل الكتاب ، الذى يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلوون السنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة , ويشترون بهذا كله ثمنا (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون:هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس . كونوا عبادا لى من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال التى يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب , نعرفها نحن جيدا فى زماننا هذا . فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ، ويلوونها ليا , ليصلوا منها إلى مقررات معينة ، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وإنها تمثل ما أراده الله منها . بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله فى أساسها ، ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيدا فى بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلما ! الذين يحترفون الدين , ويسخرونه فى تلبية الأهواء كلها ؛ ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضا من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل (ويقولون هو من عند الله . وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) هذا النموذج من بنى إسرائيل – فيما يبدو من مجموع هذه الآيات – كانوا يتلمسون فى كتاب الله الجمل ذات التعبير المجازى ؛ فيلوون السنتهم بها – أى فى تأويلها واستخراج مدلولات منها هى لا تدل عليها بغير ليها وتحريفها –

ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هى من كتاب الله ؛ ويقولون بالفعل:هذا ما قاله الله، فرد الله عليهم هذا التحريف وهذا التأويل ، بأنه ليس من شأن نبى يخصه الله بالنبوة ويصطفيه لهذا الأمر العظيم أن يأمر الناس أن يتخذوه إلها هو والملائكة . فهذا مستحيل (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس: كونوا عبادا لى من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) إن النبي يوقن أنه عبد ، وأن الله وحده هو الرب ، الذى يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم . فما يمكن أن يدعى لنفسه صفة الألوهية التى تقتضى من الناس العبودية . فلن يقول نبى للناس (كونوا عبادا لى من دون الله) ولكن قوله لهم: (كونوا ربانيين) منتسبين إلى الرب ، عبادا له وعبيدا ، توجهوا إليه وحده بالعبادة , حتى تخلصوا له وحده فتكونوا(ربانيين) بحكم علمكم للكتاب وتدارسكم له .بعد ذلك يصور حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات ، على عهد من الله وميثاق , ينبنى عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات ، وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين:لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال:أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا: أقررنا . قال:فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون ؟) لقد أخذ الله – سبحانه – موثقا رهيبا جليلا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله . موثقا على كل رسول . أنه مهما أتاه من كتاب وحكمة ، ثم جاء رسول بعده مصدقا لما معه , أن يؤمن به وينصره ، ويتبع دينه . وجعل هذا عهدا بينه وبين كل رسول . والتعبير القرآنى يطوى الأزمنة المتتابعة بين الرسل ؛ ويجمعهم كلهم فى مشهد . والله الجليل الكبير يخاطبهم جملة:هل أقروا هذا الميثاق وأخذوا عليه عهد الله الثقيل (قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟) وهم يجيبون (قالوا أقررنا) فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويشهدهم عليه (قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) هذا المشهد الهائل الجليل ، يرسمه التعبير ، فيجف له القلب ويجب ؛ وهو يتمثل المشهد بحضرة البارىء الجليل ، والرسل مجتمعين ، وفى ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخيرﷺ ومناصرته وتأييده ، تمسكا بدياناتهم – لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته ، أولئك الذى يتخلفون فسقة عن تعليم أنبيائهم . فسقة عن عهد الله معهم (فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟) (إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام . صورة كونية تأخذ بالمشاعر ، وترتجف لها الضمائر . . صورة الناموس القاهر الحاكم ، الذى يرد الأشياء والأحياء إلى سنن واحد وشرعة واحدة ، ومصير واحد . (وإليه يرجعون) فلا مناص لهم فى نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبر الجليل . .

ولما كانت الأمة المسلمة – المسلمة حقا لا جغرافية ولا تاريخا ! – هى الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله . وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه ، وحقيقة الموكب السنى الكريم الذى حمل هذا المنهج وبلغه ، فإن الله يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة كلها ؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات ، واحترامها لجميع الرسل ، ومعرفتها بطبيعة دين الله ، الذى لا يقبل الله من الناس سواه (قل:آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، والنبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم . ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) ثم التعقيب على هذا الإيمان بقوله (ونحن له مسلمون) فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه . بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس وهى لفتة ذات قيمة قبل التقرير الشامل الدقيق الأكيد (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين ، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها . وهى توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمدا رسول الله معناها وحقيقتها . وهى التقيد بالمنهج الذى جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع الشريعة التى أرسله بها ، والتحاكم إلى الكتاب الذى حمله إلى العباد ، هذا هو الإسلام كما يريده الله ؛ ولا عبرة بالإسلام كما تريده أهواء البشر فى جيل منكود من أجيال الناس ! ولا كما تصوره رغائب أعدائه المتربصين به ، وعملائهم هنا أو هناك ! فأما الذين لا يقبلون الإسلام على النحو الذى أراده الله ، بعدما عرفوا حقيقته ، ثم لم تقبلها أهواؤهم ، فهم فى الآخرة من الخاسرين . ولن يهديهم الله ، ولن يعفيهم من العذاب (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات . والله لا يهدى القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) ولكن الإسلام – مع هذا – يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه فى وجه ضال يريد أن يتوب ؛ ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب ويعمل صالحا . فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون , الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفرا . والذين يلجون فى هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة ، وينتهى أمد الاختبار ، ويأتى دور الجزاء . هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة , ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهبا فيما يظنون هم أنه خير وبر ، ما دام مقطوعا عن الصلة بالله . ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهبا ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم . وما لهم من ناصرين) وبمناسبة الإنفاق على غير درب الله ، وفى غير سبيله ، وبمناسبة الافتداء يوم لا ينفع الفداء ، يبين البذل الذى يرضاه (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم) وقد فقه المسلمون وقتها معنى هذا التوجيه الإلهى ، وحرصوا على أن ينالوا البر – وهو جماع الخير – بالنزول عما يحبون ، وببذل الطيب من المال ، سخية به نفوسهم فى انتظار ما هو أكبر وأفضل .

يتألف هذا الجزء الأخير من سورة آل عمران ، من أربعة مقاطع رئيسية ، تكمل خط سير السورة , الذى أفضنا فى الحديث عنه فى مطلعها

فأما المقطع الأول فيمثل طرفا من المعركة الجدلية بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة في المدينة ، في تلك الفترة التي رجحنا أن السورة تناولت أحداثها في حياة الجماعة المسلمة – من بعد غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة إلى ما بعد غزوة أحد في شوال من العام الثالث

وأما المقطع الثاني فهو نقلة إلى معركة أخرى ليست باللسان والكيد والتدبير فقط ؛ ولكنها كذلك بالسيف والرمح والسنان . نقلة إلى "غزوة أحد" وأحداثها والتعقيبات عليها . في أسلوب هو أسلوب القرآن وحده ! وقد نزلت الآيات بعد المعركة ؛ فكانت مجالا لتجلية نواح متعددة من التصور الإيماني ؛ كما كانت مجالا لتربية الجماعة المسلمة على ضوء المعركة ، وعلى ضوء ما كشفته من أخطاء في التصور ، واضطراب في التصرف ، وخلل في الصف .

والمقطع الثالث عودة إلى أهل الكتاب ، ونكولهم عن مواثيقهم مع النبي ﷺ تلك المواثيق التي كان قد عقدها معهم أول مقدمه إلى المدينة ؛ والتنديد بانحراف تصوراتهم , وما اجترحوه من الآثام مع أنبيائهم كذلك . ث والمقطع الأخير يرسم صورة لحال المؤمنين مع ربهم ، تمثل دبيب الإيمان في قلوبهم حين يواجهون آيات الله في الكون ، ويتجهون إلى ربهم ورب هذا الكون بدعاء خاشع واجف . واستجابة ربهم لهم بالمغفرة وحسن الثواب . مع التهوين من شأن الكفار وما ينالونه من متاع قليل في هذه الأرض ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . وتختم السورة بدعوة من الله للذين آمنوا . . دعوة إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى لعلهم يفلحون . ,وتثبيت القلوب المؤمنة على ما ينالها من الابتلاء في النفس والمال

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {٩٣} فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {٩٤} قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٩٥} إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ {٩٦} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ {٩٧} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ {٩٨} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {٩٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ {١٠٠} وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {١٠١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ {١٠٢} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {١٠٣} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٠٥} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ {١٠٦} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١٠٧} تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ {١٠٨} وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ {١٠٩} كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ {١١٠} لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ {١١١} ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ {١١٢} لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ {١١٣} يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ {١١٤} وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {٢١٥} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١١٦} مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {١١٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ {١١٨} هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {٢١٩} إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {١٢٠}

ويبدأ الدرس بتقرير أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل – إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة – ويبدو أن هذا التقرير كان ردا على اعتراض بنى إسرائيل على إباحة القرآن لبعض المحرمات اليهودية من الطعام . مع أن هذه المحرمات إنما حرمت عليهم وحدهم ، في صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم . ثم يرد كذلك على اعتراضهم على تحويل القبلة – ذلك الموضوع الذي استغرق مساحة واسعة في سورة البقرة من قبل – فيبين لهم أن الكعبة هي بيت إبراهيم ؛ وهي أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة ، فالاعتراض عليه مستنكر ممن يدعون وراثة إبراهيم ! وعقب هذا البيان يندد بأهل الكتاب لكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله ؛ ورفضهم الاستقامة ، وميلهم إلى الخطة العوجاء ، ورغبتهم في سيطرتها على الحياة ، وهم يعرفون الحق ولا يجهلونه .

ومن ثم يدعو أهل الكتاب جملة ؛ ويتجه إلى الجماعة المسلمة ، يحذرها طاعة أهل الكتاب . . فإنها الكفر . . ولا يليق بالمسلمين الكفر وكتاب الله يتلى عليهم مع تحذيرهم الاستماع لدسائس أهل الكتاب فيهم ، فيهلكوا بالفرقة كما تفرق هؤلاء فهلكوا في الدنيا والآخرة .

ثم يعرف الله المسلمين حقيقة مكانهم في هذه الأرض ، وحقيقة دورهم في حياة البشر ويقرر مصير الذين كفروا فلم يجنحوا للإسلام ؛ فهم مأخوذون بكفرهم ، لا تنفعهم أموال ينفقونها ، ولا تغنى عنهم أولاد ، وعاقبتهم البوار . وينتهى الدرس بتحذير

الذين آمنوا من اتخاذ بطانة من دونهم ، يودون لهم العنت ، وتنفث أفواههم البغضاء ، وما تخفى صدورهم أكبر ، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، ويفرحون لما ينزل بساحتهم من السوء ، ويدل هذا التوجيه الطويل ، المنوع الإيحاءات ، على ما كانت تعانيه الجماعة المسلمة حينذاك من كيد أهل الكتاب ودسهم فى الصف المسلم ؛ وما كان يحدثه هذا الدس من بلبلة . ثم يبقى هذا التوجيه يعمل فى أجيال هذه الأمة ، ويبقى كل جيل مطالبا بالحذر من أعداء الإسلام التقليديين . وهم هم تختلف وسائلهم ، ولكنهم لا يختلفون !

لقد كان اليهود يتصيدون كل حجة ، وكل شبهة ، لينفذوا منها إلى الطعن فى صحة الرسالة المحمدية ، فلما قال القرآن إنه مصدق لما فى التوراة برزوا يقولون: فما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حرم على بنى إسرائيل ؟ وتذكر الروايات أنهم ذكروا بالذات لحوم الإبل وألبانها . . وهي محرمة على بني إسرائيل . – وإسرائيل هو يعقوب – عليه السلام – وتقول الروايات إنه مرض مرضا شديدا ، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن – تطوعا – عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه . فقبل الله منه نذره . وجرت سنة بنى إسرائيل على اتباع أبيهم فى تحريم ما حرم (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل – إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) ويتحداهم أن يرجعوا إلى التوراة ، وأن يأتوا بها ليقرأوها ، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم ، وليست عامة ثم يهدد من يفترى الكذب منهم على الله بأنه إذن ظالم ، لا ينصف الحقيقة ، ولا ينصف نفسه ، ولا ينصف الناس (قل:فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) الظالم معروف ، فيكفى أن يوصموا بهذه الوصمة ، ليتقرر نوع العذاب الذى ينتظرهم . وهم يفترون الكذب على الله . وهم إليه راجعون . .كذلك كان اليهود يبدئون ويعيدون فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، بعد أن صلى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس حتي الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة . . ومع أن هذا الموضوع قد نوقش مناقشة كاملة وافية فى سورة البقرة من قبل ، وتبين أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأولى ، وأن اتخاذ بيت المقدس هذه الفترة كان لحكمة معينة بينها الله فى حينها . . مع هذا فقد ظل اليهود يبدئون فى هذا الموضوع ويعيدون ، ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس للحق الواضح الصريح – على مثال ما يصنع اليوم أعداء هذا الدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين ! وهنا يرد الله عليهم كيدهم ببيان جديد (قل: صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات: مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا ، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلى ، ومن ثم يجيء الأمر باتباع إبراهيم في ملته (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ،وما كان من المشركين) ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل . فهى أول بيت وضع فى الأرض للعبادة وخصص لها . مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده ، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود . وجعله مباركا و هدى للعالمين. وفيه علامات بينة على أنه مقام إبراهيم ويذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمنا . فهو مثابة الأمن لكل خائف . وليس هذا لمكان آخر فى الأرض . وقد بقى هكذا مذ بناه إبراهيم وإسماعيل . وحتى في جاهلية العرب ، وفي الفترة التى انحرفوا فيها عن دين إبراهيم ، وعن التوحيد الخالص الذى يمثله هذا الدين . . حتى فى هذه الفترة بقيت حرمة هذا البيت سارية ، كما قال الحسن البصري وغيره: " كان الرجل يقتل فيضع فى عنقه صوفة ، ويدخل الحرم ، فيلقاه ابن المقتول , فلا يهيجه حتى يخرج " (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) وَيقالَ إن المقصود هو الحجَر الأثرى اَلذى كان إبرَاهيم – عليَه السلام – يَقفَ عليه فى أثناء البناءَ . وكان ملصقا بالكعبة فأخره عنها الخليفة الراشد عمر – رضي الله عنه – حتى لا يشوش الذين يطوفون به على المصلين عنده . وقد أمر المسلمون أن يتخذوه مصلى بقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ثم يقرر أن الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسر لهم ذلك . وإلا فهو الكفر الذى لا يضر الله شيئا (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (٩٧) ويلفت النظر – في التعبير – هذا اَلتعَميم الشاملَ فى فرضيةَ الحَج (علىَ النَاسَ). . ففيه أولا إيحاء بأن هذاَ الحج مكتوب على هؤلاء اليهود الذين يجادلون فى توجه المسلمين إليه فى الصلاة . على حين أنهم هم أنفسهم مطالبون من الله بالحج إلى هذا البيت والتوجه إليه ، بوصفه بيت أبيهم إبراهيم ، وبوصفه أول بيت وضع للناس للعبادة . فهم – اليهود – المنحرفون المقصرون العاصون ! وفيه ثانيا إيحاء بأن الناس جميعا مطالبون بالإقرار بهذا الدين ، وتأدية فرائضه وشعائره ، والاتجاه والحج إلى بيت الله الذى يتوجه إليه المؤمنون به ، والحج فريضة فى العمر مرة ، عند أول ما تتوافر الاستطاعة . من الصحة وإمكان السفر وأمن الطريق ، وهو مؤتمر المسلمين السنوى العام . يتلاقون فيه عند البيت الذى صدرت لهم الدعوة منه . والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم ، بعد هذا البيان يلقن الرسول ﷺ أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد ، على موقفهم من الحق الذى يعلمونه ، ثم يصدون عنه ، ويكفرون بآيات الله . وهم شهداء على صحتها (قل:يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون ؟ قل:يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون) ثم إن المخدوعين من الجماعة المسلمة بكون هؤلاء الناس أهل كتاب ، يسقط هذا الخداع عنهم ، وهم يرون الله – سبحانه – يعلن حقيقة أهل الكتاب هؤلاء ، ويدمغهم بالكفر الكامل الصريح . فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب . وهو - سبحانه – يهددهم بما يخلع القلوب (والله شهيد على ما تعملون) (وما الله بغافل عما تعملون) وهو تهديد رعيب ، حين يحس إنسان أن الله يشهد عمله . وأنه ليس بغافل عنه . بينما عمله هو الكفر والخداع والإفساد والتضليل ! (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) ٩٩ ويسجل الله تعالى عليهم معرَفتهم بالحق الذى يَكفرونَ به ، ويصدون الناس عنه ، مما يجزم بأنهم كانوا على يقين من صدق ما يكذبون به ، ومن صلاح ما يصدون الناس عنه (... لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء) إنها لفتة ذات مغزى كبير . . إن سبيل الله هو الطريق المستقيم . وما عداه عوج غيرَ مستقيم . وحين يصد الناس عن سبيل الله ؛ وحين يصد المؤمنون عن منهج الله ، فإن الأمور كلها تفقد استقامتها ، والموازين كلها تفقد سلامتها ، ولا يكون فى الأرض إلا العوج الذى لا يستقيم إنه الفساد . فساد الفطرة بانحرافها . وفساد الحياة باعوجاجها . . وهذا الفساد هو حصيلة صد الناس عن سبيل الله وصد المؤمنين عن منهج الله . . وهو فساد فى التصور . وفساد فى الضمير . وفساد فى الخلق . وفساد فى السلوك . وفساد فى الروابط . وفساد فى المعاملات . وفساد فى كل ما بين الناس بعضهم وبعض من ارتباطات . وما بينهم وبين الكون الذى يعيشون فيه .

وهنا يحذر الأمة المسلمة من اتباع غيرها ، ويبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها . ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب ، وإلا فسيقودونها إلى الكفر لا مناص . إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلي عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة . كما تحمل معنى الشك فى كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعدا فى طريق النماء والارتقاء . وهذا بذاته دبيب الكفر فى النفس ، وهى لا تشعر به ولا ترى خطره القريب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) (١٠٠) ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير . فيا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ورسوله فيهم . ودواعى الإيمان حاضرة , والدعوة إلى الإيمان قائمة ، أجل . إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن فى ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟) إنه الاعتصام بالله يعصم . والله سبحانه باق . وهو – سبحانه – الحى القيوم (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) ولا ضير – وفق روح الإسلام وتوجيهه - من الانتفاع بجهود البشر كلهم فى غير هذا من العلوم البحتة ، علما وتطبيقا . . مع ربطها بالمنهج الإيمانى: من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للإنسان . ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها فى خير البشرية ، وتوفير الأمن لها والرخاء . وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية ، فأما التلقى عنهم فى التصور الإيمانى ، وفى تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنسانى . وفى منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفى منهج الأخلاق والسلوك أيضا . . أما التلقى فى شىء من هذا كله ، هو الذى حذر الله الأمة المسلمة عاقبته . وهى الكفر الصراح ، وبعد هذا التحذير من التلقى عن أهل الكتاب وطاعتهم واتباعهم ينادى الله الجماعة المسلمة ويوجهها إلى القاعدتين الأساسيتين اللتين تقوم عليهما حياتها ومنهجها . واللتين لا بد منهما لكى تستطيع أن تضطلع بالأمانة الضخمة التى ناطها الله بها ، وأخرجها للوجود من أجلها . . هاتان القاعدتان المتلازمتان هما: الإيمان . والأخوة . . الإيمان بالله وتقواه ومراقبته فى كل لحظة من لحظات الحياة . والأخوة فى الله ، تلك التى تجعل من الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة ، قادرة على أداء دورها العظيم فى الحياة البشرية ، وفى التاريخ الإنسانى: دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإقامة الحياة على أساس المعروف وتطهيرها من لوثة المنكر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدى بهما دورها الشاق العظيم . فَإِذَا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه ، ركيزة الإيمان والتقوى أولا . . التقوى التى تبلغ أن توفى بحق الله الجليل . . التقوى الدائمة اليقظة التى لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله ، اتقوا الله – كما يحق له أن يتقى – وهى هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهدا فى بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) والموت غيب لا يدرى إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما ، وأن يكون فى كل لحظة مسلما . وذكر الإسلام بعد التقوى يشى بمعناه الواسع الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعا لمنهجه ، واحتكاما إلى كتابه (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء , فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فهى أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام . . من الركيزة الأولى . . أساسها الاعتصام بحبل الله – أى عهده ونهجه ودينه – وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة فى الله ، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية , والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية . ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال (واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا) ويذكرهم كذلك نعمته عليهم فى إنقاذهم من النار التى كانوا على وشك أن يقعوا فيها , إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه فى التعقيب فى الآية (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فأما وظيفة الجماعة المسلمة التى تقوم على هاتين الركيزتين لكى تنهض بها لإقامة منهج الله فى الأرض ، ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر فهى التى تقررها الآية التالية (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . لا بد من سلطة فى الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، هذا هو تصور الإسلام للمسألة . . إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى . . سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهى عن الشر . . سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة فى الله .

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – من ثم – تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم . وفيهم الحاكم المتسلط . وفيهم الهابط الذى يكره الصعود . وفيهم المسترخى الذى يكره الاشتداد . وفيهم المنحل الذى يكره الجد . وفيهم الظالم الذى يكره العدل . وفيهم المنحرف الذى يكره الاستقامة . . وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف ، ويعرفون المنكر . ولا تفلح الأمة , ولا تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفا ، والمنكر منكرا . . وهذا ما يقتضى سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين ، الإيمان بالله والأخوة فى الله (وأولئك هم المفلحون) ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف ؛ وينذرها عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله قبلها – من أهل الكتاب – ثم تفرقوا واختلفوا ، فنزع الله الراية منهم ، وسلمها للجماعة المسلمة المتأخية . . فوق ما ينتظرهم من العذاب , يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١٠٧)

وهنا يرسم السياق مشهدا من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية . . فنحن فى مشهد هول . هول لا يتمثل فى الفاظ ولا فى أوصاف . ولكن يتمثل فى آدميين أحياء . فى وجوه وسمات . . هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة , وهذه وجوه كمدت من الحزن ، وغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة . . وليست مع هذا متروكة إلى ما هى فيه ، ويعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيبا قرآنيا يتمشى مع خطوط السورة العريضة , يتضمن إثبات صدق الوحى والرسالة . وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة . والعدل المطلق فى حكم الله فى الدنيا والآخرة . وملكية الله المفردة لما

فِي السماوات وما فِي الأرض . ورجعة الأمر إليه فى كل حال (تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ) ١٠٨ (وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩)

تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر . . تلك آيات الله وبيناته لعباده: نتلوها عليك بالحق . فهى حق فيما تقرره من مبادىء وقيم ؛ وهى حق فيما تعرضه من مصائر وجزاءات . وهى تتنزل بالحق ممن يملك تنزيلها ؛ وممن له الحق فى تقرير القيم ، وتقرير المصائر ، وتوقيع الجزاءات . وما يريد بها الله أن يوقع بالعباد ظلما فهو الحكم العدل . وهو المالك لأمر السماوات والأرض . ولكل ما فى السماوات وما فى الأرض . وإليه مصير الأمور . بعدئذ يصف الأمة المسلمة لنفسها ! ليعرفها مكانها وقيمتها وحقيقتها ؛ ثم يصف لها أهل الكتاب - ولا يبخسهم قدرهم ، إنما يبين حقيقتهم ويطمعهم فى ثواب الإيمان وخيره - ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم . فهم لن يضروهم فى كيدهم لهم وقتالهم ، ولن ينصروا عليهم . وللذين كفروا منهم عذاب النار فى الآخرة ، لا ينفعهم فيه ما أنفقوا فى الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى ، إن شطر الآية الأولى فى هذه المجموعة يضع على كاهل الجماعة المسلمة فى الأرض واجبا ثقيلا ، يقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) ١١٠ (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ(١١١) إن التعبير بكلمة "أخرجت" المبنى لغير الفاعل ، تعبير يلفت النظر . وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة ، تخرج هذه الأمة إخراجا ؛ وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب , ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله . . إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى ، لطيفة الدبيب . حركة تخرج على مسرح الوجود أمة . أمة ذات دور خاص . لها ام خاص ، ولها حساب خاص (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما فى طريقها من أشواك . . إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد . . وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ; ولتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة ثم نعود إلى الشطر الآخر من الآية الأولى فى هذه المجموعة (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) وهو ترغيب لأهل الكتاب فى الإيمان . فهو خير لهم . خير لهم فى هذه الدنيا ، يستعصمون به من الفرقة والهلهلة التى كانوا عليها فى تصوراتهم الاعتقادية ، والتى ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية . إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعى لحياتهم ، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية - من ثم - على غير أساس ، عرجاء أو معلقة فى الهواء ككل نظام اجتماعى لا يقوم على أساس اعتقادى شامل ، وخير لهم فى الآخرة يقيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير ، ثم هو بيان كذلك لحالهم ، لا يبخس الصالحين منهم حقهم (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحسن إسلامهم . منهم عبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد , وثعلبة بن شعبة ، وكعب بن مالك . . وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله ، ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات منوعة باليهود فى المدينة ، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة: عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين ، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين فى نفوس المسلمين ، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم ، وتفرقهم شيعا وفرقا ، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة (لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا - إلا بحبل من الله وحبل من الناس - وباؤوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق , ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة ، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة المسلمة , ولن يجليها من الأرض . . إنما هو الأذى العارض فى الصدام ، والألم الذاهب مع الأيام . . فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال ، فالهزيمة مكتوبة عليهم - فى النهاية - والنصر ليس لهم على المؤمنين ، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين . . ذلك أنه قد (ضربت عليهم الذلة) وكتبت لهم مصيرا . فهم فى كل أرض يذلون ، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين - حين يدخلون فى ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها , وتنيلهم الأمن والطمأنينة - ولم تعرف يهود منذ ذلك الحين الأمن إلا فى ذمة المسلمين .ولكن يهود لم تعاد أحدا فى الأرض عداءها للمسلمين ! . . (وباءوا بغضب من الله) كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب . (وضربت عليهم المسكنة) تعيش فى ضمائرهم وتكمن فى مشاعرهم ، ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر - ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم , وأقاموا منهج الله فى حياتهم - وكتب لأعدائهم المذلة والهوان إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم ، ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود . فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم ، مهما تكن دعواهم فى الدين:إنه المعصية والاعتداء (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فالكفر بآيات الله - سواء بإنكارها أصلا ، أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها فى واقع الحياة - وقتل الأنبياء بغير حق . وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس والعصيان والاعتداء . . هذه هى المؤهلات لغضب الله ، وللهزيمة والذلة والمسكنة . . وهذه هى المؤهلات التى تتوافر اليوم فى البقايا الشاردة فى الأرض من ذرارى المسلمين . الذين يسمون أنفسهم - بغير حق - مسلمين ! هذه هى المؤهلات التى يتقدمون بها إلى ربهم اليوم ، فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة . فإذا قال أحد منهم: لماذا نغلب فى الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها:ما هو الإسلام ، ومن هم المسلمون ؟! ثم يقول ! ... وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود السياق عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء . فهناك المؤمنون . يصور حالهم مع ربهم ، فإذا هى حال المؤمنين الصادقين . ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين (ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات . وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين) وهو صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيمانا صادقا عميقا ، وكاملا شاملا , وانضموا للصف المسلم ، وقاموا على حراسة هذا الدين ، آمنوا بالله واليوم الآخر . . وقد نهضوا بتكاليف الإيمان ، وحققوا سمة الأمة المسلمة التى انضموا إليها. وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يبخسوا حقا , ولن يكفروا أجرا . مع الإشارة إلى أن الله - سبحانه - علم أنهم من المتقين ، وهى صورة ترفع أمام الراغبين فى هذه الشهادة ، وفى هذا الوعد ، ليحققها فى ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضىء فى أفقها المنير . وفى الجانب الآخر يذكر الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم

؛ ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن ينالهم شيء منها فى الآخرة لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم . الخير المنبثق من الإيمان بالله , على تصور واضح ، وهدف ثابت ، وطريق موصول إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار . . وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك ، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيرا . فلا خير إلا أن يكون موصولا بالإيمان ، ونابعا من الإيمان . ولكن القرآن لا يعبر هكذا كما نعبر . إنما يرسم مشهدا حيا نابضا بالحياة (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ){١١٧} فَهم الذين تنكبوا المنهج الذى يجمع مفردات الخير والبر ، فيجعلها خطا مستقيما ثابتا وأصلا . له هدف مرسوم ، وله دافع مفهوم ، وله طريق معلوم . . فلا يترك للنزوة العارضة , والرغبة الغامضة ، والفلتة التى لا ترجع إلى منهج ثابت مستقيم (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) وهكذا يتقرر أن لا جزاء على بذل وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان وإلا أن يكون باعثه الإيمان . . يقول الله هذا ويقرره فلا تبقى بعده كلمة لإنسان ؛ ولا يجادل فى هذا القرار إلا الذين يجادلون فى آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وفى نهاية الدرس الذى ابتدأ ببيانا لما فى سلوك أهل الكتاب من انحراف ، وكشفا لما فى جدالهم من مغالطة ، وفضحا لما يريدونه بالمسلمين من سوء ، وتوجيها للجماعة المسلمة لتنهض بتكاليفها ، دون أن تلقى بالا إلى المجادلين المنحرفين الفاسقين . فى نهاية هذا الدرس ، ونهاية هذا المقطع الطويل من السورة كلها يجيء التحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها الطبيعيين بطانة ، وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا عدو ، يجيء هذا التحذير فى صورة شاملة خالدة , ما نزال نرى مصداقها فى كل وقت ، وفى كل أرض . صورة رسمها هذا القرآن الحى ، فغفل عنها أهل هذا القرآن ، فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والمهانة (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ {١١٨} هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) {١١٩}إنها صورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس ، وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة , والانفعالات الظاهرة ، والحركة الذاهبة الآيبة . وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرورا فى كل زمان وفى كل مكان . ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء . يتظاهرون للمسلمين – فى ساعة قوة المسلمين وغلبتهم – بالمودة . فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة . وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة ، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال ، ولا يقصرون فى اعنات المسلمين ونثر الشوك فى طريقهم ، والكيد لهم والدس ، ما واتتهم الفرصة فى ليل أو نهار ، وما من شك أن هذه الصورة التى رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب ، كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين فى المدينة ؛ وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذى كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين ، وللشر المبيت ، وللنوايا السيئة التى تجيش فى صدورهم ؛ فى الوقت الذى كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعا فى أعداء الله هؤلاء ، وما يزال يفضى إليهم بالمودة ، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ؛ ويتخذ منهم بطانة وأصحابا وأصدقاء ، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار . . فجاء هذا التنوير وهذا التحذير ، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر , ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين ، الذين لا يخلصون لها أبدا ، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة . ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصورا على فترة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة ، تواجه واقعا دائما . . كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود والمسلمون فى غفلة من تحذير الله لهم ، يوادون من حاد الله ورسوله ؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم . والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة فى أى جيل (ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة ، ولكننا لا نفيق . . ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر . ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التى لا يذهب بها ود يبذله (تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (١٢٠) وها هو ذا كتاب الله يعلمنا – كما علم الجماعة المسلمة الأولى – كيف نتقى كيدهم , وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذى تكنه صدورهم ، ويفلت على السنتهم منه شواظ (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط) فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء ؛ وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع . الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل ؛ ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسبا لودهم المدخول ، ثم الخوف من الله وحده . ومراقبته وحده ، هو تقوى الله التى تربط القلوب بالله , فلا تلتقى مع أحد إلا فى منهجه ، ولا تعتصم بحبل إلا حبله والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ؛ وأن سنة الله نافذة . فمن عمى عن سنة الله المشهودة فى الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والإنكسار والهوان ، ويحسن قبل أن ننهى هذا الدرس أن نقرر حقيقة أخرى ، عن سماحة الإسلام فى وجه كل هذا العداء . فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء . ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها . إنما هى مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم ، وللكينونة المسلمة . هذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة ؛ ويترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى ، وهى تعمل فى الأرض وفق هذه النصوص ، إن هذا المنهج خير . وما يصد البشرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية . الذين ينبغى لها أن تطاردهم ، حتى تقصيهم عن قيادتها . . وهذا هو الواجب الذى انتدبت له الجماعة المسلمة , فأدته مرة خير ما يكون الأداء . وهى مدعوة دائما إلى أدائه ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة . . تحت هذا اللواء . .

ومن معركة الجدل والمناظرة ، والبيان والتنوير ، والتوجيه والتحذير – فيما سبق من السورة - ينتقل السياق إلى المعركة فى الميدان ، معركة أحد . . وغزوة أحد لم تكن معركة فى الميدان وحده ؛ إنما كانت معركة كذلك فى الضمير . . كانت معركة ميدانها أوسع الميادين. . ميدان النفس البشرية ، وتصوراتها ومشاعرها ، وأطماعها وشهواتها ،

وكان النصر أولا ، وكانت الهزيمة ثانيا ، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة . . انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة للحقائق التى جلاها القرآن ; واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين . وتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ,وانطلاق الجماعة المسلمة – بعد ذلك – متحررة من كثير من غبش التصور ، وتميع القيم ، وتأرجح المشاعر ، فى الصف المسلم . وذلك بتميز المنافقين فى الصف إلى حد كبير ، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق ، فى القول والفعل ، وفى

الشعور والسلوك .ولعل مما يلفت النظر فى التعقيب القرآنى على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب بين استعراض مشاهدها ووقائعها ، والتوجيهات المباشرة على هذه المشاهد والوقائع . . وبين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس ، وتخليصها من غبش التصور , وتحريرها من ربقة الشهوات ، وثقلة المطامع ، وظلام الأحقاد ، وظلمة الخطيئة , وضعف الحرص والشح . والرغبات الدفينة . ثم الكلام عن الربا والنهى عنه ، وعن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية فى النتائج السيئة للمعركة ! ثم . . سعة المساحة التى يعمل فيها المنهج القرآنى فى النفس البشرية ، وفى الحياة الإنسانية ، وتعدد نقط الحركة فيها ، وتداخلها ، وتكاملها العجيب ... ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه ؛ وعرج على الإنفاق فى السراء والضراء فحض عليه ؛ وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة ؛ وعرج على كظم الغيظ والعفو عن الناس ، وعلى الإحسان والتطهر من الخطيئة بالاستغفار ، والتوبة وعدم الإصرار ؛ فجعلها كلها مناط الرضوان . كما عرج على رحمة الله المتمثلة فى رحمة الرسول ﷺ ولين قلبه للناس . وعلى مبدأ الشورى وتقريره فى أحرج الأوقات . وعلى الأمانة التى تمنع الغلول . وعلى البذل والتحذير من البخل فى نهاية ما نزل فى التعقيب على الغزوة من آيات . . كذلك كان من الحقائق التى اتكأ عليها السياق من بدئه إلى نهايته . . حقيقة قدر الله . ورد الأمر إليه جملة . وتصحيح التصور فى هذه النقطة تصحيحا حاسما جازما وفى النهاية . . إشعار الجماعة المسلمة أن ليس لها من أمر النصر شىء . إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره ، من خلال جهادها . وأجرها هى على الله . ولا قيمة ولا وزن فى نظر الإسلام للانتصار العسكرى أو السياسى أو الاقتصادى ؛ ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الربانى ، فى الانتصار على النفس ، والغلبة على الهوى , والفوز على الشهوة . وتقرير الحق الذى إراده الله فى حياة الناس . ليكون كل نصر نصرا لله ولمنهج الله . وليكون كل جهد فى سبيل الله ومنهج الله . وإلا فهى جاهلية تنتصر على جاهلية . ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية . إنما الخير أن ترتفع راية الحق لذات الحق .والحق واحد لا يتعدد . إنه منهج الله وحده . ولا حق فى هذا الكون غيره . وانتصاره لا يتم حتى يتم أولا فى ميدان النفس البشرية . وفى نظام الحياة الواقعية . وحين تخلص النفس من حظ ذاتها فى ذاتها ، ومن مطامعها وشهواتها ، ومن أدرانها وأحقادها ، ومن قيودها وأصفادها . وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق . وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها , لتكل الأمر كله إلى الله ، بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة . وحين تحكم منهج الله فى الأمر كله ، وتعد هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها . حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار فى المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصارا . فى ميزان الله . وإلا فهو انتصار الجاهلية على الجاهلية ، الذى لا وزن له عند الله ولا قيمة ! ومن ثم كان ذلك الازدواج ، وكان ذلك الشمول ، فى التعقيب على المعركة التى دارت يوم أحد ، فى ذلك الميدان الفسيح ، الذى يعد ميدان القتال جانبا واحدا من جوانبه الكثى

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {١٢١} إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {١٢٢} وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {١٢٣} إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ {١٢٤} بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ {١٢٥} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {١٢٦} لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ {١٢٧} لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ {١٢٨} وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {١٢٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {١٣٠} وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {١٣١} وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {١٣٢} وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ {١٣٣} الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٣٤} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {١٣٥} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {١٣٦} قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {١٣٧} هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {١٣٨} وَلاَ تَهِنُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ {١٤١} أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ {١٤٢} وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ {١٤٣} وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ {١٤٤} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ {١٤٥} وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ {١٤٦} وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {١٤٧} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {١٤٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ {١٤٩} بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ {١٥٠} سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ {١٥١} وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {١٥٢} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {١٥٣} ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {١٥٤} إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {١٥٥} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {١٥٦}

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {١٥٧} وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللّهِ تُحْشَرُونَ {١٥٨} فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {١٥٩} إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {١٦٠}

فلننظر إذن كيف عالج القرآن الكريم الموقف بطريقة القرآن ، إن النص القرآنى لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض ؛ ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ؛ ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه ، وهو لا يعرض الحوادث عرضا تاريخيا مسلسلا بقصد التسجيل ؛ إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ؛ ورسم سمات النفوس ، وخلجات القلوب , وتصوير الجو الذى صاحبها ؛ والسنن الكونية التى تحكمها ؛ والمبادىء الباقية التى تقررها . وبذلك تستحيل الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات , والنتائج والاستدلالات . يبدأ السياق منها ؛ ثم يستطرد حولها ؛ ثم يعود إليها ؛ ثم يجول فى أعماق الضمائر ، وفى أغوار الحياة ؛ ويكرر هذا مرة بعد مرة ، حتى ينتهى برواية الحادث إلى نهايتها وقد ضم جناحيه على حفل من المعانى والدلائل والقيم والمبادىء , لم تكن رواية الحادث إلا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حواليها . وحتى يكون قد تناول ملابسات الحادث وعقابيله فى الضمائر ، فجلاها . ونقاها ، وأراحها فى مواضعها ، فلا تجد النفس منها حيرة ولا قلقا ، ولا تحس فيها لبسا ولا دخلا ، وينظر الإنسان فى رقعة المعركة ، وما وقع فيها – على سعته وتنوعه – ثم ينظر إلى رقعه التعقيب القرآنى ، وما تناوله من جوانب ؛ فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك ، وأبقى على الزمن ، وألصق بالقلوب ، وأعمق فى النفوس ، وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية, وهذه الحصيلة الباقية تدخرها النصوص القرآنية لكل قلب يتفتح بالإيمان ، فى أى زمان وفى أى مكان (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) هكذا يبدأ باستعادة المشهد الأول للمعركة واستحضاره – وقد كان قريبا من نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ومن ذاكرتهم . ولكن إبتداء الحديث على هذا النحو ، واستحضار المشهد الأول بهذا النص ، من شأنه أن يعيد المشهد بكل حرارته وبكل حيويته، وأن يضيف إليه ما وراء المشهد المنظور – الذى يعرفونه – من حقائق أخرى لا يتضمنها المشهد المنظور . وأولها حقيقة حضور الله – سبحانه – معهم ، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم . وهى الحقيقة التى تحرص التربية القرآنية على استحضارها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها فى التصور الإسلامى . والإشارة هنا إلى غدو النبى ﷺ من بيت عائشة – رضى الله عنها – وقد لبس لأمته ودرعه بعد التشاور فى الأمر ، وما انتهى إليه من عزم على الخروج من المدينة للقاء المشركين خارجها . وما أعقب هذا من تنظيم الرسول ﷺللصفوف ، ومن أمر للرماة باتخاذ موقفهم على الجبل ، وهو مشهد يعرفونه ، وموقف يتذكرونه ولكن الحقيقة الجديدة فيه هى هذه (إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (١٢٢) (والله سميع عليم) ويا له من مشهد ، الله حاضره ! ويا له من موقف ، الله شاهده ! ويا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به ، وتخالط كل ما دار فيه من تشاور . والسرائر مكشوفة فيه لله . وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ما تهمس به الضمائر ، واللمسة الثانية فى هذا المشهد الأول ، هى حركة الضعف والفشل التى راودت قلوب طائفتين من المسلمين ؛ بعد تلك الحركة الخائنة التى قام بها رأس النفاق "عبد الله بن أبى بن سلول" حين انفصل بثلث الجيش ، مغضبا أن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيه ، واستمع إلى شباب أهل المدينة ! وقال: (لو نعلم قتالا لاتبعناكم !) فدل بهذا على أن قلبه لم يخلص للعقيدة ؛ وأن شخصه ما يزال يملأ قلبه ، ويطغى فى ذلك القلب على العقيدة . . العقيدة التى لا تحتمل شركة فى قلب صاحبها ، ولا تطيق لها فيه شريكا ! فإما أن يخلص لها وحدها ، وإما أن تجانبه هى وتجتويه ! وهاتان الطائفتان – كما ورد فى الصحيح – من حديث سفيان بن عيينة – هما بنو حارثة وبنو سلمة . أثرت فيهما حركة عبد الله بن أبى ، وما أحدثته من رجة فى الصف المسلم ، من أول خطوة فى المعركة . فكادتا تفشلان وتضعفان . لولا أن أدركتهما ولاية الله وتثبيته , كما أخبر هذا النص القرآنى (والله وليهما) وهكذا يكشف الله المخبوء فى مكنونات الضمائر ؛ والذى لم يعلمه إلا أهله ، حين حاك فى صدورهم لحظة ؛ ثم وقاهم الله إياه ، وصرفه عنهم ، وأيدهم بولايته ، فمضوا فى الصف . . يكشفه لاستعادة أحداث المعركة ، واستحياء وقائعها ومشاهدها . ثم . . لتصوير خلجات النفوس ، وإشعار أهلها حضور الله معهم ، وعلمه بمكنونات ضمائرهم – كما قال لهم: (والله سميع عليم) لتوكيد هذه الحقيقة وتعميقها فى حسهم . ثم لتعريفهم كيف كانت النجاة ؛. ومن ثم يوجههم هذا الوجه الذى لا وجه غيره للمؤمنين (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) على وجه القصر والحصر ، على الله وحده فليتوكل المؤمنون . فليس لهم – إن كانوا مؤمنين - إلا هذا السند المتين .

و من هنا يتبين كيف يتولى القرآن استحياء القلوب وتوجيهها وتربيتها ؛ بالتعقيب على الأحداث ، وهى ساخنة ! ويتبين الفرق بين رواية القرآن للأحداث وتوجيهها ، وبين سائر المصادر التى قد تروى الأحداث بتفصيل أكثر ، ولكنها لا تستهدف القلب البشرى ، والحياة البشرية ، بالإحياء والاستجاشة ، وبالتربية والتوجيه . كما يستهدفها القرآن الكريم ، بمنهجه القويم هكذا يبدأ الحديث عن المعركة التى لم ينتصر فيها المسلمون – وقد كادوا – وهى قد بدأت بتغليب الاعتبارات الشخصية على العقيدة عند المنافق عبد الله بن أبى ؛ وتابعه فى حركته أتباعه الذين غلبوا اعتباره الشخصى على عقيدتهم . وبالضعف الذى كاد يدرك طائفتين صالحتين من المسلمين . ثم انتهت بالمخالفة عن الخطة العسكرية تحت مطارق الطمع فى الغنيمة ! فلم تغن النماذج العالية التى تجلت فى المعركة ، عن المصير الذى انتهت إليه ، بسبب ذلك الخلل فى الصف ، وبسبب ذلك الغبش فى التصور ، وقبل أن يمضى فى الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التى انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بالمعركة التى انتهت بالنصر – معركة بدر – لتكون هذه أمام تلك ، مجالا للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ؛ ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة . ثم – بعد ذلك – ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ لحكمة تتحقق من وراء النصر كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء . وأن مرد الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين ، وفى جميع الأحوال (ولقد نصركم الله ببدر – وأنتم أذلة – فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين:ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفا

من الذين كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين – ليس لک من الأمر شيء - أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء والله غفور رحيم)

والنصر فى بدر كان فيه رائحة المعجزة ، فقد تم بغير أداة من الأدوات المادية المألوفة للنصر . لم تكن الكفتان فيها – بين المؤمنين والمشركين – متوازنتين ولا قريبتين من التوازن . كان المشركون حوالى ألف ، خرجوا نفيرا لاستغاثة أبى سفيان ، لحماية القافلة التى كانت معه ، مزودين بالعدة والعتاد ، والحرص علي الأموال , والحمية للكرامة . وكان المسلمون حوالى ثلاثمائة ، لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة ذات الشوكة ، إنما خرجوا لرحلة هينة . لمقابلة القافلة العزلاء وأخذ الطريق عليها ; فلم يكن معهم – على قلة العدد – إلا القليل من العدة . وكان وراءهم في المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم ، ومنافقون لهم مكانتهم ، ويهود يتربصون بهم . . وكانوا هم بعد ذلک كله قلة مسلمة فى وسط خضم من الكفر والشرک فى الجزيرة . ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة أنهم مهاجرون مطاردون من مكة ، وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبتة غير مستقرة فى هذه البيئة ! فبهذا كله يذكرهم الله – سبحانه – ويرد ذلک النصر إلي سببه (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ، بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ) إن الله هو الذى نصرهم ؛ ونصرهم لحكمة نص عليها فى مجموعة هذه الآيات . وهم لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم . فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله ، الذى يملک النصر والهزيمة ؛ والذى يملک القوة وحده والسلطان . فلعل التقوى أن تقودهم إلى الشكر ; وأن تجعله شكرا وافيا لائقا بنعمة الله عليهم على كل حال . هذه هى اللمسة الأولى فى تذكيرهم بالنصر فى بدر . . ثم يستحضر مشهدها ويستحيي صورتها فى حسهم ، كأنهم اللحظة فيها (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلي إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وكانت هذه كلمات رسول الله ﷺ يوم بدر ، للقلة المسلمة التى خرجت معه ؛ والتى رأت نفير المشركين ، وهى خرجت لتلقى طائفة العير الموقرة بالمتاجر ، لا لتلقى طائفة النفير الموقرة بالسلاح ! وقد أبلغهم الرسول ﷺ ما بلغه يومها ربه ، لتثبيت قلوبهم وأقدامهم ، وهم بشر يحتاجون إلى العون في صورة قريبة من مشاعرهم وتصوراتهم ومألوفاتهم ، وأبلغهم كذلک شرط هذا المدد ، إنه الصبر والتقوى ؛ الصبر على تلقى صدمة الهجوم ، والتقوى التى تربط القلب بالله فى النصر والهزيمة (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) فالأن يعلمهم الله أن مرد الأمر كله إليه ، وأن الفاعلية كلها منه – سبحانه – وأن نزول الملائكة ليس إلا بشرى لقلوبهم ؛ لتأنس بهذا وتستبشر ، وتطمئن به وتثبت . أما النصر فمنه مباشرة ، ومتعلق بقدره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة (ما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) وهكذا يحرص السياق القرآنى على رد الأمر كله إلى الله ، كى لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة:قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة ، وإرادته الفاعلة , وقدره المباشر . وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هى الفاعلة . وإنما هى أداة تحركها المشيئة . وتحقق بها ما تريد (قَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{١٢٣} إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ{١٢٤} بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ{١٢٥} وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة فى التصور الإسلامى ، وعلى تنقيتها من كل شائبة. وبمثل هذه التوجيهات المكررة فى القرآن ، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد ، استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين ، على نحو بديع ، هادىء ، عميق ، مستنير (وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ (١٢٧) وفى هذه الآيات يستحضر مشهد بدر والرسول ﷺ يعدهم الملائكة مددا من عند الله ; إذا هم استمسكوا بالصبر والتقوى والثبات فى المعركة – حين يطلع المشركون عليهم من وجههم هذا . . ثم يخبرهم بحقيقة المصدر الفاعل – من وراء نزول الملائكة – وهو الله . الذى تتعلق الأمور كلها بإرادته ، ويتحقق النصر بفعله وإذنه (الله العزيز الحكيم) فهو(العزيز) القوى ذو السلطان القادر على تحقيق النصر . وهو(الحكيم)الذى يجرى قدره وفق حكمته ، والذى يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة ، ثم يبين حكمة هذا النصر أى نصر. وغاياته التى ليس لأحد من البشر منها شى (ليقطع طرفا من الذين كفروا . أو يكبتهم فينقلبوا خائبين – ليس لک من الأمر شيء - أو يتوب عليهم . أو يعذبهم فإنهم ظالمون) إن النصر من عند الله . لتحقيق قدر الله . وليس للرسول ﷺ ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصى . كما أنه ليس له ولا لهم دخل فى تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء ! ! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده . لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده (ليقطع طرفا من الذين كفروا). فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة ، أو ينقص من فاعليتهم فى الأرض بالهزيمة ! (أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) أى يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين (أو يتوب عليهم) فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم , فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام والهداية (أو يعذبهم فإنهم ظالمون) يعذبهم بنصر المسلمين عليهم . أو بأسرهم . أو بموتهم على الكفر الذى ينتهى بهم إلي العذاب . . جزاء لهم على ظلمهم بالكفر ، وظلمهم بفتنة المسلمين ، وظلمهم بالفساد فى الأرض ، وظلمهم بمقاومة الصلاح الذى يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه . . إلى آخر صنوف الظلم الكامنة فى الكفر والصد عن سبيل الله . فهى حكمة الله ، وليس لبشر منها شيء . . حتى رسول الله ﷺ يخرجه النص من مجال هذا الأمر ، ليجرده لله وحده – سبحانه – فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريک ، بذلک ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر:من أسبابه ومن نتائجه ! وبذلک يطامنون من الكبر الذى يثيره النصر فى نفوس المنتصرين ، ومن البطر والعجب والزهو الذى تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم ! (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ويختم هذا التذكير ببدر ، وهذا التقرير للحقائق الأصيلة فى التصور ، بالحقيقة الشاملة التى ترجع إليها حقيقة أن أمر النصر والهزيمة مرده إلى حكمة الله وقدره . . بتقرير أصله الكبير:وهو أن الأمر لله فى الكون كله ، ومن ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفق ما يشاء: (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله غفور رحيم) فهى المشيئة المطلقة ، المستندة إلى الملكية المطلقة . وهو

التصرف المطلق فى شأن العباد , بحكم هذه الملكية لما فى السماوات وما فى الأرض . إنما يقضى الأمر فى هذا الشأن بالحكمة والعدل , وبالرحمة والمغفرة . فشأنه – سبحانه – الرحمة والمغفرة (والله غفور رحيم) والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته ، بالعودة إليه ، ورد الأمر كله لله ... وقبل أن يدخل السياق فى صميم الاستعراض للمعركة – معركة أحد – والتعقيبات على وقائعها وأحداثها . . تجىء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى ، التى المعنا فى مقدمة الحديث إليها . المعركة فى أعماق النفس وفى محيط الحياة . . يجىء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله . وعن الإنفاق فى السراء والضراء ، والنظام التعاونى الكريم المقابل للنظام الربوى الملعون . وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس وإشاعة الحسنى فى الجماعة . وعن الاستغفار من الذنب والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة تجىء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول فى سياق المعركة الحربية ؛ لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (١٣١) ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوى بالتفصيل . ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوما يريدون فىَ هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ، ويتداروا به ، ليقولوا:إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة . أما الأربعة فى المائة والخمسة فى المائة والسبعة والتسعة . . فليست أضعافا مضاعفة . وليست داخلة فى نطاق التحريم ! ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع ، وليست شرطا يتعلق به الحكم . والنص الذى فى سورة البقرة قاطع فى حرمة أصل الربا – بلا تحديد ولا تقييد: (وذروا ما بقى من الربا). . أيا كان ! فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول:إنه فى الحقيقة ليس وصفا تاريخيا فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة ، والتى قصد إليها النهى هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوى المقيت ، أيا كان سعر الفائدة . إن النظام الربوى معناه إقامة دورة المال كلها على هذه القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهى عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهى تنشىء مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافا مضاعفة بلا جدال . ومن شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والخلقية – كما فصلنا ذلك فى الجزء الثالث - كما أن من شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية – كما فصلنا ذلك أيضا - ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها ، وتأثيره فى مصائرها جميعا . والإسلام - وهو ينشىء الأمة المسلمة – كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية , كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية . وأثر هذا وذاك فى نتائج المعارك التى تخوضها الأمة معروف . فالنهى عن أكل أما التعقيب على هذا النهى بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ؛ واتقاء النار التى أعدت للكافرين . . أما التعقيب بهاتين اللمستين فمفهوم كذلك ؛ وهو أنسب تعقيب ، إنه لا يأكل الربا إنسان يتقى الله ويخاف النار التى أعدت للكافرين . . ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوى فى مكان . وحيثما قام النظام الربوى فهناك الخروج من هذا الدين جملة ؛ وهناك النار التى أعدت للكافرين ! والمماحكة فى هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة . . والجمع فى هذه الآيات بين النهى عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله ، وإلى اتقاء النار التى أعدت للكافرين ، ليس عبثا ولا مصادفة . إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها فى تصورات المسلمين ، ثم يجىء التوكيد الأخير (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول ، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة . ولكن للتعقيب به على النهى عن الربا دلالة خاصة . هى أنه لا طاعة لله وللرسول فى مجتمع يقوم على النظام الربوى ؛ ولا طاعة لله وللرسول فى قلب يأكل الربا فى صورة من صوره . وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيدا بعد توكيد ، بعد ذلك يجىء النهى عن أكل الربا ، والتحذير من النار التى أعدت للكافرين ، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح . وللرسول ، بوصفها وسيلة الفلاح ، وموضع الرجاء فيه ، ثم الأمر بالمسارعة إلى المغفرة ؛ وإلى جنة عرضها السماوات والأرض (أعدت للمتقين). . ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو (الذين ينفقون فى السراء والضراء) فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافا مضاعفة - ثم تجىء بقية الصفات والسمات: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين:الذين ينفقون فى السراء والضراء . والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . .) والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات فى صورة حسية حركية . . يصوره سباقا إلى هدف أو جائزة تنال ، الذين ينفقون فى السراء والضراء) فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء . السراء لا تبطرهم فتلهيهم . والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . إنما هو الشعور بالواجب فى كل حال ؛ والتحرر من الشح والحرص ؛ ومراقبة الله وتقواه (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) الغيظ انفعال بشرى , تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم ؛ فهو إحدى دفعات التكوين البشرى ، وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ، وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهى وحدها لا تكفى . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين . . وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن . . لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين . . إنها العفو والسماحة والانطلاق (والله يحب المحسنين) ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) يا لسماحة هذا الدين ! إن الله – سبحانه – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا ، والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها , من رحمة الله . ولا تجعلهم فى ذيل القافلة . . قافلة المؤمنين . . إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . . مرتبة "المتقين" . . على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية فى غير تحرج ولا حياء .

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشرى الضعيف فى لحظات ضعفه . . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف (أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) . فهو يعطف عليه فى لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقى الصعود ، ويربت عليه فى لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ﷺ يقول:" ما أصر من استغفر ، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة " والإسلام لا يدعو – بهذا – إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! كما تهتف "الواقعية" ! إنما هو يقيل عثرة الضعف ، ليستجيش فى النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحياء ! تخجل ولا تطمع ، وتثير

الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة فى وجوههم الأسوار ! .هؤلاء المتقون ما لهم ؟ (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين) فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار من المعصية . كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق فى السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . . إنما هم عاملون ، فهنالك عمل فى أغوار النفس ، وهنالك عمل فى ظاهر الحياة . وكلاهما عمل ، وكلاهما حركة ، وكلاهما نماء . وهنالك صلة بين هذه السمات معركة الميدان التى يتعقبها السياق .. فالانتصار على الشح ، والانتصار على الغيظ ، والانتصار على الخطيئة ، والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه . . كلها ضرورية للانتصار على الأعداء فى المعركة.

بعد ذلك يبدأ السياق فى الفقرة الثالثة من الاستعراض فيلمس أحداث المعركة ذاتها , ولكنه ما يزال يتوخى تقرير الحقائق الأساسية الأصيلة فى التصور الإسلامى ، ويجعل الأحداث مجرد محور ترتكن إليه هذه الحقائق . فيبدأ بالإشارة إلى سنة الله الجارية فى المكذبين ، ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين فى هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة ، إنما هو حادث عابر , وراءه حكمة خاصة . .ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان . فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها فى المعركة ذاتها . وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها:حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب ، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ؛ ووقف المسلمين أمام الموت وجها لوجه وقد كانوا يتمنونه , ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعى ! ثم فى النهاية محق الكافرين ، بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين . . وإذن فهى الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هى النصر أو هى الهزيمة . (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون - إن كنتم مؤمنين - إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) لقد أصاب المسلمين القرح فى هذه الغزوة ، وأصابهم القتل والهزيمة . أصيبوا فى أرواحهم وأصيبوا فى أبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابيا ، وكسرت رباعية الرسول ﷺ وشج وجهه ، وأرهقه المشركون ، وأثخن أصحابه بالجراح . . وكان من نتائج هذا كله هزة فى النفوس ، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب فى بدر ، حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: أنى هذا ؟ وكيف تجرى الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟ !والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله فى الأرض . يردهم إلى الأصول التى تجرى وفقها الأمور . فهم ليسوا بدعا فى الحياة ؛ فالنواميس التى تحكم الحياة جارية لا تتخلف ، والأمور لا تمضى جزافا ، إنما هى تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع , واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان فى ماضى الطريق . ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ؛ بدون الأخذ بأسباب النصر ، وفى أولها طاعة الله وطاعة الرسول . والسنن التى يشير إليها السياق هنا ، ويوجه أبصارهم إليها هى: عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . ومداولة الأيام بين الناس . والابتلاء لتمحيص السرائر , وامتحان قوة الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين . وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة فى الشدة , والتأسية على القرح ، الذى لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفا ، وأهدى منهم طريقا ومنهجا ، والعاقبة بعد لهم ، والدائرة على الكافرين (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ،ولم تكن معارفهم ، ولم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا ، إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة وماجريات حياتهم ؛ فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلا على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التى تجرى وفقها الحياة جميعا . .وهى نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة فى ذلك الزمان ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة . بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها ، فى ربع قرن من الزمان (قد خلت من قبلكم سنن) وهى هى التى تحكم الحياة . وهى هى التى قررتها المشيئة الطليقة (فسيروا فى الأرض) فالأرض كلها وحدة . والأرض كلها مسرح للحياة البشرية . والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر . (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وهى عاقبة تشهد بها آثارهم فى الأرض ، وتشهد بها سيرهم التى يتناقلها خلفهم هناك . . ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه السير ومن هذه الآثار فى مواضع منه متفرقة . بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه . وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل . وعلى إثر بيان هذه السنة يتجاوب النداء للعظة والعبرة بهذا البيان (هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين) هذا بيان للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كان الناس ببالغيها لولا هذا البيان الهادى . ولكن طائفة خاصة هى التى تجد فيه الهدى ، وتجد فيه الموعظة ، وتنتفع به وتصل على هداه . . طائفة "المتقين" . وبعد هذا البيان العريض يتجه إلى المسلمين بالتقوية والتأسية والتثبيت (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين) لا تهنوا - من الوهن والضعف - ولا تحزنوا - لما أصابكم ولما فاتكم - وأنتم الأعلون . . عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشىء من خلقه أو لبعض من خلقه ! ومنهجكم أعلى . فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله ، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله ! ودوركم أعلى . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها ، الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن النهج ، ضالون عن الطريق . ومكانكم فى الأرض أعلى , فلكم وراثة الأرض التى وعدكم الله بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . . فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا . فإنما هى سنة الله أن تصابوا وتصيبوا ، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وذكر القرح الذى أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله ، قد يكون إشارة إلى غزوة بدر . وقد مس القرح فيها المشركين وسلم المسلمون . وقد يكون

إشارة إلى غزوة أحد . وقد انتصر فيها المسلمون فى أول الأمر . حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون ، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين فى ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد . حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها . . ثم كانت الدولة للمشركين , حينما خرج الرماة على أمر رسول الله ﷺ واختلفوا فيما بينهم . فأصاب المسلمين ما أصابهم فى نهاية المعركة . جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج ، وتحقيقا لسنة من سنن الله التى لا تتخلف ، إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع فى الغنيمة . والله قد كتب النصر فى معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله ، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد . وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله فى الأرض , وهى مداولة الأيام بين الناس – وفقا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم – فتكون لهؤلاء يوما ولأولئك يوما . ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون . كما تتكشف الأخطاء . وينجلى الغبش . إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة ، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، وطبائع القلوب ، ودرجة الغبش فيها والصفاء ، ودرجة الهلع فيها والصبر ، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط ، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح ! ومداولة الأيام ، وتعاقب الشدة والرخاء ، محك لا يخطيء ، وميزان لا يظلم . والرخاء فى هذا كالشدة . وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل . والنفس المؤمنة هى التى تصبر للضراء ولا تستخفها السراء ، وتتجه إلى الله فى الحالين ، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله .وقد كان الله يربى هذه الجماعة – وهى فى مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء ، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب ، ويمضى السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة , وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس ، وفيما بعد تمييز الصفوف ، وعلم الله للمؤمنين (ويتخذ منكم شهداء). .

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق – إن الشهداء لمختارون . يختارهم الله من بين المجاهدين , ويتخذهم لنفسه – سبحانه – فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد فى سبيل الله من يستشهد . إنما هو اختيار وانتقاء ، وتكريم واختصاص . . إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ، ليستخلصهم لنفسه – سبحانه – ويخصهم بقربه (والله لا يحب الظالمين) والظلم كثيرا ما يذكر فى القرآن ويراد به الشرك . بوصفه أظلم الظلم وأقبحه . وفى القرآن (إن الشرك لظلم عظيم) وفى الصحيحين عن ابن مسعود:أنه قال:قلت:يا رسول الله . أى الذنب أعظم ؟ قال:" أن تجعل لله نداً وهو خلقك .ثم يمضى السياق القرآنى يكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث ، فى تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى ، ولتكون أداة من أدوات قدره فى محق الكافرين , وستارا لقدرته فى هلاك المكذبين (والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز . التمحيص عملية تتم فى داخل النفس ، وفى مكنون الضمير . . إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات . تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق , بلا غبش ولا ضباب ، وكثيرا ما يجهل الإنسان نفسه ، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها . وكثيرا ما يجهل حقيقة ضعفها وقوتها ، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب ، لا تظهر إلا بمثير ! وفى هذا التمحيص الذى يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء ، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير:محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) لمثل هذا المستوى من الضغوط ! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ، ليعاود المحاولة فى سبكها من جديد ، على مستوى الضغوط التى تقتضيها طبيعة هذه الدعوة ، وعلى مستوى التكاليف التى تقتضيها هذه العقيدة ... (ويمحق الكافرين) تحقيقا لسنته فى دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص وفى سؤال استنكارى يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة الله فى الدعوات ، وفى النصر والهزيمة ، وفى العمل والجزاء . ويبين لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وزاده الصبر على مشاق الطريق ، وليس زاده التمنى والأمانى الطائرة التى لا تثبت على المعاناة والتمحيص (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور:تصور أنه يكفى الإنسان أن يقولها كلمة باللسان:أسلمت وأنا على استعداد للموت . فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدى تكاليف الإيمان ، وأن ينتهى إلى الجنة والرضوان ! وفى النص القرآنى لفتة ذات مغزى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم). .. (ويعلم الصابرين) فلا يكفى أن يجاهد المؤمنون . إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضا . التكاليف المستمرة المتنوعة التى لا تقف عند الجهاد فى الميدان. والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد فى الميدان إلا واحدا منها ، فى الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التى لا تنال بالأمانى وبكلمات اللسان ! (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) ولقد كان الله – سبحانه – قادرا على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى ، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء . وكان قادرا أن ينزل الملائكة تقاتل معهم – أو بدونهم – وتدمر على المشركين ، كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط ، ثم يمضى السياق فى تقرير حقائق التصور الإسلامى الكبيرة ؛ وفى تربية الجماعة المسلمة بهذه الحقائق ؛ متخذا من أحداث المعركة محورا لتقرير تلك الحقائق ؛ ووسيلة لتربية الجماعة المسلمة بها على طريقة المنهج القرآنى الفريد (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ? ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ؛ وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ؛ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ؛ وسنجزى الشاكرين . وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا:ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا , وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين) إن الآية الأولى فى هذه الفقرة تشير إلى واقعة معينة ، حدثت فى غزوة أحد . ذلك حين انكشف ظهر المسلمين بعد أن ترك الرماة أماكنهم من الجبل ، فركبه المشركون ، وأوقعوا بالمسلمين ، وكسرت رباعية الرسول ﷺ وشج وجهه ، ونزفت جراحه ؛ وحين اختلطت الأمور ، وتفرق المسلمون ، لا يدرى أحدهم مكان الآخر . . حينئذ نادى مناد:إن محمدا قد قتل وكان لهذه الصيحة وقعها الشديد على المسلمين . فانقلب الكثيرون منهم عائدين إلى المدينة ، مصعدين فى الجبل منهزمين ، تاركين المعركة يائسين ، لولا أن ثبت رسول ﷺ فى تلك القلة من الرجال ؛ وجعل ينادى المسلمين وهم منقلبون , حتى فاءوا إليه ، وثبت الله قلوبهم ، فهذه الحادثة التى أذهلتهم هذا الذهول ، يتخذها القرآن هنا مادة للتوجيه ، ومناسبة لتقرير حقائق التصور الإسلامى ؛ ويجعلها محورا لإشارات موحية فى حقيقة الموت وحقيقة

الحياة ، وفى تاريخ الإيمان ومواكب المؤمنين (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ? ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا . وسيجزى الله الشاكرين) إن محمدا رسول من عند الله ، جاء ليبلغ كلمة الله . والله باق لا يموت ، وكلمته باقية لا تموت . . وما ينبغى أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبى الذى جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قتل . . وهذه كذلك حقيقة أولية بسيطة غفلوا عنها فى زحمة الهول . وما ينبغى للمؤمنين أن يغفلوا عن هذه الحقيقة الأولية البسيطة ! إن الدعوة أقدم من الداعية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة فى جذور الزمن ، العميقة فى منابت التاريخ ، المبتدئة مع البشرية ، تحدو لها بالهدى والسلام من مطالع الطريق . وهى أكبر من الداعية ، وأبقى من الداعية . فدعاتها يجيئون ويذهبون ، وتبقى هى على الأجيال والقرون ، ويبقى إتباعها موصولين بمصدرها الأول ، الذى أرسل بها الرسل , وهو باق – سبحانه – يتوجه إليه المؤمنون . . وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه , ويرتد عن هدى الله . والله حى لا يموت ، ومن ثم هذا الاستنكار ، وهذا التهديد ، وهذا البيان المنير (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ? ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا . وسيجزى الله الشاكرين) وفى التعبير تصوير حى للارتداد (انقلبتم على أعقابكم). (ومن ينقلب على عقبيه) ، فهذه الحركة الحسية فى الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة ، كأنه منظر مشهود . والمقصود أصلا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة فى المعركة ، ولكن حركة الارتداد النفسية التى صاحبتها حينما هتف الهاتف:إن محمدا قد قتل ، فأحس بعض المسلمين أن لا جدوى إذن من قتال المشركين ، وبموت محمد ﷺ انتهى أمر هذا الدين ، وانتهى أمر الجهاد للمشركين ! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا ، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب ، كارتدادهم فى المعركة على الأعقاب ! وهذا هو الذى حذرهم إياه النضر بن أنس – رضى الله عنه – فقال لهم حين وجدهم قد ألقوا بأيديهم ، وقالوا له:إن محمدا قد مات:" فما تصنعون بالحياة من بعده ? فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ " . (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) فإنما هو الخاسر ، الذى يؤذى نفسه فيتنكب الطريق . . وانقلابه لن يضر الله شيئا . فالله غنى عن الناس وعن إيمانهم (وسيجزى الله الشاكرين) ثم يلمس السياق القرآنى مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية ، لمسة موحية ، تطرد ذلك الخوف ، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة فى شأن الموت وشأن الحياة ، وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ; ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها . وسنجزى الشاكرين) إن لكل نفس كتابا مؤجلا إلى أجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفى هذا الأجل المرسوم . فالخوف والهلع ، والحرص والتخلف ، لا تطيل أجلا . والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمرا ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التى حسم فيها القول . . فإنه إذا كان العمر مكتوبا ، والأجل مرسوما . . فلتنظر نفس ما قدمت لغد ؛ ولتنظر نفس ماذا تريد . . أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان ، وأن تحصر همها كله فى هذه الأرض ، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها ? أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى ، وإلى اهتمامات أرفع ، وإلى حياة أكبر من هذه الحياة ? (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها . ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها). وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ! (وسنجزى الشاكرين) وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التى ينتهى إليها الأحياء , وفق ما يريدونه لأنفسهم ، من اهتمام قريب كاهتمام الدود ، أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان ! (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) ثم يضرب الله للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم . من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق ، الضارب فى جذور الزمان . . من أولئك الذين صدقوا فى إيمانهم , وقاتلوا مع أنبيائهم ، فلم يجزعوا عند الابتلاء ؛ وتأدبوا – وهم مقدمون على الموت – بالأدب الإيمانى فى هذا المقام . . مقام الجهاد . . فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم ؛ وأن يجسموا أخطاءهم فيروها "إسرافا" فى أمرهم . وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار . . وبذلك نالوا ثواب الدارين ، جزاء إحسانهم فى أدب الدعاء , وإحسانهم فى موقف الجهاد . وكانوا مثالا يضربه الله للمسلمين (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا:ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ؛ وثبت أقدامنا ؛ وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) لقد كانت الهزيمة فى "أحد" ، هى أول هزيمة تصدم المسلمين ، الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل ؛ فكأنما وقر فى نفوسهم أن النصر فى كل موقعة هو السنة الكونية . فلما أن صدمتهم أحد ، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه ! والمثل الذى يضربه لهم هنا مثل عام ، لا يحدد فيه نبيا ، ولا يحدد فيه قوما . إنما يربطهم بموكب الإيمان ؛ ويعلمهم أدب المؤمنين ؛ ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد فى كل دعوة وفى كل دين ؛ ويربطهم بأسلافهم من اتباع الأنبياء ؛ ليقر فى حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين ؛ ويقر فى أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد . وإنهم كتيبة فى الجيش الإيمانى الكبير (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا)

و كم من نبى قاتل معه أتباعة فى سبيل الله ، فما ضعفت قواهم عن الاستمرار فى الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء . . فهذا هو شأن المؤمنين ، المنافحين عن عقيدة ودين (والله يحب الصابرين) الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون أو يستسلمون . . والتعبير بالحب من الله للصابرين . له وقعه . وله إيحاؤه . فهو الحب الذى يأسو الجراح ، ويمسح على القرح ، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير ! وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين فى موقفهم من الشدة والابتلاء . فهو يمضى بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم . صورة الأدب فى حق الله ، وهم يواجهون الهول الذى يذهل النفوس ، ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه . ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله . . لا لتطلب النصر أول ما تطلب – وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس – ولكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة , قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ١٤٨ إنه النصر فى الحياة الدنيا و الجزاء الحسن فى الآخرة.. (وما كان قولهم إلا أن قالوا:ربنا اغفر لَنَا ذنوبنا ، وَإسرافنا فِى أمرنا ، وثبت أقدامنا , وانصرنا على القوم الكافرين) إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء . بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء . . لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة . لقد كانوا أكثر أدبا مع الله ، وهم يتوجهون إليه ، بينما هم يقاتلون فى سبيله . فلم يطلبوا منه – سبحانه – إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام . .والنصر على الكفار. إنه الأدب اللائق بالمؤمنين فى حق الله الكريم ، وشهد لهم – سبحانه – بالإحسان . فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد ، وأعلن حبه لهم . وهو أكبر من النعمة وأكبر

من الثواب (والله يحب المحسنين) ولقد كانت الهزيمة فى أحد مجالا لدسائس الكفار والمنافقين واليهود في المدينة . وكانت المدنية لم تخلص بعد للإسلام ؛ بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير . نبتة غريبة أحاطتها "بدر" بسياج من الرهبة ، بما كان فيها من النصر الأبلج . فلما كانت الهزيمة فى أحد تغير الموقف إلى حد كبير ؛ وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم ، وأن ينفثوا سمومهم ؛ وأن يجدوا فى جو الفجائع التى دخلت كل بيت من بيوت المسلمين – وبخاصة بيوت الشهداء ومن أصابتهم الجراح المثخنة – ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة فى الأفكار والصفوف . الله سبحانه يدعو الذين آمنوا ليحذرهم من طاعة الذين كفروا ، و يعدهم النصر على عدوهم ، وإلقاء الرعب فى قلبه ؛ ويذكرهم بالنصر الذى حققه لهم فى أول المعركة ، حسب وعده لهم ؛ والذى إنما أضاعوه هم بضعفهم ونزاعهم وخلافهم عن أمر رسول الله ﷺ ثم يستحضر مشهد المعركة بشطريه ، فى صورة فائضة بالحيوية والحركة . ثم ما أعقب الهزيمة والفزع ، من إنزال الطمأنينة فى قلوب المؤمنين منهم ؛ بينما القلق والحيرة والحسرة تأكل قلوب المنافقين ، الذين ساء ظنهم بالله سبحانه . ويكشف لهم كذلك عن جانب من حكمته الخفية وتدبيره اللطيف ، فى سير الأحداث سيرتها تلك ، مع تقرير حقيقة قدر الله فى آجال العباد . ويحذرهم فى نهاية هذه الفقرة من ضلال التصورات التى يشيعها الكفار فى قضية الموت والاستشهاد . ويردهم إلى حقيقة البعث ، التى ينتهى إليها الناس . . ماتوا أو قتلوا . . وإلى أنهم مرجوعون إلى الله على كل حال(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ {١٤٩} بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ {١٥٠} سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ {١٥١} وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {١٥٢} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {١٥٣} ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {١٥٤} إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {١٥٥} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {١٥٦} وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {١٥٧} وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ {١٥٨}وحين ننظر فى هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمت جوانحها على حشد ضخم من المشاهد الفائضة بالحيوية ، ومن الحقائق الكبيرة الأصيلة فى التصور الإسلامى ,وفى الحياة الإنسانية . وفى السنن الكونية . . نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعة حية متحركة عميقة ، فلا تدع منها جانبا إلا سجلته تسجيلا يستجيش المشاعر والخواطر ; وهى بدون شك أشد حيوية وأشد استحضارا للمعركة بجوها وملابساتها ووقائعها , وبكل الخلجات النفسية والحركات الشعورية المصاحبة لها . . من كل تصوير آخر ورد فى روايات السيرة – على طولها وتشعبها – ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق فى صورتها الحية الفاعلة فى النفوس ، البانية للتصور الصحيح (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود فى المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ، ليثبطوا عزائمهم ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخاوف القتال ، وعواقب الاشتباك مع مشركى قريش وحلفائهم . . وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب ، وخلخلة الصفوف ، وإشاعة عدم الثقة فى القيادة ؛ والتشكيك فى جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء ؛ وتزيين الانسحاب منها ، ومسالمة المنتصرين فيها ! مع إثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية ؛ وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ، ثم لهدم كيان العقيدة ، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين ! ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة ، وليس فيها ربح ولا منفعة . فيها الإنقلاب على الأعقاب إلى الكفر . فالمؤمن إما أن يمضى فى طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل والمبطلين , وإما أن يرتد على عقبيه كافرا – والعياذ بالله – ومحال أن يقف سلبيا بين بين ، محافظا على موقفه ، ومحتفظا بدينه حقيقة فطرية وحقيقة واقعية ، ينبه الله المؤمنين لها ، ويحذرهم إياها ، وهو يناديهم باسم الإيمان (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب ، من الإيمان إلى الكفر ؟ وأى ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان ؟ وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم ، فهو وهم , يضرب السياق صفحا عنه ، ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية (بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين) ومن كان الله مولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد ؟ ثم يمضى السياق يثبت قلوب المسلمين ، ويبشرهم بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم ، بسبب إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين) والوعد من الله الجليل القادر القاهر ، بإلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ، كفيل بنهاية المعركة ، وضمان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه ، هو وعد قائم فى كل معركة يلتقى فيها الكفر بالإيمان . فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم ، ويتحرك الرعب الملقى من الله فى قلوبهم . ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين . حقيقة الشعور بولاية الله وحده ، والثقة المطلقة بهذه الولاية ، والتجرد من كل شائبة من شك فى أن جند الله هم الغالبون ، وأن الله غالب على أمره ، وأن الذين كفروا غير معجزين فى الأرض ولا سابقين لله سبحانه !ذلك فى الدنيا . فأما فى الآخرة . . فهناك المصير المحزن البائس الذى يليق بالظالمين (ومأواهم النار . وبئس مثوى الظالمين !) وهنا يردهم السياق إلى مصداق وعد الله هذا فى غزوة أحد ذاتها . فقد كان لهم النصر الساحق فى أوائلها . ولقد استحر القتل فى المشركين حتى ولوا الأدبار ، وتركوا وراءهم الغنائم ، وسقط لواؤهم فلم تمتد يد لرفعه حتى رفعته لهم امرأة ! . . ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم وتنازعوا فيما بينهم ، وخالفوا عن أمر رسول الله ﷺ نبيهم وقائدهم ، وهنا يردهم السياق إلى صميم المعركة ومشاهدها ومواقفها وأحداثها وملابساتها ، فى حيوية عجيبة (ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم - من بعد ما أراكم ما تحبون:منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين

إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون:هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل:إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك . يقولون:لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . قل:لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم . وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور حليم) إن التعبير القرآني هنا ليرسم مشهدا كاملا لمسرح المعركة ، ولتداول النصر والهزيمة . مشهدا لا يترك حركة في الميدان ، ولا خاطرة في النفوس ، ولا سمة في الوجوه ، ولا خالجة في الضمائر ، إلا ويثبتها . . وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر ، ويحمل في كل حركة صورا جديدة نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد في الجبل ، والهروب في دهش وذعر ، ودعاء الرسول ﷺ للفارين المرتدين عن المعركة ، المصعدين للهرب . يصحب ذلك كله حركة النفوس ، وما يدور فيها من خوالج وخواطر وانفعالات ومطامع . . ومع هذا الحشد من الصور الحية المتحركة النابضة ، تلك التوجيهات والتقريرات التي يتميز بها أسلوب القرآن ، ومنهج القرآن التربوي العجيب (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) المسلمون يحسون المشركين ، أي يخمدون حسهم ، أو يستأصلون شأفتهم . قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة . وكان رسول الله ﷺ قد قال لهم:" لكم النصر ما صبرتم " فصدقهم الله وعده على لسان نبيه . (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون:منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) وهو تقرير لحال الرماة . وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ؛ ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ وانتهى الأمر إلى العصيان . بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه . فكانوا فريقين:فريقا يريد غنيمة الدنيا ، وفريقا يريد ثواب الآخرة . وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة ، ولم يعد الهدف واحدا . وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة ، والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب ، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم ، وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره ، وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها ؛ ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان ، فلاذوا بالفرار . . وقع كل هذا مرتبا على ما صدر منهم ؛ ولكن مدبرا من الله ليبتليهم وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها ، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها . بلا تعارض بين هذا وذاك . فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب تدبير . . من اللطيف الخبير . . (ولقد عفا عنكم). . عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ؛ وفرار وانقلاب وارتداد . . عفا عنكم فضلا منه ومنة ، وتجاوزا عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة (والله ذو فضل على المؤمنين) ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ، ما داموا سائرين على منهجه ، مقرين بعبوديتهم له ، ويستحضر صورة الهزيمة حية متحركة (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) كي يعمق وقع المشهد في حسهم ؛ ويثير الخجل والحياء من الفعل ، ومقدماته التي نشأ عنها ، من الضعف والتنازع والعصيان . . والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل . . فهم مصعدون في الجبل هربا ، في اضطراب ورعب ودهش ، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد ! ولا يجيب أحد منهم داعي أحد ! والرسول ﷺ يدعوهم ، ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح:إن محمدا قد قتل ، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم . . إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول ﷺ بفرارهم ، غما يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه – وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون – ذلك كي لا يحفلوا شيئا فاتهم ولا أذى أصابهم . فهذه التجربة التي مرت بهم ، وهذا الألم الذي أصاب نبيهم – وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم – وذلك الندم الذي ساور نفوسهم ، وذلك الغم الذي أصابهم . . كل ذلك سيصغر في نفوسهم كل ما يفوتهم من عرض ، وكل ما يصيبهم من مشقة فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم) والله المطلع على الخفايا ، يعلم حقيقة أعمالكم ، ودوافع حركاتكم (والله خبير بما تعملون)ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها ، وهرجها ومرجها ، سكون عجيب . سكون في نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى نبيهم . لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين ! والتعبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم ، حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو المطمئن الوديع (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم)وهي ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين ؛ فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ، ولو لحظة واحدة ، يفعل في كيانهم فعل السحر ، ويردهم خلقا جديدا ، ويسكب في قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب في كيانهم الراحة روى الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال ":رفعت رأسي يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت جحفته من النعاس . " أما الطائفة الأخرى ؛ فهم ذوو الإيمان المزعزع ، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية ، ولم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة ، ولم يستسلموا بكليتهم لقدره ، ولم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص ، وليس تخليا من الله عن أوليائه لأعدائه ، ولا قضاء منه – سبحانه – للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون:هل لنا من الأمر من شيء ؟). .

أن هذه العقيدة تعلم أصحابها – فيما تعلم – أن ليس لهم في أنفسهم شيء ، فهم كلهم لله ; وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له ، ويتحركون له ، ويقاتلون له ، بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد ،

ثم طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، فهم في قلق وفي أرجحة ، يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم ، ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعا ولا إرادة لهم فيها ؛ وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير ، ويؤدون الثمن فادحا من القتل والقرح والألم . . وهم لا يعرفون الله على حقيقته ، فهم يظنون بالله غير الحق ، كما تظن الجاهلية . ومن الظن غير الحق بالله أن يتصوروا أنه – سبحانه – مضيعهم في هذه المعركة ، التي ليس لهم من أمرها شيء ، وإنما دفعوا إليها دفعا ليموتوا ويجرحوا ، والله لا ينصرهم ولا ينقذهم ؛ إنما يدعهم فريسة لأعدائهم ، ويتساءلون (هل لنا من الأمر من شيء ؟). وتتضمن قولتهم هذه الاعتراض على خطة القيادة والمعركة . . ولعلهم ممن كان رأيهم عدم الخروج من المدينة ؛ ممن لم يرجعوا مع عبد الله بن أبي

. . ولكن قلوبهم لم تكن قد استقرت واطمأنت ، وقبل أن يكمل السياق عرض وساوسهم وظنونهم ، يبادر بتصحيح الأمر وتقرير الحقيقة فيما يتساءلون فيه ، ويرد على قولتهم (هل لنا من الأمر من شيء ؟) (قل:إن الأمر كله لله) فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لغيرهم . ومن قبل قال الله لنبيه ﷺ (ليس لك من الأمر شيء) فأمر هذا الدين ، والجهاد لإقامته وتقرير نظامه فى الأرض ، وهداية القلوب له . . كلها من أمر الله ، وليس للبشر فيها من شيء ، إلا أن يؤدوا واجبهم ، ويفوا ببيعتهم ، ثم يكون ما يشاؤه الله كيف يكون ! ويكشف كذلك خبيئة نفوسهم قبل أن يكمل عرض وساوسهم وظنونهم (يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك) فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس ، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ؛ وسؤالهم (هل لنا من الأمر من شيء). . يخفى وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه ! وأنهم ضحية سوء القيادة ، وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير (يقولون:لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا)وهو الهاجس الذى يجيش فى النفوس التى لم تخلص للعقيدة ، حينما تصطدم فى موقعة بالهزيمة , وحينما تعانى آلام الهزيمة ! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن ؛ وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع ؛ هنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله . لأمر الحياة والموت . ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء (قل:لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله ما فى صدوركم ،وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور) قل لو كنتم فى بيوتكم ؛ ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة ، وكان أمركم كله لتقديركم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، إن هنالك أجلا مكتوبا لا يستقدم ولا يستأخر . وإن هنالك مضجعا مقسوما لا بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه ! فإذا حم الأجل ، سعى صاحبه بقدميه إليه ، وجاء إلى مضجعه برجليه ، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم ، ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم ! ويا للتعبير العجيب . . "إلى مضاجعهم" . . فهو مضجع إذن ذلك الرمس الذى تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهى إليه الضاربون فى الأرض . . مضجع يأتون إليه بدافع خفى لا يدركونه ولا يملكونه ، إنما هو يدركهم ويملكهم ؛ ويتصرف فى أمرهم كما يشاء . والاستسلام له أروح للقلب ، وأهدأ للنفس ، وأريح للضمير ! إنه قدر الله . ووراءه حكمته (وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم) فليس كالمحنة محك يكشف ما فى الصدور ، ويصهر ما فى القلوب ، فينفى عنها الزيف والرياء , ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء ، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف (والله عليم بذات الصدور) وذات الصدور هى الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها , التى لا تبارحها ولا تتكشف فى النور ! ولقد علم الله دخيلة الذين هزموا وفورا يوم التقى الجمعان فى الغزوة . إنهم ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها ؛ فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها ، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ ، واستزلهم فزلوا وسقطوا (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم) وقد تكون الإشارة فى هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال فى نفوسهم الطمع فى الغنيمة كما جال فيها أن رسول الله سيحرمهم أنصبتهم . فكان هذا هو الذى كسبوه ، وهو الذى استزلهم الشيطان به ، ولكنها فى عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة ، فتفقد ثقتها فى قوتها , ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس , بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس ، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة ، وهى بعيدة عن الحمى الآمن ، والركن الركين ، ويتم السياق بيان حقيقة قدر الله فى الموت والحياة ، وزيف تصورات الكفار والمنافقين عن هذا الأمر ، مناديا الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء . ويردهم فى النهاية إلى قيم أخرى وإلى اعتبارات ترجح الآلام والتضحيات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللّهِ تحْشَرُونَ (١٥٨) وظاهر من مناسبة هذه الآيات فى سياق المعركة ، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة ، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا فى الإسلام ؛ ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات . . وأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء فى أحد ، مادة لإثارة الحسرة فى قلوب أهليهم ، واستجاشة الأسى على فقدهم فى المعركة - نتيجة لخروجهم - ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجع دامية مما يترك فى الصف المسلم الخلخلة والبلبلة . ومن ثم جاء هذا البيان القرآنى لتصحيح القيم والتصورات ، ورد هذا الكيد إلى نحور كائديه ، إن قول الكافرين: (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا). . ليكشف عن الفارق الأساسى فى تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها ، للسنن التى تسير عليها الحياة كلها وأحداثها:سراؤها وضراؤها . . إن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف إلى مشيئة الله ، مطمئن إلى قدر الله . إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع , ولا يتلقى السراء بالزهو ، ولا تطير نفسه لهذه أو لتلك ؛ ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقى كذا ، أو ليستجلب كذا ، بعد وقوع الأمر وانتهائه ! فمجال التقدير والتدبير والرأى والمشورة ، كله قبل الإقدام والحركة ؛ فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير - فى حدود علمه وفى حدود أمر الله ونهيه - فكل ما يقع من النتائج , فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتسليم ؛ موقنا أنه وقع وفقا لقدر الله وتدبيره وحكمته; والله - فى تربيته للجماعة المسلمة ، وفى ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها - يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا . أولئك الذين تصيبهم الحسرات ، كلما مات لهم قريب وهو يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، أو قتل فى ثنايا المعركة وهو يجاهد (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى:لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة ما يجرى فى الكون ، ولحقيقة القوة الفاعلة فى كل ما يجرى . فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية ، بسبب انقطاعهم عن الله , وعن قدره الجارى فى الحياة . (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا فى الأرض فى طلب الرزق فيموتوا ، أو ليغزوا ويقاتلوا فيقتلوا . . إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج ! ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية وهى استيفاء الأجل , ونداء المضجع ، وقدر الله ، وسنته فى الموت والحياة , ما تحسروا . ولتلقوا الابتلاء صابرين ، ولفاءوا إلى الله راضين (والله يحيى ويميت) فبيده إعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، فى الموعد المضروب والأجل المرسوم , سواء كان الناس فى بيوتهم وبين أهلهم ، أو فى ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة . وعنده الجزاء ، وعنده العروض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر (والله بما تعملون بصير) على أن الأمر لا ينتهى بالموت أو القتل ؛ فهذه ليست نهاية المطاف . وعلى أن الحياة فى الأرض ليست خير ما يمنحه الله للناس من عطاء . فهناك قيم أخرى ، واعتبارات أرقى فى ميزان الله (ولئن قتلتم - فى سبيل الله - أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) فالموت أو القتل فى سبيل الله - بهذا القيد

، وبهذا الاعتبار – خير من الحياة ، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار:من مال ومن جاه ومن سلطان ومن متاع . خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته ، وهى فى ميزان الحقيقة خير مما يجمعون ، بذلك تستقر فى القلوب حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة قدر الله . وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر ؛ وإلى ما وراء القدر من حكمة ، وما وراء الابتلاء من الدرس السابع:١٥٩ – ١٦٤ حقيقة الرسول وقيمة هذه الحقيقة فى حياة الأمة ، ثم يمضى السياق القرآنى فى جولة جديدة . . جولة محورها شخص رسول الله ﷺ وحقيقته النبوية الكريمة ؛ وقيمة هذه الحقيقة الكبيرة فى حياة الأمة المسلمة ؛ ومدى ما يتجلى فيها من رحمة الله بهذه الأمة . . وحول هذا المحور خيوط أخرى من المنهج الإسلامى فى تنظيم حياة الجماعة المسلمة ، وأسس هذا التنظيم عامة(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ١٥٩ (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وننظر فىَ هذه الفقرة ، وفى الحقائق الكثيرة الأصيلة المشدودة إلى محورها – وهى الحقيقة النبوية الكريمة – فنجد كذلك أصولا كبيرة تحتويها عبارات قصيرة . . نجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة فى أخلاق النبى ﷺ وطبيعته الخيرة المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس ، ونجد أصل النظام الذى تقوم عليه الحياة الجماعية الإسلامية – وهو الشورى – يؤمر به فى الموضع الذى كان للشورى – فى ظاهر الأمر – نتائج مريرة ! ونجد مع مبدأ الشورى مبدأ الحزم والمضى - بعد الشورى – فى مضاء وحسم . ونجد حقيقة التوكل على الله – إلى جانب الشورى والمضاء - حيث تتكامل الأسس التصويرية والحركية والتنظيمية . ونجد حقيقة قدر الله ، ورد الأمر كله إليه وفاعليته التى لا فاعلية غيرها فى تصريف الأحداث والنتائج . ونجد التحذير من الخيانة والغلول والطمع فى الغنيمة . ونجد التفرقة الحاسمة بين من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله، وتختم الفقرة بالإشادة بالمنة الإلهية الممثلة فى رسالة النبى ﷺ إلى هذه الأمة ، المنة التى تتضاءل إلى جانبها الغنائم ، كما تتضاءل إلى جانبها الآلام سواء ! هذا الحشد كله فى تلك الآيات القلائل المعدودات ! (فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم , واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين) فهى رحمة الله التى نالته ونالتهم ؛ فجعلته ﷺ رحيما بهم ، لينا معهم . ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ، ولا تجمعت حوله المشاعر . فالناس فى حاجة إلى كنف رحيم ، فى حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ؛ ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه ؛ وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس . ما غضب لنفسه قط . ولا ضاق صدره بضعفهم البشرى . ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه فى سماحة ندية . ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم . وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه ؛ نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة (فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر) وبهذا النص الجازم: (وشاورهم فى الأمر). . يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه . وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكا فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه . . أما شكل الشورى ، والوسيلة التى تتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها . وكل شكل وكل وسيلة ، تتم بها حقيقة الشورى – لا مظهرها - فهى من الإسلام .

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو فى ظاهرها خطيرة مريرة ! فقد كان من جرائها ظاهريا وقوع خلل فى وحدة الصف المسلم ! اختلفت الآراء . فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون فى المدينة محتمين بها ، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة . وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين . وكان من جراء هذا الاختلاف ذلك الخلل فى وحدة الصف . إذ عاد عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الجيش ، والعدو على الأبواب – وهو حدث ضخم وخلل مخيف – كذلك بدا أن الخطة التى نفذت لم تكن - فى ظاهرها – أسلم الخطط من الناحية العسكرية . إذ أنها كانت مخالفة "للسوابق" فى الدفاع عن المدينة – كما قال عبد الله ابن أبى – وقد اتبع المسلمون عكسها فى غزوة الأحزاب التالية ، فبقوا فعلا فى المدينة ، وأقاموا الخندق ، ولم يخرجوا للقاء العدو . منتفعين بالدرس الذى تلقوه فى أحد ! ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التى تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج . فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة ، التى رآها ، والتى يعرف مدى صدقها . وقد تأولها قتيلا من أهل بيته ، وقتلى من صحابته ، وتأول المدينة درعا حصينة . . وكان من حقه أن يلغى ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى . ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات . لأن إقرار المبدأ ، وتعليم الجماعة , وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية (فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر) على أن الصورة الحقيقية للنظام الإسلامى لا تكمل حتى نمضى مع بقية الآية ؛ فنرى أن الشورى لا تنتهى أبدا إلى الأرجحة والتعويق ، ولا تغنى كذلك عن التوكل على الله فى نهاية المطاف (فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين) إن مهمة الشورى هى تقليب أوجه الرأى ، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة ، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ . . التنفيذ فى عزم وحسم ، وفى توكل على الله ، يصل الأمر بقدر الله ، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء ، أراد النبى ﷺ أن يعلمهم الدرس كله . درس الشورى . ثم العزم والمضى . مع التوكل على الله والاستسلام لقدره . وأن يعلمهم أن للشورى وقتها , ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأى من جديد . فهذا مآلة الشلل والسلبية والتأرجح الذى لا ينتهى . . إنما هو رأى وشورى . وعزم ومضاء . وتوكل على الله , يحبه الله (إن الله يحب المتوكلين) ولتقرير حقيقة التوكل على الله ، وإقامتها على أصولها الثابتة ، يمضى السياق فيقرر أن القوة الفاعلة فى النصر والخذلان هى قوة الله ، فعندها يلتمس النصر ، ومنها تتقى الهزيمة ، وإليها يكون التوجه ، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ، ونفض الأيدى من العواقب ، وتعليقها بقدر الله (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) إن التصور الإسلامى يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله - سبحانه – وتحقق هذا القدر فى الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله . . إن سنة الله تجرى بترتيب النتائج على الأسباب . ولكن الأسباب ليست هى التى" تنشىء" النتائج . فالفاعل المؤثر هو الله . والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته . . ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدى واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفى بالتزاماته . وبقدر ما يوفى بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها . . وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره . هو وحده الذى يأذن لها بالوجود حين يشاء , وكيفما يشاء ، وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله . فهو يعمل ويبذل ما فى طوقه ; وهو يتعلق فى نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته . ولا حتمية

فى تصوره بين النتائج والأسباب . فهو لا يحتم أمرا بعينه على الله ! ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفى المسلمين من اتباع المنهج ، وطاعة التوجيه ، والنهوض بالتكاليف ، وبذلك الجهد ، والتوكل بعد هذا كله على الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)ثم يعود إلى الحديث عن النبوة وخصائصها الخلقية ؛ ليمد من هذا المحور خيوطا فى التوجيه للأمانة ، والنهى عن الغلول ، والتذكير بالحساب ، وتوفية النفوس دون إجحاف (وما كان لنبى أن يغل . ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة . ثم توفى كل نفس ما كسبت , وهم لا يظلمون) ولقد كان من بين العوامل التى جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل ، خوفهم ألا يقسم لهم رسول الله ﷺ من الغنائم ! كذلك كان بعض المنافقين قد تكلموا بأن بعض غنائم بدر من قبل قد اختفت ؛ ولم يستحوا أن يهمسوا باسمه ﷺ فى هذا المجال ، فهنا يأتى السياق بحكم عام ينفى عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا . . أى أن يحتجزوا شيئا من الأموال والغنائم أو يقسموا لبعض الجند دون بعض ، أو يخونوا إجمالا فى شىء الفاعل . أى لا يجوز أن يخان . ولا أن يخفى عنه أتباعه شيئا . . فيكون نهيا عن خيانة النبى فى شىء . وهو يتمشى مع عجز الآية . وهى قراءة الحسن البصرى ، ثم يهدد الذين يغلون ، ويخفون شيئا من المال العام أو من الغنائم ، ذلك التهديد المخيف (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة . ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون) ثم يستطرد السياق – فى معرض الحديث عن الغنائم والغلول – يوازن بين القيم الحقيقية التى يليق أن يلتفت إليها القلب المؤمن ، وأن يشغل بها (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون) إنها النقلة التى تصغر فى ظلها الغنائم ، ويصغر فى ظلها التفكير فى هذه الاعراض (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) هذه هى القيم ، وهذا هو مجال الطمع ! ومجال الاختيار . وهذا هو ميدان الكسب والخسارة . وشتان بين من يتبع رضوان الله فيفوز به ، ومن يعود وفى وطابه سخط الله ! يذهب به إلى جهنم . . وبئس المصير ! (هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) هذه درجة وهذه درجة . . وشتان شتان (هم درجات عند الله) وكل ينال درجته باستحقاق ، فلا ظلم ولا إجحاف ، ولا محاباة ولا جزاف ! والله بصير بما يعملون ، ثم يختم الفقرة بالرجوع إلى محورها الأصيل وهو شخص الرسول ﷺ ورسالته وعظم المنة بها على المؤمنين (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (١٦٤) إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولا ، وأن يكون هذا الرسول (من أنفسهم). . إن العناية من (وما كان لنبى أن يغل) ما كان له . فهو ليس من شأنه أصلا ولا من طبعه ولا من خلقه . فالنفى هنا نفى لإمكان وقوع الفعل . وليس نفيا لحله أو جوازه . فطبيعة النبى الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء ، وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول "من أنفسهم" . . لم يقل "منهم" فإن للتعبير القرآنى "من أنفسهم" ظلالا عميقة الإيحاء والدلالة . . إن الصلة بين المؤمنين والرسول هى صلة النفس بالنفس ، لا صلة الفرد بالجنس ، فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى ، إنما هى أعمق من ذلك وأرقى ثم تتجلى هذه المنة العلوية فى آثارها العملية . . فى نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنسانى (يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة) تتجلى هذه المنة فى أكبر مجاليها . فى تكريم الله لهم . بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل(يتلو عليهم آياته) يعلمهم القرآن الكريم (ويزكيهم) يطهرهم ويرفعهم وينقيهم . يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم . ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم . ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم . . يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه فى الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته .ويكفى أن يتصفح الإنسان هذه الصورة البدائية الغليظة من الوثنية ، ليعرف أى رجس كانت تنشره فى القلوب والتصورات وفى واقع الحياة ! ويدرك النقلة الضخمة التى نقلها الإسلام للقوم ، والطهارة التى أسبغها على تصوراتهم وعلى حياتهم سواء .إن الجاهلية هى الجاهلية . ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها . لا يهم موقعها من الزمان والمكان . فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ، ومن شريعة - منبثقة من هذه العقيدة – تحكم حياتهم ، فلن تكون إلا الجاهلية فى صورة من صورها الكثيرة . . والجاهلية التى تتمرغ البشرية اليوم فى وحلها ، لا تختلف فى طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التى عاصرتها فى أنحاء الأرض ، حتى أنقذها منها الإسلام وطهرها وزكاها ، إن البشرية اليوم تعيش فى ماخور كبير ! ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها . ومسابقات جمالها ، ومراقصها ، وحاناتها . وإذاعاتها . ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العارى ، والأوضاع المثيرة ، والإيحاءات المريضة ، فى الأدب والفن واجهزة الإعلام كلها . . إلى جانب نظامها الربوى ، وما يكمن وراءه من سعار للمال ، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره ، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون . . وإلى جانب التدهور الخلقى والانحلال الاجتماعى ، الذى أصبح يهدد كل نفس وكل بيت ، وكل نظام ، وكل تجمع إنسانى . . نظرة إلى هذا كله تكفى للحكم على المصير البائس الذى تدلف إليه البشرية فى ظل هذه الجاهلية . إن البشرية تتآكل إنسانيتها ، وتتحلل آدميتها ، وهى تلهث وراء الحيوان ، ومثيرات الحيوان , لتلحق بعالمه الهابط ! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر . لأنه محكوم بفطرة حازمة لا تتميع ، ولا تأسن كما تأسن شهوات الإنسان حين ينفلت من رباط العقيدة ، ومن نظام العقيدة ، ويرتد إلى الجاهلية التى أنقذه الله منها ، والتى يمتن الله على عباده المؤمنين بتطهيرهم منها فى تلك الآية الكريمة (ويعلمهم الكتاب والحكمة)

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالا . أمية القلم ، وأمية العقل سواء . وما كان لهم من المعرفة شىء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة ، فى أى باب من الأبواب . وما كان لهم فى حياتهم من هموم كبيرة تنشىء معرفة ذات قيمة عالمية فى أى باب من الأبواب . فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا ، وحكماء العالم ، وأصحاب المنهج العقيدى والفكرى والاجتماعى والتنظيمى ، الذى ينقذ البشرية كلها من جاهليتها فى ذلك الزمان . والذى يرتقب دوره فى الجولة القادمة – بإذن الله – لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها الحديثة ... (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ضلال فى التصور والاعتقاد ، وضلال فى مفهومات الحياة ، وضلال فى الغاية والاتجاه , وضلال فى العادات والسلوك ، وضلال فى الأنظمة والأوضاع , وضلال فى المجتمع والأخلاق ، والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون – ولا شك – ماضى حياتهم وأوضاعهم , ويعرفون طبيعة النقلة التى نقلهم إليها الإسلام ، وما كانوا ببالغيها بغير الإسلام ؛ وهى نقلة غير معهودة فى تاريخ بنى الإنسان ، كانوا يدركون أن الإسلام – والإسلام وحده – هو الذى نقلهم من طور القبيلة ، واهتمامات القبيلة ، وثارات القبيلة ، لا ليكونوا أمة فحسب . ولكن ليكونوا – على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن – أمة تقود البشرية ، وترسم لها مثلها ، ومناهج حياتها ، وأنظمتها كذلك ، فى صورة غير معهودة فى تاريخ البشرية الطويل ،وما الذى يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ؟ يقدمون لها عبقريات فى الآداب والفنون والعلوم ؟ لقد سبقتهم شعوب الأرض فى هذه الحقول .

والبشرية تغص بالعبقريات فى هذه الحقول الفرعية للحياة . وليست فى حاجة ولا فى انتظار إلى عبقريات من هناك فى هذه الحقول الفرعية للحياة ! يقدمون لها عبقريات فى الإنتاج الصناعى المتفوق ، تنحنى له الجباه ، ويغرقون به أسواقها , ويغطون به على ما عندها من انتاج ؟ ؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، فى يدها عجلة القيادة فى هذا المضمار ! يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ، ومن وحى أفكارهم البشرية ؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية . وتشقى بها جميعا غاية الشقاء ! ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز ؟ لا شيء إلا هذه الرسالة الكبيرة . لا شيء إلا هذا المنهج الفريد . لا شيء إلا هذه المنة التى اختارهم الله لها ، وأكرمهم بها ، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم . والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها ، وهى تتردى فى هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس ! إنها - وحدها - بطاقة الشخصية التى تقدموا بها قديما للبشرية ، فأحنت لها هامتها . والتى يمكن أن يقدموها لها اليوم ، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ ، إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة . وأكبر أمة هى التى تحمل أكبر رسالة . وهى التى تقدم أكبر منهج . وهى التى تتفرد فى الأرض بأرفع مذهب للحياة ، والعرب يملكون هذه الرسالة - وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم شركاء - فأى شيطان يا ترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم ؟ أى شيطان ؟! لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة . وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان . . وهى مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان ! ثم يمضى السياق خطوة فى استعراض أحداث المعركة ، والتعقيب عليها ؛ فيعرض دهشتهم لما صارت إليه الأمور ، واستغرابهم لوقوع ما وقع بهم - وهم المسلمون - مما يشى بسذاجة تصورهم للأمر يومذاك قبل أن تطحنهم التجربة ، وتصوغهم صياغة واقعية ، تتعامل مع واقع الأمر ، وطبيعة السنن ، وجدية هذا الواقع الذى لا يحابى أحدا لا يأخذ بالسنن ، ومن ثم يقفهم على الأرض الصلبة المكشوفة ؛ وهو يبين لهم أن ما أصابهم كان بفعلهم ، وكان الثمرة الطبيعية لتصرفهم ! . . ولكنه لا يتركهم عند هذه النقطة بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج وبمشيئة الله الطليقة من وراء السنن والقوانين ؛ فيكشف لهم عن حكمة ما وقع ، وعن تدبير الله فيه ليحقق من ورائه الخير لهم ، وللدعوة التى يجاهدون فى سبيلها ؛ وليعدهم بهذه التجربة لما بعدها ، وليمحص قلوبهم ، ويميز صفوفهم ، من المنافقين الذين كشفتهم الأحداث (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا ؟ قل:هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم:تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا: لو نعلم قتالا لاتبعناكم ! هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم - وقعدوا -:لو أطاعونا ما قتلوا . قل:فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته ، وأصحاب عقيدته . . ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان فى قلوبهم ؛ وباستيفاء مقتضيات الإيمان فى تنظيمهم وسلوكهم ؛ وباستكمال العدة التى فى طاقتهم ، وببذل الجهد الذى فى وسعهم . . فهذه سنة الله . وسنة الله لا تحابى أحدا . . فأما حين يقصرون فى أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير . فإن كونهم مسلمين لا يقتضى خرق السنن لهم وأبطال الناموس . فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس . .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك ، ولا يضيع هباء . فإن استسلامهم لله ، وحملهم لرايته ، وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه . . من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيرا وبركة فى النهاية - بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح - وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروسا وتجارب ، تزيد فى نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ؛ وتؤهل للنصر الموعود ؛ وتنتهى بالخير والبركة . ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته . بل تمدهم بزاد الطريق . مهما يمسهم من البرح والألم والضيق فى أثناء الطريق . وبهذا الوضوح والصرامة معا يأخذ الله الجماعة المسلمة ؛ وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ؛ ويكشف عن السبب القريب من أفعالها ؛ كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره - سبحانه - يواجه المنافقين بحقيقة الموت ، التى لا يعصم منها حذر ولا قعود (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير) والمسلمون الذين أصيبوا فى أحد بما أصيبوا ؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التى عانوها فى هذا اليوم المرير ؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم , وهم المسلمون ، وهم يجاهدون فى سبيل الله ، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله . . المسلمون الذين أصيبوا بهذه المصيبة ، كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش . وأصابوا مثليها يوم أحد فى مطلع المعركة ، حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله ﷺ وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم . (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٦٥) ويذكرهم الله هذا كله ، وهو يرد على دهشتهم المتسائلة ، فيرجع ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب (قل:هو من عند أنفسكم) أنفسكم هى التى تخلخلت وفشلت وتنازعت فى الأمر . وأنفسكم هى التى أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ وأنفسكم هى التى خالجتها الأطماع والهواجس . وأنفسكم هى التى عصت أمر رسول الله ﷺ وخطته للمعركة . . فهذا الذى تستنكرون أن يقع لكم ، وتقولون: كيف هذا ؟ هو من عند أنفسكم ، بانطباق سنة الله عليكم ، حين عرضتم أنفسكم لها (إن الله على كل شيء قدير) ومن مقتضى قدرته أن تنفذ سنته ، وأن يحكم ناموسه ، وأن تمضى الأمور وفق حكمه وإرادته , وألا تتعطل سننه التى أقام عليها الكون والحياة والأحداث . ومع هذا فقد كان قدر الله من وراء الأمر كله لحكمة يراها . وقدر الله دائما من وراء كل أمر يحدث ، ومن وراء كل حركة وكل نأمة ، وكل انبثاقة فى هذا الكون كله (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله .) لم يقع مصادفة ولا جزافا ، ولم يقع عبثا ولا سدى . فكل حركة محسوب حسابها فى تصميم هذا الكون ؛ ومقدر لها علتها ونتائجها (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ) ١٦٦ (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) (١٦٧) فقد عرف الله المسلمين سننه وشرطه فى النصر والهزيمة . فخالفوا هم عن سنته وشرطه , فتعرضوا للألم والقرح الذى تعرضوا له . . ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد , فقد كان وراء المخالفة والألم تحقيق قدر الله فى تمييز المؤمنين من المنافقين فى الصف , وتمحيص قلوب المؤمنين وتجلية ما فيها من غبش فى التصور ، ومن ضعف أو قصور . وهذا بدوره خير ينتهى إليه أمر المسلمين - من وراء الألم والضر - وقد نالوه وفق سنة الله كذلك وعلى هذا الموقف الصلب المكشوف تستريح أقدام المسلمين وتطمئن قلوبهم ، بلا أرجحة ولا قلق ولا حيرة ، وهم يواجهون قدر الله ، ويتعاملون مع سنته فى الحياة ؛ وهم

يحسون أن الله يصنع بهم فى أنفسهم وفيمن حولهم ما يريده ، وأنهم أداة من أدوات القدر يفعل بها الله ما يشاء ، وأن خطأهم وصوابهم – وكل ما يلقونه من نتائج لخطئهم وصوابهم - متساوق مع قدر الله وحكمته ، وصائر بهم إلى الخير ما داموا فى الطريق (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . . وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا , وقيل لهم:تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا:لو نعلم قتالا لاتبعناكم . هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . والله أعلم بما يكتمون) يشير فى هذه الآية إلى موقف عبد الله بن أبى بن سلول ، وممن معه ، ويسميهم "الذين نافقوا" . وقد كشفهم الله فى هذه الموقعة ، وميز الصف الإسلامى منهم . وقرر حقيقة موقفهم يومذاك: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) وهم غير صادقين فى احتجاجهم بأنهم يرجعون لأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا سيكون بين المسلمين والمشركين . فلم يكن هذا هو السبب فى حقيقة الأمر ، وإنما هم (يقولون بأفواههم ما ليس فى ص قلوبهم) فقد كان فى قلوبهم النفاق ، الذى لا يجعلها خالصة للعقيدة ، وإنما يجعل أشخاصهم واعتباراتها فوق العقيدة واعتباراتها . فالذى كان برأس النفاق – عبد الله بن أبى – أن رسول الله ﷺ لم يأخذ برأيه يوم أحد . و قبل هذا أن قدومه ﷺ إلى المدينة بالرسالة الإلهية حرمه ما كانوا يعدونه له من الرياسة فيهم ، وجعل الرياسة لدين الله ، ولحامل هذا الدين ! . . فهذا الذى كان فى قلوبهم , والذى جعلهم يرجعون يوم أحد ، والمشركون على أبواب المدينة! وهذا ما فضحهم الله به فى هذه الآية (والله أعلم بما يكتمون) ثم مضى يكشف بقية موقفهم فى محاولة خلخلة الصفوف والنفوس (فهم لم يكتفوا بالتخلف – والمعركة على الأبواب – وما يحدثه هذا التخلف من رجة وزلزلة فى الصفوف والنفوس ، وبخاصة أن عبد الله بن أبى ، كان ما يزال سيدا فى قومه , ولم يكشف لهم نفاقه بعد ، ولم يدمغه الله بهذا الوصف الذى يهز مقامه فى نفوس المسلمين منهم . بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة فى قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة , وهم يقولون (الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول ﷺ واتباعه مغرما ومضرة . وأكثر مَن هذا كله يفسدون التصور الإسلامى الناصع لقدر الله ، ولحتمية الأجل , ولحقيقة الموت والحياة ، وتعلقهما بقدر الله وحده (لو أطاعونا ما قتلوا) ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع ، الذى يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامى ويجلو عنه الغبش من ناحية (قل:فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر . ولا يؤجله جبن ولا قعود ، ومما يلفت النظر فى الاستعراض القرآنى لأحداث المعركة ، تأخيره ذكر هذا الحادث – حادث نكول عبد الله ابن أبى ومن معه عن المعركة – وقد وقع فى أول أحداثها وقبل ابتدائها . . تأخيره إلى هذا الموضع من السياق ، وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية . . فقد آخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامى التى قررها ؛ وحتى يقر فى الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التى أقرها ؛ وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التى وضعها . . ثم يشير هذه الإشارة إلى "الذين نافقوا" . وفعلتهم وتصرفهم بعدها ، وقد تهيأت النفوس لإدراك ما فى هذه الفعلة وما فى هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح ، وعن القيم الصحيحة فى الميزان الصحيح .

وبعد أن تستريح القلوب ، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية فى الكون ، وعلى حقيقة قدر الله فى الأمور ، وعلى حقيقة حكمة الله من وراء التقدير والتدبير ، بعد ذلك يمضى السياق فى بيان حقيقة أخرى . . حقيقة ضخمة فى ذاتها وضخمة فى آثارها . . حقيقة الشهداء ويربط بين حياة الشهداء فى معركة أحد وبين الأحداث التى تلت استشهادهم برباط محكم , ثم ينتقل إلى تصوير موقف العصبة المؤمنة ، التى استجابت لله والرسول بعد كل ما أصابها من القرح ، وخرجت تتعقب قريشا بعد ذهابها خوفا من كرة قريش على المدينة ، ولم تبال تخويف الناس بجموع قريش ، متوكلة على الله وحده ، محققة بهذا الموقف معنى الإيمان وحقيقته (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) (١٧١) إنهم قتلوا فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء . أحياء عند ربهم يرزقون ؛ لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثير والتأثر أهم خصائص الحياة . لقد شاء الله بعد أن جلا فى قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل ، وتحدى ما يبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات بقولهم عن القتلى (لو أطاعونا ما قتلوا) فقال يتحداهم :قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة ، أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة . فكشف لها عن مصير الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله – وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون فى سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى ، مجردة من كل ملابسة أخرى – فإذا هؤلاء الشهداء أحياء ، لهم كل خصائص الأحياء . فهم "يرزقون" عند ربهم . وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله . وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين . وهم يحفلون الأحداث التى تمر بمن خلفهم من إخوانهم ، إنها نظرة جديدة لهذا الأمر ، ذات آثار ضخمة فى مشاعر المؤمنين ، واستقبالهم للحياة والموت ، وتصورهم لما هنا وما هناك (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ومع أننا نحن – فى هذه الفانية – لا نعرف نوع الحياة التى يحياها الشهداء ، إلا ما يبلغنا من وصفها فى الأحاديث الصحاح . . إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة ، وما بينهما من انفصال (فرحين بما آتاهم الله من فضله) فهم يستقبلون رزق الله بالفرح ؛ لأنهم يدركون أنه "من فضله" عليهم . فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا فى سبيل الله . فأى شىء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذى يتمثل فيه رضاه ؟ ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم ؛ وهم مستبشرون لهم ؛ لما علموه من رضى الله عن المؤمنين المجاهدين (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، إنهم لم ينفصلوا من إخوانهم (الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) ولم تنقطع بهم صلاتهم . إنهم "أحياء" كذلك معهم ، مستبشرون بما لهم فى الدنيا والآخرة . موضع استبشارهم لهم :ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . وقد عرفوا هذا واستيقنوه من حياتهم "عند ربهم ، ووفقا لهذا المفهوم الجديد الذى أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم فى قلوب المسلمين ، سارت خطى المجاهدين الكرام فى طلب الشهادة – فى سبيل الله ، وبعد تقرير هذه الحقيقة الكبيرة يتحدث عن "المؤمنين" الذين يستبشر الشهداء فى الموقعة بما هو مدخر لهم عند ربهم ، فيعين من هم ؛ ويحدد خصائصهم وصفاتهم وقصتهم مع ربهم (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا . وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل .

فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺإلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة . وهم مثخنون بالجراح . وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس فى المعركة . وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة ، ومرارة الهزيمة ، وشدة الكرب . وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا ، فقل عددهم ، فوق ما هم مثخنون بالجراح ! ولكن رسول الله ﷺ دعاهم . ودعاهم وحدهم . ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم – ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال ! – فاستجابوا . . استجابوا لدعوة الرسول ﷺ وهي دعوة الله – كما يقرر السياق وكما هى فى حقيقتها وفى مفهومهم كذلك – فاستجابوا بهذا لله والرسول (من بعد ما أصابهم القرح) ونزل بهم الضر ,وأثخنتهم الجراح ، ولعل رسول الله ﷺ شاء فى الجانب الآخر ألا تمضى قريش ، وفى جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته . فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس ؛ يشعر قريشا أنها لم تنل من المسلمين منالا . وأنه بقى لها منهم من يتعقبها ويكر عليها ، لقد كان هذا أمرا جديدا فى هذه الأرض فى ذلك الحين . ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها – بعد أن يشعر المؤمنين – بقيام هذا الأمر الجديد ، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ١٧٣ (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) (١٧٤) ولم يكن أقوى فى التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة:صورة التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم – كما أبلغهم رسل أبى سفيان – وكما هول المنافقون فى أمر قريش وهو ما لا بد أن يفعلوا (الذين قال لهم الناس:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا:حسبنا الله ونعم الوكيل)هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت اعلانا قويا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة . وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة ، وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة ، فى تلك النفوس الكبيرة التى لا تعرف إلا الله وكيلا ، وترضى به وحده وتكتفى ، وتزداد إيمانا به فى ساعة الشدة ، وتقول فى مواجهة تخويف الناس لهم بالناس... (حسبنا الله ، ونعم الوكيل) ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد الله للمتوكلين عليه ، المكتفى به ، المتجردين له (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله) فأصابوا النجاة – لم يمسسهم سوء – ونالوا رضوان الله . وعادوا بالنجاة والرضى .(بنعمة من الله وفضل) فهنا يردهم إلى السبب الأول فى العطاء:نعمة الله وفضله على من يشاء . ومع التنويه بموقفهم الرائع ، فإنه يرد الأمر إلى نعمة الله وفضله ، لأن هذا هو الأصل الكبير , الذى يرجع إليه كل فضل ، وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل ! (والله ذو فضل عظيم) وأخيرا يختم هذه الفقرة بالكشف عن علة الخوف والفزع والجزع . . إنه الشيطان يخلع عليهم سمة القوة والهيبة . . ومن ثم ينبغى أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولته . فلا يخافوا أولياءه هؤلاء ، ولا يخشوهم . بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوى القاهر القادر , الذى ينبغى أن يخاف (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) إن الشيطان هو الذى يضخم من شأن أوليائه ،ويلبسهم لباس القوة والقدرة ، ويوقع فى القلوب أنهم ذوو حول وطول ، وأنهم يملكون النفع والضر . . ذلك ليقضى بهم لباناته وأغراضه , وليحقق بهم الشر فى الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب , فلا يرتفع فى وجوههم صوت بالإنكار ؛ ولا يفكر أحد فى الانتقاض عليهم ، ودفعهم عن الشر والفساد ، والشيطان صاحب مصلحة فى أن ينتفش الباطل ، وأن يتضخم الشر ، والشيطان ماكر خادع غادر ، يختفى وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم فى صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته . . ومن هنا يكشفه الله ، ويوقفه عاريا لا يستره ثوب من كيده ومكره . ويعرف المؤمنين الحقيقة:حقيقة مكره ووسوسته ، ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه , ويستند إلى قوته . . إن القوة الوحيدة التى تخشى وتخاف هى القوة التى تملك النفع والضر . هى قوة الله . وهى القوة التى يخشاها المؤمنون بالله ، وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة فى الأرض . . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان (فلا تخافوهم . وخافون إن كنتم مؤمنين)

وأخيرا يتجه السياق فى ختام الاستعراض والتعقيب ، إلى الرسول ﷺ يسليه ويؤسيه عما يقع فى قلبه الكريم من الأسى والحزن ، من مسارعة الكفار إلى الكفر ،ونشاطهم فيه كأنهم فى سباق إلى هدف ! فإن هذا لن يضر الله شيئا . وإنما هى فتنة الله لهم ، وقدر الله بهم ، فقد علم الله من أمرهم وكفرهم ما يؤهلهم للحرمان فى الآخرة ؛ فتركهم يسارعون فى الكفر إلى نهايته ! وقد كان الهدى مبذولا لهم ، فآثروا عليه الكفر ; فتركوا يسارعون فى الكفر . وأملى لهم ليزدادوا إثما مع الإملاء فى الزمن والإملاء فى الرخاء . فهذا الإمهال والإملاء إنما هو وبال عليهم وبلاء . . ويختم الاستعراض بكشف حكمة الله وتدبيره من وراء الأحداث كلها:من وراء ابتلاء المؤمنين وإمهال الكافرين . إنها تمييز الخبيث من الطيب ، بالاختبار والابتلاء ، فكان الابتلاء للمؤمنين والإمهال للكافرين ، ليتكشف المخبوء فى القلوب ، ويتميز الخبيث من الطيب ؛ ويتبين المؤمنون بالله ورسله على وجه القطع واليقين (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم , إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب , ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) إن هذا الختام هو أنسب ختام لاستعراض الغزوة التى أصيب فيها المسلمون هذه الإصابة والتى رجع منها المشركون بالنصر والغلبة ، فهناك دائما تلك الشبهة الكاذبة التى تحيك فى بعض الصدور ؛ أو الأمنية العاتبة التى تهمس فى بعض القلوب ، أمام المعارك التى تنشب بين الحق والباطل . ثم يعود فيها الحق بمثل هذه الإصابة ، ويعود منها الباطل ذا صولة وجولة ! هناك دائما الشبهة الكاذبة ، أو الأمنية العاتبة:لماذا يا رب ؟ لماذا يصاب الحق وينجو الباطل ؟ لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل ، ويعود بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذى ينبغى أن ينتصر ؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة ؟ وفيم يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة ، وفيها فتنة للقلوب وهزة ؟! ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أحد فى دهشة واستغراب:" أنى هذا ؟! " ففى هذا المقطع الختامى يجىء الجواب الأخير فيريح الله القلوب المتعبة ، ويجلو كل خاطرة تتدسس إلى القلوب من هذه الناحية ، ويبين سنته وقدره وتدبيره فى الأمر كله أمس واليوم وغدا . وحيثما التقى الحق والباطل فى معركة فانتهت بمثل هذه النهاية ، إن ذهاب الباطل ناجيا فى معركة من المعارك وبقاءه منتفشا فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب ، أو

بحيث يضر الحق ضررا باقيا قاضيا وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ، ليس معناه إن الله مجافيه أو ناسيه ! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه كلا . إنما هي حكمة وتدبير هنا وهناك يملى للباطل ليمضى إلى نهاية الطريق وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق ! ويبتلى الحق ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضى مع الابتلاء ويثبت فهو الكسب للحق والخسار للباطل ، مضاعفا هذا وذاك ! هنا وهناك ! ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ، ولهم عذاب عظيم) إنه يواسى النبي ﷺ ويدفع عنه الحزن الذى يساور خاطره ؛ وهو يرى المغالين فى الكفر , يسارعون فيه ، ويمضون بعنف واندفاع وسرعة ، كأنما هنالك هدف منصوب لهم يسارعون إلى بلوغه ! وكان الحزن يساور قلب رسول الله ﷺ حسرة على هؤلاء العباد ؛ الذين يراهم مشمرين ساعين إلى النار ، وهو لا يملك لهم ردا ، وهم لا يسمعون له نذارة ! وكان الحزن يساور قلبه كذلك لما يثيره هؤلاء المشمرون إلى النار المسارعون فى الكفر ، من الشر والأذى يصيب المسلمين ، ويصيب دعوة الله ، وسيرها بين الجماهير ، التى كانت تنتظر نتائج المعركة مع قريش لتختار الصف الذى تنحاز إليه في النهاية ، فلما أسلمت قريش واستسلمت دخل الناس فى دين الله أفواجا ، ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الاعتبارات وقعها فى قلب الرسول الكريم ﷺ (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر . إنهم لن يضروا الله شيئا) وهؤلاء العباد المهازيل لا يبلغون أن يضروا الله شيئا . والأمر فى هذا لا يحتاج إلى بيان . إنما يريد الله سبحانه أن يجعل قضية العقيدة قضيته هو ؛ وأن يجعل المعركة مع المشركين معركته هو . ويريد أن يرفع عبء هذه العقيدة وعبء هذه المعركة عن عاتق الرسول ﷺ وعاتق المسلمين جملة فالذين يسارعون فى الكفر يحاربون الله , وهم أضعف من أن يضروا الله شيئا وهم إذن لن يضروا دعوته . ولن يضروا حملة هذه الدعوة . مهما سارعوا في الكفر ، ومهما أصابوا أولياء الله بالأذى . إذن لماذا يتركهم الله يذهبون ناجين ، وينتفشون غالبين ، وهم أعداؤه المباشرون ؟ لأنه يدبر لهم ما هو أنكى وأخزى ! (يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة) يريد لهم أن يستنفدوا رصيدهم كله ؛ وأن يحملوا وزرهم كله ، وأن يستحقوا عذابهم كله , وأن يمضوا مسارعين فى الكفر إلى نهاية الطريق ! (ولهم عذاب عظيم) ولماذا يريد الله بهم هذه النهاية الفظيعة ؟ لأنهم استحقوها بشرائهم الكفر بالإيمان (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم) وهنا يصل السياق إلى العقدة التى تحيك فى بعض الصدور ، والشبهة التي تجول فى بعض القلوب ، والعتاب الذى تجيش به بعض الأرواح ، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق ، متروكين لا يأخذهم العذاب ، ممتعين في ظاهر الأمر ، بالقوة والسلطة والمال والجاه ! مما يوقع الفتنة فى قلوبهم وفى قلوب الناس من حولهم ؛ ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ؛ يحسبون أن الله – حاشاه – يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان ، فيملى له ويرخي له العنان ! أو يحسبون أن الله – سبحانه - لا يتدخل فى المعركة بين الحق والباطل ، فيدع للباطل أن يحطم الحق ، ولا يتدخل لنصرته ! أو يحسبون أن هذا الباطل حق ، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب ؟ أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق فى هذه الأرض ، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر ! ثم .. يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين ، يلجون فى عتوهم ، ويسارعون فى كفرهم ، ويلجون فى طغيانهم ، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم ، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف فى وجههم !!! وهذا كله وهم باطل ، وظن بالله غير الحق ، والأمر ليس كذلك . وها هو ذا الله سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن ، إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذى يسارعون فيه ، وإذا كان يعطيهم حظا فى الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه ، إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء ، فإنما هي الفتنة ؛ وإنما هو الكيد المتين ، وإنما هو الاستدراج البعيد (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) !والإهانة هى المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء (ولهم عذاب مهين) وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير . فإذا أصابت أولياءه ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم – ولو وقع الابتلاء مترتبا على تصرفات هؤلاء الأولياء – فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف ، وفضل الله على أوليائه المؤمنين (مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (١٧٩) إذن كيف يميز الله الخبيث من الطيب ؟ وكيف يحقق شأنه وسنته فى تطهير الصف المسلم , وتجريده من الغبش ، وتمحيصه من النفاق ، وإعداده للدور الكونى العظيم ، الذى أخرج الأمة المسلمة لتنهض به ؟ (ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء) وعن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل فى تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم في طريق الجهاد . . عن طريق هذا كله يتم شأن الله ، وتتحقق سنته ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويمحص القلوب ، ويطهر النفوس ويكون من قدر الله ما يكون وامام مشهد الحقيقة متجلية بسيطة مريحة ، يتجه إلى الذين آمنوا ليحققوا فى ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه ، ويلوح لهم بفضل الله العظيم ، الذى ينتظر المؤمنين (فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) وهذا التوجيه الإلهى للجماعة المسلمة فى المدينة ما يزال هو هو ، قائما اليوم وغدا , يبصر كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق ، لإعادة نشأة الإسلام ولاستئناف حياة إسلامية فى ظل الله . . يبصرها بطبيعة أعدائها – وهم هم مشركين وملحدين وأهل كتاب - الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية ! – ويبصرها بطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة فى طريقها ، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء . ويعلق قلوبها وأبصارها بما هنالك . بما عند الله . ويهون عليها الأذى والموت والفتنة فى النفس والمال . ويناديها – كما نادى الجماعة المسلمة الأولى -: (كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ؛ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) والقرآن هو القرآن . كتاب هذه الأمة الخالد . ودستورها الشامل . وحاديها الهادى . وقائدها الأمين وأعداؤها هم أعداؤها والطريق هو الطريق .

(وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ من فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {١٨٠} لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ {١٨١} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ {١٨٢} الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {١٨٣} فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {١٨٤}

لم ترد فى الآية الأولى من هذه المجموعة رواية مؤكدة ، عم تعنيهم ، ومن تحذرهم البخل , وعاقبة يوم القيامة . . ولكن ورودها فى هذا السياق يرجح أنها متصلة بما بعدها من الآيات ، فى شأن اليهود . فهم – قبحهم الله – الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . وهم الذين قالوا:إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، والظاهر أن الآيات فى عمومها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول ﷺ ودعوتهم كذلك إلى الإيمان بالرسول ﷺ والإنفاق فى سبيل الله . وقد نزل هذا التحذير التهديدى ، مع فضح تعلات اليهود فى عدم الإيمان بمحمد ﷺ ردا على ما بدا من سوء أدبهم مع ربهم ، ونزلت معه المواساة للرسول ﷺ عن تكذيبهم ، بما وقع للرسل قبله مع أقوامهم . ومنهم أنبياء بنى إسرائيل , الذى قتلوهم بعد ما جاءوهم بالبينات والخوارق كما هو معروف فى تاريخ بنى إسرائيل :(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السماوات والأرض . والله بما تعملون خبير) إن مدلول الآية عام . فهو يشمل اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم ، كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله ؛ ويحسبون أن هذا البخل خير لهم ، يحفظ لهم أموالهم ، فلا تذهب بالإنفاق .

والنص القرآنى ينهاهم عن هذا الحسبان الكاذب ؛ ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة نارا وهو تهديد مفزع ، والتعبير يزيد هذا البخل شناعة حين يذكر أنهم (يبخلون بما آتاهم الله من فضله) فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم . فقد جاءوا إلى هذه الحياة لا يملكون شيئا ولا جلودهم! فآتاهم الله من فضله فأغناهم . حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا "من فضله" شيئا لم يذكروا فضل الله عليهم . وبخلوا بالقليل , وحسبوا أن فى كنزه خيرا لهم . وهو شر فظيع . وهم – بعد هذا كله – ذاهبون وتاركوه وراءهم . فالله هو الوارث: (ولله ميراث السماوات والأرض). . فهذا الكنز إلى أمد قصير . ثم يعود كله إلى الله . ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذى أنفقوه ابتغاء مرضاته فيبقى مدخرا لهم عنده ، بدلا من أن يطوقهم إياه يوم القيامة ! ثم يندد باليهود الذين وجدوا فى أيديهم المال – الذى آتاهم الله من فضله – فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله ، لا حاجة بهم إلى جزائه ، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التى يعدها لمن يبذل فى سبيله – وهو ما يسميه تفضلا منه ومنة اقراضا له سبحانه – وقالوا فى وقاحة:ما بال الله يطلب الينا أن نقرضه من مالنا . ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة , وهو ينهى عن الربا والأضعاف المضاعفة ؟! وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن القحة وسوء الأدب فى حق الله (لقد سمع الله قول الذين قالوا:إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا ! وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد) وسوء تصور اليهود للحقيقة الإلهية شائع فى كتبهم المحرفة . ولكن هذه تبلغ مبلغا عظيما من سوء التصور ومن سوء الأدب معا . . ومن ثم يستحقون هذا التهديد المتلاحق (سنكتب ما قالوا) لنحاسبهم عليه ، فما هو بمتروك ولا منسى ولا مهمل وإلى جانبه تسجيل آثام السابقة وهى آثام جنسهم وأجيالهم متضامنة فيه (وقتلهم الأنبياء بغير حق) وقد حفظ تاريخ بنى إسرائيل سلسلة أثيمة فى قتل الأنبياء (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) والنص على "الحريق" هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه . ولتجسيم مشهد العذاب بهوله وتأججه وضرامه جزاء على الفعلة الشنيعة ــ قتل الأنبياء بغير حق ــ وجزاء على القولة الشنيعة ــ إن الله فقير ونحن أغنياء ــ (ذلك بما قدمت أيديكم) جزاء وفاقا ، لا ظلم فيه ، ولا قسوة (وأن الله ليس بظلام للعبيد) والتعبير بالعبيد هنا ، إبراز لحقيقة وضعهم – وهم عبيد من العبيد – بالقياس إلى الله تعالى . وهو يزيد فى شناعة الجرم ، وفظاعة سوء الأدب (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) هؤلاء الذين قالوا:إن الله فقير ونحن أغنياء ، والذى قتلوا الأنبياء هم الذى يزعمون أنهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ لأن الله عهد إليهم – بزعمهم – ألا يؤمنوا لرسول , حتى يأتيهم بقربان يقدمونه ، فتقع المعجزة ، وتبهط نار تأكله ، على نحو ما كانت معجزة بعض أنبياء بنى إسرائيل . وما دام محمد ﷺ لم يقدم لهم هذه المعجزة فهم على عهد مع الله !! هنا يجبههم القرآن بواقعهم التاريخى . . لقد قتلوا هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بالخوارق التى طلبوها وجاءوهم بآيات الله بينات (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) وهى مجابهة قوية ، تكشف عن كذبهم والتوائهم وإصرارهم على الكفر ، وتبجحهم بعد ذلك وافترائهم على الله ! وهنا يلتفت إلى الرسول ﷺ مسليا مواسيا ، مهونا عليه ما يلقاه منهم ، وهو ما لقيه إخوانه الكرام من الرسل على توالى العصور (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك ، جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير)

(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ {١٨٥} لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ {١٨٦}

بعد ذلك يتجه السياق إلى الجماعة المسلمة ؛ يحدثها عن القيم التى ينبغى لها أن تحرص عليها ، وتضحى من أجلها ؛ ويحدثها عن أشواك الطريق ومتاعبها وآلامها ، ويهيب بها إلى الصبر والتقوى والعزم والاحتمال: (كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوت , محدودة بأجل ؛ ثم تأتى نهايتها حتما يموت الصالحون يموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن ، يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص . الكل يموت (كل نفس ذائقة الموت) كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة لا فارق بين نفس ونفس فى تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع . إنما الفارق فى شىء آخر . الفارق فى قيمة أخرى . الفارق فى المصير الأخير (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) هذ هى القيمة التى يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذى يفترق فيه فلان عن فلان . القيمة الباقية التى تستحق السعى والكد . والمصير المخوف الذى يستحق أن يحسب له ألف حساب (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز). ولفظ" زحزح" بذاته يصور معناه بجرسه ، ويرسم هيئته ، ويلقى ظله ! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها ، ويدخل فى مجالها ! فهو فى حاجة إلى من يزحزحه قليلا قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ، ويدخل الجنة . . فقد فاز . . صورة قوية . بل

مشهد حى . فيه حركة وشد وجذب ! وهو كذلك فى حقيقته وفى طبيعته . فللنار جاذبية ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس فى حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! وهذه هى زحزحتها عن النار (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) إنها متاع . ولكنه ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو واليقظة إنها متاع الغرور . المتاع الذى يخدع الإنسان فيحسبه متاعا . أو المتاع الذى ينشىء الغرور والخداع وعندما تكون هذه الحقيقة قد استقرت فى النفس . عندما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة ، وأخرجت من حسابها حكاية متاع الغرور الزائل . عندئذ يحدث الله المؤمنين عما ينتظرهم من بلاء فى الأموال والأنفس . وقد استعدت نفوسهم للبلاء (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا . وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) إنها سنة العقائد والدعوات . لا بد من بلاء ، ولا بد من أذى فى الأموال والأنفس , ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام . إنه الطريق إلى الجنة . وقد حفت الجنة بالمكاره . بينما حفت النار بالشهوات (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وذلك لكى يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم ؛ وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية . ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها . وحقيقة الجماعات والمجتمعات . ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطريق ، ومسارب الضلال ! إنها سنة الدعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقة ؛ ويحافظ فى ثنايا الصراع المرير على تقوى الله ، فلا يشط فيعتدى وهو يرد الاعتداء ؛ ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله فى نصره وهو يعانى الشدائد . . ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء :(وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل عليها وإسماعها ما يكره وما يؤذى . . تستبشر بهذا كله , لأنها تستيقن منه أنها ماضية فى الطريق التى وصفها الله لها من قبل . وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق . ويبطل عندها الكيد والبلبلة ويصغر عندها الابتلاء والأذى ؛ وتمضى فى طريقها الموعود ، إلى الأمل المنشود . . فى صبر وفى تقوى . . وفى عزم أكيد (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ {١٨٧} لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {١٨٨} وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {١٨٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٢٠٠}

ثم يمضى السياق القرآنى يفضح موقف أهل الكتاب فى مخالفتهم عن عهد الله معهم يوم آتاهم الكتاب . ونبذهم له . وكتمانهم لما ائتمنهم عليه منه ، حين يسألون عنه ، وقد تضمن سياق السورة الكثير من أفاعيل أهل الكتاب وأقاويلهم – وبخاصة اليهود – وأبرزها كتمانهم للحق الذى يعلمونه ، ولبسه بالباطل ، لإحداث البلبلة والاضطراب فى مفهوم الدين ، وفى صحة الإسلام ، وفى وحدة الأسس والمبادىء بينه وبين الأديان قبله ، وفى تصديقه لها وتصديقها له . . وكانت التوراة بين أيديهم يعلمون منها أن ما جاء به محمد حق ؛ وأنه من ذات المصدر الذى جاءتهم منه التوارة ، فالآن يبدو هذا الموقف منهم بشعا غاية البشاعة ؛ حين ينكشف أيضا أن الله – سبحانه - قد أخذ عليهم العهد – وهو يعطيهم الكتاب – أن يبينوه للناس ، ويبلغوه ، ولا يكتموه أو يخفوه . وأنهم نبذوا هذا العهد مع الله – والتعبير يجسم إهمالهم وإخلافهم للعهد ؛ فيمثله فى حركة (فنبذوه وراء ظهورهم) وأنهم فعلوا هذه الفعلة الفاضحة ، ابتغاء ثمن قليل (واشتروا به ثمنا قليلا) وكله ثمن قليل , ولو كان ملك الأرض كلها طوال الدهور ! فما أقل هذا الثمن ثمنا لعهد الله ! وما أقل هذا المتاع (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم{١٨٨} ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شىء قدير{١٨٩} إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب{١٩٠}ومسألة نزول آية بعينها فى مسألة بعينها ليست قطعية فى هذا . فكثيرا ما يكون الذى وقع هو الاستشهاد بالآية على حادثة بعينها . فيروى أنها نزلت فيها ، أو تكون الآية منطبقة على الحادثة فيقال كذلك:إنها نزلت فيها . . ومن ثم لا نجزم فى الروايتين بقول ، فأما إذا كانت الأولى ، فهناك مناسبة فى السياق عن أهل الكتاب ، وكتمانهم لما ائتمنهم الله عليه من الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه . ثم هم يكتمونه . ويقولون غير الحق ويمضون فى الكذب والخداع ، حتى ليطلبوا أن يحمدوا على بيانهم الكاذب وردهم المفترى ! وأما إذا كانت الثانية ، ففى سياق السورة حديث عن المنافقين يصلح أن تلحق به هذه الآية . وهى تصور نموذجا من الناس يوجد على عهد الرسول ﷺ ويوجد فى كل جماعة . نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى ، وتكاليف العقيدة ، فيقعدون متخلفين عن الكفاح . فإن غلب المكافحون وهزموا رفعوا هم رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم ، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة . . أما إذا انتصر المكافحون وغنموا ، فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدى خطتهم ؛ وينتحلون لأنفسهم يدا فى النصر , ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ! إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء . نموذج يرسمه التعبير القرآنى فى لمسة أو لمستين . فإذا ملامحه واضحة للعيان ، وسماته خالدة فى الزمان . . وتلك طريقة القرآن ، هؤلاء الناس يؤكد الله للرسول ﷺ أنهم لا نجاة لهم من العذاب . وإن الذى ينتظرهم عذاب أليم لا مفر لهم منه و لا معين (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) والذى يتوعدهم به هو الله . مالك السماوات والأرض . القادر على كل شىء . فأين المفازة إذن ؟ وكيف النجاة ؟ (ولله ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء قدير)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ {١٩٠} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {١٩١} رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {١٩٢} رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ {١٩٣} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ {١٩٤} فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ {١٩٥} لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ {١٩٦} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

{١٩٧} لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ {١٩٨} وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {١٩٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٢٠٠}

هذا هو الدرس الأخير في السورة التى ضمت ذلك الحشد الضخم الذى استعرضناه:من مقومات التصور الإسلامى . وتقرير هذه المقومات وتجليتها من الغبش واللبس في الجدل مع أهل الكتاب ، ثم في الجدل مع المنافقين والمشركين ، يلى هذه الحقيقة في سياق الدرس استجابة الله (لأولى الألباب)وقد توجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب ؛ وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح ، ويتأملون ما ينطق به من الآيات , وما يوحى به من الغايات . . استجابته لهم استجابة توجيهية إلى العمل والجهاد والتضحية والصبر ، والنهوض بتكاليف هذا الإيمان ، الذى ثابوا به من جولتهم الخاشعة في كتاب الكون المفتوح . . مع التهوين من شأن الذين كفروا وما قد يستمتعون به من أعراض هذه الحياة . وإبراز القيم الباقية في الجزاء الأخروى ، التى ينبغى أن يحفل بها المؤمنون الأبرار . وعطفا على الحديث الطويل في السورة عن أهل الكتاب ومواقفهم من المؤمنين ، يرد هنا في هذا القطاع الأخير ذكر الفريق المؤمن ، وجزاؤه المناسب ، ويبرز من صفاتهم صفة الخشوع ، التى تتناسق مع مشهد أولى الألباب أمام كتاب الكون المفتوح ، ودعائهم الخاشع المنيب . وصفة الحياء من الله أن يشتروا بآياته ثمنا قليلا ، كأولئك الذين كفروا من أهل الكتاب ، وتقدم وصفهم في السورة ثم تجىء الآية الخاتمة تلخص التوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة ، وتمثل خصائصها المطلوبة , وتكاليفه المحددة ، والتى بها يكون الفلاح ، و في ختام السورة دعوة للصبر والمصابرة و الرباط في سبيل الله وخشيته وهى الأعمال التى تؤدى الى الفلاح في الدنيا والآخرة (يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله ، لعلكم تفلحون) وهو ختام يناسب محور السورة الأصيل ، وموضوعاتها الرئيسية ، ويتسق معها كل الاتساق ، فما الآيات التى في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ؟ ما الآيات التى تتراءى لأولى الألباب عندما يتفكرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار , وهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؟ وما علاقة التفكر في هذه الآيات بذكرهم الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؟ وكيف ينتهون من التفكر فيها إلى هذا الدعاء الخاشع الواجف (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {١٩١} رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {١٩٢} رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ {١٩٣} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ..) إن التعبير يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك السليم . وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار في صميم الكون ، بالليل والنهار و أولو الإدراك الصحيح . . يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ؛ ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات . ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم ، وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه , وتدرك غاية وجوده ، وعلة نشأته ، وقوام فطرته . بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود ومشهد السماوات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار . لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا . لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة . لو استنقذنا حسنا من همود الإلف ، وخمود التكرار . . لارتعشت له رؤانا ، ولاهتزت له مشاعرنا ، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لا بد من يد تنسق ؛ ووراء ما فيه من نظام لا بد من عقل يدبر ؛ ووراء ما فيه من إحكام لا بد من ناموس لا يتخلف . . وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعا ، ولا يمكن أن يكون جزافا ، ولا يمكن أن يكون بإطلا . ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ، ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس . ولا أن تناسق السماوات والأرض مرتكز إلى" الجاذبية " أو غير الجاذبية . . هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهى في كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر في استقبال هذه العجيبة الكونية ، واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التى تحكمها وتحفظها . . وهذه النواميس – أيا كان اسمها عند الباحثين من بني الإنسان – هى آية القدرة ، وآية الحق ، في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار . والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا ، وهو في الوقت ذاته تصوير إيحائى ، يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح ، في التعامل مع الكون وفي التخاطب معه بلغته ، والتجاوب مع فطرته وحقيقته ، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته . ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب "معرفة " للإنسان المؤمن الموصول بالله , وبما تبدعه يد الله . وإنه يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته (قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وبين التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار . . فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة ، ويجعله جانبا من مشهد الذكر . . فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين .

الحقيقة الأولى:أن التفكر في خلق الله ، والتدبر في كتاب الكون المفتوح ، وتتبع يد الله المبدعة ، وهى تحرك هذا الكون ، وتقلب صفحات هذا الكتاب . . هو عبادة لله من صميم العبادة ، وذكر لله من صميم الذكر . ولو اتصلت العلوم الكونية ، التى تبحث في تصميم الكون ، وفي نواميسه وسننه بتذكر خالق هذا الكون وذكره ، والشعور بجلاله وفضله . لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة

والحقيقة الثانية:أن آيات الله في الكون ، لا تتجلى على حقيقتها الموحية ، إلا للقلوب الذاكرة العابدة . وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم – وهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار – هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض واختلاف الليلوالنهار , وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهى الموصل إلى النجاة والخير والصلاح . . فأما الذين يكتفون بظاهر من الحياة الدنيا , ويصلون إلى أسرار بعض القوى الكونية – بدون هذا الاتصال – فهم يدمرون الحياة ويدمرون أنفسهم بما يصلون إليه من هذه الأسرار ، ويحولون حياتهم إلى جحيم نكد , وإلى قلق خانق . ثم ينتهون إلى غضب الله وعذابه في نهاية المطاف ! إنها لحظة العبادة . وهى بهذا الوصف لحظة اتصال ، ولحظة استقبال . فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر ؛ وأن يكون مجرد التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا . ومن ثم

تكون الحصيلة المباشرة ، للخطة الواصلة (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانک !)ما خلقت هذا الكون ليكون باطلا . ولكن ليكون حقا . الحق قوامه . والحق قانونه . والحق أصيل فيه . إن لهذا الكون حقيقة ، فهو ليس "عدما" كما تقول بعض الفلسفات ! وهو يسير وفق ناموس ، فليس متروكا للفوضى . وهو يمضى لغاية ، فليس متروكا للمصادفة . وهو محكوم فى وجوده وفى حركته وفى غايته بالحق لا يتلبس به الباطل ، هذه هى اللمسة الأولى ، التى تمس قلوب (أولى الألباب) من التفكر فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار بشعور العبادة والذكر والاتصال . وهى اللمسة التى تطبع حسهم بالحق الأصيل فى تصميم هذا الكون ، فتطلق ألسنتهم بتسبيح الله وتنزيهه عن أن يخلق هذا الكون باطلا (ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانک !) ثم تتوالى الحركات النفسية ، تجاه لمسات الكون وإيحاءاته (فقنا عذاب النار . ربنا إنک من تدخل النار فقد أخزيته . وما للظالمين من أنصار)فما العلاقة الوجدانية ، بين إدراک ما فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار من حق ، وبين هذه الارتعاشة المنطلقة بالدعاء الخائف الواجف من النار ؟ إن إدراک الحق الذى فى تصميم هذا الكون وفى ظواهره ، معناه – عند أولى الألباب – أن هناک تقديرا وتدبيرا ، وأن هناک حكمة وغاية ، وأن هناک حقا وعدلا وراء حياة الناس فى هذا الكوكب . ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقدم الناس من أعمال . ولا بد إذن من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل فى الجزاء ، فهى سلسلة من منطق الفطرة والبداهة ، تتداعى حلقاتها فى حسهم على هذا النحو السريع .لذلک تقفز إلى خيالهم صورة النار ، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيهم منها ، هو الخاطر الأول ، المصاحب لإدراک الحق الكامن فى هذا الوجود . . وهى لفتة عجيبة إلى تداعى المشاعر عند ذوى البصائر . . ثم تنطلق ألسنتهم بذلک الدعاء الطويل , الخاشع الواجف الراجف المنيب ، ذى النغم العذب ، والإيقاع المنساب , والحرارة البادية فى المقاطع والأنغام ! (رَبَّنَا إِنَّکَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِکَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّکَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) إنها تشى بأن خوفهم من النار ، إنما هو خوف – قبل كل شىء – من الخزى الذى يصيب أهل النار . وهذه الرجفة التى تصيبهم هى أولا رجفة الحياء من الخزى الذى ينال أهل النار (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان:أن آمنوا بربكم . فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا , وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار). فهى قلوب مفتوحة ؛ ما إن تتلقى حتى تستجيب . وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة , فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار . وختام هذا الدعاء . توجه ورجاء . واعتماد واستمداد من الثقة بوفاء الله بالميعاد (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلک ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنک لا تخلف الميعاد) فهو استنجاز لوعد الله ، الذى بلغته الرسل ، وثقة بوعد الله الذى لا يخلف الميعاد , ورجاء فى الإعفاء من الخزى يوم القيامة ، والدعاء فى مجموعة يمثل الاستجابة الصادقة العميقة ، لإيحاء هذا الكون وإيقاع الحق الكامن فيه ، فى القلوب السليمة المفتوحة ، إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة لآياتها – والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر ، فيه ليست حرفا متحدا ، ولكنها إيقاع متشابه – مثل:"بصير . حكيم . مبين . مريب" . . "الألباب ، الأبصار ، النار . قرار" . . "خفيا . شقيا . شرقيا . شيئا . . . " . إلخ . وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير . والثانية فى مواضع الدعاء . والثالثة فى مواضع الحكاية ، وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى . ولم تبعد عنها إلا فى موضعين:أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء . والثانى هنا عند هذا الدعاء الجديد وذلک من بدائع التناسق الفنى فى التعبير القرآنى . . فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية , وعذوبة صوتية . تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهال (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لاَ يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) وهى استجابة مفصلة ، وتعبير مطول ، يتناسق مع السمة الفنية للتعبير القرآنى ؛ وفق مقتضى الحال ، ومتطلبات الموقف ، من الجانب النفسى والشعورى ، إن أولى الألباب هؤلاء ، تفكروا فى خلق السماوات والأرض ، وتدبروا اختلاف الليل والنهار , وتلقوا من كتاب الكون المفتوح ، ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم ، على دعائهم المخلص الودود . . فماذا كانت الاستجابة ؟ لقد كانت قبولا للدعاء ، وتوجيها إلى مقومات هذا المنهج الإلهى وتكاليفه فى آن (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم . . من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) إنه ليس مجرد التفكر ومجرد التدبر . وليس مجرد الخشوع والارتجاف . وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزى ومن النار . . إنما هو "العمل" . العمل الإيجابى ، الذى ينشأ عن هذا التلقى ، وعن هذه الاستجابة ، وعن هذه الحساسية الممثلة فى هذه الارتجافة . العمل الذى يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكر والتدبر , والذكر والاستغفار ، والخوف من الله ، والتوجه إليه بالرجاء . بل العمل الذى يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة ، والذى يقبل من الجميع:ذكرانا وإناثا بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس . فكلهم سواء فى الإنسانية – بعضهم من بعض – وكلهم سواء فى الميزان . .ثم تفصيل للعمل ، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة فى النفس والمال ؛ كما تتبين منه طبيعة المنهج ، وطبيعة (فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا . لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب)وقد كانت هذه صورة الداعين المخاطبين بهذا القرآن أول مرة . الذين هاجروا من مكة , وأخرجوا من ديارهم ، فى سبيل العقيدة ، وأوذوا فى سبيل الله لا فى أى غاية سواه ، وقاتلوا وقتلوا ، ولكنها صورة أصحاب هذه العقيدة فى صميمها فى كل أرض وفى كل زمان ، صورتها وهى تنشأ فى الجاهلية – أية جاهلية – فى الأرض المعادية لها – أية أرض - وبين القوم المعادين – أى قوم – فتضيق بها الصدور ، وتتأذى بها الأطماع والشهوات , وتتعرض للأذى والمطاردة ، وأصحابها – فى أول الأمر – قلة مستضعفة . . ثم تنمو النبتة الطيبة – كما لا بد أن تنمو – على الرغم من الأذى ، وعلى الرغم من المطاردة , ثم تملک الصمود والمقاومة والدفاع عن نفسها . فيكون القتال ، ويكون القتل . . وعلى هذا الجهد الشاق المرير يكون تكفير السيئات ، ويكون الجزاء ويكون الثواب ، ثم التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة فى المتاع المتاح فى هذه الأرض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج الله . . التفاتة لإعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة , حتى لا يكون فتنة لأصحابه ، ثم كى لا يكون فتنة للمؤمنين ، الذى يعانون ما يعانون ، من أذى وإخراج من الديار ، وقتل وقتال (لا يغرنک تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل . . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها نزلا من عند الله . وما عند الله خير للأبرار) وتقلب الذين كفروا فى البلاد ، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر. يحيک منه شىء فى قلوب المؤمنين ؛ وهم يعانون الشظف والحرمان ، ويعانون الأذى والجهد ،. وكلها

مشقات وأهوال ، بينما أصحاب الباطل ينعمون (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) متاع قليل . . ينتهى ويذهب . . أما المأوى الدائم الخالد ، فهو جهنم وبئس المهاد ، وفى مقابل المتاع القليل الذاهب جنات . وخلود . وتكريم من الله (جنات تجرى من تحتها الأنهار) (خالدين فيها) (نزلا من عند الله) (وما عند الله خير للأبرار) إنه يعدهم هنا شيئا واحدا . هو (ما عند الله). فهذا هو الأصل فى هذه الدعوة . وهذه هى نقطة الانطلاق فى هذه العقيدة: التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ، ويكلوا أمرها إليه ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها ! هذه هى العقيدة ... عطاء ووفاء وأداء . فقط . وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء . . ثم انتظار كل شيء هناك ! على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة فى مكة ؛ وعلى هذا كان البيع والشراء . ولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ؛ ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية , إلا حين تجردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء: وهكذا ربى الله الجماعة التى قدر أن يضع فى يدها مقاليد الأرض ، وزمام القيادة ، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها ، وكل رغباتها ، وكل شهواتها ، حتى ما يختص منها بالدعوة التى تحملها ، والمنهج الذى تحققه ، والعقيدة التى تموت من أجلها . فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقى له أرب ، وقبل ختام السورة يعود السياق إلى أهل الكتاب ، فيقرر أن فريقا منهم يؤمن إيمان المسلمين , وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم . وسار سيرتهم . وله كذلك جزاؤهم (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (٢٠٠) إنه الحساب الختامى مع أهل الكتاب . وقد ذكر من طوائفهم ومواقفهم فيما سبق من السورة الكثير . ففى معرض الإيمان ، وفى مشهد الدعاء والاستجابة ، يذكر كذلك أن من أهل الكتاب من سلكوا الطريق ، وانتهوا إلى النهاية . فآمنوا بالكتاب كله ، ولم يفرقوا بين الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد من رسله . آمنوا بما أنزل إليهم من قبل , وآمنوا بما أنزل للمسلمين وهذه سمة هذه العقيدة التى تنظر إلى موكب الإيمان نظرة القرب والود ؛ وتنظر إلى خط العقيدة موصولا بالله ، وتنظر إلى منهج الله فى وحدته وكليته الشاملة ، ويبرز من سمات المؤمنين من أهل الكتاب:سمة الخشوع لله وسمة عدم شرائهم بآياته ثمنا قليلا ، ليفرقهم بهذا من صفوف أهل الكتاب ، وسمتهم الأصيلة هى التبجح وقلة الحياء من الله . ثم التزوير والكتمان لآيات الله ، لقاء أعراض الحياة الرخيصة ! ويعدهم أجر المؤمنين عند الله . الذى لا يمطل المتعاملين معه – حاشاه – ! إن الله سريع الحساب) ثم يجىء الإيقاع الأخير ، فى نداء الله للذين آمنوا ، وتلخيص أعباء المنهج ، وشرط الطريق (يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون) إنه النداء العلوى للذين آمنوا النداء لهم . للصبر والمصابرة ، والمرابطة ، والتقوى . . والصبر هو زاد الطريق فى هذه الدعوة . إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات والأشواك , مفروش بالدماء والأشلاء ، وبالإيذاء والابتلاء . . الصبر على أشياء كثيرة:الصبر على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ، وعجلتها وملالها من قريب ! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم , وانحراف طباعهم ، وأثرتهم ، وغرورهم ، والتوائهم ، واستعجالهم للثمار ! والصبر على تنفج الباطل ، ووقاحة الطغيان , وانتفاش الشر ، وغلبة الشهوة ، وتصعير الغرور والخيلاء ! والصبر على قلة الناصر , وضعف المعين ، وطول الطريق ، ووساوس الشيطان فى ساعات الكرب والضيق ! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله ، وما تثيره فى النفس من انفعالات متنوعة . من الألم والغيظ ، والحنق ، والضيق ، وضعف الثقة أحيانا فى الخير ، وقلة الرجاء أحيانا فى الفطرة البشرية ؛ والملل والسأم واليأس أحيانا والقنوط ! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس فى ساعة القدرة والانتصار والغلبة ، واستقبال الرخاء فى تواضع وشكر ، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام ، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء ! والبقاء فى السراء والضراء على صلة بالله ، واستسلام لقدره ، ورد الأمر إليه كله فى طمأنينة وثقة وخشوع والمصابرة . . وهى مفاعلة من الصبر . . مصابرة هذه المشاعر كلها ، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين . . مصابرتهم ومصابرتهم ، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة . بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى:أعدائهم من كوامن الصدور ، وأعدائهم من شرار الناس سواء . فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم ,يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر ، والدفع بالدفع ، والجهد بالجهد ، والإصرار بالإصرار . . ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء . وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضى فى الطريق ، فما أجدر الحق أن يكون أشد إصرارا وأعظم صبرا على المضى فى الطريق ! والمرابطة هى الإقامة فى مواقع الجهاد ، وفى الثغور المعرضة لهجوم الأعداء . . وقد كانت الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبدا ، ولا تستسلم للرقاد ! فما هادنها أعداؤها قط ، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة ، والتعرض بها للناس . وما يهادنها أعداؤها قط فى أى زمان أو فى أى مكان وما تستغنى عن المرابطة للجهاد ، حيثما كانت إلى آخر الزمان ! والتقوى . . التقوى تصاحب هذا كله . فهى الحارس اليقظ فى الضمير يحرسه أن يغفل ؛ ويحرسه أن يضعف ؛ ويحرسه أن يعتدى ؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك . نه الإيقاع الأخير فى السورة التى حوت ذلك الحشد من الإيقاعات . وهو جماعها كلها , وجماع التكاليف التى تفرضها هذه الدعوة فى عمومها . . ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح فى هذا المضمار (لعلكم تفلحون) وصدق الله العظيم . .

سورة النساء
مدنية وآياتها 176

هذه السورة مدنية ، وهي أطول سور القرآن – بعد سورة البقرة – وترتيبها فى النزول بعد سورة الممتحنة ، التى تقول الروايات إن بعضها نزل فى غزوة الفتح فى السنة الثامنة للهجرة ، وبعضها نزل فى غزوة الحديبية قبلها فى السنة السادسة . فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة فى السنة السادسة وفى السنة الثامنة كذلك . ولكن منها الكثير نزل فى أوائل العهد بالهجرة . قد امتد نزول آياتها من بعد غزوة أحد فى السنة الثالثة الهجرية ، إلى ما بعد السنة الثامنة ، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة . ونذكر على سبيل المثال الآية الواردة فى هذه السورة عن حكم الزانيات (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ؛ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت , حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) فمن المقطوع به أن هذه الآية نزلت قبل آية سورة النور التى بينت حد الزنا (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك فى السنة الخامسة [أو فى السنة الرابعة على رواية] فقد قال رسول الله ﷺ حين نزلت:" خذوا عنى . خذوا عنى . قد جعل الله لهن سبيلا " إلخ . وكان السبيل هو هذا الحكم الذى تضمنته آية النور ، هذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذى أنفقه الإسلام فى بناء الجماعة المسلمة ، وإنشاء المجتمع الإسلامى ؛ وفى حماية تلك الجماعة ، وصيانة هذه المجتمع . وتعرض نموذجا من فعل القرآن فى المجتمع الجديد ، الذى انبثق أصلا من خلال نصوصه ، والذى نشأ ابتداء من خلال المنهج الربانى . وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج فى تعامله مع الكائن الإنسانى ؛ كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الربانى . . تفاعله معه وهو يقود خطاه فى المرتقى الصاعد ، من السفح الهابط ، إلى القمة السامقة . . خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة . . بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب ؛ وبين أشواك الطريق التى لا تخلو منها خطوة واحدة ؛ وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك ! ونحن نرى فى هذه السورة – ونكاد نحس – أنها كائن حى ، يستهدف غرضا معينا ، ويجهد له , ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل . . والفقرات والآيات والكلمات فى السورة ، هى الوسائل التى تبلغ بها ما تريد ! ومن ثم نستشعر تجاهها – كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن – إحساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحى ، المعروف السمات ، المميز الملامح ، صاحب القصد والوجهة ، وصاحب الحياة والحركة ، وصاحب الحس والشعور ! إن السورة تعمل بجد وجهد فى محو ملامح المجتمع الجاهلى – الذى منه التقطت المجموعة المسلمة – ونبذ رواسبه ؛ وفى تكييف ملامح المجتمع المسلم ، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه ، وجلاء شخصيته الخاصة . كما تعمل بجد وجهد فى استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة ، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذى منه انبثقت هذه الكينونة المميزة , والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله – من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتميعين فيه – من ضعاف الإيمان والمنافقين – وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم ، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم . مع وضع الأنظمة والتشريعات التى تنظم هذا كله وتحدده ، وتصبه فى القالب التنفيذى المضبوط ، وحين ندقق النظر فى الرواسب التى حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلى الذى منه جاء ، والتى تعالج هذه السورة جوانب منها – كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى – قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب ، حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التى رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها . . ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر . . ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التى انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد ، بالجماعة المسلمة . وقد التقطها من ذلك السفح الهابط , الذى تمثله تلك الرواسب ، فارتقى بها فى ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة التى لم ترتق إليها البشرية قط ، إلا على حداء ذلك المنهج العجيب الفريد . الذى يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح ، فيرتقى بها إلى تلك القمة ، رويدا رويدا ، فى يسر ورفق ، وفى ثبات وصبر ، وفى خطو متناسق موزون ! إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ . إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم فى كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففى كل المناهج التى تعتنقها البشرية اليوم ، يأخذ البشر عن بشر مثلهم: التصورات والمبادىء , والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد . وهذه هى الجاهلية بكل مقوماتها . الجاهلية التى تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله . والإسلام هو منهج الحياة الوحيد ، الذى يتحرر فيه البشر من عبودية البشر . لأنهم يتلقون التصورات فماذا نحن واجدون – فى هذه السورة – من ملامح المجتمع الجاهلى التى ظلت راسبة فى الجماعة المسلمة ، منذ أن التقطها المنهج الربانى من سفح الجاهلية ؟ وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التى يراد إنشاؤها فى المجتمع الإسلامى الجديد وتثبيتها ! إننا نجد مجتمع تؤكل فيه حقوق الأيتام – وبخاصة اليتيمات – فى حجور الأهل والأولياء والأوصياء ، ويستبدل الخبيث منها بالطيب ، ويعمل فيها بالإسراف والطمع ، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها ! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال ، ليتخذهن الأولياء زوجات ، طمعا فى مالهم لا رغبة فيهن ! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته ! ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء ؛ فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقى من الميراث . إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء ، القادرون على حمل السلاح ؛ ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات . وهذا الفتات الذى تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات ، هو الذى يحتجزن من أجله ، ويحبسن على الأطفال من الذكور ؛ أو على الشيوخ من الأولياء . كى لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب فى الغرباء ! ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم ، ويعاملها بالعسف والجور . فى كل أدوار حياتها . يحرمها الميراث – كما قلنا – أو يحبسها لما ينالها منه ؛ ويورثها للرجل كما يورثه المتاع ! فإذا مات زوجها جاء وليه ، فألقى عليها ثوبه ، فيعرف أنها محجوزة له . إن شاء نكحها بغير مهر ، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها ! ويعضلها زوجها إذا طلقها , فيدعها لا هى زوجة ، ولا هى مطلقة ، حتى تفتدى نفسها منه وتفك أسرها ! ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه ، علاوة على اضطراب قواعد التبنى والولاء ، واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب ، فوق ما فيه من فوضى فى العلاقات الجنسية والعائلية . حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة . ونجد مجتمعا تؤكل فيه الأموال بالباطل فى المعاملات الربوية . وتغتصب فيه الحقوق . وتجحد فيه الأمانات . وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح . ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء . كما لا تنفق فيه الأموال إلا رئاء الناس ، اجتلابا للمفاخر , ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الإنفاق ما ينال

الأقوياء الأغنياء ! إنه لم يكن – قطعا – مجتمعا بلا فضائل . فقد كانت له فضائله ، التى تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى . ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا ، ووجهها الوجهة البناءة . وكانت – لولا الإسلام – مضيعة تحت ركام هذه الرذائل ، مفرقة غير متجمعة ، وضائعة غير موجهة . وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة , لولا هذا المنهج ، الذى جعل يمحو ملامح الجاهية الشائهة ، وينشىء أو يثبت ملامح الإسلام الوضيئة ، ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة , شأنها في هذا شأن سائر أمم الجاهلية التى عاصرتها ، والتى اندثرت كلها ، لأنها لم تدركها رسالة ولم تنشئها عقيدة ! من تلك الجاهلية ، التى هذه بعض ملامحها ، التقط الإسلام المجموعة التى قسم الله لها الخير ، وقدر أن يسلمها قيادة البشر ، فكون منها الجماعة المسلمة ، وأنشأ بها المجتمع المسلم . ذلك المجتمع الذى بلغ إلى القمة التى لم تبلغها البشرية قط ، والتى ما تزال أملا للبشرية ، يمكن أن تحاوله ، حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق .

وفى هذه السورة نجد بعض الملامح التى يتوخى المنهج الإسلامى إنشاءها وتثبيتها فى المجتمع المسلم ، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية ، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية , التى تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها فى الواقع الاجتماعى . نجد فى مستهلها تقريرا لحقيقة الربوبية ووحدانيتها ، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذى أنشأها منه ربها ، ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة ، واتصالها بوشيجة الرحم , مع استجاشة هذه الروابط كلها فى الضمير البشرى ، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامى على أساسها ، وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة , ذات الخالق الواحد ، وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة ؛ وتنظيم الأسرةالمسلمة والمجتمع المسلم ، والمجتمع الإنسانى كله , على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا) وهذه الحقيقة الكبيرة التى تتضمنها آية الافتتاح تمثل قاعدة أصيلة فى التصور الإسلامي ، تقوم عليها الحياة الجماعية . نرجو أن نعرض لها بالتفصيل فى مكانها من سياق السورة ، ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلى للجماعة مستندة إلى تلك الركيزة فى حماية اليتامى نجد التوجيه الموحى ، والتحذير المخيف ، والتشريع المحدد الأصول) :وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ؛ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا)[آية ٢] . . (وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغو انكاح ; فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ؛ ولا تأكلوها إسرافا ، وبدارا أن يكبروا . ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيبا)[آية ٦] . . (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا) وفى حماية الإناث خاصة – يتيمات صغيرات ونساء مستضعفات – وحفظ حقهن جميعا فى الميراث , وفى الكسب ، وفى حقهن فى أنفسهن ، واستنقاذهن من عسف الجاهلية ، وتقاليدها الظالمة المهينة . . نجد أمثال هذه التوجيهات والتشريعات المنوعة الكثيرة :وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا . للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن - إلا أن يأتين بفاحشة مبينة – وعاشروهن بالمعروف ؛ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟) (ويستفتونك فى النساء . قل:الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن . والمستضعفين من الولدان , وإن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) وفى تنظيم الأسرة ، وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة ، وتوفير الحماية لها من تأثير الملابسات العارضة فى جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية . . ترد مثل هذه التوجيهات والتنظيمات – بالإضافة إلى ما ورد منها فى ثنايا الحديث عن اليتيمات والمطلقات –: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف . إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم , وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة , وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن – فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم – وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف – إن الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء - إلا ما ملكت أيمانكم – كتاب الله عليكم . وأحل لكم – ما وراء ذلكم – أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين . فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . إن الله كان عليما حكيما) الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ; واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) وفى تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله ؛ وإقامتها على التكافل والتراحم والتناصح ، والأمانة ، والعدل ، والسماحة والمودة ، والإحسان . . ترد توجيهات وتشريعات شتى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا) (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل – إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم – ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا)..(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا) إلى جانب ذلك الهدف الكبير فى تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل والمودة والطهارة ؛ ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية ؛ وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة . . نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا فى حياة المجتمع المسلم ، ذلك هو تحديد معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام ، وربط كل الأنظمة والتشريعات التى تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين ، وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام . إن الدين هو النظام الذى قرره الله للحياة البشرية بجملتها ، والمنهج الذى يسير عليه نشاط الحياة برمتها .والله وحده هو صاحب الحق فى وضع هذا المنهج بلا شريك . والدين هو الأتباع والطاعة للقيادة الربانية التى لها وحدها حق الطاعة والاتباع , ومنها وحدها يكون

التلقي ، ولها وحدها يكون الاستسلام . . فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة – كما له عقيدة خاصة وتصور خاص – قيادة ربانية متمثلة فى رسول الله ﷺ وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة الله ومنهجه . وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هى التى تمنحه صفة الإسلام وتجعل منه "مجتمعا مسلما . "وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون "مسلما" بحال . وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى الله والرسول ، ورد الأمر كله إلى الله ، والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم . وتبلغ نصوص السورة فى بيان هذه الحقيقة ، وتقرير هذا الأصل ، مبلغا حاسما جازما , لا سبيل للجدال فيه ، أو الاحتيال عليه ، أو تمويهه وتلبيسه ، لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدال ! وتقرير هذا المبدأ الأساسى يتمثل فى نصوص كثيرة كثرة واضحة فى السورة . وسيجىء استعراضها التفصيلى فى مكانها من السياق . فنكتفى هنا بذكر بعضها إجمالا (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . .) (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . . .) (إن الله لا يغفر أن يشرك به ؛ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول , إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت - وقد أمروا أن يكفروا به – ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم:تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) (من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) (ومن يشاقق الرسول – من بعد ما تبين له الهدى – ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا)

الشوط الأول فى السورة يبدأ بآية الافتتاح , التى ترد "الناس" إلى رب واحد ، وخالق واحد ؛ كما تردهم إلى أصل واحد ، وأسرة واحدة , وتجعل وحدة الإنسانية هى "النفس" ووحدة المجتمع هى الأسرة ، وتستجيش فى النفس تقوى الرب ، ورعاية الرحم . . لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم فى الأسرة الواحدة ، ثم فى الإنسانية الواحدة . وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التى تتضمنها السورة .

وهذا الشوط يضم من تلك التكاليف ومن هذه التشريعات ، ما يتعلق بالضعاف فى الأسرة وفى الإنسانية من اليتامى ، وتنظم طريقة القيام عليهم وعلى أموالهم كما تنظم طريقة انتقال الميراث بين أفراد الأسرة الواحدة ، وأنصباء الأقرباء المتعددى الطبقات والجهات , فى الحالات المتعددة . . وهى ترد هذا كله إلى الأصل الكبير الذى تضمنته آية الافتتاح ، مع التذكير بهذا الأصل فى مطالع بعض الآيات أو فى ثناياها ، أو فى خواتيمها , توثيقا للارتباط بين هذه التنظيمات والتشريعات ، وبين الأصل الذى تنبثق منه , وهو الربوبية ، التى لها حق التشريع والتنظيم ، هذا الحق الذى منه وحده ينبثق كل تشريع وكل تنظيم .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً {١} وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً {٢} وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ {٣} وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً {٤} وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً {٥} وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً {٦} لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً {٧} وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً {٨} وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً {٩} إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً {١٠} يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً {١١} وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ {١٢} تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ {١٤} وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً {١٥} وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً {١٦} إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً {١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً {١٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً {١٩} وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً {٢٠}

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا) . . إنه الخطاب "للناس" . . بصفتهم هذه ، لردهم جميعا إلى ربهم الذى خلقهم . . والذى خلقهم من نفس واحدة) (وخلق منها زوجها . وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة

لهى حقائق كبيرة جدا ، وعميقة جدا ، وثقيلة جدا . . ولو القى "الناس" أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة فى حياتهم وبنقلهم من الجاهلية – أو من الجاهليات المختلفة – إلى الإيمان والرشد والهدى وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة "بالناس" و "بالنفس" واللائقة بالخلق الذى ربه وخالقه هو الله ، إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالا فسيحا لتأملات شتى:

١ ـ إنها أبتداء تذكر "الناس" بمصدرهم الذى صدروا عنه ؛ وتردهم إلى خالقهم الذى أنشأهم فى هذه الأرض . . هذه الحقيقة التى ينساها "الناس" فينسون كل شيء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر ! إن الناس جاءوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه فمن الذى جاء بهم ؟ أنهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم . فقد كانوا – قبل أن يجيئوا – عدما لا إرادة له ، لا إرادة له تقرر المجيء أو عدم المجيء . فإرادة أخرى – إذن – غير إرادتهم ، هى التى جاءت بهم إلى هنا ، إرادة أخرى – غير إرادتهم – هى التى قررت أن تخلقهم . إرادة أخرى – غير إرادتهم – هى التى رسمت لهم الطريق ، وهى التى اختارت لهم خط الحياة ، ولو تذكر الناس هذه الحقيقة البديهية التى يغفلون عنها لثابوا إلى الرشد من أول الطريق ، إن هذه الإرادة التى جاءت بهم إلى هذا العالم ، وخطت لهم طريق الحياة فيه، لهى وحدها التى تملك لهم كل شيء ، وهى وحدها التى تعرف عنهم كل شيء ، وهى وحدها التى تدبر أمرهم خير تدبير . وإنها لهى وحدها صاحبة الحق فى أن ترسم لهم منبع حياتهم ، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم ,وأن تضع لهم قيمهم وموازينهم . وهى وحدها التى يرجعون إليها وإلى منهجها وشريعتها وإلى قيمها وموازينها عند الاختلاف فى شأن من هذه الشؤون ، فيرجعون إلى النهج الواحد الذى إراده الله رب العالمين .

٢ــ كما أنها توحى بأن هذه البشرية التى صدرت من إرادة واحدة ، تتصل فى رحم واحدة , وتلتقى فى وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلى نسب واحد (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) ولو تذكر الناس هذه الحقيقة ، لتضاءلت فى حسهم كل الفروق الطارئة ، التى نشأت فى حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء "النفس" الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة . وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها فى الرعاية ، وصلة النفس وحقها فى المودة ، وصلة الربوبية وحقها فى التقوى ، واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا باستبعاد الصراع العنصرى ، الذى ذاقت منه البشرية ما ذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة ؛ فى الجاهلية الحديثة ، التى تفرق بين الألوان ، وتفرق بين العناصر ، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة ، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم ، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة ، واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا كذلك باستبعاد الاستبعاد الطبقى السائد فى وثنية الهند والصراع الطبقى ، الذى تسيل فيه الدماء أنهارا ، فى الدول الشيوعية .

٣ ــ والحقيقة الأخرى التى تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة (خلق منها زوجها) كانت كفيلة – لو أدركتها البشرية – أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة ، التى تردت فيها ، وهى تتصور فى المرأة شتى التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة , وأصل الشر والبلاء . . وهى من النفس الأولى فطرة وطبعا ، خلقها الله لتكون لها زوجا ، وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، فلا فارق فى الأصل والفطرة ، إنما الفارق فى الاستعداد والوظيفة ، ولقد خبطت البشرية فى هذا التيه طويلا . جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها . فترة من الزمان . تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له . فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت فى الضفة الأخرى ، وأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وأنه ما ليسا فردين متماثلين ، إنما هما زوجان متكاملان .

٤ ــ كذلك توحى الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هى الأسرة . فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة فى الأرض بأسرة واحدة . فخلق ابتداء نفسا واحدة ، وخلق منها زوجها . فكانت أسرة من زوجين . (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) ولو شاء الله لخلق – فى أول النشأة – رجالا كثيرا ونساء ، وزوجهم ، فكانوا أسرا شتى من أول الطريق . لا رحم بينها من مبدأ الأمر . ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد . وهى الوشيجة الأولى . ولكنه – سبحانه – شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها ، أن يضاعف الوشائج . فيبدأ بها من وشيجة الربوبية – وهى أصل وأول الوشائج - ثم يثنى بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى – هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة – ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالا كثيرا ونساء ، كلهم يرجعون ابتداء إلى وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة . التى يقوم عليها نظام المجتمع الإنسانى . بعد قيامه على أساس العقيدة ، ومن ثم هذه الرعاية للأسرة فى النظام الإسلامى ، وهذه العناية بتوثيق عراها ، وتثبيت بنيانها ، وحمايتها من جميع المؤثرات التى توهن هذا البناء – وفى أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة ، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض ، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى ، وفى هذه السورة وفى غيرها من السور حشد من مظاهر تلك العناية بالأسرة فى النظام الإسلامى ، وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوى ، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة , وتلك النظرة الهابطة التى تلقاها فى الجاهلية – كل جاهلية – ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ورفع هذه النظرة الهابطة .

٥ ــ وأخيرا فإن نظرة إلى التنوع فى خصائص الأفراد واستعداداتهم – بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة – على هذا المدى الواسع ، الذى لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل , على توالى العصور ، وفيما لا يحصى عدده من الأفراد فى جميع الأجيال . . التنوع فى الأشكال والسمات والملامح . والتنوع فى الطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر . والتنوع فى الاستعدادات والاهتمامات والوظائف . . إن نظرة إلى هذا التنوع المنبثق من ذلك التجمع لتشى بالقدرة المبدعة على غير مثال ، المدبرة عن علم وحكمة , وتطلق القلب والعين يجولان فى ذلك المتحف الحى العجيب ، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التى لا تنفد ، والتى دائما تتجدد ، والتى لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يجرؤ أحد على نسبتها لغير الله . فالإرادة التى لا حد لما تريد ، والتى تفعل ما تريد , هى وحدها التى تملك هذا التنويع الذى لا ينتهى ، من ذلك الأصل الواحد الفريد ! والتأمل فى "الناس" على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زادا من الأنس والمتاع ، فوق زاد الإيمان والتقوى وهو كسب فوق كسب ، وارتفاع بعد ارتفاع ! وفى ختام آية الافتتاح التى توحى بكل هذه الحشود من الخواطر ، يرد "الناس" إلى تقوى الله ، الذى

يسأل بعضهم بعضا به ، وإلى تقوى الأرحام التى يرجعون إليها جميعا (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) واتقوا الله الذى تتعاهدون باسمه ، وتتعاقدون باسمه ، ويسأل بعضكم بعضا الوفاء باسمه , ويحلف بعضكم لبعض باسمه . . اتقوه فيما بينكم من الوشائج والصلات والمعاملات وتقوى الله مفهومة ومعهودة لتكرارها فى القرآن . أما تقوى الأرحام ، فهى تعبير عجيب . يلقى ظلاله الشعورية فى النفس ، ثم لا يكاد الإنسان يجد ما يشرح به تلك الظلال ! اتقوا الأرحام . أرهفوا مشاعركم للإحساس بوشائجها . والإحساس بحقها . وتوقى هضمها وظلمها ، والتحرج من خدشها ومسها . . توقوا أن تؤذوها ، وأن تجرحوها ، وأن تغضبوها ، أرهفوا حساسيتكم بها ، وتوقيركم لها ، وحنينكم إلى نداها وظلها . ثم رقابة الله يختم بها الآية الموحية (إن الله كان عليكم رقيبا) وما أهولها رقابة ! والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذى يعلم من خلق ، وهو العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية ، لا فى ظواهر الأفعال ولا فى خفايا القلوب .

من هذا الافتتاح القوى المؤثر ، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة ، يأخذ فى إقامة الأسس التى ينهض عليها نظام المجتمع وحياته:من التكافل فى الأسرة والجماعة ، والرعاية لحقوق الضعاف فيها ، والصيانة لحق المرأة وكرامتها ، والمحافظة على أموال الجماعة فى عمومها ، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع ، ويبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد . وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهم طمعا فى أموالهن . أما السفهاء الذى يخشى من اتلافهم للمال ، إذا هم تسلموه ، فلا يعطى لهم المال ، لأنه فى حقيقته مال الجماعة ، ولها فيه قيام ومصلحة ، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه ، وأن يراعوا العدل والمعروف فى عشرتهم للنساء عامة (إن الله كان عليكم رقيبا)

(وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً {٢} وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ {٣} وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً {٤} وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً {٥} وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً {٦}

وتشى هذه التوصيات المشددة – كما قلنا – بما كان واقعا فى الجاهلية العربية من تضييع لحقوق الضعاف بصفة عامة . والأيتام والنساء بصفة خاصة . . هذه الرواسب التى ظلت باقية فى المجتمع المسلم – المقتطع أصلا من المجتمع الجاهلى – حتى جاء القرآن يذيبها ويزيلها ، وينشىء فى الجماعة المسلمة تصورات جديدة ، ومشاعر جديدة ، وعرفا جديدا , وملامح جديدة (وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم , إنه كان حوبا كبيرا) أعطوا اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم ، ولا تعطوهم الردىء فى مقابل الجيد . كأن تأخذوا أرضهم الجيدة ، وتبدلوهم منها من أرضكم الرديئة ، أو ماشيتهم ، أو أسهمهم , أو نقودهم – وفى النقد الجيد ذو القيمة العالية والردىء ذو القيمة الهابطة - أو أى نوع من أنواع المال ، فيه الجيد وفيه الردىء ، وكذلك لا تأكلوا أموالهم بضمها إلى أموالكم ، كلها أو بعضها إن ذلك كله كان ذنبا كبيرا . والله يحذركم من هذا الذنب الكبير ، فلقد كان هذا كله يقع إذن فى البيئة التى خوطبت بهذه الآية أول مرة . فالخطاب يشى بأنه كان موجها إلى مخاطبين فيهم من تقع منه هذه الأمور . وهى أثر مصاحب من آثار الجاهلية ، وفى كل جاهلية يقع مثل هذا . ونحن نرى أمثاله فى جاهليتنا الحاضرة فى المدن والقرى . وما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتى الطرق ،

وشتى الحيل ، من أكثر الأوصياء ، على الرغم من كل الاحتياطات القانونية ، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة للإشراف على أموال القصر . فهذه المسألة لا تفلح فيها التشريعات القانونية ، ولا الرقابة الظاهرية . . كلا لا يفلح فيها إلا أمر واحد . . التقوى . . فهى التى تكفل الرقابة الداخلية على الضمائر , فتصبح للتشريع قيمته وأثره . كما وقع بعد نزول هذه الآية ، إذ بلغ التحرج من الأوصياء أن يعزلوا مال اليتيم عن مالهم ، ويعزلوا طعامه عن طعامهم ، مبالغة فى التحرج والتوقى من الوقوع فى الذنب العظيم ، الذى حذرهم الله منه وهو يقول (إنه كان حوبا كبيرا)

إن الله أعلم بعباده ، وأعرف بفطرتهم ، وأخبر بتكوينهم النفسى والعصبى – وهو خلقهم - ومن ثم جعل التشريع تشريعه ، والقانون قانونه ، والنظام نظامه ، والمنهج منهجه , ليكون له فى القلوب وزنه وأثره ومخافته ومهابته (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا) عن عروة بن الزبير – رضى الله عنه – أنه سأل عائشة – رضى الله عنها – عن قوله تعالى (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى)فقالت:" يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ، تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا اليهن ; ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن وحديث عائشة – رضى الله عنها – يصور جانبا من التصورات والتقاليد التى كانت سائدة فى الجاهلية ، ثم بقيت فى المجتمع المسلم ، حتى جاء القرآن ينهى عنها ويمحوها , بهذه التوجيهات الرفيعة ، ويكل الأمر إلى الضمائر , وهو يقول (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) فهى مسألة تحرج وتقوى وخوف من الله إذا توقع الولى ألا يعدل مع اليتيمة فى حجره ، ونص الآية مطلق لا يحدد مواضع العدل ، فالمطلوب هو العدل فى كل صوره وبكل معانيه فى هذه الحالة ، سواء فيما يختص بالصداق ، أو فيما يتعلق بأى اعتبار آخر . كأن ينكحها رغبة فى مالها , لا لأن لها فى قلبه مودة ، ولا لأنه يرغب رغبة نفسية فى عشرتها لذاتها . وكأن ينكحها وهناك فارق كبير من السن لا تستقيم معه الحياة ، دون مراعاة لرغبتها هى فى إبرام هذا النكاح ، هذه الرغبة التى قد لا تفصح عنها حياء أو خوفا من ضياع مالها إذا هى خالفت عن إرادته . . إلى آخر تلك الملابسات التى يخشى ألا يتحقق فيها العدل . . والقرآن يقيم الضمير حارسا ، والتقوى رقيبا . وقد أسلف فى الآية السابقة التى رتب عليها هذه التوجيهات كلها قوله: (إن الله كان عليكم رقيبا)فعندما لا يكون الأولياء واثقين من قدرتهم على القسط مع اليتيمات اللواتى فى حجورهم , فهناك النساء غيرهن ، وفى المجال متسع

للبعد عن الشبهة والمظنة (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا) وهذه الرخصة فى التعدد ، مع هذا التحفظ عند خوف العجز عن العدل ، والاكتفاء بواحدة فى هذه الحالة ، أو بما ملكت اليمين ، يحسن بيان الحكمة والصلاح فيها . فى زمان جعل الناس يتعالمون فيه على ربهم الذى خلقهم ، ويدعون لأنفسهم بصرا بحياة الإنسان وفطرته ومصلحته فوق بصر خالقهم سبحانه ! ويقولون فى هذا الأمر وذاك بالهوى والشهوة , وبالجهالة والعمى . كأن ملابسات وضرورات جدت اليوم ، يدركونها هم ويقدرونها ولم تكن فى حساب الله – سبحانه – ولا فى تقديره ، يوم شرع للناس هذه الشرائع !!! وهى دعوى فيها من الجهالة والعمى ، بقدر ما فيها من التبجح وسوء الأدب ، بقدر ما فيها من الكفر والضلالة ! ولكنها تقال ، ولا تجد من يرد الجهال العمى المتبجحين المتوقحين الكفار الضلال عنها ! وهم يتبجحون على الله وشريعته ، ويتطاولون على الله وجلاله , ويتوقحون على الله ومنهجه ، آمنين سالمين غانمين ، مأجورين من الجهات التى يهمها أن تكيد لهذا الدين ! روى البخارى – بإسناده – أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم – وتحته عشر نسوة – فقال له النبى ﷺ اختر منهن أربعا " فقد جاء الإسلام إذن ، وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل – بدون حد ولا قيد – فجاء ليقول للرجال إن هناك حدا لا يتجاوزه المسلم – هو أربع – وإن هناك قيدا – هو إمكان العدل – وإلا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ولكن لماذا أباح هذه الرخصة ؟ إن الإسلام نظام للإنسان . نظام واقعى إيجابى . يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه , ويتوافق مع واقعه وضروراته ، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة فى شتى البقاع وشتى الأزمان ، وشتى الأحوال . وهو نظام يرعى خلق الإنسان ، ونظافة المجتمع ، فلا يسمح بإنشاء واقع مادى ، من شأنه انحلال الخلق ، وتلويث المجتمع ، تحت مطارق الضرورة التى تصطدم بذلك الواقع . بل يتوخى دائما أن ينشىء واقعا يساعد على صيانة الخلق ، ونظافة المجتمع ، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع . فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية فى النظام الإسلامى ، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات . . فماذا نرى ؟ نرى أولا أن هناك حالات واقعية فى مجتمعات كثيرة – تاريخية وحاضرة – تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج ، على عدد الرجال الصاحلين للزواج والحد الأعلى لهذا الاختلال الذى يعترى بعض المجتمعات لم يعرف تاريخيا أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد . وهو يدور دائما فى حدودها . فكيف نعالج هذا الواقع ، الذى يقع ويتكرر وقوعه ، بنسب مختلفة . هذا الواقع الذى لا يجدى فيه الإنكار ؟ نعالجه بهز الكتفين ؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه ؟ حسب الظروف والمصادفات ؟! إن هز الكتفين لا يحل مشكلة ! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد ، يحترم نفسه ، ويحترم الجنس البشرى ! ولا بد إذن من نظام ، ولا بد إذن من إجراء وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ ــ أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج . . ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة – بدون زواج ، تقضى حياتها – أو حياتهن – لا تعرف الرجال !

٢ ــ أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجا شرعيا نظيفا . ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر ، من هؤلاء اللواتى ليس لهن مقابل فى المجتمع من الرجال . فيعرفن الرجل خدينا أو خليلا فى الحرام والظلام

٣ ــ أن يتزوج الرجال الصالحون – كلهم أو بعضهم – أكثر من واحدة . وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل ،زوجة شريفة ، فى وضح النور لا خدينة وولا خليلة فى الحرام والظلام !

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، بالقياس إلى المرأة التى لا تعرف فى حياتها الرجال . ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب . فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتطرفون الجهال عن فطرة الإنسان . وألف عمل ، وألف كسب لا تغنى المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية ، سواء فى ذلك مطالب الجسد والغريزة ، ومطالب الروح والعقل , من السكن والأنس بالعشير ، والرجل يجد العمل ويجد الكسب ؛ ولكن هذا لا يكفيه فيروح يسعى للحصول على العشيرة ، والمرأة كالرجل – فى هذا – فهما من نفس واحدة ! والاحتمال الثانى ضد اتجاه الإسلام النظيف ؛ وضد قاعدة المجتمع الإسلامى العفيف ; وضد كرامة المرأة الإنسانية . والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع ، هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ، ويتطاولون على شريعته . لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول . بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير ! والاحتمال الثالث هو الذى يختاره الإسلام . يختاره رخصة مقيدة لمواجهة الواقع الذى لا ينفع فيه هز الكتفين ؛ ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء . يختاره متمشيا مع واقعيته الإيجابية ، فى مواجهة الإنسان كما هو – بفطرته وظروف حياته – ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر ، ومع منهجه فى التقاط الإنسان من السفح ، والرقى به فى الدرج الصاعد إلى القمة السامقة . ولكن فى يسر ولين وواقعية ! ثم نرى ثانيا فى المجتمعات الإنسانية . قديما وحديثا . وبالأمس واليوم والغد . إلى آخر الزمان . واقعا فى حياة الناس ، لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله . نرى أن فترة الإخصاب فى الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها . بينما هى تقف فى المرأة عند سن الخمسين أو حواليها . فهناك فى المتوسط عشرون سنة من سنى الإخصاب فى حياة الرجل لا مقابل لها فى حياة المرأة . وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما ، امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال ، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار . فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة فى الرجال . ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطرى أن يسن التشريع – الموضوع لكافة البيئات فى جميع الأزمان والأحوال – هذه الرخصة – لا على سبيل الإلزام الفردى ، ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذى يلبى هذا الواقع الفطرى ، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائما فى التشريع الإلهى . لا يتوافر عادة فى التشريعات البشرية ، لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له ، ولا تدرك جميع الملابسات القريبة والبعيدة , ولا تنظر من جميع الزوايا ، ولا تراعى جميع الاحتمالات . ومن الحالات الواقعية – المرتبطة بالحقيقة السالفة – ما نراه أحيانا من رغبة الزوج فى أداء الوظيفة الفطرية ، مع رغبة الزوجة عنها – لعائق من السن أو من المرض - مع رغبة الزوجين كليهما فى استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال – فكيف نواجه مثل هذه الحالات ؟ نواجهها بهز الكتفين ؛ وترك كل من الزوجين يخبط رأسه فى

الجدار ؟! أو نواجهها بالحذلقة الفارغة والتظرف السخيف ؟ إن هز الكتفين – كما قلنا – لا يحل مشكلة . والحذلقة والتظرف لا يتفقان مع جدية الحياة الإنسانية ،ومشكلاتها الحقيقية وعندئذ نجد أنفسنا – مرة أخرى – أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ ــ أن نكبت الرجل ونصده عن مزاولة نشاطه الفطرى بقوة التشريع وقوة السلطان ! ونقول له عيب يا رجل ! إن هذا لا يليق ، ولا يتفق مع حق المرأة التى عندك ولا مع كرامتها !

٢ ــ أن نطلق هذا الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء !

٣ ــ أن نبيح لهذا الرجل التعدد – وفق ضرورات الحال – ونتوقى طلاق الزوجة الأولى . .

الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وفوق الطاقة ، وضد احتمال الرجل العصبى والنفسى . وثمرته القريبة – إذا نحن أكرهناه بحكم التشريع وقوة السلطان – هى كراهية الحياة الزوجية التى تكلفه هذا العنت ، ومعاناة جحيم هذه الحياة . . وهذه ما يكرهه الإسلام , الذى يجعل من البيت سكنا ، ومن الزوجة أنسا ولباسا . والاحتمال الثانى ضد اتجاه الإسلام الخلقى ، وضد منهجه فى ترقية الحياة البشرية , ورفعها وتطهيرها وتزكيتها ، كى تصبح لائقة بالإنسان الذى كرمه الله على الحيوان ! والاحتمال الثالث هو وحده الذى يلبى ضرورات الفطرة الواقعية ، ويلبى منهج الإسلام الخلقى ، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية ، ويحقق رغبة الزوجين فى الإبقاء على عشرتهما وعلى ذكرياتهما ، وييسر على الإنسان الخطو الصاعد فى رفق ويسر وواقعية .

وشىء كهذا يقع فى حالة عقم الزوجة ، مع رغبة الزوج الفطرية فى النسل . حيث يكون أمامه طريقان لا ثالث لهما:

١ ــ أن يطلقها ليستبدل بها زوجة أخرى تلبى رغبة الإنسان الفطرية فى النسل .

٢ ــ أو أن يتزوج بأخرى ، ويبقى على عشرته مع الزوجة الأولى .

وقد يهذر قوم من المتحذلقين – ومن المتحذلقات – بإيثار الطريق الأول . ولكن تسعا وتسعين زوجة – على الأقل – من كل مائة سيتوجهن باللعنة إلى من يشير على الزوج بهذا الطريق ! الطريق الذى يحطم عليهن بيوتهن بلا عوض منظور – فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغبا فى الزواج – وكثيرا ما تجد الزوجة العاقر أنسا واستراحا فى الأطفال الصغار , تجىء بهم الزوجة الأخرى من زوجها ، فيملأون عليهم الدار حركة وبهجة أيا كان ابتئاسها لحرمانها الخاص . وهكذا حيثما ذهبنا نتأمل الحياة الواقعية بملابساتها العملية ، وجدنا مظاهر الحكمة العلوية ، فى سن هذه الرخصة ، مقيدة بذلك القيد (فانكحوا ما طاب لكم من النساء – مثنى وثلاث ورباع – فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، فالرخصة تلبى واقع الفطرة ، وواقع الحياة ؛ وتحمى المجتمع من الجنوح – تحت ضغط الضرورات الفطرية والواقعية المتنوعة – إلى الانحلال أو الملال . . والقيد يحمى الحياة الزوجية من الفوضى والاختلال ، ويحمى الزوجة من الجور والظلم ؛ ويحمى كرامة المرأة أن تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل . ويضمن العدل الذى تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة ، إن أحدا يدرك روح الإسلام واتجاهه ، لا يقول إن التعدد مطلوب لذاته ، مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية ، وبلا دافع إلا التلذذ الحيوانى , وإلا التنقل بين الزوجات ، كما يتنقل الخليل بين الخليلات . إنما هو ضرورة تواجه ضرورة ، وحل يواجه مشكلة . وهو ليس متروكا للهوى ، بلا قيد ولا حد فى النظام الإسلامي ، الذى يواجه كل واقعيات الحياة ، إن المجتمع المعادى للإسلام المتفلت من شريعته وقانونه ، هو المسؤول الأول عن هذه الفوضى . هو المسؤول الأول عن "الحريم" فى صورته الهابطة المريبة . هو المسؤول الأول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرح لذة بهيمية . فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس إلى الإسلام ، وشريعة الإسلام ، ومنهج الإسلام ؛ فيردهم إلى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال . . والعدل المطلوب هو العدل فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة . أما العدل فى مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس ، فلا يطالب به أحد من بنى الإنسان ، لأنه خارج عن إرادة الإنسان . . وهو العدل الذى قال الله عنه فى الآية الأخرى فى هذه السورة: ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء – ولو حرصتم – فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة . . هذه الآية التى يحاول بعض الناس أن يتخذوا منها دليلا على تحريم التعدد . والأمر ليس كذلك . وشريعة الله ليست هازلة ، حتى تشرع الأمر فى آية ، وتحرمه فى آية ، بهذه الصورة التى تعطى باليمين وتسلب بالشمال ! فالعدل المطلوب فى الآية الأولى ؛ والذى يتعين عدم التعدد إذا خيف ألا يتحقق ؛ هو العدل فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة ، وسائر الأوضاع الظاهرة ، بحيث لا ينقص إحدى الزوجات شىء منها ؛ وبحيث لا تؤثر واحدة دون الأخرى بشىء منها ، على نحو ما كان النبى ﷺ وهو أرفع إنسان عرفته البشرية ، يقوم به . فى الوقت الذى لم يكن أحد يجهل من حوله ولا من نسائه ، أنه يحب عائشة – رضى الله عنها – ويؤثرها بعاطفة قلبية خاصة ، لا تشاركها فيها غيرها . . فالقلوب ليست ملكا لأصحابها . إنما هيبين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . . وقد كان ﷺ يعرف دينه ويعرف قلبه . فكان يقول:" اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " ونعود فنكرر قبل أن نتجاوز هذه النقطة ، أن الإسلام لم ينشىء التعدد إنما حدده . ولم يأمر بالتعدد إنما رخص فيه وقيده . وأنه رخص فيه لمواجهة واقعيات الحياة البشرية , وضرورات الفطرة الإنسانية.فالحكمة والمصلحة مفترضتان وواقعتان فى كل تشريع إلهى ، سواء أدركهما البشر أم لم يدركوهما ، فى فترة من فترات التاريخ الإنسانى القصير ، عن طريق الإدراك البشرى المحدود ! ثم ننتقل إلى الإجراء الثانى الذى تنص عليه الآية عند الخوف من عدم تحقق العدل (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم) إنه إن خيف عدم العدل فى التزوج بأكثر من واحدة تعين الاقتصار على واحدة ! ولم يجز تجاوزها أو (ما ملكت أيمانكم)من الإماء زواجا أو تسريا ، فالنص لم يحدد . إن الزواج من مملوكة فيه رد لاعتبارها وكرامتها الإنسانية . فهو مؤهل من مؤهلات التحرير لها ولنسلها من سيدها – حتى ولو لم يعتقها لحظة الزواج – فهى منذ اليوم الذى تلد فيه تسمى "أم ولد" ويمتنع على سيدها بيعها ؛ وتصبح حرة بعد وفاته . أما ولدها فهو حر منذ مولده . وكذلك عند التسرى بها . فإنها إذا ولدت أصبحت "أم ولد"

وامتنع بيعها ، وصارت حرة بعد وفاة سيدها . وصار ولدها منه كذلك حرا إذا اعترف بنسبه ، وهذا ما كان يحدث عادة . فالزواج والتسرى كلاهما طريق من طرق التحرير التى شرعها الإسلام وهى كثيرة . . على أنه قد يحيك في النفس شيء من مسألة التسرى هذه . فيحسن أن نتذكر أن قضية الرق كلها قضية ضرورة - كما بينا هناك - وأن الضروة التى اقتضت إباحة الاسترقاق فى الحرب الشرعية التى يعلنها الإمام المسلم المنفذ لشريعة الله ، هى ذاتها التى اقتضت إباحة التسرى بالإماء ؛ لأن مصير المسلمات الحرائر العفيفات حين يؤسرن كان شرا من هذا المصير ! على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات ، لهن مطالب فطرية لا بد أن يحسب حسابها فى حياتهن ، ولا يمكن إغفالها فى نظام واقعى يراعى فطرة الإنسان وواقعه . . فإما أن تتم تلبية هذه المطالب عن طريق الزواج ، وإما أن تتم عن طريق تسرى السيد , ما دام نظام الاسترقاق قائما ، كى لا ينشرن فى المجتمع حالة من الانحلال الخلقى , والفوضى الجنسية ، لا ضابط لها ، حين يلبين حاجتهن الفطرية عن طريق البغاء أو المخادنة ، كما كانت الحال في الجاهلية ، أما ما وقع في بعض العصور من الاستكثار من الإماء - عن طريق الشراء والخطف والنخاسة وتجميعهن في القصور ، واتخاذهن وسيلة للإلتذاذ الجنسي البهيمي ، وتمضية الليالى الحمراء بين قطعان الإماء ، وعربدة السكر والرقص والغناء . . إلى آخر ما نقلته الينا الأخبار الصادقة والمبالغ فيها على السواء ، هذا كله فليس هو الإسلام . وليس من فعل الإسلام ، ولا إيحاء الإسلام . ولا يجوز أن يحسب على النظام الإسلامى , ولا أن يضاف إلى واقعه التاريخى . إن الواقع التاريخى "الإسلامى" هو الذى ينشأ وفق أصول الإسلام وتصوراته وشرعته وموازينه . هذا وحده هو الواقع التاريخى "الإسلامى" . . أما ما يقع فى المجتمع الذى ينتسب إلى الإسلام ، خارجا على أصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ، لأنه انحراف عنه .

وأخيرا تفصح الآية عن حكمة هذه الإجراءات كلها . . إنها اتقاء الجور وتحقيق العدل(ذلك أدنى ألا تعولوا) ذلك . . البعد عن نكاح اليتيمات - إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامي - ونكاح غيرهن من النساء - مثنى وثلاث ورباع - ونكاح الواحدة فقط - إن خفتم ألا تعدلوا - أو ما ملكت أيمانكم . . (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى ذلك أقرب ألا تظلموا وألا تجوروا . ثم يستطرد السياق فى تقرير حقوق النساء - وقد أفرد لهن صدر هذه السورة وسماها باسمهن - قبل أن يستكمل (وَآتُواْ النَّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً (٤) وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً (٥) وهذه الآية تنشىء للمرأة حقا صريحا ، وحقا شخصيا ، فى صداقها . وتنبىء بما كان واقعا فى المجتمع الجاهلى من هضم هذا الحق فى صور شتى . واحدة منها كانت فى قبض الولى لهذا الصداق وأخذه لنفسه ؛ وكأنما هى صفقة بيع هو صاحبها ! وواحدة منها كانت فى زواج الشغار . وهو أن يزوج الولى المرأة التى فى ولايته ، فى مقابل أن يزوجه من يأخذها امرأة هى فى ولاية هذا الآخر . واحدة بواحدة . صفقة بين الوليين لا حظ فيها للمرأتين . كما تبدل بهيمة ببهيمة ! فحرم الإسلام هذا الزواج كلية ؛ وجعل الزواج التقاء نفسين عن رغبة واختيار ، والصداق حقا للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الولى ! وحتم تسمية هذا الصداق وتحديده ، لتقبضه المرأة فريضة لها ، وواجبا لا تخلف فيه . وأوجب أن يؤديه الزوج "نحلة " - أى هبة خالصة لصاحبتها - وأن يؤديه عن طيب نفس ، وارتياح خاطر . كما يؤدى الهبة والمنحة . فإذا طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شيء من صداقها - كله أو بعضه - فهى صاحبة الشأن فى هذا ؛ تفعله عن طيب نفس ، وراحة خاطر ، والزوج في حل من أخذ ما طابت نفس الزوجة عنه ، وأكله حلالا طيبا هنيئا مريئا . فالعلاقات بين الزوجين ينبغى أن تقوم على الرضى الكامل ، والاختيار المطلق ، والسماحة النابعة من القلب ، والود الذى لا يبقى معه حرج من هنا أو من هناك . فإذا انتهى من هذا الاستطراد - الذى دعا إليه الحديث عن الزواج من اليتيمات ومن غيرهن من النساء - عاد إلي أموال اليتامي ؛ يفصل فى أحكام ردها إليهم ، بعد أن قرر فى الآية الثانية من السورة مبدأ الرد على وجه الإجمال . إن هذا المال ، ولو أنه مال اليتامى ، إلا أنه - قبل هذا - مال الجماعة ، أعطاها الله إياه لتقوم به ، وهى متكافلة فى الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه . فالجماعة هى المالكة ابتداء للمال العام ، واليتامي أو مورثوهم إنما يملكون هذا المال لاستثماره - بإذن من الجماعة - ويظلون ينتفعون به وينفعون الجماعة معهم ، ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره ؛ راشدين فى تصريفه وتدبيره - والملكية الفردية بحقوقها وقيودها قائمة في هذا الإطار - أما السفهاء من اليتامى ذوى المال ، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره ، فلا يسلم لهم ، ولا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه - وإن بقيت لهم ملكيتهم الفردية فيه لا تنزع منهم - إنما يعود التصرف في مال الجماعة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة . مع مراعاة درجة القرابة لليتميم ، تحقيقا للتكافل العائلى ، الذى هو قاعدة التكافل العام بين الأسرة الكبرى ! وللسفيه حق الرزق والكسوة فى ماله مع حسن معاملته (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا)ويتبين السفه والرشد - بعد البلوغ - وأمر السفه والرشد لا يخفى عادة ، ولا يحتاج إلى تحديد مفهومة بالنصوص . فالبيئة تعرف الراشد من السفيه وتأنس رشد هذا وسفه ذاك ، وتصرفات كل منهما لا تخفى على الجماعة ؛ فالاختبار يكون لمعرفة البلوغ ، الذى يعبر عنه النص بكلمة:"النكاح" وهو الوظيفة التى يؤهل لها البلوغ (وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً (٦) ويبدو من خلال النص الدقة فى الإجراءات التى يَتسلم بها اليَتامى أموالهَم عند الرشد . كذلك يبَدو التشدَيد فى وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم ، بمجرد تبين الرشد - بعد البلوغ - وتسليمها لهم كاملة سالمة ، والمحافظة عليها فى أثناء القيام عليها ، وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها ! مع الاستعفاف عن أكل شيء منها مقابل القيام عليها - إذا كان الولى غنيا - والأكل منها فى أضيق الحدود - إذا كان الولى محتاجا - ومع وجوب الأشهاد فى محضر التسليم . . وختام الآية تذكير بشهادة الله وحسابه (وكفى بالله حسيبا) كل هذا التشديد ، وكل هذا البيان المفصل ، وكل هذا التذكير والتحذير . . يشى بما كان سائدا فى البيئة من الجور على أموال اليتامي الضعاف فى المجتمع وبما كان يحتاج إليه تغيير هذا العرف السائد من تشديد وتوكيد ، ومن بيان وتفصيل ، لا يدع مجالا للتلاعب عن أى طريق

ولقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصبية - فى الغالب - إلا التافه القليل . لأن هؤلاء وهؤلاء لا يركبون فرسا ، ولا يردون عاديا ! فإذا شريعة الله تجعل الميراث - فى أصله - حقا لذوى القربى جميعا - حسب مراتبهم وأنصبتهم المبينة فيما بعد - وذلك تمشيا مع نظرية الإسلام فى التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة ، وفى التكافل الإنسانى العام . وحسب قاعدة:الغنم

بالغرم . . فالقريب مكلف إعالة قريبه إذا احتاج ، والتضامن معه فى دفع الديات عند القتل والتعويضات عند الجرح ، فعدل إذن أن يرثه – إن ترك مالا – بحسب درجة قرابته وتكليفه به . والإسلام نظام متكامل متناسق . ويبدو تكامله وتناسقه واضحا فى توزيع الحقوق والواجبات .هذه هى القاعدة فى الإرث بصفة عامة . . وقد نسمع هنا وهناك لغطا حول مبدأ الإرث , لا يثيره إلا التطاول على الله – سبحانه – مع الجهل بطبيعة الإنسان ، وملابسات حياته الواقعية ! إن إدراك الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى الإسلامى ، يضع حدا لهذا اللغط على الإطلاق إن قاعدة هذا النظام هى التكافل . . ولكى يقوم هذا التكافل على أسس وطيدة راعى الإسلام أن يقوم على أساس الميول الفطرية الثابتة فى النفس البشرية . هذه الميول التى لم يخلقها الله عبثا فى الفطرة ، إنما خلقها لتؤدى دورا أساسيا فى حياة الإنسان .

(لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً {٧} وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً {٨} وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً {٩} إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً {٢٠}

ولما كانت روابط الأسرة – القريبة والبعيدة – روابط فطرية حقيقية ؛ لم يصطنعها جيل من الأجيال ؛ ولم تصطنعها جميع الأجيال بطبيعة الحال ! والجدال فى جدية هذه الروابط وعمقها وأثرها فى رفع الحياة وصيانتها وترقيتها كذلك لا يزيد على أن يكون مراء لا يستحق الاحترام . . لما كان الأمر كذلك جعل الإسلام التكافل فى محيط الأسرة هو حجر الأساس فى بناء التكافل الاجتماعى العام . وجعل الإرث مظهرا من مظاهر ذلك التكافل فى محيط الأسرة . فوق ما له من وظائف أخرى فى النظام الاقتصادى والاجتماعى العام .

فإذا عجزت هذه الخطوة أو قصرت عن استيعاب جميع الحالات المحتاجة إلى التكافل جاءت الخطوة التالية فى محيط الجماعة المحلية المتعارفة ، لتكملها وتقويها . فإذا عجزت هذه جاء دور الدولة المسلمة لتتولى كل من قصرت فى إعالتهم وكفالتهم الكاملة ، جهود الأسرة ، وجهود الجماعة المحلية المحدودة . . وبذلك لا يلقى العبء كله على عاتق الجهاز العام للدولة . . أولا لأن التكافل فى محيط الأسرة أو فى محيط الجماعة الصغيرة يخلق مشاعر لطيفة رحيمة ، تنمو حولها فضائل التعاون والتجاوب نموا طبيعيا غير مصطنع – فضلا على أن هذه المشاعر كسب إنسانى لا يرفضه إلا لئيم نكد خبيث – أما التكافل فى محيط الأسرة بصفة خاصة فينشىء آثارا طبيعية تلائم الفطرة . . فشعور الفرد بأن جهده الشخصى سيعود أثره على ذوى قرابته – وبخاصة ذريته – يحفزه إلى مضاعفة الجهد ، فيكون نتاجه للجماعة عن طريق غير مباشر . لأن الإسلام لا يقيم الفواصل بين الفرد والجماعة . فكل ما يملك الفرد هو فى النهاية ملك للجماعة كلها عندما تحتاج . . وهذه القاعدة الأخيرة تقضى على كل الاعتراضات السطحية على توريث من لم يتعب ولم يبذل جهدا – كما يقال ! – فهذا الوارث هو امتداد للمورث من جهة ، ثم هو كافل هذا المورث لو كان هذا محتاجا وذاك ذا مال . ثم فى النهاية هو وما يملك للجماعة عندما تحتاج . تمشيا مع قاعدة التكافل العام . ثم إن العلاقة بين المورث والوارث – وبخاصة الذرية – ليست مقصورة على المال . فإذا نحن قطعنا وراثة المال ، فما نحن بمستطيعين أن نقطع الوشائج الأخرى ، والوراثات الأخرى بينهما . إن الوالدين والأجداد والأقرباء عامة ، لا يورثون أبناءهم وأحفادهم وأقاربهم المال وحده . إنما يورثونهم كذلك الاستعدادات الخيرة والشريرة ، والاستعدادات الوراثية للمرض والصحة ، والانحراف والاستقامة ، والحسن والقبح ، والذكاء والغباء . . إلخ . وهذه الصفات تلاحق الوارثين وتؤثر فى حياتهم ، ولا تتركهم من عقابيلها أبدا . فمن العدل إذن أن يورثوهم المال . وهم لا يعفونهم من المرض والانحراف والغباء ، ولا تملك الدولة – بكل وسائلها – أن تعفيهم من هذه الوراثات . من أجل هذه الواقعيات الفطرية والعملية فى الحياة البشرية – ومن أجل غيرها وهو كثير من المصالح الاجتماعية الأخرى – شرع الله قاعدة الإرث (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون - مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) هذا هو المبدأ العام ، الذى أعطى الإسلام به "النساء" منذ أربعة عشر قرنا ، حق الإرث كالرجال – من ناحية المبدأ – كما حفظ به حقوق الصغار الذين كانت الجاهلية تظلمهم وتأكل حقوقهم . لأن الجاهلية كانت تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية فى الحرب والإنتاج . أما الإسلام فجاء بمنهجه الربانى ، ينظر إلى "الإنسان" – أولا – حسب قيمته الإنسانية . وهى القيمة الأساسية التى لا تفارقه فى حال من الأحوال ! ثم ينظر إليه - بعد ذلك – حسب تكاليفه الواقعية فى محيط الأسرة وفى محيط الجماعة . ولما كان نظام التوريث – كما سيجىء – يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضا ، فيوجد ذوو قرابة , ولكنهم لا يرثون ، لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم ، فإن السياق يقرر للمحجوبين حقا لا يحدده – إذا هم حضروا القسمة – تطييبا لخاطرهم ، كى لا يروا المال يفرق وهم محرومون ، واحتفاظا بالروابط العائلية ، والمودات القلبية . كذلك يقرر لليتامى والمساكين مثل هذا الحق تمشيا مع قاعدة التكافل العام (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً (٨) وقد وردت فى هذه الآية روايات شتى عن السلف . ما بين قولهم إنها منسوخة ، نسختها آيات الميراث المحددة للأنصبة ، وقولهم إنها محكمة . وما بين قولهم إن مدلولها واجب مفروض , وقولهم إنه مستحب ما طابت به أنفس الورثة . . ونحن لا نرى فيها دليلا للنسخ , ونرى أنها محكمة وواجبة . فى مثل هذه الحالات التى ذكرنا . معتمدين على إطلاق النص من جهة ، وعلى الاتجاه الإسلامى العام فى التكافل من جهة أخرى . . وهى شىء آخر غير أنصبة الورثة المحددة فى الآيات التالية على كل حال . وقبل أن يأخذ السياق فى تحديد أنصبة الورثة ، يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى . . يعود إليه فى هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين:أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطرى على الذرية الضعاف وتقوى الله الحسيب الرقيب . والثانية تمس مكان الرهبة من النار ، والخوف من السعير ، فى مشهد حسى مفزع (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً{٩} إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً{١٠} وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف قلوب الآباء المرهفة الحساسية تجاه ذريتهم الصغار . بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح ، لا راحم لهم ولا عاصم . كى يعطفهم هذا التصور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم ، بعد أن فقدوا الآباء . فهم لا يدرون أن تكون ذريتهم غدا موكولة إلى من بعدهم من الأحياء ، كما وكلت إليهم هم أقدار هؤلاء . . مع توصيتهم بتقوى الله فيمن ولاهم الله عليهم من الصغار ، لعل الله أن يهيىء لصغارهم من يتولى أمرهم بالتقوى والتحرج والحنان

. وتوصيتهم كذلك بأن يقولوا فى شأن اليتامى قولا سديدا ، وهم يربونهم ويرعونهم كما يرعون أموالهم ومتاعهم ، أما اللمسة الثانية ، فهى صورة مفزعة صورة النار فى البطون وصورة السعير فى نهاية المطاف ، إن هذا المال . . نار . . وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم لإلى النار فهى النار تشوى البطون وتشوى الجلود . هى النار من باطن وظاهر . هى النار مجسمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود ، وحتى لتكاد تراها العيون ، وهى تشوى البطون والجلود ! (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠) ولقد فعلت هذه النصوص القرآنية ، بإيحاءاتها العنيفة العميقة فعلها فى نفوس المسلمين . خلصتها من رواسب الجاهلية . هزتها هزة عنيفة ألقت عنها هذه الرواسب . وأشاعت فيها الخوف والتحرج والتقوى والحذر من المساس – أى مساس – بأموال اليتامى . . كانوا يرون فيها النار التى حدثهم الله عنها فى هذه النصوص القوية العميقة الإيحاء . فعادوا يجفلون أن يمسوها ويبالغون فى هذا الإجفال !

والآن نجىء إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بوصية الله للوالدين فى أولادهم ؛ فتدل هذه الوصية على أنه – سبحانه – أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم ؛ كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه ؛ فهو الذى يحكم بين الوالدين وأولادهم , وبين الأقرباء وأقاربهم . وليس لهم إلا أن يتلقوا منه سبحانه ، وأن ينفذوا وصيته وحكمه ، وأن هذا هو معنى "الدين" الذى تعنى السورة كلها ببيانه وتحديده كما أسلفنا ، كذلك يبدأ بتقرير المبدأ العام للتوارث (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) ثم يأخذ فى التفريع ، وتوزيع الأنصبة ، فى ظل تلك الحقيقة الكلية , وفى ظل هذا المبدأ العام . . ويستغرق هذا التفصيل آيتين ، أولاهما خاصة بالورثة من الأصول والفروع ، والثانية خاصة بحالات الزوجية والكلالة ، ثم تجىء بقية أحكام الوراثة فى آخر آية فى السورة استكمالا لبعض حالات الكلالة (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً {١١} وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) {١٢} هاتان الآيتان ، مضافا إليهما الآية الثالثة التى فى نهاية السورة ، ونصها (يَسْتَفْتُونَكَ . قُلِ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ:إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ، وله أخت ، فلها نصف ما ترك . وهو يرثها – إن لم يكن لها ولد – فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وإن كانوا إخوة رجالا ونساء ، فللذكر مثل حظ الأنثيين . يبين الله لكم أن تضلوا , والله بكل شىء عليم) هذه الآيات الثلاث تتضمن أصول علم الفرائض – أى علم الميراث – أما التفريعات فقد جاءت السنة ببعضها نصا ، واجتهد الفقهاء فى بقيتها تطبيقا على هذه الأصول . وليس هنا مجال الدخول فى هذه التفريعات والتطبيقات (يوصيكم الله فى أولادكم:للذكر مثل حظ الأنثيين . .) وهذا الافتتاح يشير – كما ذكرنا – إلى الأصل الذى ترجع إليه هذه الفرائض ، وإلى الجهة التى صدرت منها ، كما يشير إلى أن الله أرحم بالناس من الوالدين بالأولاد ، فإذا فرض لهم فإنما يفرض لهم ما هو خير مما يريده الوالدون بالأولاد ، وكلا المعنيين مرتبطان ومتكاملان ، إن الله هو الذى يوصى ، وهو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم الميراث بين الناس – كما أنه هو الذى يوصى ويفرض فى كل شىء ، وكما أنه هو الذى يقسم الأرزاق جملة – ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين ، وعن الله يتلقى الناس فى أخص شؤون حياتهم - وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم – وهذا هو الدين . فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا فى شؤون حياتهم كلها من الله وحده ؛ وليس هناك إسلام ، إذا هم تلقوا فى أى أمر من هذه الأمور – جل أو حقر – من مصدر آخر . إنما يكون الشرك أو الكفر , وتكون الجاهلية التى جاء الإسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس قال العوفى عن ابن عباس:" (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وذلك أنه كما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها ما فرض ، للولد الذكر ، والأنثى ، والأبوين , كرهها الناس – أو بعضهم – وقالوا: تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير . وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يجوز الغنيمة ! اسكتوا عن هذا الحديث ، لعل رسول الله ﷺ ينساه ، أو نقول له فيغير ! فقالوا:يا رسول الله ، تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم . ويعطى الصبى الميراث ، وليس يغنى شيئا – وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية , ولا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر" رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، فهذا كان منطق الجاهلية العربية ، الذى كان يحيك فى بعض الصدور ؛ وهى تواجه فريضة الله وقسمته العادلة الحكيمة . . ومنطق الجاهلية الحاضرة الذى يحيك فى بعض الصدور اليوم – وهى تواجه فريضة الله وقسمته – لعله يختلف كثيرا أو قليلا عن منطق الجاهلية العربية . فيقول: كيف نعطى المال لمن لم يكد فيه ويتعب من الذرارى ؟ وهذا المنطق وذاك . . كلاهما لا يدرك الحكمة ، ولا يلتزم الأدب ؛ وكلاهما يجمع من ثم بين الجهالة وسوء الأدب ! (للذكر مثل حظ الأنثيين) وحين لا يكون للميت وارث إلا ذريته من ذكور وإناث ، فإنهم يأخذون جميع التركة ، على أساس أن للبنت نصيبا واحدا ، وللذكر نصيبين اثنين . وليس الأمر فى هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس . إنما الأمر أمر توازن وعدل ، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى فى التكوين العائلى ، وفى النظام الاجتماع الإسلامى:فالرجل يتزوج امرأة ، ويكلف إعالتها وإعالة أبنائها منه فى كل حالة ، وهى معه , وهى مطلقة منه , أما هى فإما أن تقوم بنفسها فقط ، وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء . وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للأبناء فى أى حال ، فالرجل مكلف - على الأقل – ضعف أعباء المرأة فى التكوين العائلى ، وفى النظام الاجتماعى الإسلامى . ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم فى هذا التوزيع الحكيم . ويبدو كل كلام فى هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى , وزعزعة للنظام الاجتماعى والأسرى لا تستقيم معها حياة . ويبدأ التقسيم بتوريث الفروع عن الأصول (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف) فإذا لم يكن له ذرية ذكور ، وله بنتان أو أكثر فلهن الثلثان . فإن كان له بنت واحدة فلها النصف . . ثم ترجع بقية التركة إلى أقرب عاصب له :الأب أو الجد . أو الأخ الشقيق . أو الأخ لأب . أو العم . أو أبناء الأصول ، فأما السنة فقد روى أبو داود والترمذى وابن ماجه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع ، إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك فى يوم أحد شهيدا ؛ وأن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ؛ ولا ينكحان إلا ولهما مال . قال: فقال:"يقضى الله فى ذلك" فنزلت آية الميراث . فأرسل

رسول الله ﷺ إلى عمهما ، فقال:" اعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك " فهذه قسمة رسول الله ﷺ للبنتين بالثلثين . فدل هذا على أن البنتين فأكثر ، لهما الثلثان فى هذه الحالة ، وبعد الانتهاء من بيان نصيب الذرية يجىء بيان نصيب الأبوين – عند وجودهما – فى الحالات المختلفة . مع وجود الذرية ومع عدم وجودها (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك – إن كان له ولد – فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث . فإن كان له إخوة فلأمه السدس) والأبوان لهما فى الإرث أحوال:

الحال الأول: أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس والبقية للولد الذكر أو للولد الذكر مع أخته الأنثى أو أخواته للذكر مثل حظ الأنثيين . فإذا لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف , وللأبوين لكل واحد منهما السدس . وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له فى هذه الحالة بين الفرض والتعصيب . أما إذا كان للميت بنتان فأكثر فتأخذان الثلثين ، ويأخذ كل واحد من الأبوين السدس .

والحال الثانى: ألا يكون للميت ولد ولا إخوة ولا زوج ولا زوجة ، وينفرد الأبوان بالميراث . فيفرض للأم الثلث ، ويأخذ الأب الباقى بالتعصيب ، فيكون قد أخذ مثل حظ الأم مرتين . فلو كان مع الأبوين زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف ، أو الزوجة الربع . وأخذت الأم الثلث [إما ثلث التركة كلها أو ثلث الباقى بعد فريضة الزوج أو الزوجة على خلاف بين الأقوال الفقهية] وأخذ الأب ما يتبقى بعد الأم بالتعصيب على ألا يقل نصيبه عن نصيب الأم .

والحال الثالث:هو اجتماع الأبوين مع الإخوة – سواء كانوا من الأبوين أو من الأب , أو من الأم – فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا ، لأنه مقدم عليهم وهو أقرب عاصب بعد الولد الذكر ؛ ولكنهم – مع هذا – يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس . فيفرض لها معهم السدس فقط . ويأخذ الأب ما تبقى من التركة . إن لم يكن هناك زوج أو زوجة . أما الأخ الواحد فلا يحجب الأم عن الثلث ، فيفرض لها الثلث معه ، كما لو لم يكن هناك ولد ولا إخوة .

ولكن هذه الأنصبة كلها إنما تجىء بعد استيفاء الوصية أو الدين (من بعد وصية يوصى بها أو دين) قال ابن كثير فى التفسير:" أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية . . " وتقديم الدين مفهوم واضح . لأنه يتعلق بحق الآخرين . فلا بد من استيفائه من مال المورث الذى استدان ، ما دام قد ترك مالا ، توفية بحق الدائن ، وتبرئة لذمة المدين . وقد شدد الإسلام فى إبراء الذمة من الدين ؛ كى تقوم الحياة على أساس من تحرج الضمير ، ومن الثقة فى المعاملة ، ومن الطمأنينة فى جو الجماعة ، فجعل الدين فى عنق المدين لا تبرأ منه ذمته ، حتى بعد وفاته ، عن أبى قتادة – رضى الله عنه – قال:قال رجل:يا رسول الله . أرأيت إن قتلت فى سبيل الله ، أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ " نعم . إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر " . ثم قال:" كيف قلت ؟ " فأعاد عليه . فقال:" نعم . إلا الدين . فإن جبريل أخبرنى بذلك " [أخرجه مسلم ومالك والترمذى والنسائى] وأما الوصية فلأن إرادة الميت تعلقت بها . وقد جعلت الوصية لتلافى بعض الحالات التى يحجب فيها بعض الورثة بعضا . وقد يكون المحجوبون معوزين ؛ أو تكون هناك مصلحة عائلية فى توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة ؛ وإزالة أسباب الحسد والحقد والنزاع قبل أن تنبت . ولا وصية لوارث . ولا وصية فى غير الثلث . وفى هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة فى الوصية ، وفى نهاية الآية تجىء هذا اللمسات المتنوعة المقاصد (آباءكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا . فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما)

واللمسة الأولى لفتة قرآنية لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض . فهنالك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الابناء على الآباء ، لأن الضعف الفطرى تجاه الابناء أكبر وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية والأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء . وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطرى والشعور الأدبى ، كذلك قد تفرض البيئة بمنطقها العرفى اتجاهات معينة كتلك التى واجه بها بعضهم تشريع الإرث يوم نزل , وقد أشرنا إلى بعضها من قبل ، فأراد الله سبحانه أن يسكب فى القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمر الله ، ولما يفرضه الله ؛ بإشعارها أن العلم كله لله ؛ وأنهم لا يدرون أى الأقرباء أقرب لهم نفعا . ولا أى القسم أقرب لهم مصلحة

واللمسة الثانية لتقرير أصل القضية . فالمسألة ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة . إنما هى مسألة الدين ومسألة الشريعة (فريضة من الله) فالله هو الذى خلق الآباء والأبناء . والله هو الذى أعطى الأرزاق والأموال . والله هو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم ، وهو الذى يشرع . وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم , ولا أن يحكموا هواهم ، كما أنهم لا يعرفون مصلحتهم !

(إن الله كان عليما حكيما) وهى اللمسة الثالثة فى هذا التعقيب . تجىء لتشعر القلوب بأن قضاء الله للناس – مع أنه هو الأصل الذى لا يحل لهم غيره – فهو كذلك المصلحة المبنية على العلم والحكمة . فالله يحكم لأنه عليم – وهم لا يعلمون – والله يفرض لأنه حكيم – وهم يتبعون الهوى .

ثم يمضى يبين بقية الفرائض (ولكم نصف ما ترك أزواجكم – إن لم يكن لهن ولد – فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن -من بعد وصية يوصين بها أو دين . ولهن الربع مما تركتم – إن لم يكن لكم ولد – فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم – من بعد وصية توصون بها أو دين) والنصوص واضحة ودقيقة فللزوج نصف تركة الزوجة إذا ماتت وليس لها ولد – ذكرا أو أنثى - فأما إذا كان لها ولد – ذكرا أو أنثى ، واحدا أو أكثر – فللزوج ربع التركة . وأولاد البنين للزوجة يحجبون الزوج من النصف إلى الربع كأولادها . وأولادها من زوج آخر يحجبون الزوج كذلك من النصف إلى الربع . . وتقسم التركة بعد

الوفاء بالدين ثم الوصية . كما سبق . والزوجة ترث ربع تركة الزوج – إن مات عنها بلا ولد – فإن كان له ولد – ذكرا أو أنثى . واحدا أو متعددا . منها أو من غيرها . وكذلك أبناء ابن الصلب – فإن هذا يحجبها من الربع إلى الثمن ، والوفاء بالدين ثم الوصية مقدم في التركة على الورثة (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُنَ لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (١٤) والزوجتان والثلاث والأربع كالزوجة الواحدة ، كلهن شريكات في الربع أو الثمن ، والحكم الأخير في الآية الثانية حكم من يورث كلالة (وإن كان رجل يورث كلالة – أو امرأة – وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار) والمقصود بالكلالة من يرث الميت من حواشيه – لا من أصوله ولا من فروعه – عن صلة ضعيفة به ليست مثل صلة الأصول والفروع . وقد سئل أبو بكر – رضى الله عنه – عن الكلالة فقال:أقول فيها برأيي . فإن يكن صوابا فمن الله . وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان . والله ورسوله بريئان منه:الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلما ولى عمر قال:إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر في رأى رآه . [رواه ابن جرير وغيره عن الشعبي] قال ابن كثير في التفسير:" وهكذا قال علي وابن مسعود . وصح عن غير واحد عن ابن عباس , وزيد ابن ثابت . وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم وبه يقول أهل المدينة ، وأهل الكوفة ، والبصرة . وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة ، وجمهور السلف والخلف . بل جميعهم . وقد حكى الإجماع عليه غير واحد " (وإن كان رجل يورث كلالة – أو امرأة – وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) وله أخ أو أخت – أى من الأم – فلو كانا من الأبوين أو من الأب وحده لورثا وفق ما ورد في الآية الأخيرة من السورة للذكر مثل حظ الأنثيين:لا السدس لكل منهما سواء كان ذكرا أم أنثى . فهذا الحكم خاص بالأخوة من الأم . إذ أنهم يرثون بالفرض – السدس لكل من الذكر أو الأنثى – لا بالتعصيب ، وهو أخذ التركة كلها أو ما يفضل منها بعد الفرائض (فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) مهما بلغ عددهم ونوعهم . والقول المعمول به هو أنهم يرثون في الثلث على التساوى . والإخوة لأم يخالفون – من ثم – بقية الورثة من وجوه:

أحدها:أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء .

والثانى:أنهم لا يرثون إلا أن يكون ميتهم يورث كلالة . فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن .

والثالث:أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم .

(من بعد وصية يوصى بها أو دين – غير مضار) تحذيرا من أن تكون الوصية للإضرار بالورثة . لتقام على العدل والمصلحة . مع تقديم الدين على الوصية . وتقديمهما معا على الورثة كما أسلفنا ، ثم يجيء التعقيب في الآية الثانية – كما جاء في الآية الأولى (وصية من الله . والله عليم حليم) وهكذا يتكرر مدلول هذا التعقيب لتوكيده وتقريره ، فهذه الفرائض وصية من الله صادرة منه ؛ ومردها إليه . لا تنبع من هوى ، ولا تتبع الهوى . صادرة عن علم ، فهي واجبة الطاعة لأنها صادرة من المصدر الوحيد الذى له حق التشريع والتوزيع . وهي واجبة القبول لأنها صادرة من المصدر الوحيد الذى عنده العلم الأكيد ، توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في هذه العقيدة . قاعدة التلقى من الله وحده ، وإلا فهو الكفر والعصيان والخروج من هذا الدين ، وهذا ما تقرره الآيتان التاليتان في السورة تعقيبا نهائيا على تلك الوصايا والفرائض . حيث يسميها الله بالحدود (تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها , وله عذاب مهين) تلك الفرائض ، وتلك التشريعات ، التى شرعها الله لتقسيم التركات ، وفق علمه وحكمته , ولتنظيم العلاقات العائلية في الأسرة ، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع . . (تلك حدود الله) حدود الله التي أقامها لتكون هي الفيصل في تلك العلاقات , ولتكون هي الحكم في التوزيع والتقسيم ، ويترتب على طاعة الله ورسوله فيها الجنة والخلود والفوز العظيم . كما يترتب على تعديها وعصيان الله ورسوله فيها النار والخلود والعذاب المهين . . . لماذا تترتب كل هذه النتائج الضخمة على طاعة أو معصية في تشريع جزئي كتشريع الميراث ؛ وفي جزئية من هذا التشريع ، وحد من حدوده ؟ إن الآثار تبدو أضخم من الفعل ، لمن لا يعرف حقيقة هذا الأمر وأصله العميق إن الأمر في هذا الدين – الإسلام – بل في دين الله كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ . . إن الأمر في دين الله كله هو:لمن الألوهية في هذه الأرض ؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس ؟ وعلى الإجابة عن هذا السؤال في صيغتيه هاتين ، يترتب كل شيء في أمر هذا الدين . وكل شيء في أمر الناس أجمعين ! لمن الألوهية ؟ ولمن الربوبية ؟ لله وحده – بلا شريك من خلقه – فهو الإيمان إذن ، وهو الإسلام ، وهو الدين . وأما إن تكن الألوهية والربوبية لله وحده ، فهي الدينونة من العباد لله وحده . وهي العبودية من الناس لله وحده . وهي الطاعة من البشر لله وحده ، وهي الأتباع لمنهج الله وحده بلا شريك . . فالله وحده هو الذى يختار للناس منهج حياتهم . والله وحده هو الذى يسن للناس شرائعهم . والله وحده هو الذى يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم . . وليس لغيره – أفرادا أو جماعات – شيء من هذا الحق إلا بالإرتكان إلى شريعة الله . لأن هذا الحق هو مقتضى الألوهية والربوبية . ومظهرها البارز المحدد لخصائصها المميزة . وأما أن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله – شركة مع الله أو أصالة من دونه - ! فهي الدينونة من العباد لغير الله . وهي العبودية من الناس لغير الله . وهي الطاعة من البشر لغير الله . وذلك بالاتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين , التي يضعها ناس من البشر ، لا يستندون في وضعها إلى كتاب الله وسلطانه ; إنما يستندون إلى أسناد أخرى ، يستمدون منها السلطان . . ومن ثم فلا دين ، ولا إيمان , ولا إسلام . إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان . . هذا هو الأمر في جملته وفي حقيقته . . ومن ثم يستوى أن يكون الخروج على حدود الله في أمر واحد ، أو في الشريعة كلها . . لأن الأمر الواحد هو الدين – على ذلك المعنى - والشريعة كلها هي الدين . . فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس أهي إخلاص الألوهية والربوبية لله – بكل

خصائصها – أو إشراك أحد من خلقه معه . أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض . مهما ادعوا لأنفسهم من الدخول فى الدين ! ومهما رددت ألسنتهم – دون واقعهم – أنهم مسلمون ! هذه هى الحقيقة الكبيرة ، التى يشير إليها هذا التعقيب ، الذى يربط بين توزيع أنصبة من التركة على الورثة ، وبين طاعة الله ورسوله ، أو معصية الله ورسوله . وبين جنة تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ؛ ونار خالدة وعذاب مهين ! وهذه هى الحقيقة الكبيرة ، التى تتكىء عليها نصوص كثيرة ، فى هذه السورة ، وتعرضها عرضا صريحا حاسما ، لا يقبل المماحكة ، ولا يقبل التأويل . وهذه هى الحقيقة التى ينبغى أن يتبينها الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام فى هذه الأرض ليروا أين هم من هذا الإسلام ، وأين حياتهم من هذا الدين !

....

(وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥)

ثم يمضى السياق فى تنظيم حياة المجتمع المسلم وتنظيفه واستنقاذه من رواسب الجاهلية بإقامة الضمانات وإقرار عقوبات مؤقتة للرجال و النساء فى جريمتى اللواط والسحاق و يبدأ بالنساء (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) وفى النص دقة واحتياط بالغان . فهو يحدد النساء اللواتى ينطبق عليهن الحد:"من نسائكم - "أى المسلمات – ويحدد نوع الرجال الذين يستشهدون على وقوع الفعل:"من رجالكم - "أى المسلمين – فحسب هذا النص يتعين من توقع عليهن العقوبة إذا ثبت الفعل . ويتعين من تطلب إليهم الشهادة على وقوعه . إن الإسلام لا يستشهد على المسلمات – حين يقعن فى الخطيئة – رجالا غير مسلمين . بل لا بد من أربعة رجال مسلمين . منكم . من هذا المجتمع المسلم . يعيشون فيه ، ويخضعون لشريعته ، ويتبعون قيادته ، ويهمهم أمره ، ويعرفون ما فيه ومن فيه . ولا تجوز فى هذا الأمر شهادة غير المسلم ، لأنه غير مأمون على عرض المسلمة ، وغير موثوق بأمانته وتقواه ، ولا مصلحة له ولا غيرة كذلك على نظافة هذا المجتمع وعفته ، ولا على إجراء العدالة فيه . وقد بقيت هذه الضمانات فى الشهادة حين تغير الحكم ، وأصبح هو الجلد أو الرجم (فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت) لا يختلطن بالمجتمع ، ولا يلوثنه ، ولا يتزوجن ، ولا يزاولن نشاطا (حتى يتوفاهن الموت) فينتهى أجلهن ، وهن على هذه الحال من الإمساك فى البيوت (أو يجعل الله لهن سبيلا) فيغير ما بهن ، أو يغير عقوبتهن ، أو يتصرف فى أمرهن بما يشاء . . مما يشعر أن هذا ليس الحكم النهائى الدائم ، وإنما هو حكم فترة معينة ، وملابسات فى المجتمع خاصة . وأنه يتوقع صدور حكم آخر ثابت دائم . وهذا هو الذى وقع بعد ذلك ، فتغير الحكم كما ورد فى سورة النور ، وفى حديث رسول الله ﷺ وإن لم تتغير الضمانات المشددة فى تحقيق الجريمة . قال الإمام أحمد:حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عبادة بن الصامت . قال:كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى أثر عليه ، وكرب لذلك ، وتغير وجهه . فأنزل الله عليه عز وجل ذات يوم ، فلما سرى عنه قال:" خذوا عنى . . قد جعل الله لهن سبيلا . . الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة . والبكر جلد مائة ثم نفى سنة " وقد ورد عن السنة العملية فى حادث ماعز والغامدية كما ورد فى صحيح مسلم:أن النبى ﷺ رجمهما ولم يجلدهما (وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً (١٦) والأوضح أن المقصود بقوله تعالى: (واللذان يأتيانها منكم . .) هما الرجلان يأتيان الفاحشة الشاذة . وهو قول مجاهد – رضى الله عنه – وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما (فآذوهما) هو الشتم والتعيير والضرب بالنعال !... (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) فالتوبة والإصلاح – كما سيأتى – تعديل أساسى فى الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك . ومن ثم تقف العقوبة ، وتكف الجماعة عن إيذاء هذين المنحرفين الشاذين . وهذا هو الاعراض عنهما فى هذا الموضع أى الكف عن الإيذاء .والإيماءة اللطيفة العميقة (إن الله كان توابا رحيما) وهو الذى شرع العقوبة ، وهو الذى يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح . ليس للناس من الأمر شىء فى الأولى ، وليس لهم من الأمر شىء فى الأخيرة . إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه . وهو تواب رحيم . يقبل التوبة ويرحم التائبين . واللمسة الثانية فى هذه الإيماءة ، هى توجيه قلوب العباد للاقتباس من الأخلاق الإسلامية والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق . وإذا كان الله توابا رحيما ، فينبغى لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء ؛ أمام الذنب الذى سلف ، وأعقبه التوبة. وقد عدلت هذه العقوبة كذلك – فما بعد – فروى أهل السنن حديثا مرفوعا عن ابن عباس - رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ " من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " . كل هذا من سمات الجاهلية الهابطة التى جاء الإسلام ليطهر المشاعر البشرية والمجتمعات البشرية منها . وهى هى بعينها سمة كل جاهلية . . والذى يراجع إشعار امرىء القيس فى جاهلية العرب يجد لها نظائر فى إشعار الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية . . كما يجد لها نظائر فى الآداب والفنون المعاصرة فى جاهلية العرب والجاهليات الأخرى المعاصرة أيضا ! كما أن الذى يراجع تقاليد المجتمع ، وتبذل المرأة , ومجون العشاق ، وفوضى الاختلاط فى جميع الجاهليات قديمها وحديثها يجد بينها كلها شبها ورابطة ، ويجدها تنبع من تصورات واحدة ، وتتخذ لها شعارات متقاربة ! ومع أن هذا الانطلاق البهيمى ينتهى دائما بتدمير الحضارة وتدمير الأمة التى يشيع فيها - كما وقع فى الحضارة الإغريقية ، والحضارة الرومانية , والحضارة الفارسية قديما - وكما يقع اليوم فى الحضارة الأوروبية وفى الحضارة الأمريكية كذلك ، وقد أخذت تتهاوى على الرغم من جميع مظاهر التقدم الساحق فى الحضارة الصناعية . الأمر الذى يفزع العقلاء هناك . وإن كانوا يشعرون – كما يبدو من أقوالهم – بأنهم أعجز من الوقوف فى وجه التيار المدمر ! على أن الإسلام لا يغلق الأبواب فى وجه الخاطئين والخاطئات ، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين ، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه . ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم – متى أخلصوا فيها – حقا عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم .وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد . إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٨}ولقد سبق الحديث عن التوبة . فى ظلال (قوله تعالى فى سورة آل عمران (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . . .) وهو بجملته يصح نقله هنا ! ولكن التعبير فى هذه السورة يستهدف غرضا آخر . . يستهدف بيان طبيعة

التوبة وحقيقتها ، إن التوبة التى يقبلها الله ، والتى تفضل فكتب على نفسه قبولها هى التى تصدر من النفس , فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى . قد هزها الندم من الأعماق ، ورجها رجا شديدا حتى استفاقت فثابت وأنابت ، وهى فى فسحة من العمر ، وبحبوحة من الأمل , واستجدت رغبة حقيقية فى التطهر ، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد ، والذين يعلمون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب ، وهناك ما يشبه الإجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى – طال أمدها أم قصر – ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم ، والذين يتوبون من قريب هم الذين يثوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت ، ويدخلوا فى سكراته ، ويحسوا أنهم على عتباته . فهذه التوبة حينئذ هى توبة الندم ، والانخلاع من الخطيئة ، والنية على العمل الصالح والتكفير . وهى إذن نشأة جديدة للنفس ، ويقظة جديدة للضمير (فأولئك يتوب الله عليهم)... (وكان الله عليما حكيما). . يتصرف عن علم وعن حكمة . ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر ، ولا يطردهم أبدا وراء الأسوار ، وهم راغبون رغبة حقيقية فى الحمى الآمن والكنف الرحيم (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (١٨) إن الله – سبحانه – لا يطارد عباده الضعاف ، وَلا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا . وهو – سبحانه – غنى عنهم ، وما تنفعه توبتهم ، ولكن تنفعهم هم أنفسهم ، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذى يعيشون فيه . ومن ثم يفسح لهم فى العودة إلى الصف تائبين متطهرين (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال:إنى تبت الآن) فهذه التوبة هي توبة المضطر ، لجت به الغواية ، وأحاطت به الخطيئة . توبة الذى يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ، لأنها لا تنشىء صلاحا فى القلب ولا صلاحا فى الحياة ، ولا تدل على تبدل فى الطبع ولا تغير فى الاتجاه (ولا الذين يموتون وهم كفار) وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة من وشيجة ، وضيعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) اعتدناه أى أعددناه وهيأناه . . فهو حاضر فى الانتظار لا يحتاج إلى إعداد أو إحضار !

ولقد كانت الجاهلية العربية – كما كانت سائر الجاهليات من حولهم – تعامل المرأة معاملة سيئة ، لا تعرف لها حقوقها الإنسانية ، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولا شنيعا , يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان . وفى الوقت الذى تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية ، وتطلقها فتنة للنفوس ، وإغراء للغرائز ، ومادة للتشهى والغزل العارى المكشوف ، فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله ، ويردها إلى مكانها الطبيعى فى كيان الأسرة وإلى دورها الجدى فى نظام الجماعة البشرية ، ثم ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية فى الحياة الزوجية من المستوى الحيوانى الهابط إلى المستوى الإنسانى الرفيع ، ويظللها بظلال الاحترام والمودة والتعاطف والتجمل ؛ وليوثق الروابط والوشائج ، فلا تنقطع عند الصدمة الأولى ، وعند الانفعال الأول (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) ١٩ (وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً (٢٠) كانوا فى الجاهلية العربية إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته ، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات ! إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها - كما يبيعون البهائم والمتروكات ! – وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها فى البيت . دون تزويج ، حتى تفتدى نفسها بشىء ، و إذا توفى عن المرأة زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه ، فمنعها من الناس , وحازها كما يحوز السلب والغنيمة ! فإن كانت جميلة تزوجها ؛ وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، أو تفتدى نفسها منه بمال ! فأما إذا فاتته فانطلقت إلى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقى عليها ثوبه ، فقد نجت وتحررت وحمت نفسها منه ! وكان الرجل يطلق المرأة ، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد ؛ حتى تفتدى نفسها منه , بما كان أعطاها . . كله أو بعضه ! و إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها ! و تكون اليتيمة فى حجر رجل يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، حتى يكبر إبنه الصغير ليتزوجها ، ويأخذ مالها ! وهكذا . وهكذا . مما لا يتفق مع النظرة الكريمة التى ينظر بها الإسلام لشقى النفس الواحدة ؛ ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار ، أو علاقة بهائم ! ومن هذا الدرك الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالى الكريم ، اللائق بكرامة بنى آدم ، الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين . حرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة ، كما حرم العضل الذى تسامه المرأة , ويتخذ أداة للإضرار بها ، إلا فى حالة الإنحراف الأخلاقى (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن – إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وعاشروهن بالمعروف . فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) والإسلام الذى ينظر إلى البيت بوصفه سكنا وأمنا وسلاما ، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسا ، ويقيم هذه الأسرة على الاختيار المطلق ، كى تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب ، هو الإسلام ذاته الذى يقول للأزواج (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) كى يستأنى بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر ، وكى يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة ، وكى يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة , وحماقة الميل الطائر هنا وهناك ، وما أتفه الكلام الرخيص الذى ينعق به المتحذلقون باسم "الحب" وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة ، ويبيحون باسمه – لا انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية – بل خيانة الزوجة لزوجها ! أليست لا تحبه ؟! وخيانة الزوج لزوجته ! أليس أنه لا يحبها ؟ ! فإذا تبين بعد الصبر والتجمل والمحاولة والرجاء . أن الحياة غير مستطاعة ، وأنه لا بد من الانفصال ، واستبدال زوج مكان زوج ، فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق , وما ورثت من مال ، لا يجوز استرداد شيء منه ، ولو كان قنطارا من ذهب . فأخذ شيء منه إثم واضح ، ومنكر لا شبهة فيه (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟) ومن ثم لمسة وجدانية عميقة ، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف ، فى تعبير موح عجيب .... (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟)

ويدع الفعل:"أفضى " بلا مفعول محدد . يدع اللفظ مطلقا ، يشع كل معانيه ، ويلقى كل ظلاله ، ويسكب كل إيحاءاته . ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته . بل يشمل العواطف والمشاعر ، والوجدانات والتصورات ، والأسرار والهموم ، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة إناء الليل وأطراف النهار ، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التى ضمتهما فترة من الزمان . . وفى كل اختلاجة حب إفضاء . وفى كل نظرة ود إفضاء .

وفي كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء . وفى كل تفكر فى حاضر أو مستقبل إفضاء . وفى كل شوق إلى خلف كل هذا الحشد من التصورات والظلال والانداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحى العجيب (وقد أفضى بعضكم إلي بعض) فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادى الصغير , ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع ، وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي ، وذكريات العشرة فى لحظة الفراق الأسيف ! ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملا آخر ، من لون آخر(و أخذن منكم ميثاقا غليظا) هو ميثاق النكاح ، باسم الله ، وعلى سنة الله . . وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن ، وهو يخاطب الذين آمنوا ، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ ، وفى نهاية هذه الفقرة يحرم تحريما باتا – مع التفظيع والتبشيع – أن ينكح الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء . وقد كان ذلك فى الجاهلية حلالا . وكان سببا من أسباب عضل النساء أحيانا ، حتى يكبر الصبى فيتزوج امرأة أبيه ، أو إن كان كبيرا تزوجها بالوراثة كما يورث الشيء ! فجاء الإسلام يحرم هذا الأمر أشد التحريم (وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً (٢٢) ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات:الأول أن امرأة الأب فى مكان الأم . والثانى ألا يخلف الابن أباه فيصبح فى خياله ندا له . وكثيرا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعا ، فيكره أباه ويمقته ! والثالث ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب . الأمر الذي كان سائدا في الجاهلية . وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء . وهما من نفس واحد ، ومهانة أحدهما مهانة للآخر بلا مراء . لهذه الاعتبارات الظاهرة – ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا – جعل هذا العمل شنيعا غاية الشناعة ، جعله فاحشة . وجعله مقتا أى بغضا وكراهية . وجعله سبيلا سيئا ، إلا ما كان قد سلف منه فى الجاهلية ، قبل أن يرد فى الإسلام تحريمه . فهو معفو عنه . متروك أمره لله سبحانه . .

الفهـــــــرس

مقدمة الناشر : ..... ص: ٤

سيد قطب سيرة و مسار : ..... ص: ٦

مقدمة المؤلف: ..... ص: ٩

سورة الفاتحة : ..... ص: ١٣

سورة البقرة : ..... ص: ١٥

سورة آل عمران : ..... ص: ٨٩

سورة النساء : .....حتى الآية : ٢٠ .....ص: ١٣٣

الفهرس: ..... ص: ١٤٨

الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر)

كاتب عصامي و صحفي مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكتروني ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائري من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامي لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و مابعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامي في الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريقة ألكترونية PDF طباعة راقية و أنيقة .